مجلة
جامعة القدس المفتوحة
للأبحاث والدراسات

توجه المراسلات والأبحاث على العنوان الآتي:

رئيس هيئة تحرير مجلة جامعة القدس المفتوحة

جامعة القدس المفتوحة

ص.ب: ٥١٨٠٠

هاتف: ٢٩٨٤٤٩١ -٠٢

فاكس: ٢٩٨٤٤٩٢ -٠٢

بريد الكتروني: ***hsilwadi@qou.edu***

تصميم وإخراج فني:

قسم التصميم الجرافيكي والإنتاج

برنامج البحث العلمي والدراسات العليا

جامعة القدس المفتوحة

هاتف: ٢٩٥٢٥٠٨ -٠٢

قواعد النشر والتوثيق

تنشر المجلة البحوث والدراسات الأصلية المرتبطة بالتخصصات العلمية لأعضاء الهيئة التدريسية والباحثين في جامعة القدس المفتوحة وغيرها من الجامعات المحلية والعربية والدولية، مع اهتمام خاص بالبحوث المتعلقة بالتعليم المفتوح والتعليم عن بعد ، وتقبل أيضا الأبحاث المقدمة إلى مؤتمرات علمية محكمة والمراجعات والتقارير العلمية وترجمات البحوث.

يرجى من الأخوة الباحثين الراغبين في نشر بحوثهم الاقتداء بقواعد النشر والتوثيق الاتية:

١. تُقبل الأبحاث باللغتين العربية والإنجليزية.

٢. أن لا يزيد حجم البحث عن ٣٠ صفحة «٨٠٠٠» كلمة تقريبا بما في ذلك الهوامش والمراجع.

٣. أن يتسم البحث بالأصالة ويمثل إضافة جديدة إلى المعرفة في ميدانه.

٤. يقدم الباحث بحثه منسوخا على «CD» أو عبر البريد الالكتروني مع ثلاث نسخ مطبوعة منه، غير مسترجعة سواء نشر البحث أم لم يُنشر.

٥. يرفق مع البحث خلاصة مركزة في حدود «١٠٠ - ١٥٠» كلمة. ويكون هذا الملخص باللغة الإنجليزية إذا كان البحث باللغة العربية ويكون باللغة العربية إذا كان البحث باللغة الإنجليزية.

٦. ينشر البحث بعد إجازته من محكمين اثنين على الأقل تختارهم هيئة التحرير بسرية تامة من بين أساتذة مختصين في الجامعات ومراكز البحوث داخل فلسطين وخارجها على أن لا تقل رتبة المحكم عن رتبة صاحب البحث.

٧. أن يتجنب الباحث أي إشارة قد تشير أو تدلل على شخصيته في أي موقع من البحث.

٨. يزود الباحث الذي نشر بحثه بخمس نسخ من العدد الذي نشر فيه، بالإضافة إلى ثلاث مستلات منه.

٩. تدون الإحالات المرجعية في نهاية البحث وفق النمط الآتي: إذا كان المرجع أو المصدر كتابا فيثبت اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو البحث، اسم المترجم أو المحقق (مكان النشر، الناشر، الطبعة، سنة النشر) الجزء أو المجلد، رقم الصفحة، أما إذا كان المرجع مجلة فيثبت المؤلف، عنوان البحث، اسم المجلة، عدد المجلة وتاريخها، رقم الصفحة.

١٠. ترتب المراجع والمصادر في نهاية البحث «الفهرس» حسب الحروف الأبجدية لكنية / عائلة المؤلف ثم يليها اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو البحث، (مكان النشر، الناشر، الطبعة، سنة النشر) الجزء أو المجلد.

١١. بإمكان الباحث استخدام نمط «APA» Style في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرة وفق الترتيب الآتي: «اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة».

المحتويات

الأبحـــــاث

مجلة
جامعة القدس المفتوحة
للأبحاث والدراسات

الأبحاث

الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة

د. زياد بركات*

د. صائل صبحة**

* أستاذ علم النفس التربوي المشارك/ منطقة طولكرم التعليمية/ جامعة القدس المفتوحة.
** أستاذ إدارة الأعمال والتسويق المساعد/ منطقة طولكرم التعليمية/ جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة: (الهواتف المحمولة والدش والانترنت) ، في ضوء متغيرات الجنس والتخصص والدخل الشهري للأسرة. لهذا الغرض طُبِّقت استبانتان أُعدتا لقياس الدوافع في المجالات الثلاثة النفسية والاجتماعية والإدارية على عينة بلغ قوامها (٣٤٨) طالباً وطالبة، اختيروا بطريقة عشوائية طبقية من الطلبة الملتحقين للدراسة في جامعة القدس المفتوحة (منطقة طولكرم التعليمية) . وتوصلت الدراسة إلى أن مستوى تأثير الدوافع قد تراوح بين قوي جداً على المجال الإداري، وقوي على المجالات النفسية والاجتماعية والمجموع الكلي. ودلت النتائج أيضاً على وجود فروق دالة إحصائياً في مستوى تأثير الدوافع النفسية والاجتماعية والادارية، والمجموع الكلي في استخدام الشباب وسائل الاتصال الحديثة، تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة، وذلك لصالح فئة الشباب ذوي الدخل الشهري المرتفع، لكن النتائج أظهرت عدم وجود فروق ذات دلالة في مستوى تأثير الدوافع في المجالات المختلفة في استخدام الشباب لهذه الوسائل تبعاً لمتغيري الجنس والتخصص والمجموع الكلي.

Abstract:

This study sought to find out the most important psychosocial motives behind the Palestinian youths' use of modern mass- media namely mobiles, dish, and internet, in light of the variables: gender, specialization, and family income. For this purpose, a questionnaire was administered to measure the motives in those three domains on stratified selected a sample which consisted of (348) male and female students, who were currently randomly at Al- Quds Open University, Tulkarm Educational Area. Results showed that the effect of motives ranged from very strong on administration domain and strong on social and psychological domains and the total. Also the results revealed that there were significant differences in the level of the effects of those motives in the use of modern mass- media by the youth due to income in favor of high income. However results revealed that there were no significant differences in the level of effects behind use of media due to gender, specialization, and the total.

مقدمة:

مما لا شك فيه أن المجتمعات الإنسانية بشكل عام تعيش اليوم ثورة معرفية وتكنولوجية غير مسبوقة؛ إذ تعد الشبكة العنكبوتية (الانترنت) ، والهاتف النقال الجوال، والمحطات الفضائيات من أبرز مستحدثات تكنولوجيا الاتصال التي فرضت نفسها على المستوى العالمي خلال السنوات القليلة الماضية حتى أصبحت أسلوباً للتعامل اليومي، ونمطاً للتبادل المعرفي بين شعوب العالم المتقدم، كما أن الانتشار السريع لهذه التقنيات، جعلها من أحد معالم العصر الحديث، حتى إن بعضهم أطلق عليه عصر الانترنت، أو عصر الثورة المعلوماتية.

يعدُّ الإنسان مدنياً بالطبع، كما قال الفيلسوف العربي ابن خلدون في مقدمته؛ فهو لا يستطيع أن يعيش بعزلة تامة عن بقية أفراد المجتمع البشري لمدة طويلة، وهو يحتاج دائماً إلى الآخرين لإشباع حاجاته النفسية والبيولوجية والمعرفية والثقافية والفكرية والاجتماعية. فلا بد له من أن يقبل بالآخرين، ويتعاون معهم لاستمرار الحياة الاجتماعية من أجل التطور والتقدم الثقافي والحضاري. وأن الاتصال ضرورة إنسانية واجتماعية؛ فحاجة الإنسان للاتصال لا تقل عن حاجته للأمن والغذاء والكساء وغيرها من الحاجات البيولوجية والنفسية، إذ يعدُّ الحرمان من الاتصال بالآخرين عقاباً نفسياً وجسمياً في غاية الشدة والقسوة على الإنسان. فالاتصال يعني تطوير العلاقات الإنسانية والاجتماعية وتقويتها، وبالتالي يؤدي إلى التماسك والترابط والتواصل بين الأفراد والجماعات والمؤسسات المختلفة في المجتمع. وقد احتلت مهارات الاتصال مركزاً مهماً في مجال البحوث والدراسات التي تستهدف تحسين الممارسات السلوكية التفاعلية بين الأفراد في المؤسسات المختلفة، سواء كانت تعليمية أم إدارية أم اجتماعية أم سياسية أم عسكرية أم اقتصادية.

وعلى الرغم من اتفاق علماء النفس حول أهمية الدوافع وأثرها في تحريك السلوك البشري، فإن هناك اختلافاً يظهر في نظرتهم وتفسيرهم للدافعية نتيجة لاختلافهم في المدارس والاتجاهات النفسية؛ فتنحو نظريات التعلم في تفسير الدافعية نحو التفسير الارتباطي بين المثيرات والاستجابات المعززة، وهذه النظريات التي يطلق عليها عادة بنظريات المثير – الاستجابة كنظرية بافلوف (Pavlov) وثورندايك (Thorndike) وسكنر (Skinner) وهل (Hull) ترى أن الدوافع الكامنة تقف وراء تعلم استجابات معينة عند التعرض لموقف مثير معين، وهذا يعني أن المتعلم يسلك وفقاً لحاجاته، وفي رغبة

منه لتحقيق هذه الحاجات وإشباعها، لخفض التوتر لديه (Bernard, 2005) ، بينما تنحو نظريات النظرية المعرفية بتفسيراتها للدوافع السلوكية نحواً مختلفاً عما قدمته النظريات الارتباطية، حيث ترى أن الدوافع نابعة من داخل الفرد، وليست من خارجه وهي مرتبطة بعوامل مركزية كالقصد والنية والإدراك والاستبصار والتوقع وحب الاستطلاع، بدعوى أن الإنسان هو مخلوق عاقل، ويتمتع بالإرادة الحرة وهذه الإرداة، وهذه الحرية تجعله قادراً على اتخاذ القرار لاختيار سلوكه في مواقف حياته المختلفة (Biehler, 1990). وتركز نظريات التحليل النفسي كنظرية فرويد (Frued) في تفسيرها للدوافع على مفاهيم بناء الشخصية ودوافعها، وتستخدم مفهوم الغريزة واللاشعور والكبت في تفسيرها للسلوك ودوافعه، وهي ترى أن معظم سلوك الإنسان يحركه دافعان هما: دافع الجنس ودافع العدوان، وأن للخبرات المبكرة في مراحل الطفولة الأولى تأثيراً في شخصية الإنسان في الكبر (جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٥) .

وسائل الاتصال الحديثة:

تشتمل وسائل الاتصال الحديثة على أشكال عدة أهمها:

◄ **الهواتف المحمولة (الجوال أو الموبايل أو النقال أو الخلوي):**

إن جهاز الهاتف الخلوي (Mobile) يشبه في عمله جهاز المذياع بدرجة عالية من الدقة والتعقيد، ومن الطبيعي أن تتحد فكرتا الهاتف والمذياع وتندمجان معاً، حيث استخدم الاتصال اللاسلكي بأجهزة متنقلة باستخدام أجهزة المذياع، وكانت تسمى بهواتف المذياع (radio telephones) ، وكانت هذه الأجهزة تستقبل إرسالها من محطات إرسال ثابتة، ولمسافة محدودة لا تتعدى مائة كيلومتر، ثم تطور هذا الإرسال بتقسيم المنطقة إلى مجموعة من الخلايا (Cells) ، ومن هنا جاءت تسمية الجوال بالخلوي (Cell Phone) . **ويمكن إظهار الفرق بين جهاز الجوال، وبين الأجهزة التي تستخدم المذياع في ثلاثة عناصر** (عبد اللطيف، ٢٠٠٧؛ سكيك، ٢٠٠٦) هي:

♦ **طريقة الاتصال (Dupex)** : حيث يتم الاتصال بواسطة أجهزة المذياع بين شخصين باستخدام التردد نفسه، لذا فإن شخصاً واحداً فقط يستطيع التحدث والآخر يستمع، أما نظام الخلوي فيعمل بنظام (full – duplex) وهذا يعني أن هناك تردداً مخصصاً للحديث، وتردداً آخر مختلفاً للاستماع، وهذا يعني أن كلا الشخصين يمكنهما التحدث في الوقت نفسه.

♦ **القنوات (Channels)** : يوجد في أجهزة الاتصال بالمذياع قناة اتصال واحدة، وفي أحسن الأحوال لا تصل هذه القنوات إلى أكثر من أربعين قناة، ولكن في أجهزة الخلوي يمكن استخدام أكثر من (١٦٦٤) قناة.

♦ **المدى (Range)** : يمكن لأجهزة الاتصال بالمذياع أن تغطي مدى يصل ما بين (٢– ٨) كيلومتر، بينما يمكن لأجهزة الجوال أن تعمل في مدى أكبر بكثير، يصل إلى مئات الآلاف الكيلومترات دون انقطاع.

استخدامات الهاتف الخلوي العامة:

يقدم الهاتف الخلوي فوائد وخدمات كبيرة ومتنوعة في مجالات مختلفة (سكيك، ٢٠٠٨؛ **عبد اللطيف**، ٢٠٠٧) **منها**:

- يكوِّن دليل معلومات عن الأشخاص الذين تتعامل معهم، مع كامل البيانات الخاصة بهم.
- يعدُّ أجندة إلكترونية تسهل عملية تتبع المواعيد المهمة، وتذكر المستخدم بها قبل موعدها صوتياً.
- تنظيم أعمال المستخدم اليومية.
- توفير آلة حاسبة يمكن استخدامها عند اللزوم.
- تمكن أجهزة الخلوي من إرسال الرسائل القصيرة ورسائل البريد الالكترونية.
- الاتصال مع الانترنت، والحصول على الأخبار العاجلة وأسعار البورصة والعملات وغير ذلك.
- يمكن استخدام الخلوي وسيلة تسلية من خلال الألعاب المخزنة فيه.
- استخدامه أحياناً كجهاز مذياع وفيديو وآلة تصوير.
- إمكانية استخدام الخلوي وسيلة اتصال فعالة مع البريد والبنوك والدوائر الرسمية

وبناءً على نتائج الدراسات السابقة النظرية والميدانية في هذا المجال، يتبين أهمية استخدام الخلوي في مجال التعلم والتعليم، وأن التكنولوجيا الحديثة تؤدي دوراً مهماً لدى الطلبة والمعلمين على حد سواء، وهذا يفسر تزايد عدد المستخدمين لأجهزة الخلوي سنة بعد سنة، وتزايد الإقبال على استخدامه في مجالات التدريس لزيادة فعاليته وتعزيز دافعية الطلبة للتعلم. ولكي تُنجز المهمات التعليمية بفعالية، على التربويين والتكنولوجيين الاهتمام بأساليب التدريس، وتفعيل دور التكنولوجيا التربوية، وهذا يترتب عليه مواكبة التطورات المستمرة والمتسارعة في النظم التكنولوجية التربوية، وما يحصل عليها من

تغيرات وتعديلات بشكل مستمر؛ **ويمكن التعرف إلى الفوائد الآتية** (سكيك، ٢٠٠٧؛ **السروري**، ٢٠٠٧؛ Book, 2000؛ Borquez, 2004) **في هذا الشأن**:

- ملائم وسهل الاستخدام وسهولة الوصول إليه لجميع الطلاب كمصدر للتعلم وجمع المعلومات.
- الحرية في استعمال الخلوي في أي وقت وأي مكان.
- يعزز الاتصال بين الطلبة بعضهم ببعض، وبينهم وبين المدرسة أو الكلية أو الجامعة، وبينهم وبين المدرسين.
- يعطي الفرص للمشاركة بالنشاطات في مجموعات في أي وقت وأي مكان.
- المقدرة على إضافة مناقشات منظمة ومتزامنة إلى جو غرفة الصف.
- يعزز عمل الحاسوب ويدعم استخدامه.
- يشجع على استخدام التكنولوجيا في التعلم والتعليم.
- تحسن أجهزة الخلوي من مستوى التعلم.
- تعزز أجهزة الخلوي مخرجات التعلم وتدعمها.
- يجعل إدارة التعليم أكثر فعالية.
- تحسين مستوى التعلم كماً ونوعاً.
- تحقيق أهداف التعليم بشكل فعال.
- تكلفة الخلوي أقل من كلفة الحاسوب أو تقنيات تعليمية أخرى.
- التعلم باستخدام الخلوي أسهل بكثير من التعلم باستخدام الحاسوب.
- إمكانية استخدام الخلوي في أي مكان وفي أي زمان.

◄ **الانترنت**:

الانترنت (Internet) كلمة مختصرة لما يعرف باللغة الإنجليزية ب (-Internatio al network) ، ومعناها شبكة المعلومات العالمية، التي ترتبط فيها مجموعة شبكات مع بعضها بعضاً في العديد من الدول عن طريق الهاتف والأقمار الصناعية، ويكون لها القدرة على تبادل المعلومات بينها من خلال أجهزة حاسوب مركزية تسمى باسم الخادم (Server) ، والتي تستطيع تخزين المعلومات الأساسية فيها والتحكم بالشبكة بصورة عامة، كما تسمى أجهزة الحاسوب التي يستخدمها الفرد باسم أجهزة المستخدم (Users) (دوفور،

١٩٩٨) . ويكون ذلك باستخدام تقنيات المعلومات أو تكنولوجيا المعلومات (Information technology) التي هي عملية تغذية ومعالجة المعلومات وتخزينها باستخدام المعلومات الرقمية والنصية والمصورة والصوتية، بوساطة تقنيات الحاسب الآلي، وتقنيات الاتصالات (الزهراني، ٢٠٠٤) . وهناك من يرى أن تكنولوجيا المعلومات هي ثورة معلوماتية مرتبطة بصناعة المعلومات وحيازتها وتسويقها وتخزينها واسترجاعها وعرضها وتوزيعها من خلال وسائل تكنولوجية حديثة متطورة وسريعة، وذلك من خلال الاستخدام المشترك للحاسب الالكتروني، ونظم الاتصالات الحديثة (سلامة، ١٩٩٧) .

وقد تزايدت أهمية الإنترنت مؤخراً، وزادت معها قدرتنا المعلوماتية والتفاعلية، حتى دعا بعضهم إلى أن تعدٌ وسيلة اتصال جديدة في ذاتها. ويمكن أن تحل محل وسائل الإعلام التقليدية، وإن كان بعضهم ما زال متردداً في قبول هذه الرؤية، في وقت يواجه فيه أساتذة الصحافة والإعلام تحدياً جديداً يتمثل في كيفية دمج الإنترنت ضمن مقررات علوم الصحافة والاتصال الجماهيري (منصور، ٢٠٠٤) . الإنترنت شبكة ضخمة من شبكات الحاسوب الممتدة عبر الكرة الأرضية بدولها كافة؛ إذ يستخدم الشبكة في هذه الأيام أكثر من (٧٥) مليون فرد من أنحاء العالم، وهي اتفاقية عملاقة بين ملايين الحواسيب للارتباط مع بعضها بعضاً، ولهذا يطلق عليها شبكة الشبكات. وهي شبكة عالمية مفتوحة تجعل المشترك قادراً على الوصول إلى آلاف المصادر والخدمات المختلفة في مجال المعلومات (عليان والدبس، ٢٠٠٣) . وشبكة الإنترنت بوصفها أحد أبرز التقنيات في مجال شبكة المعلومات الدولية في العالم، أحدثت صيحة جديدة في حجم المعلومات المقدمة إلى الإنسان بكلفة أقل، ووقت أقصر، وإنجاز أكبر. وأصبحت تتمتع بجاذبية عالية بين كل فئات المستخدمين نظراً للخدمات التي تنتجها لهم مثل: البريد الإلكتروني (E- mail) ، ونقل الملفات (FTP)، والشبكة العنكبوتية (WWW) ، والأخبار والمجموعات المختصة (Use net) ، والواقع الافتراضي (Virtual Reality) ، والتجارة الإلكترونية (E.commerce) والاتصال بالهاتف عبر الانترنت (دافور، ١٩٩٨) .

ونظراً للتغيرات الكبيرة التي يشهدها العالم في الوقت الراهن، أصبح استخدام الإنترنت في مجالات المعرفة المختلفة من الأمور الأساسية لمواكبة هذه التطورات، وبخاصة في المجال التعليمي بكل أبعاده، سواء من الجانب الأكاديمي والجانب التطبيقي للعملية التعليمية، لا سيما أن مؤتمر القوى المؤثرة في التعليم التكنولوجي الذي عقد في هيوستن بأمريكا، أكد في توصياته على ضرورة إدخال الإنترنت في قاعات المحاضرات، وتدريب أعضاء هيئة التدريس في الجامعات، والمعلمين في التعليم على تعميم العملية، وإعداد برامج تتناسب والتطور التكنولوجي (منصور،٢٠٠٤) . كما يزداد يوماً بعد يوم، حضور

مواقع «التعليم المفتوح» قوة وأهمية، على شبكة الإنترنت، والوسيلة الأكثر أهمية ومتعة في هذا المجال هي استخدام الحرم الجامعي الافتراضي (Virtual Campus) ، لما يحققه هذا الحرم من تفاعل حقيقي مع الدارسين، سواء عبر المحاضرات، أو مجموعات الحوار، أو الدردشة النصية. وأهم ما يميز تطبيق هذه التقنية حاليا هو أن الإفادة منها لم تعد قاصرة على الجامعات ومعاهد التدريب المختلفة، بل تعدته لتصل إلى العديد من الشركات المنتجة للبرامج والتطبيقات، وذلك بهدف توسيع بيئة برامجها بالعمل على تعريف زوار مواقعها وتدريبهم على استخدام منتجاتها (إبراهيم، ٢٠٠٤) . وتقدم شبكة الانترنت للتعليم العالي منافع عديدة وخدمات بحثية كبيرة. فمن خلالها يستطيع الطالب الدخول إلى المكتبات العالمية، والاطلاع على الإنتاج الفكري للعلماء والباحثين وهو في جامعته، فالانترنت مستودع ضخم يحوي كتباً أو أوراقاً علمية وبيانات ومحاضرات وتسجيلات صوتية، مما يتيح للمستخدمين كماً هائلاً من المعرفة يصعب تخيله. ولم تستطع الجامعات أن تقف موقف المتفرج من الانترنت بصرف النظر عن بعض سلبياتها (حناوي، ٢٠٠٥) .

فرضت التغيرات الاجتماعية والعلمية والتكنولوجية التي شهدتها سنوات نهاية القرن الماضي، وبدايات القرن الحالي تغيرات مناظرة في التربية بوجه عام، وأنماط التعليم والتعلم بوجه خاص، فبعد أن سادت الأنماط التقليدية في التربية التقليدية القائمة على الطرائق اللفظية المباشرة لعقود طويلة، تحول الاهتمام نحو البحث عن أنماط جديدة تتلاءم ومتطلبات العصر، وما يتوقع أن يحدث في المستقبل. وقد برزت مسوغات مهمة لاستخدام الحاسوب في مجال التعلم والتعليم بشكل عام منها: تحسين فرص العمل المستقبلية، وجعل التعليم أسهل وأسرع وأكثر ملاءمة، وتنمية مهارات معرفية عقلية مثل حل المشكلات والتفكير وجمع البيانات وتحليلها وتركيبها، والسماح للطلاب أن يألفوا معالجة المعلومات وقياسها في حدود إمكانات الحاسوب (عليان والدبس،٢٠٠٣) . **كما ظهرت الحاجة لاستخدام شبكة الانترنت لما لهذه الشبكة من أهمية وفوائد في مجالات الحياة المختلفة** (العبيدي، ١٩٩٦؛ حسين، ١٩٩٧؛ عليان والقيسي، ١٩٩٩؛ منصور، ٢٠٠٤؛ حناوي، ٢٠٠٥) **التي أهمها**:

- تستخدم الشركات بمختلف أنشطتها شبكة الانترنت لإرسال البريد الإلكتروني، واستقباله بفاعلية مع العملاء والزبائن المنتظرين.

- الدوريات والنشرات والمجلات التجارية جذبت العديد من أصحاب الأعمال للاطلاع والانتشار من خلال الإعلان فيها، حيث يوفر العديد منها الجديد في عالم الصناعة والتجارة.

♦ العديد من الشركات الفنية والتقنية المتخصصة تستخدم الانترنت للتطوير، ودعم مشتركيها وإمدادهم بالبرامج الجديدة.

♦ نظراً للأعداد الضخمة من الشركات والأفراد المرتبطة بالانترنت، فهي تعدُّ قوة تسويقية وإدارية فعالة من ناحية الارتباط المباشر بالموردين، وبالأسواق المحلية والدولية وبالمشتركين.

♦ توفر الانترنت قوة دعم وتطوير سريعة يصعب إن لم يكن من المستحيل الحصول عليها وذلك من خلال المناقشات الجماعية التي توفرها الشبكة.

♦ عشرات الآلاف من البرامج والبحوث والمقالات والتقارير المجانية التي توفرها مختلف الجهات سواءً أكاديمية أم تجارية أم أفراد من ذوي الاختصاصات المختلفة.

♦ حتى وقت قريب كانت تكاليف استخدام برامج تبادل الوثائق الالكترونية عالية، وتستخدمها بشكل محدود شركات ذات الانتشار بغرض تبادل أوامر الشراء والمخازن وأوامر الشحن والعديد من المعاملات التجارية والمالية، وذلك لموثوقية البرامج لنقل هذا النوع من البيانات.

♦ أنشئت الإنترنت في الأساس لتبادل الأبحاث والتطوير، وما زالت العديد من الجهات في الانترنت تحتفظ بذلك حيث تقدم خدمات معلوماتية متخصصة في شتى المجالات، تبعاً لتخصص الجهة المقدمة للمعلومات والأبحاث.

♦ توافر العديد من الخدمات مثل الاستعلام والحجز للطيران والفنادق والسياحة والسيارات والندوات العلمية والدورات التدريبية، وحالة الجو والمناخ العالمي، وأسعار الصرف للعملات المختلفة.

◄ **الدش:**

البث الفضائي (الدش) (Dish) يشبه إلى حدٍ كبير البث الأرضي، فهو يعمل بطريقة لاسلكية لتصل البرامج التلفزيونية إلى المُستَقبِل عَن طريق موجات المذياع، وتعدُّ تقنيات الأقمار الصناعية الموجودة في الفضاء الخارجي مركز هذا النوع من البث على مدار ساعات اليوم. والبث الفضائي يحتاج لخمسة عناصر أساسية هي: مركز البرامج ومركز الإرسال، وقمر البث وطبق الاستقبال (الدش) ، وجهاز الاستقبال (الريسيفر) ، وآخر مكون لنظام استقبال البث الفضائي هو الريسيفر الرقمي، وله أربع وظائف هي: إعادة تكوين البث المشفر، وفك شفرة الإرسال، وتحويل الموجات الرقمية إلى موجات عادية حتى يتمكن التلفاز العادي من عرضها، وفصل القنوات المتصلة عن بعضها في حزمة البث نفسها (حناوي، ٢٠٠٥؛ Brown, 1998) .

لقد غير البث الفضائي مفهوم الحدود القومية، وبات هذا المفهوم مختلفاً في ظل الانكشاف الذي سببه البث المباشر عبر القنوات التلفزيونية التي لم يعد هناك مكان بعيد بالنسبة لها. وأصبح التلفاز وسيلة عظيمة جداً تستخدم في إحداث كثير من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، حتى أنه أصبح منافساً رئيساً للوالدين في تشكيل سلوك الأبناء وتعليمهم القيم والعادات والتقاليد المختلفة، ومنافساً للمدرسة كمؤسسة تربوية رسمية وللمؤسسات الاجتماعية والثقافية الأخرى. وهذا ما دعا فريق من المصلحين والتربويين لترويض التلفزيون وترشيد مشاهدته، لما له من تأثير سلبي على الشباب والأطفال وسلوكهم واتجاهاتهم وقيمهم الاجتماعية والأخلاقية (الدعيلج، ١٩٩٥).

وتأخذ اللغة التي هي أداة الاتصال والتفاهم الأساسية بين الناس الشكلين الآتيين (Neumann, 2008):

أ. اتصال لفظي (منطوق ومكتوب)

ب. اتصال غير لفظي (لغة الإشارات وأعضاء الجسد)

وتتضح أوجه الشبه بين الاتصال اللفظي وغير اللفظي في أن كليهما من نتاج الإنسان نفسه، وأن كليهما يستخدمان رموزاً لها معانٍ يفهمها الإنسان في أثناء عملية التواصل والتفاعل الاجتماعي، وأن لعملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي دوراً مهماً وأساسياً لتعلم كل منهما. على أنهما يختلفان بعضهما عن بعض في الأمور التي يبينها الجدول الآتي (Book, 2000؛Kaatz, 2002):

الجدول (١)

الفرق بين الاتصال اللفظي والاتصال غير اللفظي

الاتصال اللفظي	الاتصال غير اللفظي
يستخدم رموزاً على شكل كلمات منطوقة ومكتوبة.	١. يستخدم رموزاً على شكل إشارات وحركات وتعبيرات.
تتحكم فيه قواعد اللغة.	٢. تتحكم فيه العوامل البيولوجية.
مقصور على ثقافة واحدة.	٣. عالمي وليس قاصراً على ثقافة معينة.
يحمل معاني محددة.	٤. يحمل معاني عديدة ومختلفة بين الثقافات.
يُعلَّم في مراحل متأخرة من الحياة	٥. يُعلَّم منذ الولادة مباشرة
يأتي بعد الاتصال غير اللفظي.	٦. يسبق الاتصال اللفظي
يمكنه مناشدة العواطف واستمالتها.	٧. أصدق تعبيراً ويناشد العواطف بقوة.

ولكي ينجح الإنسان في عملية الاتصال، عليه أن يستخدم الاتصال اللفظي وغير اللفظي بفعالية، حتى يستطيع التعبير عن أفكاره ومشاعره بشكل أفضل.

إن عملية الاتصال في أبسط صورها هي نقل فكرة أو معلومات، ومعاني (رسالة) من شخص (مُرسِل) إلى شخص (مستقبِل) عن طريق معين (قناة اتصال) تختلف باختلاف المواقف. وتنتقل الرسالة عبر قناة الاتصال على شكل رموز مفهومة ومتفق عليها بين المُرسِل والمستقبِل، أو رموز شائعة في المجتمع أو في الحضارة التي تتضمنها (Stankeviciene, 2007). وقد تصل الرسالة سليمة ويفهمها المستقبل فهماً صحيحاً ويتقبلها ويتصرف حيالها حسب ما يتوقعه المرسِل، وتعدُّ عملية الاتصال في هذه الحالة ناجحة. وقد تصل الرسالة إلى المستقبل، ولكنه لا يفهمها أو لا يتقبلها، ومن ثم لا يتصرف بالنسبة لها كما يرجو المرسِل، وفي هذه الحالة فإن عملية الاتصال تعدُّ غير ناجحة، وربما لا تصل الرسالة على الإطلاق لسبب أو لآخر، أو قد تصل ناقصة أو مشوشة. وهذه الاحتمالات موجودة دائماً ويرجع فضل عملية الاتصال إلى عنصر أو أكثر من عناصر عملية الاتصال. ولكن من الممكن أن يتحقق المرسل من نتيجة رسالته عن طريق إرجاع الأثر أو ما يسمى التغذية الراجعة (Feed back) ؛ والمقصود بذلك أن يحاط المرسِل علماً بما يترتب على رسالته من آثار عند المستقبِل أو إذا ما ضلت سبيلها لسبب ما، ولم تصل إليه أو وصلته ناقصة أو مشوشة. ويكون مسار إرجاع الأثر عكس مسار عملية الاتصال الأصلية، أي تكون من المُستقبِل إلى المُرسِل، ووظيفتها تصحيح المفاهيم عند المُستقبِل أو إقناعه بها (Huang, 2005; Dance & Larson, 2003; Biehler, 1990) .

مشكلة الدراسة:

بالرغم من أن التكنولوجيات الحديثة قد سهلت على الإنسان كثيراً من أمور حياته، فإن لها بعض الآثار السلبية؛ ومع ذلك لا يعني بأي حال عند كثيرين أن نستغني عنها، ولكن تؤكد الضرورة توخي الحظر عند استخدامها، وتتعدد هذه الآثار السلبية ما بين نفسية واجتماعية وصحية، ومن أهمها ازدياد اعتماد الإنسان على أجهزة وتقنيات الاتصال الحديثة، وهذا يقلل تدريجياً من عملية اتصاله المباشر بالآخرين، وحرمانه من الحياة الطبيعية والانغماس في الاعتماد على أجهزة الحاسوب والانترنت والهواتف المحمولة، أو مشاهدة التلفاز بصورة مفرطة (اليوسف، ٢٠٠٦). ومن هنا جاءت هذه الدراسة بهدف استطلاع عينة من الشباب الفلسطيني، للتعرف على دوافعهم النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدامهم لوسائل الاتصال الحديثة كالانترنت والهواتف المحمولة والدش.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من الناحيتين النظرية والتطبيقية؛ فتبرز أهميتها من الناحية

النظرية، كونها تتناول موضوع الدوافع النفسية والاجتماعية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، فالكشف عن الدوافع الكامنة وراء السلوك الإنساني عادة، يؤدي إلى فهم علمي يفسر تلك العلاقات بين الظواهر المشاهدة ومحاولة معرفة المسارات الموضوعية الباعثة لها، فموضوع الدوافع من أكثر موضوعات علم النفس أهمية وإثارة لاهتمام الناس جميعاً على اختلاف شرائحهم وتخصصاتهم (Biehler, 1990)، فهو يهم المدرس والمدير، كما يهم الأب والأم لمعرفة لماذا يميل الأبناء والتلاميذ للقيام بأنماط سلوكية معينة دون غيرها في مواقف محددة. وهذا ما تحاوله الدراسة الحالية من تفسير العلاقة بين الدوافع النفسية والاجتماعية وهستيريا استخدام وسائل الاتصال الحديثة. أما من الناحية التطبيقية، فتبرز أهمية هذه الدراسة، مما سوف تؤول إليه نتائجها، وما ستقدمه من مقترحات وتوصيات تربوية ونفسية واجتماعية لتقنين استخدام وسائل الاتصال الحديثة من خلال معرفة دوافع استخدامها النفسية والاجتماعية والإدارية.

أسئلة الدراسة:

لتحقيق أهداف الدراسة الراهنة أُجيب عن الأسئلة الآتية:

١. ما الدوافع النفسية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني وسائل الاتصال الحديثة؟

٢. ما الدوافع الاجتماعية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني وسائل الاتصال الحديثة؟

٣. ما الدوافع الإدارية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني وسائل الاتصال الحديثة؟

٤. هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة، تُعزى لمتغير الجنس؟

٥. هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة، تُعزى لمتغير التخصص؟

٦. هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة، تُعزى لمتغير الدخل الشهري للأسرة؟

أهداف الدراسة:

انبثقت الدراسة الراهنة لاستطلاع رأي عينة من الشباب الفلسطيني، حول الدوافع

الاجتماعية والنفسية والإدارية وراء استخدامهم وسائل الاتصال الحديثة، **وذلك لتحقيق الأهداف الآتية**:

- معرفة الترتيب النسبي لمستوى الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة.
- التعرف إلى أهم الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني وسائل الاتصال الحديثة.
- التعرف إلى دلالة الفروق في مستوى الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة، تبعاً لمتغيرات الجنس، التخصص الدراسي، والدخل الشهري للأسرة.

مفاهيم الدراسة ومصطلحاتها:

◄ **الدوافع (Motives)**:

هي كل ما يحرك السلوك الإنساني ويدفعه نحو هدف محدد؛ سواء كان هذا السلوك حركياً أم ذهنياً أم وجدانياً. وتتعدد دوافع الإنسان وتتنوع بشكل لا حدود ولا حصر لها، فمنها ما هو فطري ومنها ما هو مكتسب، ومنها ما هو مرتبط بالحاجات البيولوجية الأساسية كالطعام والشراب والجنس والإخراج والتنفس، ومنها ما هو مرتبط بالحاجات النفسية والاجتماعية كالأمن والتقدير والانتماء وتحقيق الذات والإنجاز والتحصيل والحب والحنان وحب الاستطلاع والمعرفة وغيرها (راجح، ١٩٨٧) . وكون الدافعية تنبع من الحاجات الأساسية عند الإنسان، يمكن اعتبارها بمثابة طاقات كامنة، أو قوى تحرك سلوك هذا الإنسان نحو إشباع هذه الحاجات، وتتميز الدوافع بدرجة عالية من التفرد والتمين، لذلك لا يمكن تفسير السلوك الإنساني دون معرفة لهذه الكوامن الدافعة له.

وإجرائياً تتبنى الدراسة الحالية للدوافع بأنها تلك العوامل النفسية والاجتماعية والإدارية التي تكمن وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة لدى الأفراد، على افتراض أن ظاهرة الاستخدام المتكرر، وغير المسبوق لوسائل الاتصال الحديثة لم يأتِ من فراغ، وإنما لا بد من أسباب محددة تدفع بالشباب لاستخدام هذه الوسائل بقصد أو بدون قصد، والتي تحدد باستجابة أفراد الدراسة على المقياس المعد لهذا الغرض.

◄ **وسائل الاتصال**:

تشير أدبيات عملية الاتصال إلى وجود تعريفات عديدة ومتنوعة لوسائل الاتصال، منها ما يركز على المرسل، ومنها ما يركز على موضوع الرسالة، وبعضها الآخر

يركز على فعالية المُستَقبِل أو قناة الاتصال، ومن بين هذه التعريفات يأتي تعريف Stankeviciene (2007, p.11) الذي يعرفها بأنها: «العملية التي تنقل بها المعلومات والمعاني والأفكار من شخص إلى آخر أو آخرين بصورة تحقق الأهداف المنشودة في المؤسسة، أو في أي جماعة من الناس ذات نشاط اجتماعي». إذن هي بمثابة خطوط تربط أوصال البناء، أو الهيكل التنظيمي لأي مؤسسة ربطاً ديناميكياً. فليس من الممكن أن نتصور جماعة أياً كان نشاطها دون أن نتصور في الوقت نفسه عملية الاتصال التي تحدث بين عناصرها، وتجعل من هذه العناصر وحدة عضوية لها درجة من التكامل تسمح بقيام بالنشاط الفعال بينها. ويعرفه Dollman & Morgan (2007, p.64) بأنه «أي شيء يساعد على نقل معنى معين أو رسالة من شخص إلى آخر، وقد تكون هذه الرسالة المنقولة أو المتبادلة فكرة أو اتجاهاً عقلياً أو مهارة أو فلسفة للحياة، أو أي شيء آخر يعتقد بعضهم في أهمية نقله وتوصيله للآخرين». بينما يعرفه أبو عرقوب (١٩٩٣، ص.٨) بأنه «الوسيلة أو الطريقة التي تنتقل بها الأفكار والمعلومات بين الناس داخل نسق اجتماعي معين، وقد تختلف هذه الوسائل من حيث الحجم والشكل والهيئة والمحتوى». ويقدم Kunczik (1992, p.33)تعريفاً مختصراً للاتصال، فيقول إنه: «ما يحاول المرسل نقله إلى المستقبل من المعلومات بطرق ووسائل مختلفة».

أما التعريف الذي تتبناه الدراسة الحالية لوسائل الاتصال فيركز، بالإضافة لعناصر عملية الاتصال، على فعالية التفاعل الاجتماعي في عملية الاتصال والتفاعل المباشر بين أركانها، وبذلك فإن الاتصال هي عملية فعَّالة تُرسل من خلالها معلومات وأفكار من جهة إلى أخرى، باستخدام وسائل وتقنيات مختلفة من خلال عملية تفاعل اجتماعي مباشر أو غير مباشر بينها، بهدف تقوية الصلات الاجتماعية في المجتمع عن طريق تبادل المعلومات والأفكار والمشاعر، وتجنب الإنسان من العقاب الحسي.

◄ **الشباب**:

هي فئة الأفراد الملتحقين بالدراسة بجامعة القدس المفتوحة بمنطقة طولكرم التعليمية في مختلف التخصصات، وتتراوح أعمارهم ما بين (١٨– ٤٧) سنة.

حدود الدراسة:

تحدد نتائج الدراسة الحالية بالجوانب الآتية:

١. **الحدود الجغرافية**: اقتصر إجراء البحث على الشباب الفلسطيني القاطنين في محافظة طولكرم.

٢. **الحدود البشرية**: اقتصر تطبيق إجراءات الدراسة على عينة من طلبة جامعة القدس المفتوحة (منطقة طولكرم التعليمية قوامها (٣٤٨)) طالباً وطالبة.

٣. **الحدود الزمانية**: طُبقت أداة الدراسة خلال الفصل الأول من العام الدراسي الجامعي (٢٠٠٨/ ٢٠٠٩).

٤. كما تحدد هذه الدراسة بالأداة المستخدمة لجمع البيانات وإجراءاتها المستخدمة لتحليل النتائج وتفسيرها.

الدراسات السابقة:

أجرى **براون (Brown, 1998)** دراسة بهدف التعرف إلى أثر بعض المتغيرات السكانية في مدى التحاق الطلاب في برامج دراسية في الجامعة التي تستخدم تقنية الخلوي، تكونت عينة الدراسة من مجموعتين من الطلاب: مجموعة تجريبية التحقت فعلاً في هذه الجامعة وعدد أفراها (٢٥٥) طالباً وطالبة، ومجموعة ضابطة أخرى لم تلتحق لأسباب معينة وعدد أفرادها (١٢٧) فرداً. وبينت النتائج أن متغيرين فقط من هذه المتغيرات، كان لها تأثير دال إحصائياً في إعاقة الالتحاق في الجامعة التي تستخدم الخلوي هما المستوى التعليمي، والنشاط الأكاديمي، بينما باقي المتغيرات لم تظهر النتائج تأثير جوهري لها وهي الجنس، والدخل الشهري، والأصل العرقي، والحالة الاجتماعية، وعدد الأطفال في الأسرة، والمهنة.

وفي الكويت قام **قسم الدراسات والبحوث الإعلامية** (١٩٩٨) بدراسة بهدف التعرف إلى تأثير القنوات الفضائية على أفراد المجتمع، لرصد سلبيات هذه القنوات وإيجابياتها في تغيير اتجاهات أفراد المجتمع وسلوكياتهم. تكونت عينة الدراسة من (٥٠٠) طالب وطالبة ممن يدرسون في جامعة الكويت، وتوصلت الدراسة لنتائج كثيرة أهمها أن ما نسبته (٦٠٪) من أفراد العينة هم ممن يتابعون بانتظام للفضائيات، وأن نسبة الذكور (٧٠٪) أكثر من نسبة الإناث (٤٨٪) في الانتظام لمتابعة هذه الفضائيات. أيد ما نسبته (٥٥٪) مقابل (٤١٪) بأن للفضائيات تأثيرات سلبية على سلوك الأفراد والأخلاق، وأن النسبة كانت ضئيلة (١١٪) بين الذكور والإناث ممن قالوا إنه لا تأثير سلبياً للفضائيات على العادات والقيم الإسلامية. كما بينت النتائج أن هذه الفضائيات لا تتفاعل بشكل إيجابي مع أحداث العالم الإسلامي حيث عبر عن ذلك ما نسبته (٢٦٪) فقط من العينة.

أجرت **عبد السلام** (١٩٩٨) دراسة حول أنماط استخدام الشباب المصري لشبكة الإنترنت ودوافعها، حيث تكونت عينة الدراسة من (٣٣٠) شاباً من أعمار وفئات تخصصية ومهنية مختلفة؛ وقد توصلت الدراسة إلى أن أهم دوافع استخدام الشباب للانترنت تتلخص

في الحصول على المعلومات بنسبة (٧٢,٧٪) ، التسلية والترفيهية (٤٧٪) ، إقامة الصداقات (٤٢,٣٪) ، الفضول وحب الاطلاع على المستجدات العالمية (٢٥,٥٪) ، شغل أوقات الفراغ (٦٪) ، وتجربة كل جديد في مجال الاتصال (٤,٥٪) . وقد بينت النتائج عدم وجود علاقة بين النوع (ذكور وإناث) في دوافع استخدام الشباب للشبكة لصالح الذكور. وفي الوقت نفسه أظهرت الدراسة وجود علاقة بين السن وبين استخدام الإنترنت بدوافع التسلية والترفيه، ووجود علاقة بين السن وبين استخدام الإنترنت بدوافع إقامة علاقة مع أشخاص آخرين، ووجود علاقة بين استخدام البريد الالكتروني وبين نوع التخصص الدراسي لصالح التخصصات العلمية.

وقام **عليان والقيسي** (١٩٩٩) بدراسة ميدانية حول استخدام الانترنت لدى طلبة جامعة البحرين بلغ عددهم (١٦٤) طالباً وطالبة من تخصصات مختلفة، أظهرت نتائج الدراسة عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الكليات المختلفة فيما يتعلق باستخدام الشبكة، وأظهرت النتائج أن نسبة (٩٥,٣٪) من المشاركين يستخدمون الشبكة للبحث عن المعلومات لأغراض كتابة الدراسات والبحوث، والبريد الالكتروني، ومتابعة الأخبار، وقراءة الصحف، ولأغراض التسلية والترفيه. كما أشارت الدراسة إلى أن نسبة (٨٣٪) من المشاركين كانوا راضين عن نتائج استخدام الشبكة، وأنه لا توجد فروق جوهرية في استخدام الانترنت تبعاً لمتغيرات الجنس والتخصص الدراسي والتحصيل.

وهدفت دراسة **أبي زيد** (٢٠٠٣) إلى معرفة الدوافع النفسية والاجتماعية المرتبطة باستخدام أجهزة الاتصال الحديثة لدى المراهقين، وتكونت عينة الدراسة من (٤٠٠) مراهق ممن تتراوح أعمارهم ما بين (١٤– ١٧) سنة من طلبة المدارس الإعدادية والثانوية في المدارس المصرية. وقد أظهرت النتائج أن أهم الدوافع لاستخدام وسائل الاتصال الحديثة لدى المراهقين هي: الدوافع التعليمية والحصول على المعرفة، ومسايرة الآخرين وتقليدهم، والدعاية والتسلية والترفيه، وتأكيد الذات والإنجاز، والمظهرية والتفاخر، والهروب من الواقع. ومن جهة أخرى أظهرت النتائج وجود فروق دالة إحصائياً بين الجنسين في دوافعهم النفسية والاجتماعية عند استخدام وسائل الاتصال الحديثة لصالح الذكور في الدافع للتعلم والتقليد والمسايرة والدعاية والترفيه والتسلية والهروب من المشكلات، ووجود فروق دالة إحصائياً أيضاً بين الجنسين في دافع المظهرية والمفاخرة لصالح الإناث، بينما لا توجد فروق جوهرية بين الجنسين في دوافع الإنجاز، وتأكيد الذات في استخدام وسائل الاتصال الحديثة.

أما الدراسة التي أجراها **بوركويز (Borquez, 2004)** ، فبيَّنت أن التكنولوجيا تساهم مساهمة كبيرة في الوقت الحاضر في مجالات التعليم المختلفة، حيث تعمل المؤسسات التعليمية في الدول المتقدمة بدمج التكنولوجيا بالتعليم بشكل موسع. وقامت هذه الدراسة

على افتراض مهم، هو أن للخلوي والأجهزة اللاسلكية الأخرى الدور الفعال والمساعد التكنولوجي الثاني بعد الحاسوب في التعليم داخل غرفة الصف وخارجها؛ وهدفت هذه الدراسة بالتحديد إلى التحقق من أهمية دور الخلوي والتكنولوجيا اللاسلكية في تسهيل عمل المعلمين في التدريس، وتنمية اتجاهات إيجابية نحو عملية تقويم الطلبة. حيث طلب من عينة من طلبة الجامعات استخدام أجهزة الخلوي والأجهزة اللاسلكية الأخرى عند تأدية الامتحان النصفي، ولدى الانتهاء من الامتحان، وُزعت عليهم استبانة لمعرفة خبرتهم بهذه التكنولوجيا، وكشفت النتائج عن اتجاهات إيجابية نحو استخدام الخلوي والأجهزة اللاسلكية، كما كشف عن تفكير الطلبة باستخدام هذه الأجهزة كان بمستوى مرتفع فيما يتعلق بتقويم الأهداف التعليمية. ودلت النتائج على عدم وجود فروق جوهرية بين الجنسين في استخدام الخلوي والأجهزة والتقنيات الحديثة.

وأجرى **منصور** (٢٠٠٤) دراسة حول استخدام الانترنت ودوافعها لدى طلبة جامعة البحرين وطبقت على عينة من (٣٣٠) طالباً وطالبة اختيروا عشوائيا، وتوصلت الدراسة إلى أن ما نسبته (٨٤,٣٪) من المبحوثين يستخدمون خدمة البريد الالكتروني في المرتبة الأولى؛ وإن (٨٥٪) منهم راضون عن نتائجهم. كما بينت النتائج عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في كل مجال من مجالات دوافع استخدام الإنترنت، تعزى إلى متغيريْ الجنس والعمر. ووجود فروق دالة إحصائيا في مجال المعلومات تعزى للكلية لصالح طلبة كلية التربية. ووجود فروق دالة إحصائيا في مجال الاندماج الاجتماعي والاندماج الشخصي تعزى لمتغير مدة استخدام الانترنت لصالح مستخدمي الانترنت لأكثر من ثلاث سنوات.

أما الدراسة التي قامت بها **كراتكوسكي (Kartkoski, 2005)** بهدف التعرف إلى فعالية استخدام أجهزة الخلوي في الدافعية للتعلم لدى طلبة المرحلة الأساسية في شمال أوهايو بأمريكيا، ولدى جمع البيانات باستخدام المقابلات التي أجرتها الباحثة مع الطلبة والمعلمين وتحليلها، تبين أن تأثير الخلوي في الدافعية للتعلم والتعليم مرتفع، وأن استخدام هذه الأجهزة يزيد من تدعيم تعلم الطلبة وتعزيزه، كما تعمل هذه الأجهزة على تحسين نوعية التعلم وكمِّه، وأداء الطلبة على التعلم، وأظهرت النتائج أيضاً أن استخدام أجهزة الخلوي في التعليم يساعد في التقليل من الفجوة بين فئات الطلبة في التحصيل العام.

وقام **هونك (Huang, 2005)** بدراسة كان الهدف منها التعرف إلى أثر مهارة الاستماع للغة عبر وسائل الاتصال الحديثة في التواصل الاجتماعي بين الأفراد وعملية التكيف الدراسي. تكونت عينة الدراسة من (٧٨) طالباً وطالبة من الطلبة الصينيين الذين

يدرسون في إحدى الجامعات الأمريكية. أظهرت النتائج أن لمستوى الاستماع والمناقشة أثراً موجباً وأساسياً في التكيف الاجتماعي والدراسي، ودلت النتائج على أنه لا توجد فروق جوهرية في تأثير وسائل الاتصال في عملة التكيف الاجتماعي والدراسي تبعاً لمتغيرات الجنس والتخصص.

وهدفت دراسة **ثابت** (٢٠٠٦) التعرف إلى تأثير مشاهدة الفضائيات بشكل منتظم في اتجاهات الطالبات النفسية والتربوية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية. تكونت العينة من (٥٠٠) طالبة جامعية، وتوصلت النتائج إلى أن مشاهدة البرامج التلفازية بشكل منتظم يؤدي إلى حدوث تغيرات كبيرة على السلوك الأخلاقي والاجتماعي، وتؤدي المشاهدة المستمرة أيضاً إلى الاتجاهات نحو الدراسة والتعليم المتمثل في ضعف الالتزام الدراسي حيث أظهر ما نسبته (٣٢٪) من الطلبة تغيباً مستمراً عن المحاضرات. كما دلت النتائج على تغيّر في اتجاهات الطالبات نحو الزواج والأسرة والأطفال.

وأجرى كل من **دولمان وموركان (Dollman & Morgan, 2007)** دراسة بهدف التعرف إلى تأثير برنامج للتدريب على المهارات الاجتماعية باستخدام تقنيات الاتصال الحديثة، وتكونت العينة من (٩٥) طالباً وطالبة من الطلبة الجامعيين، وتوصلت النتائج إلى وجود فروق دالة إحصائياً بين المجموعتين التجريبية والضابطة في مستوى المهارات الاجتماعية، تبعاً للبرنامج المستخدم لصالح المجموعة التجريبية، كما دلت النتائج إلى فروق في أداء المهارات الاجتماعية، تبعاً لمتغيرات الجنس والتخصص ومستوى التحصيل لصالح الذكور والتخصصات العلمية والطلبة المتفوقين على الترتيب.

وأجرى **جانيور ونيجرتي و كاونتينهو (Junior , Negretti & Coutinho, 2007)** دراسة بهدف التعرف إلى تأثير استخدام الأجهزة النقالة في التغلب على المشكلات المؤدية للرسوب لدى طلبة السنة الثالثة في تخصص الهندسة المدنية في إحدى الجامعات البرتغالية. وتوصلت الدراسة إلى توصية باستخدام أجهزة الخلوي في تعليم طلبة الهندسة وتنفيذ المشاريع التي يتدرب عليها الطلبة، لأن ذلك يقلل من نسب الرسوب، ويرفع من فعالية التعلم، ويحسن من أداء الطلبة التحصيلي في هذه المجالات. وأن استخدام الخلوي مناسب جداً لتوضيح المبادئ والمفاهيم للطلبة، ويقدم فرصة لتقليد هذه المفاهيم أو محاكاتها عند التعلم، ويساعد على التفاعل بين الطلبة في أثناء التعلم، كما يساعد استخدام الخلوي على التعلم الذاتي، ومواكبة التطور الحاصل في عالم التكنولوجيا.

وأجرت **مؤسسة الزحف الأخضر** (٢٠٠٨) دراسة بهدف التعرف إلى تأثير وسائل الاتصال الحديثة على العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة العربية، وتكونت عينة الدراسة

من (٢٢٥٢) أسرة، وقد أظهرت النتائج أن وسائل الاتصال الحديثة تقرب بين أفراد الأسرة؛ وذلك من خلال تحويلهم إلى شبكة اجتماعية مترابطة بخلاف الرأي السائد بشأن التأثيرات السلبية للانترنت والأجهزة المحمولة على الروابط الأسرية. كما خلصت النتائج إلى أن الأسر التقليدية تواجه ضغوط الحياة العصرية المتزايدة باستخدام تقنيات حديثة مثل الانترنت والهواتف المحمولة؛ حيث كشفت النتائج أن ما نسبته (٦٠٪) من أفراد العينة قالوا: أن التقنيات الحديثة لم تؤثر سلباً على تقارب أفراد أسرهم، بينما أظهر ما نسبته (٢٥٪) منهم أن الهواتف المحمولة والاتصال عبر الانترنت أحدثت تقارباً ملموساً بين أسرهم، بينما قال ما نسبته (١١٪) منهم أن التكنولوجيا كان لها تأثير سلبي على التقارب الاجتماعي لأفراد أسرهم.

وقام **جون ووايت وسوسيكس (Chune, White & Sussex, 2008)** بدراسة بهدف التعرف إلى فعالية استخدام تقنيات الاتصال الحديثة كالهاتف المحمول والانترنت في تعزيز مهارة الاستماع والتواصل الاجتماعي لدى عينة الطلبة الكوريين البالغ عددهم (٧٦) طالباً وطالبة. وقد أظهرت نتائج هذه الدراسة فعالية مرتفعة لاستخدام التقنيات الحديثة من أجل رفع مستوى الطلبة في مهارة الاتصال الاجتماعي بين الأفراد، كما دلت النتائج على أن استخدام هذه التقنيات زاد من اتجاهات الطلبة نحو عملية التعلم، وبينت كذلك عدم وجود فروق جوهرية في مستوى مهارة الاتصال، تبعاً لمتغيرات الجنس والسنة الدراسية والتحصيل الأكاديمي، باستخدام التقنيات الحديثة موضع البحث.

تعقيب على الدراسات السابقة:

من خلال مجموعة الدراسات التي قدمت يتضح ما يأتي:

١. مع أهمية المفاهيم النظرية المرتبطة بطرفي العلاقة في هذه الدراسة وهي الدوافع ووسائل الاتصال الحديثة، فإن الدراسات السابقة ما زالت قليلة، وبخاصة في المجتمع الفلسطيني.

٢. أظهرت معظم الدراسات التي أمكن الوصول إليها (أبو زيد، ٢٠٠٣؛ Borques, 2004؛ منصور، ٢٠٠٤؛ Huang, 2005؛ Dollman & Morgan, 2007؛ مؤسسة الزحف الأخضر، ٢٠٠٨، Chune, White & Sussex, 2008) أن للدوافع النفسية والاجتماعية تأثيراً كبيراً في استخدام وسائل الاتصال الحديثة. بينما أظهرت بعض الدراسات الأخرى وجود علاقة سالبة بين استخدام وسائل الاتصال الحديثة والدوافع النفسية والاجتماعية (Brown, 1998؛ قسم الدراسات والبحوث الإعلامية، ١٩٩٨؛ ثابت، ٢٠٠٦) .

٣. أظهرت دراسات (قسم الدراسات والبحوث الإعلامية، ١٩٩٨؛ عبد السلام، ١٩٩٨؛ أبو زيد، ٢٠٠٣؛ Dollman & Morgan, 2007) وجود علاقة بين متغير الجنس واستخدم وسائل الاتصال الحديثة، وذلك لصالح الذكور، بينما أظهرت دراسات أخرى (Brown, 1998؛ عليان والقيسي، ١٩٩٩؛ Borques, 2004؛ منصور، ٢٠٠٤؛ Huang, 2005؛ Chune, White & Sussex, 2008) عدم وجود فروق بين الجنسين في استخدام وسائل الاتصال الحديثة.

٤. وبخصوص العلاقة بين متغير التخصص، واستخدام وسائل الاتصال الحديثة، فقد أظهرت دراسات (عبد السلام، ١٩٩٨؛ Dollman & Morgan, 2007) وجود فروق جوهرية لصالح التخصصات العلمية، بينما أظهرت دراسات (Huang, 2005؛ Chune, White & Sussex, 2008) عدم وجود علاقة بينهما.

إجراءات الدراسة:

أولاً ـ مجتمع الدراسة:

تكون مجتمع الدراسة من مجموع الدارسين في جامعة القدس المفتوحة (منطقة طولكرم التعليمية)، والملتحقين للدراسة في الفصل الدراسي الأول من العام الدراسي ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩)، والبالغ عددهم (٤٣٤٤) دارساً ودارسة، تبعاً لإحصائيات جامعة القدس المفتوحة، كما ظهرت على بوابة الجامعة الالكترونية لهذا الفصل، والجدول الآتي يبين توزيع الدارسين تبعاً لمتغيري البرنامج الدراسي والجنس:

الجدول (٢)

توزيع مجتمع الدراسة تبعاً لمتغيري البرنامج الدراسي والجنس

البرنامج / الجنس	الذكور	الإناث	المجموع
التربية	٥٥٧	١٧٢٧	٢٢٨٤
الإدارة	٧٢٢	٤٤٥	١١٦٧
الخدمة	١٩٨	٢٨١	٤٧٩
الحاسوب	٢١٨	١٩٦	٤١٤
المجموع	١٦٩٥	٢٦٤٩	٤٣٤٤

ثانياً ـ عينة الدراسة:

تكونت عينة الدراسة الحالية من (٣٤٨) دارساً ودارسة اختير أفرادها بطريقة عشوائية

طبقية تبعاً لمتغير برنامج الدراسة والجنس، حيث بلغت نسبة عينة الدراسة تبعاً لمجتمعها (٨٪) ، والجدول الآتي يبين توزيع هذه تبعاً لمتغيرات الدراسة المستقلة:

الجدول (٣)

توزيع عينة الدراسة تبعاً لمتغيراتها المستقلة

المتغيرات	المستوى	العدد	النسبة المئوية
الجنس	الذكور	١٣٦	٣٩.١
	الإناث	٢١٢	٦٠.٩
البرنامج الدراسي (التخصص)	التربية	١٨٣	٥٢.٦
	الإدارة	٩٣	٢٦.٧
	الحاسوب	٣٣	٩.٥
	الخدمة الاجتماعية	٣٩	١١.٢
الدخل الشهري	١٥٠٠ فأقل	٧٩	٢٢.٧
	١٥٠١ – ٢٠٠٠	٦٦	١٨.٩
	٢٠٠١ – ٢٥٠٠	٨٣	٢٣.٩
	٢٥٠١ – ٣٠٠٠	٥٩	١٧.٠
	٣٠٠١ فأكثر	٦١	١٧.٥

ثالثاً- أداة الدراسة:

تمثلت أداة الدراسة في مقياس الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة لدى الشباب والتي تكونت في صورتها النهائية من (٣٥) بنداً يمثل كل منها دافعاً سلوكياً في صورته النفسية أو الاجتماعية أو الإدارية، ويحتمل أن يكون وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، وقد بُني هذا المقياس بعد مراجعة العديد من الدراسات النظرية والإجرائية في هذا المجال (أبو زيد، ٢٠٠٣؛ عبد السلام، ١٩٩٨؛ Frank & Geenberg, 1990) . **وقد مرت عملية بناء هذا المقياس بالخطوات الإجرائية الآتية:**

أ. طُرح سؤال مفتوح على عينة استطلاعية من طلبة جامعة القدس المفتوحة (منطقة طولكرم التعليمية) مكونة من (٦٦) طالباً وطالبة موزعين على تخصصات مختلفة وهو: من وجهة نظرك ما الدوافع الأكثر أهمية وراء استخدامك وسائل الاتصال الحديثة: (الجوال، والانترنت، والدش (الفضائيات) ؟

ب. بعد تحليل استجابات هؤلاء الطلبة على السؤال السابق توافر لدى الباحثين عدد من أنماط السلوك التي تمثل دوافع أساسية لاستخدام وسائل الاتصال الحديثة، حيث بلغ

عدد هذه البنود (٣٨) بنداً نُظمت ورُتبت في ثلاثة مجالات؛ يمثل (١٥) بنداً منها مجال الدوافع النفسية و (١٢) بنداً مجال الدوافع الاجتماعية، بينما يمثل (١١) بنداً مجال الدوافع الإدارية، وهي بمجملها تمثل أداة الدراسة بصورتها الأولية.

ت. عرضت بنود الأداة على متخصصين باللغة العربية لإبداء ملاحظاتهم اللغوية والتعبيرية عليها، وقد استفاد الباحثان من هذه الملاحظات عند صياغة الأداة بصورتها النهائية.

ث. كما عرضت بنود هذه الأداة على مجموعة من المحكمين بلغ عددهم (٧) محكمين من الأساتذة الجامعيين، ممن يدرسون في جامعة القدس المفتوحة في تخصصات تربوية وإدارية مختلفة، للتحقق من مدى ملاءمتها لموضوعها، ومن أجل التحقق من الخصائص السيكومترية (الصدق والثبات) لأداة الدراسة (التي سيتم ذكرها لاحقاً) .

ج. بعد تحليل ملاحظات المحكمين، وبناءً على توصية هؤلاء المحكمون، حُذفت (٣) بنود لتكرار موضوعها مع بنود أخرى وهي: «التعرف إلى حياة الأفراد العامة والخاصة»، و «للتعبير عن مشاعري وطموحاتي» وهي من مجال الدوافع الاجتماعية، و «المرونة في تقديم الخدمات» وهي من مجال الدوافع الإدارية. ليصبح بذلك العدد النهائي للأداة (٣٥) بنداً، يمثل كل منها دافعاً لاستخدام وسائل الاتصال الحديثة، وموزعة على المجالات الثلاثة كالآتي: المجال النفسي وله (١٥) بنداً، والمجال الاجتماعي والمجال الإداري لكل منهما (١٠) بنود، يجيب عنها المفحوص تبعاً لمقياس ليكرت (Likert) الخماسي (موافق جداً، موافق، إلى حدٍ ما، غير موافق، غير موافق جداً) ؛ بحيث تمنح الاستجابة على هذا المقياس درجة تتراوح بين (٥) درجات في حالة الموافقة الشديدة، ودرجة واحدة في حال عدم الموافقة الشديدة، وتمثل بذلك الدرجة المرتفعة على الأداة مؤشراً على ارتفاع مستوى الدوافع وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، بينما تمثل الدرجة المنخفضة مؤشراً على انخفاض مستوى هذه الوسائل، حيث تتراوح الدرجة الكلية على هذه الأداة ما بين (٣٥ – ١٧٥) ، بينما تتراوح الدرجة الفرعية على المجال الدوافع النفسية ما بين (١٥ – ٧٥) ، وتتراوح هذه الدرجة ما بين (١٠ – ٥٠) على المجالين الاجتماعي والإداري.

ح. وبذلك أصبحت أداة الدراسة في صورتها النهائية بعد إجراء التعديلات عليها تبعاً لملاحظات المحكمين جاهزة للاستخدام، ولتفسير الاستجابة على أداة الدراسة، ولمعرفة أهمية الدوافع وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، اُعتمد المعيار التقويمي النسبي الآتي:

أقل من ٢.٥ ضعيف جداً

٢.٥٠ – ٢.٩٩ ضعيف

٣ – ٣.٤٩ متوسط

٣.٥٠ – ٣.٩٩ قوي

٤ – فما فوق قوي جداً

صدق الأداة وثباتها:

تأكد الباحثان من صدق الأداة بطريقة صدق المحكمين (Construct Validity) من خلال عرضها على مجموعة من المحكمين ذوي الخبرة والاختصاص بلغ عددهم (٧) محكمين، حيث أشاروا إلى بعض الملاحظات على بعض البنود، أُخذت بعين الاعتبار عند صياغة الأداة بصورتها النهائية، سواء بحذف بعض الفقرات، أم بتعديل بعضها الأخر، كما أشاروا إلى صلاحية البنود الأخرى وملاءمتها من حيث موضوعها أو مجالها. وللتحقق من ثبات أداة الدراسة الحالية اعتمدت طريقة الاتساق الداخلي (Internal Consistency) وذلك باستخدام معادلة كرونباخ ألفا (Alpha Cronbach) ، وقد بلغت قيمة معامل الثبات العام للمقياس (٠,٨٧) ، بينما كانت قيم الثبات الفرعية لمجالات المقياس النفسي والاجتماعي والإداري على النحو الآتي: (٠.٨٤) و (٠.٨٢) و (٠.٨٣) على التوالي. وقد اعتبر الباحثان معاملات الصدق والثبات هذه معقولة ومقبولة، وتفي بأغراض الدراسة الحالية.

رابعاً- خطوات الدراسة:

لقد أُجريت الدراسة وفق الخطوات الآتية:

- إعداد أداة الدراسة بصورتها النهائية.
- تحديد مجتمع الدراسة واختيار أفراد العينة.
- توزيع المقياس خلال الفصل الدراسي الأول من العام الدراسي (٢٠٠٨/ ٢٠٠٩).
- تفريغ إجابات أفراد العينة وترميزها وإدخالها إلى الحاسوب، ومعالجتها إحصائياً باستخدام البرنامج الإحصائي (SPSS) .
- استخراج النتائج وتحليلها ومناقشتها.

خامساً- منهج الدراسة:

لتحقيق غرض هذه الدراسة، أُستخدم المنهج الوصفي التحليلي لمناسبته طبيعة هذه الدراسة باستخدام مقياس صمم لهذا الغرض لقياس أهمية الدوافع النفسية والاجتماعية

والإدارية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى التعرف إلى تأثير متغيرات الجنس، والتخصص، والدخل الشهري للأسرة في مستوى استخدام وسائل الاتصال الحديثة.

٥. المعالجات الإحصائية:

للإجابة عن أسئلة الدراسة أُستخدمت المعالجات الإحصائية الوصفية والتحليلية الآتية:

- المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والنسب المئوية.
- اختبار (ت) لمجموعتين مستقلتين (Independent t sample test).
- اختبار تحليل التباين الأحادي (One Way ANOVA).

نتائج الدراسة:

◄ السؤال الأول: **ما الدوافع النفسية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات استجابات أفراد الدراسة على المجال الأول من أداة الدراسة، والمخصص للدوافع النفسية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، وكانت كما هي مبينة في الجدول الآتي:

الجدول (٤)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والتقييم النسبي لدرجات استجابات أفراد الدراسة على مجال الدوافع النفسية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة مرتبة تنازلياً تبعاً لأهميتها

الرقم المتسلسل	الرقم الترتيبي	البنود	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
١٥	١	يشعرني ذلك بالإنجاز وتعلم كل هو ما جديد	٤,٠٦	٠,٩٣	قوي جداً
١	٢	لتحقيق معايير التفوق على الآخرين	٣,٨٠	١,٠٩	قوي
٢	٣	يشعرني ذلك بالاستقلالية الشخصية	٣,٧٩	١,٠٠	قوي
١٤	٤	يساعدني ذلك للتعبير عن ذاتي	٣,٧٤	١,٠٢	قوي
٨	٥	من أجل الترويح عن النفس	٣,٧٢	١,٠٢	قوي
١٠	٦	يشعرني ذلك بمستوى من تحقيق الذات	٣,٦٩	١,٠١	قوي

الرقم المتسلسل	الرقم الترتيبي	البنود	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
١٣	٧	تساعدني في التخطيط لحياتي وإدارة ذاتي	٣,٦٢	١,١٥	قوي
٧	٨	لقتل وقت الفراغ الطويل في حياتي	٣,٦١	١,٩١	قوي
٥	٩	للتخلص من الشعور بالوحدة	٣,٥٠	١,٢١	قوي
١١	١٠	يحقق ذلك لي بعض الحاجات النفسية	٣,٣٧	١,١٠	متوسط
٦	١١	للتخلص من مظاهر التوتر أو القلق أو الإحباط	٣,٣٧	١,١٩	متوسط
١٢	١٢	يشعرني ذلك بالتميز والتفرد	٣,٢٨	١,١٥	متوسط
٩	١٣	للهروب من مشاكل الحياة	٣,١٣	١,٢٦	متوسط
٤	١٤	يجنبني ذلك الشعور بالنقص أمام الآخرين	٢,٨٧	١,٢٥	ضعيف
٣	١٥	لجذب انتباه الجنس الآخر	٢,٧٦	١,٣٥	ضعيف
		المتوسط الكلي لمجال الدوافع النفسية	٣,٩٣	٠,٧٤	قوي

يتضح من نتائج الجدول السابق أن الدوافع النفسية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، كانت قوية جداً على الفقرة (١٦) ؛ حيث بلغ المتوسط الحسابي لها (٤,٠٦) ، في حين كانت الدوافع النفسية قوية على الفقرات (١، ٢، ١٤، ٨، ١٠، ١٣، ٧، ٥) على الترتيب؛ حيث تراوحت المتوسطات الحسابية للاستجابة عليها ما بين (٣,٥٠- ٣,٨٠) ، بينما كانت هذه الدوافع النفسية متوسطة على الفقرات (١٢،٦،١١، ٩) على الترتيب، حيث تراوحت المتوسطات الحسابية للاستجابة عليها ما بين (٣,١٣- ٣,٣٧) . في حين كانت هذه الدوافع النفسية ضعيفة على الفقرات (٤، ٣) حيث بلغت المتوسطات الحسابية لها (٢,٨٧) و (٢,٨٧) على الترتيب. أما فيما يتعلق بالتقدير الكلي لمجال الدوافع النفسية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، فقد كان بمستوى قوي، حيث بلغ المتوسط الحسابي لهذا المجال (٣,٩٣) .

◄ السؤال الثاني: **ما الدوافع الاجتماعية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات استجابات أفراد الدراسة على المجال الثاني من أداة الدراسة والمخصص للدوافع الاجتماعية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، وكانت كما هي مبينة في الجدول الآتي:

الجدول (٥)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والتقييم النسبي لدرجات استجابات أفراد الدراسة على مجال الدوافع الاجتماعية مرتبة تنازلياً تبعاً لأهميتها

الرقم التسلسلي	الرقم الترتيبي	البنود	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
١٧	١	للتعرف على ثقافات الآخرين	٣,٩٢	٠,٩٩	قوي
٢٣	٢	للتفاعل الاجتماعي مع الآخرين	٣,٩١	٠,٨٤	قوي
١٦	٣	تساعد في حل كثير من مشاكلي اليومية	٣,٧٢	١,٠٣	قوي
٢٥	٤	للتعبير عن حريتي في ممارسة ما أريد	٣,٦٤	١,٠٧	قوي
٢٤	٥	يمنحني ذلك مكانة متميزة في المجتمع	٣,٤٤	١,١٥	متوسط
٢١	٦	للمساواة مع أبناء جيلي	٣,٢٨	١,١٤	متوسط
٢٢	٧	من أجل الاحتذاء بالأصدقاء	٢,٩٧	١,١١	ضعيف
١٨	٨	تقليد الأصدقاء والزملاء ومسايرتهم	٢,٨٧	١,٢٤	ضعيف
٢٠	٩	للمفاخرة أمام الآخرين	٢,٥١	١,٢٧	ضعيف
١٩	١٠	من أجل التشبه بالشخصيات المشهورة	٢,١٠	١,٢٣	ضعيف جداً
المتوسط الكلي لمجال الدوافع الاجتماعية			٣,٦٨	٠,٨٥	قوي

يتضح من نتائج الجدول السابق أن الدوافع الاجتماعية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، كانت قوية على الفقرات (١٧،٢٣، ١٦، ٢٥) ؛ حيث تراوحت المتوسطات الحسابية لها ما بين (٣,٦٤- ٣,٩٢) ، بينما كانت هذه الدوافع الاجتماعية متوسطة على الفقرات (٢٤، ٢١) على الترتيب، حيث بلغت المتوسطات الحسابية للاستجابة عليها (٣,٤٤) و (٣,٢٨) على الترتيب. في حين كانت هذه الدوافع الاجتماعية ضعيفة على الفقرات (٢٢، ١٨، ٢٠) ، حيث تراوحت المتوسطات الحسابية لها ما بين (٢,٥١- ٢,٩٧) على الترتيب. كما كان تقدير أفراد العينة ضعيفاً جداً على الفقرة (١٩) حيث بلغ المتوسط الحسابي لها (٢,١٠) . أما فيما يتعلق بالتقدير الكلي لمجال الدوافع الاجتماعية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، فقد كان بمستوى قوي، حيث بلغ المتوسط الحسابي لهذا المجال (٣,٦٨) .

◄ السؤال الثالث: **ما الدوافع الإدارية الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات استجابات أفراد الدراسة على المجال الثالث من أداة الدراسة والمخصص للدوافع الإدارية

وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، والجدول الآتي يوضح ذلك:

الجدول (٦)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية والتقييم النسبي لدرجات استجابات أفراد الدراسة على مجال الدوافع الإدارية مرتبة تنازلياً تبعاً لأهميتها

الرقم التسلسلي	الرقم الترتيبي	البنود	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
٢٦	١	سهولة الاستخدام وسرعة الحصول على المعلومة	٤,٤٧	٠,٦٩	قوي جداً
٢٨	٢	توفر الوقت والجهد في الحصول على ما أريد	٤,٣٣	٠,٨٨	قوي جداً
٣٣	٣	تسهل على الاتصال بالعالم الخارجي	٤,٣١	٠,٩٠	قوي جداً
٢٧	٤	تتيح فرص الاتصال بأشكال متنوعة مرئية ومسموعة	٤,٢٦	٠,٨٩	قوي جداً
٣٢	٥	يمكن تخزين المعلومات والاحتفاظ بها لفترة طويلة	٤,٢٣	٠,٩١	قوي جداً
٣٠	٦	تعطي نتائج سريعة وتقدم خدمات تعليمية مهمة	٤,١٧	٠,٩٥	قوي جداً
٣٤	٧	لمجاراة التطور التكنولوجي الحاصل في العالم	٤,١٦	٠,٩٩	قوي جداً
٣١	٨	تقدم خدمات في أي وقت ودون تحفظ	٤,٠٧	٠,٩٥	قوي جداً
٢٩	٩	تعتبر أقل تكلفة مقارنة بالوسائل الأخرى	٣,٩٩	٠,٩٩	قوي
٣٥	١٠	للاستمتاع والتسلية وممارسة الألعاب	٣,٦٩	١,٠٢	قوي
		المتوسط الكلي لمجال الدوافع الإدارية	٤,٠٨	٠,٦٧	قوي جداً

يتضح من نتائج الجدول السابق أن الدوافع الإدارية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، كانت قوية جداً على الفقرات (٢٦؛ ٢٨، ٣٣، ٢٧، ٣٢، ٣٠، ٣٤، ٣١) على الترتيب؛ حيث تراوحت المتوسطات الحسابية لها ما بين (٤,٠٧– ٤,٤٧)، بينما كانت هذه الدوافع الإدارية قوية على الفقرات (٢٩، ٣٥)، حيث بلغت المتوسطات الحسابية للاستجابة عليها (٣,٩٩) و (٣,٦٩) على الترتيب. أما فيما يتعلق بالتقدير الكلي لمجال الدوافع الإدارية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، فكان بمستوى قوي جداً، حيث بلغ المتوسط الحسابي لهذا المجال (٤,٠٨) .

من معطيات الجداول السابقة يمكن ترتيب مجالات الدوافع وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة كما هو مبين في الجدول الآتي:

الجدول (٧)

ترتيب مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة

الرقم	المجال	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
١	الإداري	٤,٠٨	٠,٦٧	قوي جداً

الرقم	المجال	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	التقويم
٢	النفسي	٣,٩٣	٠,٧٤	قوي
٣	الاجتماعي	٣,٦٨	٠,٨٥	قوي
	الدرجة الكلية	٧٥.٣	٧٣.٠	قوي

يتضح من نتائج الجدول السابق أن الدوافع الإدارية هي الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، يلي ذلك الدوافع النفسية، ثم الدوافع الاجتماعية، التي كانت الدوافع الأقل أهمية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة بالرغم من قوتها.

ويتبين أيضاً من معطيات النتائج السابقة أن الدوافع الخمسة الأكثر أهمية وراء استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة، هي سهولة الاستخدام وسرعة الحصول على المعلومة، وتوافر الوقت والجهد في الحصول على ما أريد، تسهل علي الاتصال بالعالم الخارجي، تتيح فرص الاتصال بأشكال متنوعة مرئية ومسموعة، يمكن تخزين المعلومات والاحتفاظ بها لفترة طويلة على الترتيب، وهي جميعها تندرج تحت المجال الإداري. بينما الدوافع الخمسة الأقل أهمية وراء استخدام هؤلاء الشباب لوسائل الاتصال الحديثة فكانت: من أجل التشبه بالشخصيات المشهورة، للمفاخرة أمام الآخرين، لجذب انتباه الجنس الآخر، تقليد الأصدقاء والزملاء ومسايرتهم، يجنبني ذلك الشعور بالنقص أمام الآخرين على الترتيب، وتندرج ثلاثة من هذه الدوافع تحت المجال الاجتماعي، ويندرج الدافعان الآخران تحت المجال النفسي.

يمكن الاستنتاج من النتائج السابقة– وعلى غير ما هو متوقع– أن هناك ترشيداً معقولاً لاستخدام وسائل الاتصال الحديثة على اختلاف أنواعها، حيث أظهرت هذه النتائج شيوع استخدام هذه الوسائل لدى الشباب لأغراض إدارية من أجل السرعة والموضوعية في الحصول على المعلومات التي تخص تعلمهم وعلاقاتهم، بينما هناك مؤشرات على أن الاستخدام السلبي لوسائل الاتصال الحديثة سواء كان مرتبط بالدوافع الثانوية أم ذات العلاقة بالمفاخرة ولفت الانتباه والتقليد الأعمى ومسايرة الأصدقاء، أم كان مرتبطاً بدوافع نفسية تعبر عن الشعور بالنقص، ولفت الانتباه، كان ضعيفاً وأقل شيوعاً لدى الشباب.

ولدى مقارنة هذه النتائج مع نتائج الدراسات السابقة تبيَّن أنها تتفق مع دراسات (أبو زيد، ٢٠٠٣؛ Borques, 2004؛ منصور، ٢٠٠٤؛ Huang, 2005؛ Dollman & Mo-gan, 2007؛ مؤسسة الزحف الأخضر، ٢٠٠٨، Chune, White & Sussex, 2008) التي أظهرت نتائجها وجود علاقة موجبة بين الدوافع المختلفة النفسية والاجتماعية وبين استخدام وسائل الاتصال الحديثة. بينما تتعارض مع نتائج دراسات (Brown, 1998؛

قسم الدراسات والبحوث الإعلامية، ١٩٩٨؛ ثابت، ٢٠٠٦) التي أظهرت وجود علاقة سالبة بين الدوافع النفسية والاجتماعية وبين استخدام الشباب لهذه الوسائل.

وبذلك، فإن استخدام الشباب لوسائل الاتصال وتقنياتها الحديثة والمختلفة يظهر، كما تؤكد استجاباتهم، على الاستخدام العملي الذي يوفر الوقت والجهد في الحصول على المعلومات، ويشعرهم بتحقيق ذواتهم وكفاءتهم في الاطلاع على العالم الخارجي والتواصل مع غيرهم، وفي هذا الصدد يؤكد عودة ومرسي (١٩٩٤) على أن حاجة الشباب إلى الجامعة والانتماء من أهم الحاجات الأساسية التي تلح في الإشباع، وتدفع بهم إلى الارتباط بالجماعة والعالم الخارجي، وهذا ما يُشعر الشاب بمكانته وتقديره لنفسه، عندما يجد الوسائل المناسبة للتواصل الإيجابي مع غيره.

مما سبق يتضح أن أهم الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية المرتبطة باستخدام الشباب وسائل الاتصال الحديثة: (الحاسوب والانترنت والهواتف المحمولة والدش) إحساسهم بأنها تجعلهم يحصلون على المعلومات اللازمة لتعلمهم من جهة، والمعلومات التي تهمهم شخصياً، ويريدون معرفتها لحل مشكلاتهم اليومية بأقل جهد ووقت من جهة أخرى، وهم يرون بهذه الوسائل والتقنيات الحديثة سبيلاً ناجعاً للحصول على ما يريدون بفعالية وإتقان، وتوفر لهم كماً هائلاً من الموضوعات في مجالات المعرفة المختلفة. وقد أشار (Melivin, 2004) أن الأفراد يتعلمون الكثير عن الآخرين والأشياء العديدة في الحياة والعالم الخارجي من حولهم من خلال وسائل الاتصال المرئية والمسموعة.

◄ السؤال الرابع: **هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة تُعزى لمتغير الجنس؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، كما اُستخدم اختبار (ت) وكانت كما هي مبينة في الجدول الآتي:

الجدول (٨)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، ونتائج اختبار (ت) لدلالة الفروق بين هذه المتوسطات تبعاً لمتغير الجنس

المجالات	الذكور (ن=١٣٦)		الإناث (= ٢١٢)		قيمة (ت) المحسوبة	مستوى الدلالة
مجال الدوافع النفسية	٤,٠٤	٠,٦٧	٣,٨٦	٠,٧٧	٢,٢٣	٠,٠٩٥

المجالات	الذكور (ن=١٣٦)		الإناث (= ٢١٢)		قيمة (ت) المحسوبة	مستوى الدلالة
مجال الدوافع الاجتماعية	٣,٧٦	٠,٨٦	٣,٦٣	٠,٨٥	١,٣٩	٠,٨٧٩
مجال الدوافع الإدارية	٤,٠٥	٠,٧٥	٤,١٠	٠,٦١	٠,٧٣	٠,٨٧٤
المجموع الكلي	٣,٨٥	٠,٧٦	٣,٦٨	٠,٧٠	٢,١٨	٠,٤١٧

يشير الجدول السابق إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية والاجتماعية الإدارية والمجموع الكلي وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير الجنس.

ولدى مقارنة هذه النتائج مع نتائج الدراسات السابقة تبين أنها تتفق كلياً أو جزئياً مع دراسات (Brown, 1998؛ عليان والقيسي، ١٩٩٩؛ Borques, 2004؛ منصور، ٢٠٠٤؛ Huang, 2005؛ Chune, White & Sussex, 2008) التي دلت نتائجها على عدم وجود فروق في استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير الجنس. بينما تعارضت مع دراسات (قسم الدراسات والبحوث الإعلامية، ١٩٩٨؛ عبد السلام، ١٩٩٨؛ أبو زيد، ٢٠٠٣؛ Dollman & Morgan, 2007) التي أظهرت وجود فروق بين الجنسين في استخدام وسائل الاتصال الحديثة لصالح الذكور.

وقد يكون مرد ذلك إلى التقارب العمري بين الجنسين، والتقارب بينهم في التفكير والحاجات والاتجاهات والدوافع والظروف الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها أفراد هذه الدراسة، فهم ينتمون إلى بيئة جغرافية وثقافية محدودة ومتقاربة في العادات والتقاليد والقيم، حيث تشير بعض الدراسات إلى أن استخدام وسائل الاتصال من جانب الأفراد، ينسجم مع أساليبهم في الحياة (Lifestyles) وقيمهم السائدة (أبو زيد، ٢٠٠٣؛ Frank & Reenberg, 1990) ، وأن أساليب الحياة ومنظومة القيم السائدة بالنسبة لأفراد هذه الدراسة قد تكون متجانسة ومتشابهة، وأن ما يخضع له الذكور والإناث في البيئة، تقل فيها الفجوات الثقافية والاجتماعية، وهذا ما يزيد من التقارب بين الجنسين في استخدام الوسائل والتقنيات اللازمة لحياتهم.

◄ السؤال الخامس: **هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة تُعزى لمتغير التخصص؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل

الاتصال الحديثة، تبعاً لمتغير التخصص الدراسي والمبينة في الجدول الآتي:

الجدول (٩)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة الحديثة تبعاً لمتغير التخصص الدراسي

التخصص / المجالات	التربية		الإدارة		الحاسوب		الخدمة	
	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف
الدوافع النفسية	٣,٨٩	٠,٧٦	٣,٩٧	٠,٦٥	٣,٩٤	٠,٧٩	٣,٩٩	٠,٨١
الدوافع الاجتماعية	٣,٧٣	٠,٨٣	٣,٦٣	٠,٨٦	٣,٣٣	١,٠٧	٣,٨٥	٠,٦٦
الدوافع الإدارية	٤,٠٣	٠,٥٩	٤,٢٠	٠,٦٨	٣,٩٧	٠,٨٩	٤,١٢	٠,٧٧
المجموع الكلي	٣,٦٧	٠,٧٣	٣,٨٥	٠,٦٣	٣,٧١	٠,٩٢	٣,٨٩	٠,٧٦

يشير الجدول السابق إلى وجود فروق بين المتوسطات الحسابية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، تبعاً لمتغير التخصص الدراسي، ولمعرفة دلالة الفروق بين هذه المتوسطات، استخدم اختبار تحليل التباين الأحادي (ANOVA) والمبينة نتائجه في الجدول الآتي:

الجدول (١٠)

نتائج اختبار تحليل التباين الأحادي لدلالة الفروق بين هذه المتوسطات الحسابية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير التخصص الدراسي

المجالات		مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة (ف) المحسوبة	مستوى الدلالة
الدوافع النفسية	بين المجموعات	٠,٤٤	٣	٠,١٤٦	٠,٢٦٨	٠,٨٤٨
	داخل المجموعات	١٨٧,٩١	٣٤٤	٠,٥٤٦		
	المجموع	١٨٨,٣٥	٣٤٧			
الدوافع الاجتماعية	بين المجموعات	٢,٦٤	٣	٠,٨٨٠	١,٢٢١	٠,٥٤٩
	داخل المجموعات	٢٤٧,٨٢	٣٤٤	٠,٧٢١		
	المجموع	٢٥٠,٤٦	٣٤٧			
الدوافع الإدارية	بين المجموعات	٢,٣٤	٣	٠,٧٨١	١,٧٦٣	٠,١٥٤
	داخل المجموعات	١٥٢,٤١	٣٤٤	٠,٤٤٣		
	المجموع	١٥٤,٧٥	٣٤٧			

المجالات		مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة (ف) المحسوبة	مستوى الدلالة
المجموع الكلي	بين المجموعات	٣,٠٠	٣	١,٠٠٠	١,٨٩٩	٠,١٣٠
	داخل المجموعات	١٨١,٢٥	٣٤٤	٠,٥٢٧		
	المجموع	١٨٤,٢٥	٣٤٧			

يشير الجدول السابق إلى عدم وجود فروق دالة إحصائياً بين المتوسطات الحسابية لدرجات أفراد الدراسة، في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية والمجوع الكلي لهذه المجالات وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة، تبعاً لمتغير التخصص الدراسي.

ولدى مقارنة هذه النتائج مع نتائج الدراسات السابقة، تبين أنها تتفق كلياً أو جزئياً مع دراسات (Chune, White & Sussex, 2008 ؛Huang, 2005)، والتي دلت نتائجها على عدم وجود فروق في استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير التخصص. بينما تعارضت مع (منصور، ٢٠٠٤؛ عبد السلام، ١٩٩٨؛ Dollman & Morgan, 2007) التي أظهرت وجود فروق في استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير التخصص، سواء كان ذلك لصالح التخصصات النظرية أم العلمية.

وتؤكد هذه النتيجة أن استخدام وسائل الاتصال الحديثة تتأثر بالدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية للأفراد بغض النظر عن مجال تخصصاتهم الدراسية، وقد يفسر ذلك بالتقدم في مجال الوصول للمعرفة والمعلومات في المجالات المختلفة؛ حيث أصبح الاهتمام من قبل الطلبة في تخصصاتهم كافة باستخدام التقنيات الحديثة للحصول للمعلومات وتخزينها، أو من أجل التواصل مع العالم الخارجي، وبخاصة أن معظم الجامعات اليوم تستخدم مصادر التعليم الالكتروني واستخدام التقنيات الحديثة كالحاسوب والانترنت. وهذا الوضع يحتم على الطلبة مواكبة عصر التقنيات لإشباع حاجاتهم العلمية والتعليمية؛ حيث يشير (Young, 1989) في هذا المجال إلى أن استخدام الشباب لوسائل الاتصال الحديثة مرتبط بدوافعهم نحو تحقيق حاجاتهم المرتبطة بحب الاستطلاع والاستثارة، وأن الإنسان عادة ما يبحث عن الجديد في المعلومات والوسائل، وقد يكون مرد ذلك لرغبته في التعبير عما يجول في داخله من مشاعر وحاجات نفسية واجتماعية (Kaatz,2002؛ Brown, 1998) .

◄ السؤال السادس: **هل توجد فروق جوهرية في الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل الاتصال الحديثة، تُعزى لمتغير الدخل الشهري للأسرة؟**

للإجابة عن هذا السؤال حُسبت المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة والمبينة في الجدول الآتي:

الجدول (١١)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لدرجات استجابات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة الحديثة تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

التخصص المجالات	١٥٠٠ فأقل		١٥٠١– ٢٠٠٠		٢٠٠١– ٢٥٠٠		٢٥٠١– ٣٠٠٠		٣٠٠١ فأكثر	
	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف	المتوسط	الانحراف
النفسية	٤,٠٨	٠,٧٠	٣,٦٤	٠,٩٣	٤,٠١	٠,٦١	٣,٧٩	٠,٦٠	٤,٠٩	٠,٧٣
الاجتماعية	٣,٨٢	٠,٩٣	٣,٦١	٠,٨٢	٣,٧٠	٠,٨٣	٣,٣٦	٠,٨٢	٣,٨٤	٠,٧٨٤
الإدارية	٤,٠٣	٠,٦٧	٤,٠٢	٠,٥٧	٤,٠٧	٠,٧٤	٤,٠٦	٠,٦٣	٤,٢٤	٠,٦٩
المجموع	٣,٧٩	٠,٦٩	٣,٤٥	٠,٨١	٣,٧٢	٠,٧٣	٣,٧٧	٠,٧٠	٣,٩٢	٠,٦٤

يشير الجدول السابق إلى وجود فروق بين المتوسطات الحسابية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة، ولمعرفة دلالة الفروق بين هذه المتوسطات، استخدم اختبار تحليل التباين الأحادي (ANOVA) والمبينة نتائجه في الجدول الآتي:

الجدول (١٢)

نتائج اختبار تحليل التباين الأحادي لدلالة الفروق بين هذه المتوسطات الحسابية لدرجات أفراد الدراسة في مجالات الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية وراء استخدام وسائل الاتصال الحديثة تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

المجالات		مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة (ف) المحسوبة	مستوى الدلالة
الدوافع النفسية	بين المجموعات	١٠,٧٥	٤	٢,٦٨٩	٥,١٩٣	٠,٠٠٠*
	داخل المجموعات	١٧٧,٥٩	٣٤٣	٠,٥١٨		
	المجموع	١٨٨,٣٥	٣٤٧			
الدوافع الاجتماعية	بين المجموعات	٩,١٧	٤	٢,٢٩٣	٣,٢٦٠	٠,٠١٢**
	داخل المجموعات	٢٤١,٢٨	٣٤٣	٠,٧٠٣		
	المجموع	٢٥٠,٤٥	٣٤٧			

المجالات		مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة (ف) المحسوبة	مستوى الدلالة
الدوافع الإدارية	بين المجموعات	٣,٩٥	٤	٠,٩٨٨	٢,٢٤٥	٠,٠٤٣*
	داخل المجموعات	١٥٠,٨٠	٣٤٣	٠,٤٤٠		
	المجموع	١٥٤,٧٥	٣٤٧			
المجموع الكلي	بين المجموعات	٨,٢٩	٤	٢,٠٧٣	٤,٠٤٢	٠,٠٠٣**
	داخل المجموعات	١٧٥,٩٥	٣٤٣	٠,٥١٣		
	المجموع	١٨٤,٢٥	٣٤٧			

* دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠٥)

** دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠١)

يشير الجدول السابق إلى وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية والاجتماعية والإدارية والمجموع الكلي تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة، ولمعرفة اتجاه هذه الفروق اُستخدم اختبار (LSD) للمقارنات البعدية، والمبينة نتائجه في الجداول (١١ – ١٣) الآتية:

مجال الدوافع النفسية:

الجدول (١٣)

نتائج اختبار (LSD) للمقارنات البعدية لدلالة الفروق بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

الدخل	١٥٠٠ فأقل	١٥٠١ –٢٠٠٠	٢٠٠١ –٢٥٠٠	٢٥٠١ –٣٠٠٠	٣٠٠١ فأكثر
١٥٠٠ فأقل	–	٠,٠٠٠**	٠,٥٠١	٠,٠١٨*	٠,٩٤٩
١٥٠١ –٢٠٠٠	–	–	٠,٠٠٢*	٠,٢٤٠	٠,٠٠٠**
٢٠٠١ –٢٥٠٠	–	–	–	٠,٠٧٦	٠,٤٨٩
٢٥٠١ –٣٠٠٠	–	–	–	–	٠,٠٢٢*
٣٠٠١ فأكثر	–	–	–	–	–

* دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠٥)

** دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠١)

يتضح من النتائج المعروضة في الجدول السابق:

- وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع

النفسية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (١٥٠٠ فأقل) والفئات (١٥٠١ – ٢٠٠٠) و (٢٥٠١ – ٣٠٠٠) ، وذلك لصالح فئة (١٥٠٠ فأقل) (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

♦ وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (١٥٠١– ٢٠٠٠) والفئات (٢٠٠١ – ٢٥٠٠) و (٣٠٠١ فأكثر) ، وذلك لصالح الفئتين الأخيرتين (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

♦ وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (٢٥٠١– ٣٠٠٠) والفئات (٣٠٠١ فأكثر)، لصالح الفئة الأخيرة (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

هذه النتائج تعني أن الشباب ذوي الأسر التي دخلها يندرج ضمن الفئة الدنيا أو العليا على حد سواء، تكون دوافعهم النفسية أكثر أهمية في استخدام وسائل الاتصال الحديثة موازنة بالفئات متوسطة الدخل.

مجال الدوافع الاجتماعية:

الجدول (١٤)

نتائج اختبار (LSD) للمقارنات البعدية لدلالة الفروق بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الاجتماعية تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

الدخل	١٥٠٠ فأقل	١٥٠١– ٢٠٠٠	٢٠٠١– ٢٥٠٠	٢٥٠١– ٣٠٠٠	٣٠٠١ فأكثر
١٥٠٠ فأقل	–	٠,١٤٨	٠,٣٩٨	٠,٠٠٢*	٠,٨٩١
١٥٠١– ٢٠٠٠	–	–	٠,٥١٠	٠,٠٩٨	٠,١٣٦
٢٠٠١– ٢٥٠٠	–	–	–	٠,٠١٨*	٠,٣٥٤
٢٥٠١– ٣٠٠٠	–	–	–	–	٠,٠٠٢*
٣٠٠١ فأكثر	–	–	–	–	–

* دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠٥)

يتضح من النتائج المعروضة في الجدول السابق:

♦ وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الاجتماعية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (١٥٠٠ فأقل) والفئة (٢٥٠١ – ٣٠٠٠) وذلك لصالح فئة (١٥٠٠ فأقل) (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

♦ وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الاجتماعية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (٢٠٠١ – ٢٥٠٠) و (٢٥٠١– ٣٠٠٠)، وذلك لصالح الفئة الأولى (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

♦ وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية تبعاً لمستوى دخل الأسرة وذلك بين فئة (٢٥٠١– ٣٠٠٠) والفئات (٣٠٠١ فأكثر) ، لصالح الفئة الأخيرة (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) .

هذه النتائج تعني أن الشباب الذين كان دخل الأسرة لديهم من الفئة الدنيا أو العليا، تكون دوافعهم الاجتماعية أكثر أهمية في استخدام وسائل الاتصال الحديثة مقارنة بالفئات متوسطة الدخل.

مجال الدوافع الإدارية:

الجدول (١٥)

نتائج اختبار (LSD) للمقارنات البعدية لدلالة الفروق بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الاجتماعية تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

الدخل	١٥٠٠ فأقل	١٥٠١– ٢٠٠٠	٢٠٠١– ٢٥٠٠	٢٥٠١– ٣٠٠٠	٣٠٠١ فأكثر
١٥٠٠ فأقل	–	٠,١٧٧	٠,٣٩٨	٠,٥٤٢	٠,٠٣١*
١٥٠١– ٢٠٠٠	–	–	٠,٥١٠	٠,٠٩٨	٠,٠٣٣*
٢٠٠١– ٢٥٠٠	–	–	–	٠,١٣٨	٠,٠٤٣*
٢٥٠١– ٣٠٠٠	–	–	–	–	٠,٠٤٥*
٣٠٠١ فأكثر	–	–	–	–	–

* دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠٥)

يتضح من النتائج المعروضة في الجدول السابق، وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الإدارية تبعاً لمستوى دخل الأسرة الشهري، وذلك بين فئة (٣٠٠١ فأكثر) والفئات (١٥٠٠ فأقل) و (١٥٠١ – ٢٠٠٠) و (٢٠٠١– ٢٥٠٠) و (٢٥٠١ – ٣٠٠٠) لصالح الفئة الأولى (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨) ، وهذه النتائج تعني أن الشباب الذين كان دخل الأسرة لديهم من الفئة العليا من حيث الدخل الشهري، تكون دوافعهم الإدارية أكثر أهمية في استخدام وسائل الاتصال الحديثة مقارنة بالفئات الدخل الأخرى.

المجموع الكلي:

الجدول (١٦)

نتائج اختبار (LSD) للمقارنات البعدية لدلالة الفروق بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في المجموع الكلي للدوافع تبعاً لمتغير الدخل الشهري للأسرة

الدخل	١٥٠٠ فأقل	١٥٠١ -٢٠٠٠	٢٠٠١ -٢٥٠٠	٢٥٠١ -٣٠٠٠	٣٠٠١ فأكثر
١٥٠٠ فأقل	-	٠,٠٠٤*	٠,٧٦٤	٠,٤٨٨	٠,٣٢٤
١٥٠١ -٢٠٠٠	-	-	٠,٠٠٢*	٠,٠٤٦*	٠,٠٠٠**
٢٠٠١ -٢٥٠٠	-	-	-	٠,٣٢٨	٠,٤٧٣
٢٥٠١ -٣٠٠٠	-	-	-	-	٠,١١٦
٣٠٠١ فأكثر	-	-	-	-	-

* دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠٥)

** دال إحصائيا عند مستوى الدلالة (α= ٠,٠١)

يتضح من النتائج المعروضة في الجدول السابق:

- وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع الكلية تبعاً لمستوى دخل الأسرة، وذلك بين فئة (١٥٠٠ فأقل) والفئة (١٥٠١ - ٢٠٠٠)، وذلك لصالح الفئة الأولى (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨).
- وجود فروق دالة إحصائياً بين متوسطات درجات أفراد الدراسة في مجال الدوافع النفسية تبعاً لمستوى دخل الأسرة، وذلك بين فئة (١٥٠١- ٢٠٠٠) والفئات (٢٠٠١ - ٢٥٠٠) و (٢٥٠١ - ٣٠٠٠) و (٣٠٠١ فأكثر)، وذلك لصالح الفئات الأخيرة (أنظر جدول المتوسطات رقم ٨).

هذه النتائج تعني أن الشباب الذين كان دخل الأسرة لديهم من الفئة الدنيا أو العليا، تكون دوافعهم النفسية والاجتماعية بشكل عام أكثر أهمية في استخدام وسائل الاتصال الحديثة مقارنة بالفئات متوسطة الدخل.

المقترحات والتوصيات:

في ضوء نتائج الدراسة ومناقشتها يمكن تقديم المقترحات والتوصيات الآتية:

١. التركيز على العوامل النفسية والاجتماعية في عملية التواصل الفعال مع الشباب.

٢. توفير آليات فعالة لجذب انتباه الشباب، بحيث تكون غير مستفزة لانفعالاتهم وعواطفهم.

٣. مساعدة الشباب على مواكبة التطور التكنولوجي، واستخدام التقنيات التربوية الحديثة دون إثارة عواطفهم الغريزية

٤. دعوة الباحثين المتخصصين لإجراء مزيد من البحوث والدراسات، باستخدام عينات من مجتمعات محلية مختلفة، ومتغيرات متنوعة، لتعميق النتائج في مجال هذه الدراسة.

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

١. إبراهيم، مجدي (٢٠٠٤) تربويات الانترنت موسوعة التدريس. ط.١، ج.٢، عمان: دار المسير، للنشر والتوزيع والطباعة.

٢. أبو زيد، نبيلة. (٢٠٠٣). «الدوافع النفسية والاجتماعية المرتبطة باستخدام أجهزة الاتصال الحديثة لدى المراهقين». مجلة علم النفس. ١٧ (٦٥– ٦٦) ، ٧٢– ٩١.

٣. أبو عرقوب، إبراهيم . (١٩٩٣) . الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي.عمان: مجلاوي للنشر والتوزيع.

٤. ثابت، سعيد . (٢٠٠٦). «مشاهدة التلفزيون على سلوك الطالبات الجامعيات». جريدة البيان، العدد (١٨٩) .

٥. جامعة القدس المفتوحة. (٢٠٠٥) . علم النفس التربوي. نابلس: منشورات جامعة القدس المفتوحة.

٦. حسين، فاروق (١٩٩٧) الانترنت الشبكة الدولية للمعلومات. بيروت: دار الراتب الجامعية.

٧. حناوي، مجدي (٢٠٠٥) اتجاهات المشرفين الأكاديميين نحو الانترنت واستخداماتها في التعليم في جامعة القدس المفتوحة في فلسطين. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس.

٨. الدعيلج، إبراهيم. (١٩٩٥). «الآثار والمواجهة للبث المباشر تربوياً وإعلامياً على المجتمع السعودي». جريدة الرياض، العدد (١٢٨٨٢) .

٩. دافور، أرلند (ترجمة منى ملحيس ونبال ادلبي). (١٩٩٨). الانترنت. بيروت: الدار العربية للعلوم.

١٠. راجح، أحمد عزت . (١٩٨٧) . أصول علم النفس. القاهرة: دار المعارف

١١. الزهراني، راشد. (٢٠٠٤) . تقنيات المعلومات بين التبني والابتكار. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.

١٢. السروري، أحمد . (٢٠٠٧) . الجيل الثالث للموبايل والتعلم والتعليم.

www.deyaa.org.

١٣. سكيك، حازم . (٢٠٠٨) . كيف يعمل التلفون المحمول (الجوال) ؟ الجزء الخامس.

www.hazemsakeek.com/ QandA/ cell_phone_5/ cell_phone_5.htm.

١٤. سكيك، حازم . (٢٠٠٧) . كيف يعمل التلفون المحمول (الجوال) ؟ الجزء الرابع.

www.hazemsakeek.com/ QandA/ cell_phone_4/ cell_phone_4.htm.

١٥. سكيك، حازم . (٢٠٠٦) . كيف يعمل التلفون المحمول (الجوال) ؟ الجزء الأول والثاني الثالث.

www.hazemsakeek.com/ QandA/ cell_phone_3/ cell_phone_3.htm.

١٦. سلامة، حسين . (١٩٩٧). أوساط تخزين المعلومات. عمان: دار الفكر للنشر.

١٧. عبد اللطيف، وليد . (٢٠٠٧). تطور استخدام الموبايل.

www.kw/final/NewspaperWebsitepublic/ ArticlePage.aspx?ArticleD=318535.

١٨. عبد السلام، نجوى (١٩٩٨) أنماط ودوافع استخدام الشباب المصري لشبكة الانترنت. دراسة استطلاعية، المؤتمر العلمي الرابع، القاهرة: مصر.

١٩. العبيدي، منصور (١٩٩٦) الانترنت استثمار المستقبل. ط.١ ، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية.

٢٠. عليان، ربحي والدبس محمد (٢٠٠٣) وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم. ط.٢، عمان: دار الصفا للنشر والتوزيع.

٢١. عليان، ربحي والقيسي، منال (١٩٩٩) «استخدم شبكة الانترنت في المكتبات الجامعية، دراسة حالة لمكتبة البحرين». رسالة المكتبة، م. ٣٤، ع. ٣٩، ص٧.

٢٢. عودة، محمد ومرسي، كمال . (١٩٩٤). الصحة النفسية في ضوء علم النفس الإسلامي. الكويت: دار القلم.

٢٣. قسم الدراسات والبحوث الإعلامية . (١٩٩٨) . «تأثير القنوات الفضائية على الأفراد والمجتمع». جريدة الوطن، القاهرة، ٢ (٦٩٦) بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٩٨.

٢٤. منصور، تحسين (٢٠٠٤) «استخدام الانترنت ودوافعها لدى طلبة جامعة البحرين». المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع. ٨٦، الكويت: مجلس النشر العلمي.

٢٥. مؤسسة الزحف الأخضر . (٢٠٠٨) . وسائل الاتصال الحديثة وتأثيراتها على التقارب الاجتماعي بين أفراد الأسرة. متوفر على شبكة الانترنت:

www.azzahfalakhder.con/ content/ view/ 989/ 31.

٢٦. اليوسف، شعاع . (٢٠٠٦) . التقنيات الحديثة: فوائد وأضرار دراسة للتأثيرات السلبية على صحة الفرد. سلسلة كتاب الأمة، البحرين: وزارة الأوقاف بالبحرين.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. *Bernard, H. (2005) . Psychology of learning and teaching. 6th ed, New York: McGraw- Hill.*
2. *Biehler, R. (1990) . Psychology applied to teaching. Boston: Houghton Mifflin.*
3. *Book, C. (2000) . Human communication: Principles, contexts and skills. New York: Martin’s Press.*
4. *Borquez, A . (2004) . “Mobile and wireless technology: The impact in a higher education setting”. Dissertation Abstracts International, page. 4165, No. AAI3155384.*
5. *Brown, F . (1998) . “Deterrents to adult students in higher education: An analysis of participting adult students and non – participating adults at the university of mobile”. Dissertation Abstracts International, page. 50, No. AAI9823146.*
6. *Chune, N, White, P & Susswx, R. (2008) . “The potential of using a mobile phone to access the inernet for learning EFL listening skills within Korean context”. ReCall, 20 (3) , 331- 347.*
7. *Dance, F & Larson, C. (2003) . Speech communication concepts and behavior. New York: Rinehart & Winston.*
8. *Dollman, L & Morgan, C. (2007) . “Improving social skills through the use of cooperative learning”. ERIC. ED.496112.*
9. *Frank, R & Greenberg, M. (1990) . Public use of television: When is watched and why. New York: Beverly Hills- sage.*

10. *Huang, J. (2005) . "Challenges of academic listening: Reports by Chinese students". College Student Journal, 37 (3) , 553- 559.*
11. *Junior, J. , Negretti, R. & Coutinho, C, . (2007) . "Methodology to use multimeia applications and mobile devices when teachin strutural anaysis". Interntional confernce on engineering education, University of Combra, Purtugal: www.bristol.ac,uk/ cetl/ aims/ mobile_lab.*
12. *Melivin, S. (2004) . Human Communication. New York: General Leaving Press.*
13. *Neumann, V. (2008) . "Increasing reading comprehension of elementary students through fluency- based interventions". ERIC, ED,500847.*
14. *Kaatz, R. (2002) . An adertiser's guide to electronic media. 5th ed, Columbus: Rain Book.*
15. *Kunczik, M. (1992) . Communication and social change. 3th ed, New York: Friedrich – Ebert – Stiftung.*
16. *Kratkoski, A. (2005) . "Teaching and learning with mobile computing devices: Closing the GAP". Research Center for Educational Technology, Kent State University, USA:*
    www.fhsu.edu/ mobileecomputing/ benefits.php.
17. *Stankeviciene, J. (2007) "Assessment of teaching quality: Survey of university graduates". ERIC, ED. 498646.*
18. *Young, J. (1989) . Programs of the brain. London: Oxford University Press.*

قياس الكفاءة المصرفية باستخدام نموذج حد التكلفة العشوائية- دراسة حالة البنوك الجزائرية (٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٨)

د. حدة رايس*

أ. نوي فاطمة الزهراء**

* أستاذ مساعد/ كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر.
** محاضر/ كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير/ جامعة محمد خيضر/ بسكرة/ الجزائر.

ملخص:

لقد كان لانتشار ظاهرة العولمة آثار بعيدة المدى على مختلف الأنشطة الاقتصادية على النحو الذي فرض كثيراً من التحديات، لا سيما أمام الأنشطة المصرفية. ومن هذا المنطلق تظهر أهمية موضوع قياس الكفاءة المصرفية، خاصة في حالة الجزائر التي تشهد مرحلة انتقالية من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد السوق، الذي يسند فيها للبنوك الجزائرية دور كبير في هذا الانتقال في ظل غياب الدور الفعال لسوق رأس المال في الجزائر. لذا حاولت هذه الدراسة معالجة الإشكالية المتعلقة بمدى تمتع البنوك الجزائرية بالكفاءة المصرفية، في الفترة من ٢٠٠٤– ٢٠٠٨، وذلك باستخدام نموذج حد التكلفة العشوائية كنموذج كمي، حيث قُدرت دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية Translog Cost Function بهدف قياس مرونات الإحلال، ومرونات الطلب السعرية، ووفورات الحجم والنطاق لعينة تتكون من ستة بنوك الجزائرية.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى أن البنوك الجزائرية محل الدراسة تتمتع بكفاءة الإحلال بين عناصر الإنتاج، ولكنها لا تتمتع بالقدرة على التحكم في تكاليفها الأمر الذي جعلها لا تحقق وفورات حجم تتيح لها التوسع في حجم نشاطها. كما وجدت أن هذه البنوك تتمتع بوفورات نطاق تتيح لها تنويع منتجاتها. لذا توصي الدراسة السلطات الجزائرية بالعمل على رفع كفاءة البنوك الجزائرية من خلال زيادة استقلاليتها، وبخاصة البنوك العمومية منها، والارتقاء بكفاءة العنصر البشري وتحديث البنوك، ودراسة إمكانية الاندماج بين البنوك الجزائرية لتقوية مراكزها المالية، وتقديم خدمات مصرفية مستحدثة لمواجهة المنافسة الشديدة في ظل تحرير تجارة الخدمات المصرفية.

الكلمات المفتاحية: كفاءة المصرفية، نموذج حد التكلفة العشوائية، البنوك الجزائرية.

Abstract:

The prevalence of globalization phenomenon had far- reaching effects on various economic activities, as a lot of challenges especially to Banking activities. So a strong banking system capable of mobilizing and allocating financial resources efficiently to serve the development objectives and reduce risks becomes urgent. This study is trying to measure Algerian bank efficiency, by use the quantitative approach of stochastic cost frontier model to estimate the translog cost function of a sample of banks during the period (2004- 2008) to measure the elasticities of substitution and input price elasticities and the scale and scope efficiency in those banks.

This study concluded that Algerian Banks have substitutability between production elements, however, those banks can't dominate their costs, that had led to a failure in their scale economies that hinders the it ability to expand in future it is found that those banks have a scope economies of varying their products. Moreover, the study concluded that the five public banks are less profitable than Algerian Baraka Bank.

Key Words: *Bank Efficiency, Stochastic Cost Frontier Analysis, Algerian banks.*

مقدمة:

إن التغيرات الاقتصادية العالمية التي ميزت العقدين الأخيرين من القرن العشرين، شكلت في مجملها واقعاً معاصراً وضع العالم على عتبة مرحلة جديدة، كانت ظاهرة العولمة أهم معالمها، وبخاصة منها العولمة المالية. فقد شهد القطاع المالي على مستوى العالم تغيراً جذرياً، وتوسعاً سريعاً مصحوباً بتوجهات التحرر ورفع القيود التنظيمية، فضلا عن التقدم الكبير في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. فقد سجلت تدفقات رؤوس الأموال عبر الحدود زيادة حادة، واستحدثت الأسواق المالية أدوات مالية جديدة متطورة، وازدادت سهولة تنفيذ المعاملات المالية وسرعتها زيادة بالغة. هذه التغيرات السريعة في البيئة الخارجية، وتزايد متطلبات النمو المحلي أدت إلى وضع نظام مصرفي حديث، يتعامل بأسس جديدة مع مختلف القطاعات الاقتصادية، وذلك في ضوء حقيقة أن البنوك تبقى القناة الرئيسية اللازمة لانتقال الأموال بين مختلف القطاعات بصورة تسمح بتعظيم المنفعة.

في ظل هذه الأوضاع، ونتيجة لما يؤديه القطاع المصرفي من دور كبير في الانتقال إلى اقتصاد السوق، شهد القطاع المصرفي الجزائري جملة من الإصلاحات بعد أن خضع لعقود طويلة لتخطيط مركزي، وتدخل مستمر من قبل الدولة، ومن هذا المنطلق ستركز الدراسة على قياس الكفاءة المصرفية في البنوك الجزائرية، للبحث عن الطرق الكفيلة برفع هذه الكفاءة، وذلك بإيجاد السبل والآليات الحديثة لاستخدامها في البنوك الجزائرية، لتمكينها من مواجهة تحديات العولمة.

أهداف الدراسة:

من خلال ما تقدم يمكن تلخيص أهم أهداف الدراسة فيما يأتي:

- الوقوف على مدى تحكم المؤسسات المصرفية الجزائرية في إدارة تكاليفها، وتقدير مرونات الإحلال، ومرونات الطلب السعرية للمدخلات المستخدمة من قبل البنك وتحليل دلالاتها.
- تحليل وفورات الحجم– إن وجدت– لمعرفة الحجم الأمثل للبنوك الجزائرية.
- تحليل وفورات النطاق– إن وجدت– لمعرفة المزيج الأمثل من المنتجات.
- التعرف إلى بعض الآليات الكفيلة برفع كفاءة النظام المصرفي، ودراسة إمكانية تطبيق هذه الآليات على البنوك الجزائرية.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الموضوع من الدور المهم الذي يؤديه القطاع المصرفي في التنمية الاقتصادية في الوقت الذي تتزايد فيه الاتجاهات التنظيمية والرقابية الحديثة للبنوك في ظل العولمة المالية، كالاتجاه نحو البنوك الشاملة والاندماج والخصخصة، حيث إن تدهور النظام المصرفي، أصبح يؤثر سلباً على الادخار والاستثمار، وهذا ما ينسحب على التنمية.

كما نجد أن كفاءة القطاع المصرفي الجزائري تحتل جزءاً كبيراً في نجاح الإصلاح الاقتصادي والانتقال من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد السوق. ومن هذا المنطلق كان من الضروري الاهتمام برفع كفاءة البنوك الجزائرية، وتفعيل دورها في النشاط الاقتصادي بما يتماشي مع التطورات العالمية. لذا حاول الباحث في هذه الدراسة عرض واقع كفاءة البنوك الجزائرية، وتشخيص نقاط ضعفها للخروج بتوصيات تسمح بتطوير هذه البنوك، ومعالجة سلبياتها، وبذلك يمكن لهذه الدراسة أن تفيد القائمين على شؤون النظام المصرفي الجزائري، وأيضا المسؤولين على البنوك محل الدراسة.

إشكالية الدراسة:

يعدُّ تقويم كفاءة البنوك الجزائرية عملية ضرورية وملحة، لما تشهده هذه البنوك من تحولات وإصلاحات، وبخاصة أن نجاح النظام الاقتصادي في وقتنا الحاضر أصبح مرهوناً بمدى فعالية ونجاعة النظام المالي للدولة، وبخاصة القطاع المصرفي في حالة الجزائر التي تشهد سوق رأس المال فيها انطلاقة محتشمة.

ويمكن أن نعكس إشكالية الدراسة بالسؤال الآتي:

هل تتمتع البنوك الجزائرية بالكفاءة المصرفية، التي تعكس قدرتها على إدارة تكاليف نشاطها، وتحقيقها للحجم الأمثل لهذه البنوك، وعرضها لمزيج متنوع من منتجاتها؟

هذا بالإضافة إلى الأسئلة الفرعية الآتية:

- هل تستطيع البنوك الجزائرية التحكم في تكلفة نشاطها، والرفع من كفاءتها الإنتاجية؟
- هل تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات حجم، تتيح لها إمكانية التوسع والرفع من حجم نشاطها؟

- هل تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات نطاق، تتيح لها إمكانية تنويع منتجاتها؟

الإطار النظري للدراسة:

يحتل موضوع رفع الكفاءة في العمل المصرفي موقعاً مهماً، وبخاصة في فترة التحرر والعولمة في الأسواق المالية، حيث أصبحت المصارف تزاول نشاطها من خلال سوق تتسم بالمنافسة الشديدة، سواء من طرف المؤسسات المالية أم غير المالية، وفي ظل التطورات الإقليمية والدولية على صعيد العمليات، والتقنيات، والأدوات، وجدت هذه المصارف نفسها في وضع يحتم عليها التركيز على كفاءة أدائها في مختلف المستويات كشرط لنجاحها في المحافظة على نشاطها، والقدرة على المنافسة، لذا حاولنا في هذا العنصر التوصل إلى مفهوم الكفاءة المصرفية، وطرق قياسها .

١ـ مفهوم الكفاءة المصرفية:

لقد اتخذ مفهوم الكفاءة المصرفية أبعاداً أخرى بالإضافة للاستخدام الأمثل للموارد، أهمها: حجم الجهاز المصرفي، وهيكل الوحدات المصرفية، واقتصادية الوحدات المصرفية والجهاز المصرفي ككل، وكفاءة الأداء المصرفي. وقد ركزت دراسات الكفاءة المصرفية على تقويم هذه الكفاءة في إطار التكاليف التشغيلية للمصارف، وكذلك دراسة الكفاءة المصرفية في إطار الربحية المصرفية، كما اُستخدم مفهوم الكفاءة الاقتصادية وتطبيقها على المصارف، وذلك بقياس الكفاءة التقنية أو الكفاءة السعرية لمصرف معين، أو مصارف عدة. (الجميل، ١٩٨٩) .

إلا أن التوجهات الحديثة تحاول دراسة الكفاءة الاقتصادية للمصارف في ظل مفهوم واسع وشامل، من خلال ربطها بالأهداف المركزية للاقتصاد على المستوى الكلي أو الجزئي، وذلك بتحديد دور هذه المصارف في الاقتصاد، ومدى مساهمتها في التنمية الاقتصادية. وقد امتدت تلك الدراسات إلى أكثر من ذلك لتعميق الاتجاهات المالية في الاقتصاد، وقياس فاعلية الجهاز المصرفي من خلال تلبيته لحاجات المجتمع، وبخاصة لقطاعات الأعمال، وبذلك نجد أن مفهوم الكفاءة المصرفية ليس مفهوما مطلقا، بل هو مفهوم نسبي يجب أن يرتبط بمعيار للمقارنة في عملية تقويم أداء معين (الجميل، ١٩٨٩) .

كما أن الاهتمام بكيفية تأثير التغيرات الاقتصادية على كفاءة البنوك وقدرتها على تحويل الموارد إلى خدمات مالية متعددة، ولد ما سمي بمفهوم اللاكفاءة الذي يشير إلى أن هناك تبديداً للموارد، وأن هذه المؤسسات تنتج أقل من المستوى الملائم للمخرجات من خلال الموارد المستخدمة، أو أنها تستخدم مجموعة مكلفة من الموارد لإنتاج مزيج معين من المنتجات أو الخدمات (Wheelock and Wilson، 1995) .

أولاً- تعريف الكفاءة المصرفية:

كما لاحظنا سابقا إن مفهوم الكفاءة المصرفية له معنى واسع، ولا يمكن حصره في نطاق ضيق، إلا أن هذه الدراسة ستعتمد على تعريف لوضع إطار تُقاس به الكفاءة المصرفية. وهذا التعريف هو: تكون المؤسسة المصرفية ذات كفاءة إذا استطاعت توجيه الموارد الاقتصادية المتاحة لها نحو تحقيق أكبر قدر ممكن من العوائد بأقل قدر ممكن من الهدر، أي التحكم الناجح في طاقاتها المادية والبشرية، هذا من جهة. وتحقيقها للحجم الأمثل وعرضها لتشكيلة واسعة من المنتجات المالية من جهة أخرى. **وبتحليلنا لهذا التعريف نجد أن الكفاءة المصرفية تشمل عدة جوانب يمكن تلخيصها في النقاط الآتية** (ساعد ،٢٠٠٩) :

- ♦ الكفاءة في استخدام الموارد المتاحة بالتحكم في التكاليف، وهو ما يسمى بكفاءة التكاليف .
- ♦ الكفاءة في توزيع التكاليف من خلال السعي وراء تحقيق الحجم الأمثل، ويطلق عليها كفاءة الحجم.
- ♦ الكفاءة في تنويع المنتجات المالية من خلال تنويع النشاط، ويعرف هذا النوع من الكفاءة بكفاءة النطاق .

وتشير المفاهيم الثلاثة السابقة إلى أنواع الكفاءة المصرفية التي سنتطرق إليها بشيء من التفصيل في القسم الآتي:

ثانيا- أنواع الكفاءة المصرفية:

إضافة للكفاءة الإنتاجية يهتم الاقتصاديون– في دراسة الكفاءة المصرفية– بنوعين آخرين هما: كفاءة الحجم ووفوراتها، وكفاءة النطاق ووفوراتها، **وفيما يأتي توضيح لهذه الأنواع بشيء من التفصيل:**

- **الكفاءة الإنتاجية:**

تتحقق الكفاءة الإنتاجية باستخدام الموارد المتاحة للحصول على أقصى إنتاج ممكن بطريقة ملائمة يراعى فيها تقليل التكاليف ورغبات المستهلكين (خرابشة، ٢٠٠٢) . ويمكن تعريف الكفاءة الإنتاجية بأنها: «العلاقة بين كمية الموارد المستخدمة في العملية الإنتاجية، وبين الناتج من تلك العملية، وبذلك ترتفع الكفاءة الإنتاجية، كلما ارتفعت نسبة الناتج إلى المستخدم من الموارد» (الحاج وفليح، ٢٠٠٩، ص٢٤٢)

هناك بعد آخر للكفاءة الاقتصادية التي يمكن أن تحققه المؤسسة، وهو اقتصاديات الحجم (Economies of Scale)، واقتصاديات النطاق (Economies of Scope) حيث تهتم الأولى بالحجم الأمثل للمؤسسة، أما الثانية فتركز على التنويع في منتجات المؤسسة (Barrett ، 1997) .

- **كفاءة الحجم ووفوراتها:**

تشير كفاءة الحجم في البنك إلى التوفير في تكاليفه عند زيادة حجم المنتجات مع الاحتفاظ بمزيج مدخلات ثابتة (Allen and Liu، 2005). وبذلك تشير وفورات الحجم إلى زيادة الكفاءة أو انخفاضها بناءً على الحجم (Daoud, 2007) .

- وتمثل اقتصاديات الحجم أهم عوامل زيادة الأرباح في المؤسسة الاقتصادية، ذلك أن التوسع في حجم المؤسسة، وحجم عملياتها يمنحها فرصة الحصول على تكاليف أقل من خلال توزيع التكاليف الثابتة على قاعدة أوسع (ساعد، ٢٠٠٩) .

- **كفاءة النطاق:**

تعرف وفورات النطاق بأنها الادخار في التكاليف من خلال استخدام المدخلات نفسها لإنتاج أنماط عدة من المنتجات (Morris، 2008). وبذلك تشير اقتصاديات النطاق إلى زيادة الكفاءة أو انخفاضها بناءً على التنويع في المنتجات، ونجد أن اقتصاديات النطاق تؤدي دوراً مهماً في المؤسسة المصرفية، خاصة بعد اندماج الأسواق المالية، واشتداد المنافسة في جذب العملاء، لذا لجأت معظم البنوك إلى توسيع منتجاتها عن طريق تنويع حافظاتها المالية، والقيام بخدمات غير تقليدية (Young, 1997).

قياس الكفاءة المصرفية بالطرق الكمية:

إن الاختلاف والتنوع في طبيعة نشاط المؤسسة المصرفية، وتعدد طرق قياس مدخلاتها ومخرجاتها، صاحبه تنوع في طرق قياس الكفاءة المصرفية وأدواتها. وتعود فكرة قياس الكفاءة إلى أعمال Farrell (1957) الذي حدد مقياساً بسيطاً للكفاءة التقنية والتخصيصية من أجل مدخلات متعددة (Worthington, 1998) .

يمكن تمييز نوعين من الطرق الكمية لقياس الكفاءة المصرفية، طريقة تعتمد البرمجة الخطية كنموذج غير معلمي (Non- parametric approach) ، وتقوم أساسا على افتراض عدم وجود الأخطاء العشوائية عند القياس، ومن أهم طرقها طريقة تحليل البيانات المغلفة (Data Envelopment Analysis) ، وطريقة تعتمد التقدير الإحصائي كنموذج معلمي (Parametric approach) ومن بين طرقها طريقة الحد السميك

(Thick Frontier Analysis) ، وطريقة حد التكلفة العشوائية (Stochastic Cost Fro-tier Analysis) ، وطريقة التوزيع الحر (Distribution- Free Analys)، **وفيما يأتي سيتم شرح هذه الطرق بشيء من التفصيل:**

أولا- طريقة تحليل البيانات المغلفة (DEA) :

شهد عام ١٩٧٨م تطوراً في مجال قياس الأداء، فقد تمكن Charnes وزملاؤه من وضع أسس أسلوب التحليل التغليفي للبيانات، وهو أحد أساليب البرمجة الخطية المبني على أساس منهجية الحد Frontier Methodology، التي ترجع لأعمال Farrell عام ١٩٥٧م (التل والقرعان، ٢٠٠٤) ، ويتميز هذا الأسلوب بالعديد من المزايا من أهمها: تحديد نسبة اللاكفاءة، ومصادرها، إضافة إلى سهولة الاستخدام (الشعيبي، ٢٠٠٤) .

تستخدم هذه الطريقة مجموعة من البيانات حول: التكاليف، والمخرجات، وأسعار المدخلات لعينة من البنوك، ومن خلال هذه العينة يُحدد البنك الذي ينتج– وبأقل التكلفة– حجم إنتاج عند مستوى معين من أسعار المدخلات، ويعرف هذا البنك بـ «أفضل بنك ممارس»، أو «أفضل تطبيق» لتلك التوفيقة (مخرجات، أسعار مدخلات) ، ويشكل حداً للكفاءة Efficiency Frontier يغطي أو يغلف البنوك الأخرى في العينة، ويمكن استخدامه لتقويم كفاءة باقي البنوك، فالبنوك التي تقع على الحد هي البنوك الكفوؤة، والبنوك التي تقع خارج الحد فهي غير كفوؤة، تعد هذه الطريقة مرنة وقابلة للتكيف، ولا تضع أسلوباً خاصاً لدالة تكاليف أفضل بنك ممارس، لكن المشكلة هي كونها لا تسمح بأية أخطاء في البيانات، رغم أن كل البيانات في الواقع تخضع لخطأ القياس، لذلك تعد هذه الطريقة غير واقعية (Mester, 1994) .

ثانيا- طريقة حد التكلفة العشوائية (SFA) :

تعتمد هذه الطريقة على تقنيات الانحدار لتقدير دالة التكاليف الكلية كمتغير تابع متغيرات مستقلة عدة، تتضمن مستويات المخرجات وأسعار المدخلات، وتشكل التكلفة الكلية المتوقعة الحد الذي يمثل أفضل تطبيق، وعليه فإن المصرف الذي تكلفته الحالية تساوي تكلفته المتوقعة سيمثل أفضل تطبيق، وبالتالي يوصف البنك باللاكفاءة إذا كانت تكلفته الحالية أعلى من تلك المتوقعة، في حين أن الفرق بين التكلفة الحالية والمتوقعة يسمى بحد الاضطراب العشوائي، ويشمل عنصرين هما: الأخطاء الناتجة عن الكفاءة - X وتكون موزعة توزيعا نصف طبيعي، والأخطاء العشوائية للانحدار التي تتوزع توزيعاً طبيعياً (قريشي، ٢٠٠٦) .

ثالثا- طريقة الحد السميك (TFA):

طًورت هذه الطريقة من طرف (Berger and Humphrey) سنة ١٩٩١. وهي تقسم عينة البنوك إلى أربع مجموعات أساسية حسب التكلفة المتوسطة (التكلفة الكلية/ الأصول الكلية) ، وعن طريق تقدير دالة التكاليف الكلية للعينة الفرعية، تكون المجموعة أو الربع الذي يتمتع بمتوسط تكلفة منخفض يمثل ما يسمى بالحد السميك، ويعدُّ أفضل تطبيق يمكن من خلاله قياس الكفاءة المصرفية لباقي البنوك (Mester، 1994) .

رابعا- طريقة التوزيع الحر (DFA):

تطبق هذه الطريقة عندما تتوافر البيانات والمعطيات لأكثر من سنة، وتفترض أن اللاكفاءة مستقرة عبر الزمن، في حين أن الأخطاء العشوائية تتوسط عبر الفترة نفسها، وبما أن الاضطراب العشوائي يتكون من عنصرين هما: اللاكفاءة والخطأ العشوائي، فإن متوسط الاضطراب العشوائي لمجموعة من السنوات يعد مقياسا للاكفاءة البنوك عبر كل سنوات الفترة (Mahaftha، 2005) .

الدراسات السابقة:

- **دراسة الساعاتي والعصيمي** (١٩٩٥) .

في هذه الدراسة قُدِّرت دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية لعدد من البنوك الإسلامية والتقليدية، حيث اشتملت عينة الدراسة على خمسة عشر بنكاً، ستة بنوك إسلامية وأربعة خليجية وخمسة سعودية. وذلك لقياس وفورات الحجم والنطاق، ومرونات الإحلال والمرونات السعرية للمدخلات في تلك البنوك، ومقارنتها فيما بينها، واستخلاص نتائجها الاقتصادية، وذلك في الفترة من ١٩٨٣ إلى ١٩٩٠.

ومن أهم نتائج البحث هي أن البنوك الإسلامية تتمتع بوفورات حجم موجبة بينما تتمتع أغلب البنوك التقليدية بوفورات حجم سالبة، هذه الوفورات الموجبة تعطي البنوك الإسلامية ميزة في خفض متوسط تكلفتها الكلية، كلما توسعت في أعمالها وخدماتها المصرفية إلى أن يصل إجمالي أصول البنك إلى نحو ٥٥٦ مليون دولار، مما يتيح لها حتى ذلك الحجم زيادة قدرتها على منافسة البنوك التقليدية والاستحواذ على حصة أكبر من السوق. كذلك أظهرت النتائج أن البنوك الإسلامية لا تتميز بتكاليف تكاملية (أي تنعدم فيها وفورات النطاق) ، وأن الأفضل لها من جهة التكاليف أن تتخصص في نوع معين من العقود؛ لأن كل عقد يتطلب مزيجاً مختلفاً من المدخلات.

◄ **دراسة قريشي (٢٠٠٦) .**

في هذه الدراسة جُمع بين أدوات التحليل المالي وأدوات التحليل الاقتصادي، وذلك بتحليل مؤشر هامش الربح كنسبة مالية بهدف قياس كفاءة إدارة التكاليف، وتقدير وفورات الحجم ووفورات النطاق للمؤسسات المصرفية الجزائرية، حيث تضم عينة الدراسة ستة بنوك جزائرية، خمسة بنوك عمومية وهي: البنك الوطني الجزائري (BNA)، والقرض الشعبي الجزائري (CPA)، وبنك الفلاحة والتنمية الريفية (BADR)، وبنك التنمية المحلية (BDL)، وبنك الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط (CNEP.B). وبنك مشترك من حيث الملكية بين القطاع العام الجزائري والقطاع الخاص السعودي، وهو بنك البركة الجزائري، وذلك في الفترة الممتدة من ١٩٩٤ – ٢٠٠٣.

وأظهرت نتائج الدراسة أن وفورات الحجم تنخفض، كلما ارتفع حجم النشاط، وتصبح سالبة إذا زاد عن الحجم الأمثل، وعليه فإن منحنى التكلفة المتوسطة للبنوك الجزائرية في المدى الطويل يأخذ شكل الحرف الأجنبي U، وفي الأخير فإن جميع البنوك الجزائرية تتمتع بوفورات نطاق، وبذلك تستطيع هذه البنوك التنويع في منتجاتها.

◄ **دراسة (2007) .Kessy3**

في هذه الدراسة حُلِّلت العلاقة بين القطاع المالي والنمو الاقتصادي في ثلاث دول من شرق إفريقيا وهي تنزانيا وكينيا وأوغندا في الفترة من ١٩٩٤–٢٠٠٥م مع التركيز على القطاع البنكي. حيث استخدم نموذج تحليل البيانات المغلفة (DEA) لقياس الكفاءة في بنوك هذه الدول ومقارنة مستويات الكفاءة فيها، ثم استخدام النتائج المتحصل عليها من تحليل الكفاءة لقياس أهمية فعالية النظام المالي على النمو الاقتصادي لهذه الدول.

وأظهرت نتائج هذه الدراسة أن كفاءة البنوك إحصائياً كانت موجبة ومهمة لكل المتغيرات المتعلقة بالنمو الاقتصادي ومعادلته. ووجد أيضاً أن توزيع القروض على القطاع الخاص من البنوك التجارية له أثر ايجابي على النمو الاقتصادي، كما وجد أن كفاءة البنوك التجارية هي على علاقة إيجابية مع متوسط إنتاجية رأس المال ومتوسط الادخار، وهذا ما يؤثر أيضاً على النمو الاقتصادي.

◄ **دراسة (2008) .Omari**

هدفت هذه الدراسة إلى اختبار كفاءة البنوك في بعض الدول العربية، وتتكون عينة الدراسة من بنوك في الأردن والإمارات العربية المتحدة، ولتحقيق أهداف هذه الدراسة حصلنا على البيانات ذات العلاقة من الميزانيات وبيانات الدخل للبنوك موضوع الدراسة، هذا وقد أخذت محددات ربحية البنك وكفاءته بعين الاعتبار شاملة أثر حجم البنك، وقوة

السوق، ودرجة رسملة البنك على كفاءته، وقد استخدمت الدراسة التطبيقية البرمجة الخطية (DEA) لقياس الكفاءة.

استنتجت الدراسة بأن معدل درجات الكفاءة للبنوك قيد الدراسة في كل من الأردن والإمارات العربية المتحدة متساوية تقريباً، إذ بلغت حوالي ٨٤ ٪ ، واستنتجت الدراسة أيضا أن البنوك كبيرة الحجم أكثر كفاءة من البنوك صغيرة الحجم، وبناءً على ذلك شُجعت البنوك صغيرة الحجم للاستفادة من عمليات الاندماج والاستحواذ، كما على بنوك المجموعة الفرعية في كل بلد، وفي كلا البلدين القيام بالتنسيق وتبادل المعرفة للاستفادة من أداء بعضها بعضاً.

◄ دراسة (2009) Al- Hussain5

يعد هيكل الحوكمة المؤسسية في القطاع البنكي من المكونات الأساسية في تعزيز كفاءة البنوك وأدائها، وقد جاءت هذه الدراسة لتوضيح العلاقة بين كفاءة هيكل الحوكمة المؤسسية وأداء البنوك، وذلك من خلال عينة تضم تسعة بنوك مدرجة في السوق المالي السعودي في الفترة ٢٠٠٤ – ٢٠٠٧، وذلك باستخدام نموذج تحليل البيانات المغلفة (DEA) والنسب المالية.

وتوصلت الدراسة إلى أن هناك علاقة قوية بين كفاءة هيكل الحوكمة المؤسسية وأداء البنوك، عند استخدام العائد على الأصول كمعيار للأداء، أما عند استخدام عائد السهم مقياساً للأداء، فإن هناك علاقة ايجابية ولكن ضعيفة بين كفاءة هيكل الحوكمة المؤسسية وأداء البنوك.

منهجية الدراسة:

للتأكد من صحة فرضيات الدراسة، ولصعوبة الحصول على القوائم المالية لكل البنوك التي تعمل في الجزائر وعددها عشرون بنكاً في فترة الدراسة، أُخذت عينة تتكون من ستة بنوك وهي: خمسة بنوك عمومية، بنك الفلاحة والتنمية الريفية (BADR) ، وبنك التنمية المحلية (BDL) ، والقرض الشعبي الجزائري (CPA) ، والبنك الخارجي الجزائري (BEA) ، والبنك الوطني الجزائري (BNA) ، وبنك إسلامي مختلط ذو ملكية جزائرية سعودية، وهو بنك البركة الجزائري (BARAKA) . أما عن فترة الدراسة فكانت من ٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٨ حيث في ٢٠٠٣ عُدِّل قانون النقد والقرض لعام ١٩٩٠، إلا أنه لم تتوافر القوائم المالية للبنوك محل الدراسة لسنة ٢٠٠٣، لذا كانت بداية الدراسة من ٢٠٠٤. وللوصول للأهداف التي ترمي إليها هذه الدراسة، اُستخدم أسلوب التحليل القياسي لدراسة كفاءة البنوك الجزائرية

في عينة الدراسة بتحليل نموذج حد التكلفة العشوائية الذي يعتمد على تقدير دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية Translog Cost function.

فرضيات الدراسة:

تعتمد الدراسة على الفرضيات الآتية:

- البنوك الجزائرية كبيرة الحجم لها قدرة أكبر على التحكم في تكاليفها، والرفع من كفاءتها الإنتاجية. وذلك من خلال تحقيقها لإمكانية الإحلال بين عناصر الإنتاج، وتحقيق مرونة طلب سعرية للمدخلات.
- تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات حجم تتيح لها مزيداً من التوسع في نشاطها.
- تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات نطاق تتيح لها إمكانية التنوع في منتجاتها.

نموذج الدراسة:

وفقا لنموذج الدراسة حُسب كل من مرونات الإحلال ومرونات الطلب السعرية لمدخلات البنك كمؤشرات للكفاءة الإنتاجية للبنك، كما حُسبت وفورات الحجم لمعرفة الحد الأدنى الكفء لحجم البنك، وحُسبت أيضا وفورات النطاق للحكم على مقدرة البنوك الجزائرية على التنويع في منتجاتها.

ويعتمد هذا النموذج على دالة التكاليف التي تربط نفقات البنك بالمتغيرات التي أدت إلى هذه النفقات، وهي مستويات المخرجات وأسعار المدخلات (Qayyum and Khan، 2007) . ولدراسة الكفاءة وفقاً لنموذج حد التكلفة العشوائية، **تُوازن التكاليف المخططة مع التكاليف الفعلية وفقاً للمعادلة الآتية** (ساعد،٢٠٠٩) :

$$LnTCi = LnTC(Yi، Pi) + \varepsilon i \; ..... \; (1) \quad i = 1...n$$

حيث إن TCi: تمثل التكاليف الكلية الفعلية للبنك i.

LnTC (Yi، Pi) : هي دالة التكاليف اللوغاريتمية المتنبأ بها لعملية تخفيض التكلفة الكلية إلى الحد الأدنى.

وبالتالي فإن التكاليف الفعلية لا يمكن أن تقل عن التكاليف المخططة، والفرق بينهما يتمثل في حد الاضطراب العشوائي ε_i الذي ينقسم إلى عنصرين (Bos and Kolari، 2005) :

$$\varepsilon_i = Vi + Ui$$

U: يمثل اللاكفاءة في التكاليف، ويعبر عن مقدار انحراف التكلفة الفعلية للبنك عن مستواها الأمثل، ويفترض أنه يتبع التوزيع النصف الطبيعي .

V: يمثل الخطأ العشوائي وهو يخضع للتوزيع الطبيعي، وهو مستقل عن U

ولتقدير المعادلة رقم (١) لابد من صياغة ملائمة لمعادلة التكاليف حيث تعدُّ طريقة Cobb- Douglas هي الأكثر استخداماً في تحليل الحد العشوائي، **وتكتب على النحو الآتي** : (Allen and Liu، 2005)

$$LnTC = \alpha_0 + \sum_i^n \alpha_i LnY_i + \sum_j^m \beta_j LnP_j + \frac{1}{2}\sum_i^n \sum_j^m \alpha_{ij} LnY_i LnY_j + \frac{1}{2}\sum_i^n \sum_j^m \gamma_{ij} LnP_i LnP_j + \sum_i^n \sum_j^m \delta_{ij} LnY_i LnP_j + V + U \quad ...(2)$$

حيث:

TC: تمثل التكاليف الكلية.

Yi: تمثل المخرجة i و i=1…n

Pj: تمثل سعر المدخلة j و j=1…m

α_0 ، α_i ، β_j ، α_j، β_j ، γ_j هي معاملات متغيرات دالة التكاليف،

حيث: $\alpha_{ij} = \alpha_j$، $\beta_{ij} = \beta_j$، $\gamma_{ij} = \gamma_j$

وتعرَّف دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية، بأنها الدالة التي تجسد نموذج تخفيض التكلفة الكلية إلى الحد الأدنى، كما تتميز هذه الدالة بخصائص تتلاءم وطبيعة النشاط المصرفي، فهي مرنة تسمح بتعدد المدخلات والمخرجات ولا تضع قيوداً على مرونات الإحلال ووفورات الحجم ووفورات النطاق، **كما يجب أن يتوافر في هذه الدالة الخصائص الآتية** (الساعاتي والعصيمي،١٩٩٥) :

- أن تكون متجانسة من الدرجة الأولى في أسعار المدخلات.
- أن تكون متزايدة في المخرجات وأسعار المدخلات

وبفرض هذه القيود نحصل على دالة تكاليف دنيا لكل مستوى من الإنتاج، ويترتب على الشرط الأول ما يأتي:

$$\sum_j^m \beta_j = 1 ,\ \sum_j^m \beta_j = 0 ,\ \sum_j^m \gamma_j = 0$$

وبالاعتماد على قاعدة شيفرد (Shephard Lemma) ، يمكن اشتقاق دوال مشاركة عناصر الإنتاج في الدالة الكلية، ويتم ذلك باشتقاق دالة التكاليف الكلية (TC) بالنسبة لسعر كل عنصر من عناصر الإنتاج، حيث إن حصة أو مشاركة المدخلة j في التكاليف الكلية هي (Sj) وتكتب بالمعادلة التالية (Allen and Liu، 2005) :

$$S_j = \frac{\partial Ln(TC)}{\partial Ln(P_j)} = \beta_j + \sum_i^n \beta_{ij} Ln P_j + \sum_i^n \gamma_{ij} Y_i \cdots (3)$$

كما يمكن استخلاص مرونة الإحلال بين عناصر الإنتاج وحسابها، ومرونة الطلب السعرية لهذه العناصر من دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية ودوال مشاركة عناصر الإنتاج وفق ما برهن عليه (Uzawa1962) (Allen 1938)، ويكون بالمعادلة الآتية (الساعاتي والعصيمي،١٩٩٥) :

- **مرونة الإحلال بين عناصر الإنتاج:**

$$A = \frac{(\beta_{ij} + S_i S_j)}{S_i S_j} \cdots (4) \quad j \neq i$$

- **مرونة الطلب السعرية:**

$$T = \frac{\beta_{ii}}{S_i} + S_i - 1 \cdots (5)$$

كما يمكن قياس كفاءة وفورات الحجم وكفاءة وفورات النطاق من خلال دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية وذلك على النحو الآتي:

كفاءة وفورات الحجم:

وتقاس بمقلوب مرونة التكاليف التي تحسب باشتقاق معادلة التكاليف الكلية بالنسبة لمستويات الإنتاج، وبالتالي فإن كفاءة الحجم تعطى بالعلاقة الآتية (Allen and Liu،2005) :

$$W = \left[\sum_i^n \frac{\partial Ln(TC)}{\partial Ln(Y_i)}\right]^{-1} = \left[\sum_i^n \alpha_i + \sum_i^n \sum_j^m \alpha_{ij} Ln Y_j + \sum_i^n \sum_j^m \gamma_{ij} Ln P_j\right]^{-1} \cdots (6)$$

- إذا كانت W>1 أي هناك زيادة تعود للحجم، وبالتالي وفورات الحجم موجبة.
- إذا كانت W<1 أي هناك انخفاض يعود للحجم، وبالتالي وفورات الحجم سالبة.
- إذا كانت w=1 أي هناك ثبات يرجع للحجم، وبالتالي وفورات الحجم معدومة، وفي هذه الحالة يمكن تحديد الحجم الأمثل.

كفاءة وفورات النطاق:

تُقاس وفورات النطاق للمنتجين Yi و Yj من دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية بحساب تكامل التكاليف للمنتجين الإثنين (المشتقة الثانية لدالة التكاليف بالنسبة لـ Yi و Yj ، ويتحقق ذلك من خلال العلاقة الآتية (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥) :

$$\frac{\partial^2 TC}{\partial Y_i \partial Y_j} < 0$$

وباشتقاق المعادلة (٢) نحصل على:

$$\frac{\partial^2 TC}{\partial Y_i \partial Y_j} = \frac{TC}{Y_i Y_j}\left[\frac{\partial LnTC}{\partial Ln Y_i} \times \frac{\partial LnTC}{\partial Ln Y_j} + \frac{\partial^2 LnTC}{\partial Ln Y_i \partial Ln Y_j}\right] \cdots (7)$$

وعليه، فان وفورات النطاق تعتمد على إشارة المقدار الذي بين الأقواس التي تتحدد بالقيمة:

$$\alpha_i \alpha_j + \alpha_{ij}$$

حيث α_i معاملات المنتج Yi و α_j معاملات المنتج Yj، α_{ij} المعاملات المشتركة بين Yi و Yj ،وتوجد وفورات النطاق في حال ما إذا كانت قيمة $\alpha_i \alpha_j + \alpha_{ij}$ اقل من الصفر.

متغيرات النموذج:

حُدِّدت متغيرات النموذج الأساسية وفق البيانات النقدية الواردة في ميزانيات

حسابات نتائج البنوك وجداولها محل الدراسة، **والتي تمثلت في المتغيرات الآتية:**

١. **المتغير التابع:**

ويمثل التكاليف الكلية للبنك، ويرمز له بالرمز (TC) ، وتمثل المصاريف التي يتحملها البنك من أجل قيامه بالعملية الإنتاجية، وتُحدَّد عن طريق جمع بنود جدول حسابات النتائج الآتية:

أ. مصاريف الفوائد والمصاريف المماثلة.

ب. مصاريف المستخدمين.

ت. مخصصات الاهتلاك والمؤونات للأصول الثابتة.

٢. **المتغيرات المستقلة:**

وتتمثل في مخرجتين وثلاثة أسعار للمدخلات، وهي على التوالي:

أ. القروض: وهي المخرجة الأولى، ويرمز لها بالرمز (Y_1) ، وتمثل القروض الإجمالية التي يمنحها البنك للعملاء والمؤسسات المالية.

ب. الاستثمارات الأخرى: وهي المخرجة الثانية، ويرمز لها بالرمز (Y_2) ، وتمثل الاستثمارات الأخرى بخلاف القروض.

ت. سعر العمل: وهو سعر المدخلة الأولى (العمل) ، ويرمز له بالرمز (P_1) ، ويمثل متوسط أجر العامل في البنك وتُحدَّد بقسمة مصاريف المستخدمين على عدد عمال البنك.

ث. سعر رأس المال العيني: وهو سعر المدخلة الثانية (رأس المال الثابت) ، ويرمز له بالرمز (P_2) ، ويتمثل في قيمة اهتلاك الأموال الثابتة المادية والمعنوية، ويُحدَّد بقسمة مخصصات الاهتلاك والمؤونات للأصول الثابتة المادية والمعنوية على الاصول الثابتة المادية والمعنوية.

ج. سعر رأس المال النقدي: وهو سعر المدخلة الثالثة (رأس المال النقدي) ويرمز له بالرمز (P_3) ، ويمثل تكلفة الموارد المالية المتمثلة في تكلفة الودائع والديون على البنك.
طريقة التقدير:

إن عدد المعاملات المراد تقديرها في دالة التكاليف اللوغاريتمية هو خمسة عشر معاملاً، لذا فإنه يتعذر استخدام بيانات كل بنك أو مجموعة من البنوك على حدة، والأسلوب المستخدم في هذا البحث هو جمع البيانات المقطعية لجميع البنوك مع بيانات السلاسل الزمنية لكل بنك. ومن السهل استخدام طريقة المربعات الصغرى لتقدير معاملات دالة

التكاليف المتسامية اللوغاريتمية، ولكن يعاب على هذه الطريقة إهمالها لمعلومات إضافية موجودة في دوال مشاركة المدخلات، وحيث إن عدد المتغيرات المستقلة كبير، فإنه يتوقع ظهور مشكلة الارتباط الخطي المتعدد في طريقة المربعات الصغرى، والطريقة الأخرى المستخدمة في بعض الدراسات هي تقدير دوال المشاركة كمجموعة من المعادلات، وإذا كانت هذه الطريقة مقبولة في بعض الدراسات، فإنها غير صالحة لهذه الدراسة؛ لأن دالة التكاليف فيها معاملات مهمة لتقدير وفورات الحجم والنطاق، فاستبعاد دالة التكاليف لا يتيح تقدير هذه الوفورات (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥) .

لذا قُدِّرت دالة التكاليف اللوغارتمية المتسامية للبنوك محل الدراسة، وذلك باستخدام طريقة الانحدار غير المرتبط ظاهريا (The Seemingly Unrelated Regression) ويرمز لها بالرمز SUR، وتعرف هذه الطريقة بالانحدار المتنوع أو طريقة زلنر Zellner، وتطبق هذه الطريقة على مجموعة من المعادلات، كل معادلة لها متغير تابع (داخلي) ومتغيرات مستقلة (خارجية) حيث متغيراتها الداخلية لا تعتمد على بعضها بعضاً بما يوحي أنها غير مرتبطة بالفعل، وإذا كانت كذلك أي يوجد ارتباط بينها فإن مقدرات طريقة الانحدار غير المرتبطة ظاهرياً هي الأكثر كفاءة؛ لأنها تعتمد على التكرار في عملية تقدير المعاملات، وفي كل تكرار تحوَّل المعادلات لنزع الارتباط وتقليصه إلى أن تصل عملية التقدير إلى نقطة الاستقرار، أو ما يعرف بـ Convergence (قريشي، ٢٠٠٦) .

ووفقا لهذه الطريقة تُقدر دالة التكاليف ودوال المشاركة كمجموعة من المعادلات، لأن ذلك يزيد من درجات الحرية بدون زيادة المعاملات المقدرة، حيث إن مجموع نسبة مشاركة المدخلات في التكاليف الكلية يساوي بالضرورة الواحد الصحيح، فيجب إسقاط إحدى معادلات مشاركة المدخلات، لذا فإننا سنستخدم في هذه الدراسة دالة التكاليف، ودالة مشاركة العمل، ودالة مشاركة رأس المال العيني كمجموعة من المعادلات لتقدير معاملات الدوال (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥) ، ولتقدير هذه المعاملات استخدم برنامج SPSS.

بعد تحديد متغيرات النموذج تعاد صياغة المعادلة بغرض قيد التجانس الخطي لأسعار المدخلات، وذلك باستخدام آخر سعر للمدخلات (ساعد، ٢٠٠٩) .

$$Ln\ TC = \alpha 0 + \alpha 1\ lnY1 + \alpha 2\ lnY2 + \beta 1\ (lnP1 - lnP3) + \beta 2\ (lnP2 - lnP3) + ½\ \alpha 11\ (lnY1)\ 2 + ½ \alpha 22\ (lnY2)\ 2 + \alpha 12\ (lnY1)\ (lnY2) + ½ \beta 11\ (lnP1 - lnP3)\ 2 + \beta 12\ (lnP1 - lnP3)\ (lnP2 - lnP3) + ½\ \beta 22\ (lnP2 - lnP3)\ 2 + \gamma 11\ (lnP1 - lnP3)\ lnY1 + \gamma 12\ (lnP2 - lnP3)\ lnY1 + \gamma 21\ (lnP1 - lnP3)\ lnY2 + \gamma 22\ (lnP2 - lnP3)\ lnY2 \quad (8)$$

و منه نستطيع حساب دوال المشاركة كما يأتي:

S1 = β 1 + β 11 (lnP1 – lnP3) + β 12 (lnP2 – lnP3) + γ 11 lnY1 + γ 21 lnY2 (9)

S2 = β 2 + β 12 (lnP1 – lnP3) + β 22 (lnP2 – lnP3) + γ 12 lnY1 + γ 22 lnY2 (10)

S3 = (1 – β 1 – β 2) – (β 11 + β 12) (lnP1 – lnP3) - (β 12 + β 22) (lnP2 – lnP3) – (γ 11 + γ 12) lnY1- (γ 21 + γ 22) lnY2 (11)

أما وفورات الحجم (W) التي هي مقلوب مرونة التكاليف (M) التي تحسب بالمعادلة الآتية بعد تعويض متغيرات النموذج:

$$W = [\alpha_1 + \alpha_{11} \ln Y_1 + \alpha_{12} \ln Y_2 + \gamma_{11} \ln P_1 + \gamma_{12} \ln P_2 + \gamma_{13} \ln P_3$$
$$+ \alpha_2 + \alpha_{22} \ln Y_2 + \alpha_{12} \ln Y_1 + \gamma_{21} \ln P_1 + \gamma_{22} \ln P_2 + \gamma_{23} \ln P_3]^{-1} \ldots\ldots\ldots\ldots (12)$$

عرض نتائج الدراسة وتحليلها:

نتائج تقدير النموذج:

نستخدم في تقدير النموذج طريقة الانحدار غير المرتبط ظاهرياً Zellner السابقة الذكر، ولتقدير المعادلات الواردة بالنموذج، اُستخدم البرنامج الإحصائي SPSS لتطبيق وتحليل الانحدار المتعدد الذي أعطى النتائج التي يمكن تلخيصها كالآتي:

الجدول (١)

المعاملات المقدرة للنموذج

Variable	Coefficient	Estimate Std.Error	t .Statistic	Prob
(C1) Constant α_0	18.5262	4.3629	*3.9482	0.0000
(C2) $\ln y_1$ α_1	- 3.6365	1.0232	-* 2.1699	0.0112
(C3) $\ln y_2$ α_2	2.0524	0.5691	*2.7252	0.0003
(C4) $\ln P_1 - \ln P_3$ β_1	0.6935	0.3650	*4.5269	0.0000
(C5) $\ln P_2 - \ln P_3$ β_2	0.3658	0.2024	*5.2365	0.0000
(C6) $\ln y_1 \ln y_1$ α_{11}	0.9512	0.3352	*2.1164	0.0015
(C7) $\ln y_2 \ln y_2$ α_{22}	0.1010	0.3542	1.1852	0.0882
(C8) $\ln y_1 \ln y_2$ α_{12}	- 0.1962	0.0985	-* 2.1523	0.0019
(C9) $(\ln P_1 - \ln P_3)_2$ β_{11}	0.0754	0.1020	*8.3632	0.0000
(C10) $(\ln P_2 - \ln P_3)_2$ β_{22}	0.0265	0.1152	*5.1956	0.0000

Variable	Coefficient	Estimate Std.Error	t .Statistic	Prob
(C11) $(lnP_1 - lnP_3)(lnP_2 - lnP_3)\ \beta_{12}$	0.0104	0.1061	*2.0452	0.0135
(C12) $(lnP_1 - lnP_3)\ ly_1\ \gamma_{11}$	- 0.1032	0.1420	-* 3.6892	0.0001
(C13) $(lnP_2 - lnP_3)\ ly_1\ \gamma_{12}$	- 0.0125	0.1052	-* 4.6542	0.0000
(C14) $(lnP_1 - lnP_3)\ ly_2\ \gamma_{21}$	0.0142	0.8621	*4.1421	0.0000
(C15) $(lnP_2 - lnP_3)\ ly_2\ \gamma_{22}$	0.0102	0.6542	*3.0546	0.0000

المصدر: من إعداد الباحثة باستخدام بيانات البنوك في الملحق رقم (٠١) و البرنامج الإحصائي SPSS .

(*) : تعني ذات دلالة إحصائية عند ٥٪ أو أقل.

كما تظهر النتائج ما يأتي:

- أن قيمة (R_2) مرتفعة، فقد بلغت ٠,٩١ لدالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية، و٠,٦٢ لدالة مشاركة العمل، و٠,٨٥ لدالة مشاركة رأس المال الثابت، فهذا يدل على أن هناك ارتباطاً قوياً بين المتغيرات المستقلة والمتغير التابع، فمثلا في دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية تشير النتائج إلى أن (٩١٪) من التغير في التكاليف يفسره التغير في المتغيرات المستقلة (المخرجات وأسعار المدخلات) ، والباقي (٩٪) يفسره الخطأ العشوائي.

- إحصائية (t) عند مستوى المعنوية (٠,٠٥) تظهر أن معظم معاملات النموذج المشار إليها بـ (×) لها دلالة إحصائية، حيث إن القيم المحتسبة أكبر من القيمة (٢) والقيم الاحتمالية المقابلة لها أقل من مستوى المعنوية (٠,٠٥) ، وبالتالي فهي مقبولة إحصائياً كما أن لها دلالة اقتصادية؛ لأنها لا تساوي الصفر، ما عدا المعامل (α_2) أو (C7) ليس له دلالة إحصائية عند مستوى المعنوية (٠,٠٥) ؛ لأن قيمته أقل من (٢) ، وقيمته الاحتمالية تفوق مستوى المعنوية لكن لا يمكن استبعاده من النموذج؛ لأن له دلالة إحصائية إذا ما أخذنا نسبة (١٠٪) كقيمة معنوية.

من خلال قيمة (R_2) والإحصائية (t) نستطيع أن نقول إن المعاملات المقدرة للنموذج

يمكن الاستناد عليها لبناء استنتاجات اقتصادية وتحليلية مقبولة.

استخدام نتائج عملية التقدير في قياس كفاءة البنوك الجزائرية:

قبل قياس أنواع الكفاءة المصرفية للبنوك الجزائرية من خلال تطبيق دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية، يجب أن نذكر أن هذه البنوك تختلف من حيث حجم أصولها

وتتنوع، حيث يمكن تقسيمها إلى بنوك صغيرة الحجم، وهي التي لم يبلغ متوسط حجم القروض والاستثمارات الأخرى فيها مبلغ ١٥٠٠٠٠ مليون دينار جزائري وبنوك كبيرة الحجم، وهي التي تجاوز متوسط حجم القروض والاستثمارات الأخرى هذا المبلغ نفسه، وحُدِّد هذا المبلغ بناءً على الدراسات السابقة، وبالتحديد دراسة قريشي (٢٠٠٦)، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف فترة الدراسة والآثار التضخمية.

الجدول (٢)

متوسط حجم الأصول (القروض والاستثمارات الأخرى)

الوحدة: مليون دينار جزائري.

المتوسط	BADR	BDL	CPA	BEA	BNA	BARAKA
Y	٣٣٢٤٨٢	١٢٨٥٣٠	٣٦٦٨٠٩	١٣١٣٤٢٦	٥٤٩٥٤٣	٣٤٩٠٩

المصدر: من إعداد الباحثة استناداً لقيم متوسط القروض والاستثمارات الأخرى.

ووفقا لما سبق ولنتائج الجدول نجد أن:

- البنوك الكبيرة الحجم هي: بنك الفلاحة والتنمية الريفية BADR، والقرض الشعبي الجزائري CPA، والبنك الوطني الجزائري BNA، والبنك الخارجي الجزائري BEA.
- البنوك الصغيرة الحجم: بنك التنمية المحلية BDL، وبنك البركة الجزائري BARAKA.

١ـ قياس مرونات الإحلال ومرونات الطلب السعرية:

نحاول فيما يأتي عرض نتائج قياس مرونات الإحلال ومرونات الطلب السعرية لعوامل الإنتاج وتلخيصها، ومحاولة تفسير هذه النتائج، وذلك بمقارنتها بواقع المؤسسات المصرفية محل الدراسة، وكانت البداية بمرونات الإحلال، ثم مرونات الطلب السعرية.

١ـ ١ قياس مرونات الإحلال:

تقيس مرونات الإحلال درجة الإحلال بين اثنين من مدخلات الإنتاج، فإذا كانت مرونة الإحلال موجبة دل ذلك على إمكانية الإحلال بين المدخلين، أما إذا كانت سالبة، فيدل ذلك على أن المدخلين متكاملان (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥).

وقيست مرونة الإحلال بين عناصر الإنتاج عن طريق تطبيق المعادلة (٤) في الفصل الخامس بعد حساب قيم (S1) و (S2) و (S3)، وذلك باستخدام المعاملات المقدرة في النموذج الإحصائي وتطبيق المعادلات (٩) (١٠) (١١) في الفصل نفسه، وطُبِّق ذلك على جميع المشاهدات؛ أي جميع السنوات لكل بنك، ثم اُحتسب متوسط المرونة لكل بنك، أي مجموع المرونات مقسوماً على خمسة سنوات.

الجدول (٣)

مرونات الإحلال

متوسط مرونات الإحلال	BADR	BDL	CPA	BEA	BNA	BARAKA
مرونة الإحلال بين العمل ورأس المال الثابت	١,٠٩	١,٠٨	١,٠٨	١,٠٩	١,٠٩	١,٠٦
مرونة الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي	٠,١٠	٠,٠٩	٠,٠٥	٠,٠٨	٠,١٠	– ٠,٠٤
مرونة الإحلال بين رأس المال الثابت ورأس المال النقدي	٠,٦٨	٠,٦٤	٠,٦٤	٠,٧٠	٠,٦٨	٠,٥١

المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على نتائج عملية التقدير والمعادلة رقم (٤) وباستخدام برنامج EXCEL.

ويمكن شرح العلاقة بين عناصر الإنتاج الثلاثة في النقاط الآتية:

- مرونة الإحلال بين العمل ورأس المال الثابت:

يبين السطر الأول في الجدول (٣) أن مرونة الإحلال بين عنصر العمل وبين عنصر رأس المال الثابت هي موجبة بالنسبة لكل من: بنك الفلاحة والتنمية الريفية BDRR، وبنك التنمية المحلية BDL، والقرض الشعبي الجزائري CPA، والبنك الخارجي الجزائري BEA، والبنك الوطني الجزائري BNA، وبنك البركة الجزائري BARAKA، كما أن قيمتها متقاربة جداً وهي تتراوح بين ١,٠٦ و ١,٠٩.

ومنه نجد أن العمل ورأس المال الثابت هما عنصران بديلان للبنوك التي تعدُّ كبيرة من حيث الحجم، وأيضاً بالنسبة للبنوك صغيرة الحجم، ويمكن تفسير هذه النتيجة، خاصة فيما يتعلق بتقارب قيم مرونة الإحلال بغض النظر عن حجم البنك إلى تبني البنوك الجزائرية للنهج القائم على الاستغناء عن جزء من العمالة وتعويضه بأصول وتجهيزات وبرامج حاسوب، وغيرها من عناصر رأس المال الثابت وذلك لتقليل التكاليف.

- مرونة الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي:

أما بالنسبة لمرونة الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي، فقد أظهرت خمسة بنوك إمكانية الإحلال بينهما، وهذا يدل على أن زيادة حجم رأس المال النقدي لا يستوجب بالضرورة زيادة حجم العمالة، بل قد يؤدي إلى انخفاض العمالة نتيجة الاتجاه لزيادة أجهزة الإعلام الآلي، وغيرها من الأجهزة لزيادة الكفاءة الإنتاجية، إلا أنه من الملاحظ أن قيم هذه المرونة منخفضة جداً، حيث تتراوح بين ٠,٠٥ و ٠,١٠ في البنوك الآتية: بنك الفلاحة و التنمية الريفية BADR، وبنك التنمية المحلية BDL، والقرض الشعبي الجزائري CPA، والبنك الخارجي الجزائري BEA، والبنك الوطني الجزائري BNA، أما بالنسبة لبنك البركة الجزائري BARAKA فمرونة الإحلال بالنسبة له سالبة، مما يعني أن عنصري العمل

ورأس المال النقدي هما عنصران متكاملان حيث إن حجم الأصول بالنسبة لهذا البنك لا تتيح له الاستغناء عن العمل بزيادة رأس المال النقدي (الودائع والموارد المالية) ، بل إن زيادة رأس المال النقدي قد يتطلب مزيداً من العمل.

- مرونة الإحلال بين رأس المال الثابت ورأس المال النقدي:

وأظهرت هذه الدراسة من خلال الجدول (٣) إمكانية الإحلال بين رأس المال الثابت ورأس المال النقدي في جميع البنوك محل الدراسة، وهذا يدل أن العلاقة بينهما ليست تكاملية، وإنما يمكن زيادة رأس المال النقدي دون الحاجة إلى زيادة التجهيزات الرأسمالية.

١ـ ٢ قياس مرونة الطلب السعرية:

وقد حُسبت مرونة الطلب السعرية لمدخلات البنوك محل الدراسة عن طريق تطبيق المعادلة (٥) والجدول (٤) يبين متوسط مرونات الطلب السعرية لمدخلات البنوك:

الجدول (٤)

مرونة الطلب السعرية

متوسط مرونة الطلب السعرية	BADR	BDL	CPA	BEA	BNA	BARAKA
العمل	– ٠,٤٤	– ٠,٤٣	– ٠,٤٤	– ٠,٤٥	– ٠,٤٥	– ٠,٤٠
رأس المال الثابت (العيني)	– ٠,٥٥	– ٠,٥٥	– ٠,٥٤	– ٠,٥٤	– ٠,٥٥	– ٠,٥٥
رأس المال النقدي	– ٠,٢٩	– ٠,٢٧	– ٠,٢٧	– ٠,٢٩	– ٠,٢٩	– ٠,١٨

المصدر: من إعداد الباحثة بالاعتماد على نتائج عملية التقدير والمعادلة رقم (٥) وباستخدام البرنامج EXCEL.

تقيس مرونة الطلب السعرية مدى استجابة الكمية المطلوبة من المدخلات للتغير البسيط في سعر هذه المدخلات (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥) . ويتضح من الجدول (٤) أن الطلب على جميع المدخلات هو طلب غير مرن؛ بمعنى أنه إذا ارتفع سعر المدخلات فإن الطلب عليها لا يقل، وهو ما يعني أهمية هذه المدخلات في العملية البنكية.

كما يمكن توضيح عناصر الإنتاج وترتيبها من حيث الأهمية بالنسبة لكل بنك، وذلك اعتماداً على درجات مرونة الطلب السعرية، فكلما قلت درجات المرونة، كلما زادت أهمية ذلك العنصر (القريشي، ٢٠٠٦) ، وعليه سيكون ترتيب العناصر من حيث الأهمية على النحو الآتي: رأس المال النقدي في المرتبة الأولى بالنسبة لجميع البنوك، ويأتي العمل في المرتبة الثانية بالنسبة لجميع البنوك أيضاً، وفي الأخير نجد رأس المال الثابت في المرتبة الثالثة ولجميع البنوك أيضاً.

٢ـ قياس وفورات الحجم:

تقيس وفورات الحجم مقدار التغير في التكاليف عندما تتغير مستويات الناتج النهائي للبنك، ويتحدد الحجم الأمثل عند أدنى نقطة من منحنى التكاليف المتوسطة، وإن معرفة الحجم الأمثل ترشد البنك إلى ضرورة التوسع في الإنتاج، طالماً كانت التكاليف متناقصة (الساعاتي والعصيمي، ١٩٩٥) .

ولقياس وفورات الحجم أُعتمد على المعادلة (١٢) في قياس مرونة التكاليف والمعطاة نتائجها في الصف الأول من الجدول (٥) ، أما بالنسبة لوفورات الحجم فهي تمثل مقلوب مرونة التكاليف والمعطاة نتائجها في الصف الثاني من الجدول نفسه، وتعبر هذه النتائج عن متوسط المرونة ومتوسط وفورات الحجم لكل بنك عبر فترة الدراسة، وذلك لغرض المقارنة.

جدول (٥)

وفورات الحجم

متوسط	BADR	BDL	CPA	BEA	BNA	BARAKA
مرونة التكاليف (M)	٢,٠٢	١,٦٩	١,٨٥	٢,٣٠	٢,١٢	١,٣٣
وفورات الحجم (W)	٠,٤٩	٠,٥٩	٠,٥٤	٠,٤٤	٠,٤٧	٠,٧٥

المصدر: من إعداد الباحثة باعتماد نتائج عملية التقدير و المعادلة رقم (١٢) وبرنامج Excel.

يتضح من الجدول أن البنوك الستة حققت درجات مرونة تكاليف أكبر من الواحد الصحيح، ومعنى ذلك أنه إذا تغير حجم النشاط في البنك بنسبة معينة، فإن التكاليف تتغير بنسبة أكبر أي أن هذه البنوك تعرف حالة تناقص غلة الحجم التي يترتب عنها وفورات حجم سالبة، أي أن درجات وفورات الحجم تكون أقل من الواحد الصحيح، وهو ما يؤكده السطر الثاني من الجدول (٥) .

ومن هذا الجدول لوحظ أيضاً أن وفورات الحجم تتزايد كلما صغر حجم البنك، حيث إن وفورات الحجم عند كل من بنك البركة الجزائري BARAKA و بنك التنمية المحلية BDL أكبر منها في البنوك الأخرى. وباعتبار أن وفورات الحجم مؤشرات للكفاءة في التكاليف، فإننا نستطيع القول إن البنوك الجزائرية الستة محل الدراسة تتميز باللاكفاءة في إدارة التكاليف؛ لأنها حققت درجات أقل من الواحد الصحيح في وفورات الحجم. وبذلك تكون قدتجاوزت الحد الأدنى الكفء الذي يكون أدنى نقطة في منحنى التكاليف المتوسطة، وعليه فإننا لا نستطيع تحديد الحجم الأمثل لهذه البنوك.

٣ـ قياس وفورات النطاق:

لقياس وفورات النطاق أهمية كبيرة بالنسبة للبنوك، وعن طريقها تستطيع البنوك اتخاذ قرارات التنويع في أنشطتها، ونقول عن بنك إنه يتمتع بوفورات نطاق إذا كانت تكلفة إنتاج منتجاتها معاً أقل من مجموع تكلفة إنتاج كل منتج على حده (قريشي، ٢٠٠٦) .

وتقاس وفورات النطاق بتطبيق المعادلة (٧) ، فإذا كانت القيمة أقل من الصفر، فإن البنوك تتمتع بوفورات نطاق أما إذا كانت أكبر أو تساوي الصفر، فإنها لا تتمتع بوفورات نطاق وبشكل عام ولمعرفة إشارة وفورات النطاق حسبنا القيمة $\alpha_i \alpha_j + \alpha_j$ ووجدناها تساوي (-٧,٦٥٩) ، وهو ما يعني أن البنوك في عينة الدراسة تتوافر على وفورات النطاق، بعبارة أخرى تعد تكلفة إنتاج القروض والاستثمارات الأخرى معاً في عينة الدراسة أقل من تكلفة التخصص في إنتاج القروض وإنتاج الاستثمارات الأخرى كل على حدة.

وهو ما يسمح للبنوك الجزائرية من التوسع في نطاق أعمالها، ورفع مجال عملياتها حيث تحقق بذلك ادخار على مستوى التكاليف من خلال عملية التنويع في المنتجات والخدمات المقدمة، كما يمكنها التوسع في هذا المجال، لأن التنويع في النشاط المصرفي يعد عملية حديثة في البنوك الجزائرية، حيث لم يكن مسموحاً لها القيام بجميع العمليات المصرفية وفقا لمبدأ التخصص المصرفي، إلا أن الإصلاحات التي عرفها النظام الصرفي الجزائري ألغت هذا المبدأ.

مقاربة نتائج الدراسة مع فرضيات البحث:

من خلال قياس كفاءة البنوك الجزائرية بناءً على تقدير دالة التكاليف اللوغاريتمية المتسامية، ومن خلال حجم عينة الدراسة، **قمنا بمقاربة نتائج الدراسة مع فرضيات البحث وذلك كما يأتي:**

- **الفرضية الأولى:** البنوك كبيرة الحجم لها قدرة أكبر على التحكم في تكاليفها والرفع من كفاءتها الإنتاجية. وذلك من خلال إمكانية الإحلال بين عناصر الإنتاج، وتحقيق مرونة طلب سعرية للمدخلات.

النتيجة الأولى: من خلال تحليلنا لمرونة الإحلال بين عناصر الإنتاج، وهي في هذه

الدراسة: العمل ورأس المال الثابت، ورأس المال النقدي، وجدنا أن كل البنوك الجزائرية محل الدراسة تتمتع بمرونة إحلال موجبة بين عناصر إنتاجها، حيث كانت مرونة الإحلال بين العمل ورأس المال الثابت تتراوح بين ١,٠٦ و ١,٠٩، أما بالنسبة لمرونة الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي، فكانت منخفضة، وتتراوح بين ٠,٠٥ و ٠,١٠ ، وكانت مرونة الإحلال بين رأس المال الثابت ورأس المال النقدي تتراوح بين ٠,٥١ و ٠,٧٠ إلا إننا نجد أن هناك استثناء بالنسبة لبنك البركة الجزائري حيث حقق مرونة إحلال سلبية بين العمل ورأس المال النقدي، وهذا ما يعني أن هذين العنصرين الإنتاجيين هما عنصران متكاملان، وذلك لأن هذا البنك يتمتع بصغر حجم أصوله الأمر الذي لا يتيح له الاستغناء عن العمل بزيادة رأس المال النقدي، أما فيما يتعلق بمرونة الطلب السعرية، فنجد أن جميع البنوك تتمتع بطلب غير مرن على أسعار مدخلاتها.

وهذا لا يؤكد صحة الفرضية كلية، حيث وجدت هذه الدراسة أن جميع البنوك بغض النظر عن حجمها تتمتع بكفاءة من حيث إمكانية الإحلال بين عناصر إنتاجها باستثناء بنك البركة الجزائري، وذلك فيما يخص إمكانية الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي أما بالنسبة لكفاءة البنوك في التحكم في تكاليفها من خلال أسعار مدخلاتها، فأننا وجدنا أن هذه البنوك لا تتمتع بهذه الكفاءة، لأنها لا تتمتع بمرونة طلب سعرية لمدخلاتها.

- **الفرضية الثانية**: تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات حجم تتيح لها مزيداً من التوسع في نشاطها.

النتيجة الثانية: من خلال تحليلنا لوفورات الحجم نستطيع أن ننفي صحة الفرضية الثانية، حيث وجد أن كل البنوك الجزائرية محل الدراسة لا تتمتع بوفورات حجم، وذلك لأن قيمتها كانت أقل من الواحد الصحيح، وبذلك تكون هذه البنوك حققت وفورات حجم سالبة لا تتيح لها مزيداً من التوسع في حجم نشاطها.

- **الفرضية الثالثة**: تتمتع البنوك الجزائرية بوفورات نطاق، تتيح لها إمكانية التنويع في منتجاتها.

النتيجة الثالثة: من خلال قياسنا لوفورات النطاق وجدنا أن جميع البنوك الجزائرية محل الدراسة تتمتع بوفورات نطاق، وبالتالي تستطيع هذه البنوك التنويع في منتجاتها، وهذا ما يؤكد صحة الفرضية الثالثة.

النتائج والتوصيات:

النتائج:

بناءً على الأهداف والفرضيات التي صيغت في هذه الدراسة، توصلت الدراسة إلى نتائج الآتية:

١. بشكل عام وجد أن البنوك الجزائرية محل الدراسة تتمتع بالكفاءة من حيث إمكانية الإحلال بين مدخلاتها، والاستثناء الوحيد كان في إمكانية الإحلال بين العمل ورأس المال النقدي في بنك البركة الجزائري، أما فيما يتعلق بكفاءة البنوك في التحكم في تكاليفها من خلال أسعار مدخلاتها، فوجد أن البنوك الجزائرية محل الدراسة لا تتمتع بهذه الكفاءة؛ لأنها لم تحقق مرونة طلب سعرية لمدخلاتها.

٢. خلصت هذه الدراسة أيضا إلى أن وفورات الحجم تتزايد كلما صغر حجم البنك، إلا أن البنوك الجزائرية محل الدراسة سواء كانت صغيرة أم كبيرة من حيث الحجم، لم تحقق وفورات الحجم، وكانت درجة الوفورات سالبة؛ أي أقل من الواحد الصحيح، الأمر الذي لا يتيح لنا تحديد الحجم الأمثل لهذه البنوك؛ لأنها تجاوزت الحد الأدنى الكفء، وبذلك تكون هذه البنوك تتميز بعدم الكفاءة في إدارة التكاليف.

٣. وفقاً لتحليلنا لوفورات النطاق وجد أن البنوك الجزائرية محل الدراسة تتمتع بوفورات تتيح لها التوسع بنطاق أعمالها، والرفع من مجال عملياتها حيث تحقق بذلك ادخار على مستوى التكاليف من خلال عملية التنويع في المنتجات.

التوصيات:

تعد كفاءة البنوك الجزائرية في القيام بوظائفها الأساسية من بين القضايا الرئيسة الملحة التي ينبغي على الجزائر معالجتها، وذلك بغية التصدي لتحديات العولمة، وتشجيع نمو قطاع الإنتاج، حيث يتطلب الأمر إصلاحات واسعة النطاق تهدف إلى توجيه الموارد إلى أفضل الشركات والمشاريع الاستثمارية والمساهمة في ضمان الاستخدام الكفء لهذه الموارد، ومن منطلق ما تقدم من نتائج في هذه الدراسة، يمكن أن نصوغ بعض التوصيات

المهمة التي يمكن للسلطات الجزائرية أن تتبعها لرفع كفاءة هذه البنوك حتى تتمكن من أداء مهماتها بشكل أفضل **وفيما يأتي أهم هذه التوصيات**:

١. في ضوء تعاظم دور التكنولوجيا المصرفية الحديثة التي توفر الأساليب والوسائل التي من شأنها رفع مستوى الإنتاجية وادخار التكاليف وبالتالي التحكم في أسعار المدخلات، والرفع من كفاءة الخدمات والمنتجات، لابد للبنوك الجزائرية من تطوير التعامل بالوسائل والتقنيات الحديثة لزيادة تنافسيتها.

٢. رغم إمكانية الإحلال بين مدخلات البنوك الجزائرية، فيجب العمل على الارتقاء بكفاءة العنصر البشري من خلال التكوين والتدريب اللازمين للرفع من كفاءة موظفي البنك وتحسين مهاراتهم، ذلك لأن العنصر البشري يعد من الركائز الأساسية للارتقاء بالأداء المصرفي.

٣. تتميز البنوك الجزائرية باعتمادها على الأنشطة التقليدية، وفي ظل التحديات التي يفرضها تحرير تجارة الخدمات المصرفية والمنافسة الشديدة، يجب على البنوك الجزائرية تقديم حزمة متكاملة من الخدمات المصرفية تجمع بين التقليدي والمستحدث من المنتجات لزيادة نطاق عملياتها، كما يجب عليها التخلي عن التخصص الوظيفي والقطاعي، وتقديم أنشطة تمويلية مبتكرة.

٤. تشير نتائج الدراسة إلى أن البنوك الجزائرية لا تتمتع بكفاءة الحجم، لذلك فإن الاندماج بين هذه البنوك يمكن أن يعمل على تقوية مراكزها المالية لتحقيق وفورات الحجم، والوصول بالوحدة المصرفية إلى حجم اقتصادي معين يتيح لها زيادة الكفاءة من خلال تخفيض التكاليف وتعظيم الربح، وذلك بزيادة القدرة الائتمانية لهذه البنوك لمواجهة احتياجات الشركات والمشاريع الإنتاجية.

٥. وللصعوبة التي لاقتها هذه الدراسة للحصول على بيانات البنوك، نوصي بتدعيم عملية الإفصاح الشفافة في البنوك الجزائرية من خلال حثها على نشر المعلومات والبيانات المالية والمصرفية الخاصة بها، وإعلانها لتكون متاحة للجمهور العام.

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

١. التل، خلف هاجم والقرعان، فواز محمد (٢٠٠٤) ، استخدام أسلوب التحليل التغليفي للبيانات Data Envelopment Analysis في قياس و تحليل الأداء النسبي للمؤسسات، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، الأردن، ص ص١١– ٤٢.

٢. الجميل، سرمد كوكب (١٩٨٩) ، تقويم كفاءة العملية المصرفية تعبئة الموارد و توزيعها في مصرف الرافدين للفترة ١٩٦٥– ١٩٨٣، تنمية الرافدين، العدد السادس والعشرون، العراق، ص ص ٧٥– ١٠٨.

٣. الحاج، طارق وفليح، حسن (٢٠٠٩) ، الاقتصاد الإداري، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

٤. خرابشة، عبد عبد الحميد (٢٠٠٢) ، الكفاءة الإنتاجية في القطاع الصناعي الأردني دراسة تحليلية (١٩٨٦– ١٩٩٧) ، مجلة المنارة، المجلد الثامن، العدد الأول، الأردن، ص ص١١– ٣٦.

٥. الساعاتي، عبد الرحيم عبد الحميد والعصيمي، محمود حمدان (١٩٩٥) ، تقدير دالة تكاليف البنوك الاسلامية والبنوك التجارية دراسة مقارنة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز الاقتصاد الاسلامي، المجلد ٧، المملكة العربية السعودية، ص ص٣– ٢٧.

٦. ساعد، ابتسام (٢٠٠٩) ، تقييم كفاءة النظام المالي الجزائري ودوره في تمويل الاقتصاد، رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية فرع نقود والتمويل، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

٧. الشعيبي، خالد بن منصور (٢٠٠٤) ، استخدام أسلوب تحليل مغلف البيانات في قياس الكفاءة النسبية للوحدات الإدارية بالتطبيق على الصناعات الكيماوية والمنتجات البلاستيكية بمحافظة جدة بالمملكة العربية السعودية، مجلة جامعة الملك سعود، م١٦، العلوم الإدارية (٢) ، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص ص٣١٣– ٣٤٢.

٨. قريشي، محمد الجموعي، (٢٠٠٦) ، قياس الكفاءة الاقتصادية في المؤسسات المصرفية دراسة نظرية و ميدانية للبنوك الجزائرية خلال الفترة ١٩٩٤– ٢٠٠٣، أطروحة دكتوراة دولة في العلوم الاقتصادية تخصص نقود و مالية، جامعة الجزائر، الجزائر.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. Al- Hussain، Adel Hassan (2009) ، Corporate Governance Structure Efficiecy and Bank Performance in Saudi Arabia، Doctor of Business Administration Thesis ، University of Phoenix، United States.
2. Allen، Jason and Liu، Ying (2005) ، Efficiency and Economies of Scale of Large Canadian Bank، Bank of Canada، Working Paper 2005- 13، Canada.
3. Barrett، Christopher.B (1997) ، How Credible are Estimates of Preasant Allocative Scale or Scope Efficiency? A Commentary، Journal of International Development، Vol.9، No.2،pp 221- 229.
4. Daoud، Rajai Othman (2007) ، Utilising Data Envelopment Analysis to Evaluate the Efficiency of Chemical Industries (paints sector) in Jordan using Financial Indicatores، Master Science in Industrial Engineering Thesis، the University of Jordan، Jordan.
5. Kessy، Pantaleo.J (2007) ، Bank Efficiency and Economic Growth: An Empirical Analysis of the Economies of the East African Community (EAC) Countries، Doctor of Philosophy Thesis، Colorado State University، United States.
6. Mahaftha، Bilal Mohammad Saed (2005) ، Operating Efficiency and Stock Performance The case of Jordanian Banks، Master Banking and Finance Thesis ، Yarmouk University، Jordan
7. Mester، Loretta.J (1994) ، Efficiency of Banks in Third Federal Reserve district، Working Paper، Financial Institutions Center the Wharton school، University of Pennsylvania، United States.
8. Morris، David (2008) ، Economies of Scale and Scope in E- learning ، Studies in higher education، Vol.33،No.3، France، pp 331- 343.
9. Omari، Omar Khalifeh (2008) ، Measuring Efficiency Levels of the Jordanian and U.A.E Banking Industries: An Application of Data Envelopment Analysis، Master in International Business Thesis ، the University of Jordan، Jordan.
10. Wheelock، David.C and Wilson، Paul.W (1995) ، Evaluation the Efficiency of Commercial Banks: Does our view of what Banks do Matter?، Federal Reserve of St- louis، United states، pp 39- 51.
11. Worthington، Andrew.C (1998) ، The Determinations of Non- Bank Financial Institution Efficiency: A Stochastic Cost Frontier Approach، Applied Financial Economics، Vol.8، No.3، Australia، pp 279- 289.
12. Young، Robert De (1997) ، Measuring Bank Cost Efficiency: Don't count on Accounting Ratios، Financial practice and education، United States، pp 20- 31.

أثر جودة المنتج وسعره وقيمته المدركة على القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية (من وجهة نظر المستهلك الأردني)

د. شاكر تركي إسماعيل*

* أستاذ مساعد/ كلية الأعمال/ جامعة الملك عبد العزيز/ رابغ/ جدة/ المملكة العربية السعودية.

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى قياس اتجاهات المرضى، ومراجعي مستشفيات القطاع العام في محافظة إربد/ الأردن تجاه الأدوية الأردنية المنتجةمحلياً والأدوية الأجنبية المستوردة، حيث اُختبرت بعض المتغيرات التي تقيس دوافعهم وتفضيلاتهم التي تشكل سلوكهم الشرائي تجاه تلك الأدوية، وإدراكهم لجودة كل منها (الجودة المدركة) ، قياساً بالقيم المادية المدفوعة. واختبرت لغرض الدراسة عينة عشوائية بسيطة مكونة من (١٧٥) مفردة من المرضى من واقع سجلات مستشفيات مجتمع الدراسة.

توصلت الدراسة إلى أهمية القيمة المدركة للمنتج الدوائي بغض النظر عن مكان تصنيعه، إضافة إلى أهمية سعر المنتج الدوائي، وغالباً ما يعتمد المرضى على الكلمة المنطوقة من الأطباء التي تشكل إدراكاتهم نحو جودة المنتجات الدوائية، وبالتالي فإن المريض على استعداد لدفع سعر أعلى مقابل الحصول على منتج دوائي أجود. وقد أوصت الدراسة بضرورة إعادة النظر في سياسات التسعير التي تتبعها شركات الأدوية الأردنية في تسعير منتجاتها لكي تتلاءم مع الجودة المدركة.

الكلمات المفتاحية: القدرة التنافسية، جودة المنتج، القيمة المدركة، السعر.

Abstract:

This study aims at studying the attitudes of patients who are treated in the public sector hospitals in Irbid governorate towards Jordanian drugs and imported drugs from well – known European companies.

A simple random sample consisting of (175) patients, withdrawn from hospitals records which form the population study, to measure their attitudes towards Jordanian and imported drugs.

The study concludes the following findings: Patients stated that the perceived value of the drugs is the first priority for them without any consideration for the manufacturing place. Usually, the patient depended on the opinion of their doctors regarding the quality of medicine. Thus, the patient is ready to pay a higher price to get a better medicine.

The study recommended that Jordanian companies must make a reconsideration for their pricing policies to match the perceived value.

Key words: *Competitiveness, Product Quality, Perceived value, Price.*

مقدمة:

يعد التسويق أحد الأنشطة الأساسية التي تقوم بها مؤسسات الأعمال الحديثة، كما يعد محوراً استراتيجياً لأية مواجهة بين المؤسسة والبيئة التي توجد فيها، فنجاح المؤسسة في أداء هذه الأنشطة يحدد إلى درجة كبيرة مدى النجاح الذي يمكن أن تسفر عنه عملياتها. والمفهوم التسويقي الحديث يتضمن نوعاً من المطابقة الخلاَّقة بين الحاجات الاستهلاكية، وبين السلع والخدمات المنتجة، مع كل ما يتطلبه القيام بهذه المطابقة من أنشطة مختلفة كإجراء البحوث ودراسة الحاجات والرغبات الاستهلاكية، بحيث تكون أساسا لتصميم السلع والخدمات المنوي إنتاجها وطرحها في تلك الأسواق (معلا و رائف، ٢٠٠٩) .

إن التسويق يمثل نظاماً متكاملاً An Integrated System تتفاعل من خلاله مجموعات من الأنشطة الفاعلة التي تستهدف الوصول إلى نهايات معينة، فإن هذا يفرض علينا توفير الإمكانات والموارد، (بما فيها المعارف والمهارات) اللازمة لذلك، وبالتالي فإن أي جهد تسويقي يجب أن يكون ضمن إطار الموارد المتاحة ومراعياً لمعطيات البيئة التسويقية وقواها المؤثرة مما يكسبها ميزة تنافسية تزيد من قدرتها التنافسية (Kotler and Armstrong, 2008) .

يعدُّ قطاع الصناعة الدوائية من القطاعات الحيوية والاستراتيجية في مختلف دول العالم التي تنادي بمجتمعات صحية من خلال غذاء ودواء صحي، كونه يعبر عن مدى تقدم ورفاهة المجتمع.

التعريفات المفاهيمية:

◄ **جوهر المنتج الدوائي:**

وهو المحتوى الدوائي الذي تقدمه شركات الأدوية الأردنية لعملائها، ويتمثل هذا المحتوى في مجموعة المنافع التي يسعى المريض إلى تحقيقها من خلال اكتسابه القوة والمناعة وسرعة المفعول (طشطوش، وليد، ٢٠٠٠) .

◄ **القيمة المدركة:**

هي القيمة أو المنافع التي يحصل عليها العميل نتيجة شرائه أو وصفه للمنتج الدوائي، والتي يقيمها المستهلك من خلال التكاليف التي يدفعها للحصول على هذه القيمة أو المنافع، مقارنة مع ما يقدمه المنافسون (Kotler and Armstrong, 2008) .

◄ **جودة المنتج الدوائي**:

وهي ملاءمة ما يتوقعه المريض من المنتج الدوائي مع إدراكه الفعلي للمنفعة التي يحصل عليها نتيجة تناوله الدواء، لذا فالأدوية الجيدة من وجهة نظر العملاء هي التي تتفق وتتطابق مع توقعاتهم (Pride and Ferrell, 2006) .

◄ **العملاء (المستهلكون)** :

الطبيب الذي يصف الدواء والمريض المستهلك للدواء بناء على وصفة طبية.

أهمية الدراسة:

الصناعة الدوائية الأردنية هي إحدى الصناعات الرئيسية في قطاع الصناعة الأردني، وتعد هذه الصناعة من الصناعات الاستراتيجية والحيوية التي تتعامل مباشرة مع صحة وحياة الانسان، ونظراً لزيادة حدة المنافسة نتيجة لازدياد الوعي الصحي في المجتمع الاردني ودخول منافسين جدد لقطاع الصناعة، لذا لا بد لها من الموازنة ما بين جودة المنتجات الدوائية والتقليل من فجوة الجودة المدركة.

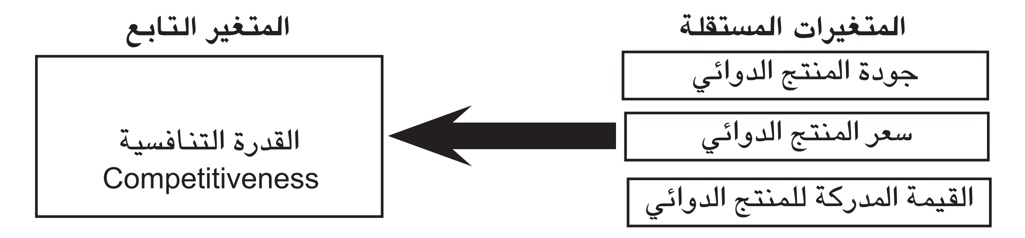
مشكلة الدراسة وعناصرها:

نظراً لانضمام الأردن لمنظمة التجارة العالمية، فقد أصبحت السوق الأردنية سوقا رائجة أمام الشركات الدوائية العربية والأجنبية إضافة إلى الداخلين الجدد لقطاع الصناعة، مما زاد من حدة المنافسة ما بين الشركات الأردنية المصنعة للأدوية، والشركات المستوردة للأدوية الأجنبية، مما ألزم إدارات التسويق فيها لإعادة النظر في استراتيجياتها وسياساتها المتبعة من أجل إكسابها ميزة تنافسية، لزيادة قدرتها التنافسية، بالتالي المحافظة على بقائها واستمرارها في ظل الظروف الحالية والمستجدة. **ويمكن تحقيق هذا الغرض عن طريق الإجابة عن التساؤلات الآتية**:

- ما العلاقة بين جودة المنتج الدوائي، وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية في السوق المحلية والعربية؟
- ما العلاقة بين سعر الأدوية، وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية في السوق المحلية والعربية؟
- ما العلاقة بين القيمة المدركة للأدوية (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية في السوق المحلية والعربية؟

نموذج الدراسة:

فيما يأتي نموذج الدراسة الذي يوضح المتغيرات المستقلة الرئيسة (ذات العلاقة بالمنتج الدوائي)، والمتغير التابع التي ستختبر في هذه الدراسة.



فرضيات الدراسة:

انطلاقا من تساؤلات مشكلة الدراسة التي حددها الباحث، **فقد صيغت الفرضيات الآتية**:

- **الفرضية الأولى**:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين جودة المنتج الدوائي (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين جودة المنتج الدوائي (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

- **الفرضية الثانية**:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين سعر المنتجات الدوائية، وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين سعر المنتجات الدوائية وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

- **الفرضية الثالثة**:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين القيمة المدركة للأدوية (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين القيمة المدركة للأدوية (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

أ. الاطار النظري:

مقدمة:

تعدُّ القدرة التنافسية للمؤسسات الإنتاجية والخدمية من أهم مقومات البقاء في ميادين الأعمال، فلم تعد القدرة التنافسية مقياساً لنجاحها في ظل العولمة وانهيار الحواجز الجغرافية بين الأسواق العالمية، بل أصبحت القدرة التنافسية مصدر حيوية وتميّز (Pride and Ferrell, 2006) .

وتشير الدراسات والبحوث والتقارير الدولية إلى أن القدرة التنافسية تعد مقياساً موضوعياً لقياس مدى تميز الدول، ومدى قوة اقتصادها وقدرتها على تحقيق الرفاهة لشعوبها، وفي هذه الدراسة يحاول الباحث التركيز على شركات الأدوية الأردنية بتسليط الضوء على العوامل والمتغيرات التي تنتهجها شركات الأدوية الأردنية من أجل إكسابها ميزة تنافسية تساعد في تدعيم قدرتها التنافسية، من ثم محاولة تطوير وإدامة هذه الميزة لمواكبة التغيّر في عوامل البيئة المحلية والعربية من أجل المحافظة على استمرارها وبقائها، وبالتالي خلق صورة ذهنية مشرقة لها في أذهان عملائها في السوق المحلية والعربية من خلال تطوير مدركات إيجابية لها ولمنتجاتها الدوائية التي تقدمها.

مفهوم القدرة التنافسية: Concept Competitiveness

لقد تعرض مفهوم القدرة التنافسية (Competitiveness) لمحاورات ساخنة على مدى بعيد، ولقد صاحب ظهور نظام الأعمال الجديد إفراز مصطلح «التنافسية» كنتيجة طبيعية لزيادة أعداد المنتجين والداخلين الجدد لقطاع الصناعة. **وتتبلور المصادر التي نشأت عنها حالة «التنافسية» فيما يأتي:** (Schacht, Wendy, 1999) .

- ♦ ضخامة وتعدد الفرص في السوق العالمية.
- ♦ وفرة المعلومات عن عناصر السوق ومتطلباته نتيجة لسهولة الاتصالات، وتطوّر إمكانيات نقل المعلومات.
- ♦ تعدد البدائل والاختيارات أمام متخذي القرارات من مختلف قطاعات ومستويات نظم الأعمال.
- ♦ تدفق نتائج البحوث العلمية والتطورات التكنولوجية، ووفرة فرص التطبيق في مجالات الأعمال المختلفة.

♦ انخفاض تأثير المحددات والقيود التقليدية في نظام الأعمال، ومن أهمها المحددات والقيود الحكومية والجمركية والتمويلية.

ويستخدم مصطلح القدرة التنافسية على نطاق واسع من جانب العديد من الاقتصاديين والسياسيين، وقد بدأ شيوع هذا المصطلح عندما بدأ الرئيس الأمريكي الأسبق «ريجان» بتكوين لجنة لبحث تنافسية الصناعات الأمريكية وتدهور قدرتها التنافسية أمام مثيلاتها اليابانية، ثم أنشأ بعد ذلك مجلساً للسياسة التنافسية الأمريكية، وقد عرّف المجلس القدرة التنافسية على أنها قدرة الدولة إنتاج السلع والخدمات التي تقابل الأذواق في الأسواق العالمية، وفي الوقت نفسه تحقيق مستوى معيشة متزايد على المدى الطويل (Schacht, Wendy, 1999).

من هنا يمكن تعريف القدرة التنافسية بأنها قدرة الدولة أو المؤسسة الإنتاجية على توليد ثروة اكبر من منافسيها في الاسواق العالمية. ويرجع الفضل في تطوير مفهوم القدرة التنافسية إلى الفكر الاقتصادي الذي تناول مفهوم الميزة النسبية «منذ كتابات آدم سميث» باعتبارها حجر الزاوية في تحديد مسار التجارة الدولية ومجالات التخصص وتقسيم العمل. وفي منتصف السبعينيات برز مفهوم القدرة التنافسية «Competitiveness» ليحل مكان مفهوم الميزة النسبية، وأصبح التحدي الكبير الذي يواجهه رجال الاقتصاد والإدارة هو كيفية تحويل الميزة النسبية إلى قدرة تنافسية.

تعد القدرة التنافسية محور الإصلاح، فهو اصطلاح محوري متعدد الأبعاد، وهي ليست مجرد قدرة الدولة على توليد الثروة، فهي المناخ الذي يولد الاستثمار والتنمية، وهي ليست مجرد الإنتاجية الاقتصادية، ولكنها تشير إلى مصادر قوة الدولة أو المؤسسة والعوامل المؤثرة في تعظيم قدرتها من كفاية إدارية، وهياكل البنية الأساسية، والمرافق، وتدفق رأس المال، وكفاءة السياسات، والقدرة التمويلية، والتنمية التكنولوجية، والموارد البشرية، وجودة الحياة، ويعدُّ التعليم المؤثر والمفتاح الرئيس المؤثر في القدرة التنافسية (Chan, Lien, 1999).

ويرى (Deakin & Patten, 1999) أن التكنولوجيا تعد مفتاح القدرة التنافسية ويستشهدان على ذلك قائليْن: على الرغم من أن اليابان تعد صغيرة من حيث المساحة، وفقيرة من حيث الموارد الطبيعية المادية فإن المنتجات ذات التقنية العالية High- Tech Product تعد من أهم أسس نجاحها في غزو الأسواق العالمية وارتفاع مستوى القدرة التنافسية اليابانية.

وبناء على ما تقدم يمكن القول إن هناك علاقة إيجابية ما بين القدرة التنافسية

والابتكار واتساع الاسواق، حيث يعد الابتكار من أهم أدوات المنافسة التي تسهم في إشباع حاجات المستهلكين واتساع الاسواق، كذلك المنافسة تؤدي إلى مزيد من الابتكارات والنتيجة هي أن المنافسة والابتكار من وسائل دعم القدرة التنافسية (Kiston & Michie, 1998) .

شركات الأدوية الأردنية والقدرة التنافسية:

إن هدف مديري التسويق في شركات الأدوية الأردنية هو تحسين أداء شركاتهم، والارتقاء بها إلى مصاف الشركات الرائدة في قطاع الصناعة، من خلال تطوير ميزة تنافسية تجعلها متميزة ومختلفة عن بقية الشركات المنافسة لها. وهنالك العديد من السبل التي يمكن من خلالها تحقيق هذه الميزة، ومن أهمها استخدام نظم المعلومات التكنولوجية لدعم عملياتها وأنشطتها، ولتحقيق هذه الغاية لا بد لها من إعادة تحليل عملياتها الأساسية وتقويمها وتنظيمها: ابتداء من البحوث وعمليات الهندسية والتصميم (التي هي مسؤولة عن تحويل البحوث النظرية إلى منتجات سلعية حقيقية) ، وعمليات تقديم الخدمة، والعمليات المرافقة لها، إضافة إلى العمليات التسويقية التي تتبناها، ونوعية القيادات الإدارية فيها، وكل عملية من هذه العمليات لها مدخلاتها ومخرجاتها وأهدافها الخاصة بها.

إن تحليل هذه العمليات بشيء من التفصيل يخول مديري التسويق بتحديد المشكلات التي تواجه شركاتهم، والبحث من خلالها عن الفرص الخلاّقة والإبداعية التي تخولهم اتخاذ القرارات الاستراتيجية فيما يخص مسيرة شركاتهم ورؤيتها المستقبلية، آخذين بعين الاعتبار التكاليف والمخاطر الخاصة بهذه القرارات.

الصناعة الدوائية الأردنية:

يعد عام ١٩٦٢ بداية أول صناعة دوائية في الأردن، حيث أُسست أول شركة دوائية برأسمال مقداره (١٥٠) ألف دينار أردني، وفي النصف الثاني من عقد السبعينيات أُسست ثلاث شركات دوائية جديدة، وثلاث شركات في عقد الثمانينيات، أما في عقد التسعينيات فقد شهد هذا القطاع تطوراً ملحوظاً بأن أسس فيه تسع شركات، ويعود ذلك إلى تدفق رؤوس الأموال العائدة من دول الخليج إلى الأردن نتيجة لأحداث حرب الخليج عام ١٩٩١، إضافة إلى القوانين والإجراءات والتسهيلات الاستثمارية التي أوجدتها ومنحتها الحكومة الأردنية للمستثمرين (غرفة صناعة عمان، ٢٠٠٦) .

خصائص الصناعة الدوائية:

احتلت الصناعة الدوائية الأردنية المرتبة الأولى في التصدير بين القطاعات الانتاجية

الأخرى ومن حيث مساهمتها في الناتج القومي الإجمالي (تقريرالبنك المركزي الاردني، ٢٠٠٦) .

تستورد شركات الأدوية الأردنية تكنولوجيا صناعتها كافة من آلات ومعدات وأجهزة وقطع غيار من دول العالم كافة، كما تستورد المواد الدوائية الأولية من الأسواق الدولية مثل (أمريكا، أوروبا، الصين، الهند) ، وتستخدم مواد ومركبات عُولجت وطُورت في دول أخرى، ولا تنتج أية أدوية من اختراعاتها إنما يعتمد ٤٠٪ من إنتاجها على حقوق الامتياز من شركات أجنبية، و ٦٠٪ من إنتاجها اعتماداً على التراخيص (طشطوش، وليد، ٢٠٠٠).

جودة الصناعة الدوائية:

تعد الجودة من المواضيع المهمة في الصناعة الدوائية التي توليها المؤسسات المنتجة جل اهتمامها، ويتمثل ذلك في حجم الإنفاق على البحوث والتطوير من أجل إنتاج سلع وخدمات متميزة في جودتها لملاءمة ما يتوقعه منها العملاء المستهلكين (القيمة المدركة) أو المنفعة الرئيسية التي يحصل عليها المستهلك جراء تناوله لها، والسعر الذي يدفعه مقابل هذه المنفعة (lovelock and Wirtz; 2006) .

نظرا لارتباط الصناعة الدوائية بصحة وحياة الإنسان، فقد دأبت منظمة الصحة العالمية والهيئات والمؤسسات العالمية بوضع مقاييس وأنظمة وقوانين تحكم السيطرة على جودة المنتج الدوائي، حيث تنفق الشركات الأردنية ١٠٪ من الإيراد المتحقق على البحوث والتطوير (طشطوش، وليد، ٢٠٠٠) .

ونتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي وثورة الاتصالات التي تضمنت تطوراً ملحوظاً في المفاهيم التسويقية الحديثة، وظهور مفهوم التسويق الإلكتروني الذي قارب بين الدول وتخطى الحدود الإقليمية للمنتجين مما وفّر العديد من البدائل المتاحة أمام المستهلك الأردني، وبخاصة بعد انضمام الأردن لمنظمة التجارة العالمية، مما ألزم شركات الأدوية الأردنية بتطوير منتجاتها بشكل مستمر نتيجة المنافسة الحادة بين شركات الأدوية الأردنية العاملة في السوق المحلية، والمنافسة بين الشركات الأردنية والشركات العربية والأجنبية المصدرة للسوق الأردني، إضافة إلى منافسة هذه الشركات لها في الأسواق الخارجية.

معوقات الصناعة الدوائية:

من خلال تحليل (SWOT) لنقاط الضعف والقوة لشركات الأدوية الأردنية، **فقد تبين أن هناك العديد من نقاط الضعف التي تعاني منها هذه الشركات، والتي تحد من**

منافسة أدويتها للأدوية الأجنبية في السوق المحلية والعربية:

- ♦ ارتفاع معدل دوران العمالة نتيجة مغادرة العمالة الفنية الماهرة لمكان العمل الذي تدربوا فيه، وأكسبهم خبرة للبحث عن أماكن أخرى توفر لهم أجوراً أعلى تتناسب مع قدراتهم وإمكانياتهم (وزارة الصناعة والتجارة، تقارير غير منشورة، ٢٠٠٦) .
- ♦ كثرة عدد شركات الأدوية الأردنية المنتجة والانفتاح الذي يشهده سوق الدواء الأردني في استيراد الدواء الأجنبي، الذي سيؤدي بالتالي إلى خروج عدد منها من قطاع الصناعة (تقارير وزارة الصناعة والتجارة، ٢٠٠٦) .

العوامل المؤثرة على سلوك العملاء:

إن سلوك العملاء باتخاذ قرار وصف أو اختيار منتج دوائي دون غيره من المنتجات الأخرى المنافسة، يظهر الحاجة إلى دراسة أفضل وأعمق لسلوك العملاء الحالي والمرتقب. وبناءً على ذلك يمكن الاسترشاد بعلم النفس وعلم الاجتماع بغرض الوقوف على أسباب اختيار منتج دوائي محلي، أو منتج دوائي اجنبي:

١. المواقف والاتجاهات:

هي تعبير عن الخبرات المتراكمة والمشاعر الداخلية التي تعكس أو تكشف فيما إذا كان للعملاء ميول إيجابية أو سلبية نحو منتج محلي معين أو منتج مستورد، وهذه المواقف والاتجاهات لا تلاحظ بصورةمباشرة، بل تستنتج مما يقول هؤلاء العملاء، أو من خلال تحليل وتفسيرأنماطهم السلوكية. وتتشكل الاتجاهات والمواقف لديهم من خلال وظيفة المنفعة (Shiffman & Kanuk, 2004) .

وظيفة المنفعة:

ترتبط وظيفة المنفعة بمبدأ الثواب والعقاب، لذا يطور العملاء اتجاهاتهم ومواقفهم تجاه منتج محلي معين أو منتج أجنبي مستورد، بناءً على المنافع المتوقع حصولهم عليها. (Solomon, 2004). على سبيل المثال إذا كانت الكلمة المنطوقة إيجابية عن منتجات شركة ما، حيث تتمتع بسمعة جيدة،وتقدم منتجات دوائية وعلاجية بجودة عالية مطلوبة في المجتمع المحلي، وهنالكطلب محلي وعربي على منتجاتها،فإن المستهلكين يبنون مواقفهم واتجاهاتهم نحو هذهالشركة على أساس ما تقدمه لهم من منافع وفوائد.

٢. صورة الذات لدىالمستهلك:

يشير مفهوم الذات إلى نظرة الفرد إلى ذاته ونفسه من خلال إيجاد إجابة للسؤال

من أنا؟ وتتميز فكرة الفرد عن نفسه بالتفرد، وهي عبارة عن تنظيم الخبرات التي يمر بها طوالحياته، والتي تعتمد في تشكيلها وتكوينها على البناء السيكولوجي الخاص به. ومفهوم الذات يمكنأن يتحدد إلى درجة كبيرة من خلالمعرفة الفرد بوجهة نظر الآخرين عنه (Shiffman & Kanuk, 2004) .

٣. القيمة المدركة للمنتجات الدوائية:

إنتطوير قيمة مدركة للمنتج الدوائيالذييطلبه المستهلكون هو المقترح الرئيس لاتخاذ القرار الاستراتيجي في اختيار منتج دون آخر، والذي على أساسه تُقوَّم البدائل من قبل المستهلكين، ومن ثم تختار منتجات شركة ما دون غيرها، بناء على القيمة المضافة التي يدركها المستهلكون. وهذه القيمة تشكل بعض جوانب القدرة التنافسية لشركات الأدوية. وعندما لا يستطيع المستهلكون أن يميزوا القيمة التي تقدمها شركات الأدوية المختلفة، فإنهم غالباً ما يختارون المنتجات الأقل سعراً على أنها المحدد الرئيس لقرار الاختيار (Winer, 2004) .

٤. جودة المنتجات وسمعة الشركة:

لكي تستجيب الشركات للضغوط التنافسية، فلا بد لها من البحث عن مفهوم الجودة كأداة تسويقية لتبنيعليها استراتيجياتها التسويقية. وذلك من خلال تحديد الوضع الاستراتيجي للشركة المنتجةوالخدمات التي تقدمها، والترويج لها في محاولة منها لإسقاط صورة ذهنيةمشرقة عنها، وعن منتجاتها وخدماتها في أذهان العملاء أفراد المجتمع والجهات المستفيدة وأصحاب المصالح. ومنالعوامل المرتبطة بالجودة أصالة المنتجات وجودتها من حيث المستوى والمحتوى والطريقة والأسلوب، وإلى أي مدى تعكس هذه المنتجات الشخصية القومية، أو التبعية الثقافية، وإلى أي مدى ترتبط بالبيئة، فكلما زاد الارتباط بين المنتجات والواقع، كلما زادت فعاليته، وإدراك العملاء لقيمة ما يصفونه أو ما يشترونه من أدوية. (Zeithmal, V. et al., 2006).

٥. التكاليف المالية وغير المالية:

تشكل التكاليف المالية المباشرة وغير المباشرة والأعباء الجسدية التي يتحملها المستهلكون عوامل مهمة في اتخاذ قرارات الشراء، من حيث الكلفة المالية للحصول على المنتج الدوائي، والأعباء الجسدية والنفسية التي يتحملها المستهلك في سبيل الحصول على المنتج، فغالباً ما يختار المستهلكون المنتج الدوائي الذي يتلاءم مع إمكاناتهم وقدراتهم المالية وغير المالية (lovelock and Wirtz; 2006) .

الدراسات السابقة:

هناك ندرة في الدراسات التي تناولت القدرة التنافسية لشركات الأدوية، وعليه فقد تناولتُ موضوع القدرة التنافسية للشركات الإنتاجية بشكل عام، **وسترتب هذه الدراسات من الأقدم إلى الأحدث**:

♦ **دراسة (نصر، رلى، ١٩٩٠) ، بعنوان: «الصناعة الدوائية في الأردن»**:

هدفت هذه الدراسة إلى إظهار أهمية قطاع الصناعة الدوائية في الأردن حيث استعرضت مؤشرات تطوره المتمثلة في زيادة معدلات نمو القيمة المضافة والعمالة ومساهمة كل عنصر من عناصر العمل ورأس المال في القيمة المضافة الصافية .وتوصلت الدراسة إلى أهمية سياسيات التسعير، البحث والتطوير، والتسويق والتي تشكل في مجملها مصدر قوة لها.

♦ **دراسة (رحاحلة، نسيم، ١٩٩٧) بعنوان: «الصناعة الدوائية في الأردن: آثار الملكية الفكرية وتقدير الطلب على الصادرات»**:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف العوامل المؤثرة على الطلب المحلي والخارجي على الأدوية الأردنية. وتوصلت الدراسة إلى أن محددات الطلب الخارجي على منتجات شركات الأدوية الأردنية تكمن في الأسعار النسبية، وسعر صرف الدينار الأردني، والآثار السلبية على قدرتها التنافسية في الأسواق الخارجية، وبالتالي على قدرتها التصديرية.

♦ **دراسة (Sharma and Fisher, 1997) بعنوان: «الاستراتيجيات الوظائفية والقدرة التنافسية»**:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف واستقصاء الاستراتيجيات الوظائفية التي تهدف إلى تطوير القدرة التنافسية من خلال الأهمية المدركة للإدارة والتأثير الحقيقي على الأداء التنظيمي في المؤسسات الأسترالية المصنعة، مع الأخذ بعين الاعتبار بعض العوامل مثل الإنتاجية، والبحوث والتطوير والموارد البشرية. وتوصلت الدراسة إلى الاستراتيجيات الإنتاجية المفضلة من قبل الشركات الأسترالية المنتجة، والتي سوف تستمر للسنوات القادمة جنباً إلى جنب مع استراتيجيات الموارد البشرية والمزيج من الاستراتيجيات الوظائفية التي كانت ذات فائدة للأداء، والتي تتضمن استراتيجية إدارة الجودة الشاملة (TQM) ، والتي تعتبر اكثر ملاءمة للقدرة التنافسية.

♦ دراسة (Hsu li- Ling, 1999) بعنوان: «**تأثير تكنولوجيا المعلومات على القدرة التنافسية للتفاعل ما بين العملية الإنتاجية والتسويقية**»:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف تأثير تكنولوجيا المعلومات على التفاعل ما بين العملية الإنتاجية والتسويقية، وفهم فجوة الأهداف الوظائفية المتداخلة والنشاطات المتضاربة بين دائرتين، والتي تشكل الإنجاز للقدرات التنافسية للشركات، باعتبار أن الأدوات التكنولوجية تقلل من الفجوة في درجة تداخل الوظائف من خلال تقدم تكنولوجيا المعلومات، والتي تؤدي بدورها إلى تقليل التضارب في مستوى النشاطات. وتوصلت الدراسة إلى أهمية تكنولوجيا المعلومات المستخدمة، والعمليات التصنيعية والتسويقية، والاختلافات التنظيمية، وحل المشكلات التي تعدُّ من أهم العوامل التي تشكل القدرات التنافسية للمؤسسات .

♦ دراسة (Ashok Kumar et, al., 1999) بعنوان: «**مستوى جودة القدرة التنافسية كحجر اساس**»:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف الأبعاد الأساسية التي يمكن أن تنافس من خلالها منظمات الاعمال والتي تشكل قدرتها التنافسية وهي السعر، الجودة، المرونة، والأنظمة التوزيعية، على اعتبار ان الجودة العمل الرئيس والمحدد لقدرة المنظمة التنافسية.

توصلت الدراسة الى ان قوة وضعف المنظمة ترتبط بقدرتها التنافسية التي يمكن تطويرها، وتحسينها باستمرار من خلال استخدام تكنولوجيا المعلومات.

♦ دراسة (Jorgensen, 2006) بعنوان: «**إدامة القدرة التنافسية في الأسواق العالمية**»:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف أهمية القدرة التنافسية للمؤسسات الصغيرة ومتوسطة الحجم في الأسواق العالمية من خلال سلسلة القيمة التي يمكن تحقيقها من خلال مواجهة المتطلبات الاجتماعية والبيئية للمشترين متعددي الجنسيات. وقد توصلت الدراسة إلى أن الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم تواجه متطلبات أسواق المشترين بشكل متكرر، أكثر من مواجهتها لمتطلبات مزوديها، مما يكسبها ميزة تنافسية.

♦ دراسة (Friedwald, Michael and Others, 2006) بعنوان: «**تقييم السياسات الوطنية الأوروبية لتدعيم القدرة التنافسية لمنتجي أنظمة المعلومات والاتصالات التكنولوجية**»:

هدفت هذه الدراسة إلى تعرّف أهمية قطاع المعلومات والاتصالات، وبالتالي اختبار التغيّر في دور مستوى البيانات الوطنية الأساسية لزيادة القدرة التنافسية لمنتجيها. وقد تمت دراسة منتجي ١٧٦ برنامجاً وطنياً، من أجل بناء إطار تحليلي مقارن يأخذ بالحسبان التركيبة المختلطة والهياكل التنظيمية لهذه المصانع في دول الاتحاد الأوروبي. وتوصلت الدراسة إلى أن تطوير البرامج التكنولوجية مازالت تسيطر بالتأكيد على التحول من إنتاج أنظمة المعلومات والاتصالات التكنولوجية (ICT) إلى تطبيق الخدمات المرافقة لها وتنسيقها، وهذا يعتمد على السلوك الإداري والتصرفات التاريخية الوطنية، وسياسات المصانع، باعتبار التطبيقات التي يتبعها المنتجون تمثل القدرة التنافسية لكل منها.

♦ دراسة **(Sanjib K. Dutta, 2007) بعنوان:** «**تحسين القدرة التنافسية للشركات الهندية: ربط القدرة التنافسية للمنظمات مع القدرة التنافسية الوطنية**»:

هدفت هذه الدراسة إلى بيان أهمية الجودة لتمييز الأداء المرتفع لمنظمات الأعمال، حيث اعتمدت الدراسة على أهمية الأداء المتميز في تحسين القدرة التنافسية للشركات الهندية على مستوى الاقتصاد العالمي باعتبار الأداء المتميز يشكل الإطار العام للتنبؤ في بناء القدرة التنافسية.

توصلت الدراسة إلى أن الإطار العام للأداء يستخدم من قبل المنظمات لتحسين مستوى قدرتها التنافسية، ولكنها لا تصلح كأداة، لكي تساهم في القدرة التنافسية الوطنية.

♦ دراسة **(Art Kovacic, 2007) بعنوان:** «**نقاط ارتكاز القدرة التنافسية السلوفانية من خلال نظام المؤشرات**»:

هدفت هذه الدراسة إلى تقييم القدرة التنافسية السلوفاتية من خلال الاساليب الكمية والنوعية، ومحاولة توضيح لماذا تنمو بعض الدول بسرعة أكبر من الدول الأخرى؟ اقترحت الدراسة مؤشرات عدة للقدرة التنافسية، منها: التجارة الخارجية، وميزان الحساب الجاري، والدخل الفردي من الدخل القومي، ونمو الإنتاجية، وحجم الصادرات ذات التقنية العالية نسبة للحجم الكلي للصادرات، وحجم الإنفاق على البحوث والتطوير ودرجة انفتاح الاقتصاد.

توصلت الدراسة إلى أن البلدان ذات البنى التحتية والسياسات الاقتصادية المختلفة تتنافس من أجل جلب الاستثمارات للشركات متعددة الجنسيات، أو الاستثمارات الصناعية المربحة. أما الاقتصاد المتواضع والمفتوح مثل اقتصاد سلوفاتيا فتدويل جميع مستويات الاستثمارات طويلة الأجل ضروري للنمو الاقتصادي طويل الأجل.

منهجية الدراسة:

أسلوب الدراسة:

لقد تبنت الدراسة أسلوب البحث الوصفي وأسلوب البحث الميداني التحليلي.

أداة الدراسة:

صمَّم الباحث استبانة متخصصة بغرض الحصول على البيانات الأولية المتعلقة بمشكلة الدراسة، وتضمنت الاستبانة (٢٠) فقرة ضمن مقياس ليكرت الخماسي للخيارات المتعددة، الذي يحتسب أوزان تلك الفقرات بطريقة خماسية، إضافة إلى البيانات الشخصية لعينة الدراسة.

اختبار الصدق والثبات:

قبل اعتماد مقياس البحث (الاستبانة) ، وما تضمنته من أسئلة، فقد اُختبرت جودة هذا المقياس الذي استخدم في جمع البيانات الملائمة لاختبار فرضيات الدراسة، لذا خضع المقياس لاختبار الصدق والثبات (Reliability & Validity) . ويعرف الصدق بقدرة المقياس على قياس ما أعد لقياسه، أما الثبات فهو الدرجة التي يحقق فيها المقياس النتائج نفسها في حال تكرار الاختبار، ويقيس مدى تناسق فقرات المقياس وانسجامها (عدس، توق، ١٩٩٨) . وقد اُستخدم اختبار (كرونباخ ألفا) لقياس مدى ثبات أداة القياس، حيث بلغت قيمة الفا ∝ = ٠,٧٦، وهي نسبة مقبولة لأغراض التحليل، بحيث تجاوزت الحد الأدنى (٦٠٪) المتفق عليه للاعتمادية (Malhotra, 2007)

مجتمع الدراسة وعينتها:

مجتمع الدراسة:

يتكون مجتمع الدراسة من جميع المرضى الذين يعالجون في مستشفيات القطاع العام في محافظة إربد (مستشفى الملك عبد اللة المؤسس، ومستشفى الأميرة بسمة التعليمي، ومستشفى الأمير راشد العسكري) ، والبالغ عددهم ٣٢٠ مريضاً، ممن هم على سرير الشفاء خلال شهر اذار ٢٠٠٧.

عينة الدراسة:

اختيرت عينة عشوائية مقدارها (١٧٥) مفردة مكونة من المرضى الذين يعالجون

في مستشفيات مجتمع الدراسة من واقع سجلات الداخلين في كل مستشفى خلال شهر اذار ٢٠٠٧.

إجراءات الدراسة:

وزَّع الباحث (١٧٥) استبانة على أفراد عينة الدراسة خلال شهر آذار من عام ٢٠٠٧م، ويلخص الجدول الآتي الاستبيانات الموزعة والمستردة لغايات التحليل:

الجدول (١)

الاستبيانات الموزعة والمستردة

مجتمع الدراسة	الاستبيانات الموزعة	الاستبيانات المستردة	نسبة الاسترداد
مستشفى الملك عبد اللة المؤسس	٦٥	٥٠	٪٧٧
مستشفى الاميرة بسمة التعليمي	٦٠	٤٥	٪٧٥
مستشفى الامير راشد العسكري	٥٠	٣٨	٪٧٦
المجموع	١٧٥	١٣٣	٪٧٦

وصف خصائص عينة الدراسة:

الجدول (٢)

توزيع عينة الدراسة تبعا للجنس

الجنس	ذكر	أنثى	المجموع
التكرار	٨٠	٥٣	١٣٣
النسبة المئوية	٪٦٠,٢	٪٣٩,٨	٪١٠٠

الجدول (٣)

توزيع عينة الدراسة تبعا للمؤهل العلمي

المؤهل العلمي	دون التوجيهي	توجيهي	دبلوم	بكالوريوس	ماجستير	دكتوراه	المجموع
التكرار	٢٨	٥٢	١٠	٣٠	١٠	٣	١٣٣
٪	٪٢١,١	٪٣٩	٪٧,٥	٪٢٢,٦	٪٧,٥	٪٢,٣	٪١٠٠

نتائج الدراسة ومناقشتها:

ستُعرض النتائج التي توصلت إليها الدراسة التي هدفت إلى التحقق من فاعلية

منظومة الاستراتيجيات التسويقية التي يمكن أن تتبناها شركات الأدوية الأردنية للتأثير على سلوك المستهلكين المرضى والجهات المستفيدة في الأسواق المحلية والعربية، وتناقش لاتخاذ قرار اختيار الدواء الأردني دون غيره من الأدوية (اعتماداً على رأي الجماعات المرجعية الطبيب المعالج والصيدلاني المختص) . ومن ثم الإجابة عن أسئلة الدراسة بعد اختبار فرضيات الدراسة التي وُضعت موضع الاختبار من خلال الأساليب الإحصائية المختلفة: (الإحصاء الوصفي، وتحليل الانحدار البسيط والمتعدد) .

اختبار فرضيات الدراسة:

لاختبار فرضيات موضوع الدراسة اُعتمد اختبار الانحدار البسيط لحساب قيم (t) التي تقيس إمكانية وجود علاقة تأثيرية معنوية بين كل متغير مستقل والمتغير التابع ذي العلاقة بالفرضية موضوع الاختبار، ويقوم هذا الاختبار على الصيغة التالية للفرضية العدمية والفرضية البديلة:

- لا توجد علاقة خطية بين المتغير المستقل والمتغير التابع $H_0 : B_1 = 0$
- توجد علاقة خطية بين المتغير المستقل والمتغير التابع $H_a: B_1 \neq 0$

وتنص القاعدة الإحصائية لهذا الاختبار على أن الفرضية العدمية H0 تُرفض في حال:

أن قيم P (Sig) تقل عن مستوى الدلالة الخاص به ٠,٠٥ ، تعد العلاقة بينهما معنوية، وذات دلالة إحصائية:

$$\text{If Sig} \leq \propto \Rightarrow \text{Re } ject \text{ H0 , Where as P (Sig)} \leq 0.05$$

واُعتمدت قيم معامل ارتباط بيرسون R بين كل متغير مستقل ومتغير تابع، حيث إن قيم P (Sig) لأي معامل ارتباط بين المتغير المستقل والمتغير التابع يقل عن مستوى الدلالة الخاص به ($\leq$P 0.05) . تعد العلاقة بينهما علاقة معنوية وذات دلالة إحصائية. كما اعتمد اختبار التباين ANOVA لحساب قيم (F) التي تقيس مستوى معنوية العلاقة بين المتغير التابع، ومجموعة المتغيرات المستقلة التي تضمنها نموذج الانحدار المستخدم، ويقوم هذا الاختبار على الصيغة الآتية للفرضية العدمية والفرضية البديلة:

H_0: B1 = B2 = ….. Bj = 0

أي لا توجد علاقة خطية بين المتغيرات المستقلة والمتغير التابع

H_a = At least one Bj $\neq$ 0

أي توجد علاقة خطية بين أحد المتغيرات المستقلة على الأقل والمتغير التابع. وتنص

القاعدة الإحصائية لهذا الاختبار على أن الفرضية العدمية H0 ترفض في حال:

أن قيم P (Sig) لأي معامل ارتباط بين المتغير المستقل والمتغير التابع، يقل عن مستوى المعنوية الخاص به ٠,٠٥ ، تعد العلاقة بينهما معنوية وذات دلالة إحصائية:

$$\text{If Sig} \leq \propto \Rightarrow \text{Re ject H0, Where as P (Sig)} \leq 0.05$$

كما دُرست نتائج الإحصاء الوصفي فيما يتعلق بقيم الوسط الحسابي والانحراف المعياري لكل سؤال من أسئلة الاستبانة. علماً بأن متغيرات الدراسة قيست على مقياس ليكرت الخماسي لبيان درجة الموافقة، وقد قُسمت درجات الموافقة إلى (٥) فئات،

الدرجة (١) منخفض جداً، (٢) منخفض، (٣) متوسط، (٤) مرتفع، و (٥) مرتفع جداً. وتشكل ما مجموعه ١٥ درجة، وبالتالي فان المتوسط = (١٥/ ٥ = ٣) .

وتنص القاعدة الإحصائية على قبول الفرضية العدمية في حال كان الوسط الحسابي لكل مفردة أقل من (٣) ، وترفض الفرضية العدمية في حال كان الوسط الحسابي لكل مفردة يزيد عن (٣) ، أي أن متوسط التكرار يزيد عن (٠,٥٠) .

الفرضية الأولى:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين جودة المنتج الدوائي (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين جودة المنتج الدوائي (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

ولاختبار هذه الفرضية حُسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية لفقرات مجال جودة المنتج الدوائي، والمجموع الكلي لهما، كما يظهر في الجدول (٤) .

الجدول (٤)

المتوسط الحسابي والانحرافات المعياري لجميع فقرات مجال جودة المنتج الدوائي والمجموع الكلي لهما

	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعباري
١	افضل شراء المنتج الدوائي الاجود بغض النظر عن بلد المنشأ.	٤,١٥	٠,٦٦
٢	افضل الشراء من الشركات التي تعتمد على البحوث والتطوير لتحسين منتجاتها.	٤,١١	٠,٦٤
٣	اذا كان المنتج الدوائي الاردني اجود فسوف اشتريه.	٤,٢٥	٠,٧٩
٤	جودة وفاعلية المنتج الدوائي قمة اولوياتي عند الشراء.	٣,٨٦	١,٠٤

	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
٥	تفضيلي للمنتج الدوائي يعتمد على المواد الاولية المكونة له.	٣,٧٧	١,٠٥
	جودة المنتج الدوائي.	٤,٠٣٠	٠,٤٩٨

بينت نتائج تحليل الإحصاء الوصفي الواردة في الجدول (٤) موافقة المستجيبين على أهمية جودة المنتج الدوائي باعتباره مكوناً أساسياً للقدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية، وقد تراوحت المتوسطات الحسابية لمجال جودة المنتج الدوائي ما بين (٣,٧٧- ٤,٢٥) ، فكان أعلاها للفقرة رقم (٣) التي تنص على: «إن الاهتمام بجودة المنتح الدوائي يساهم في تعزيز الصورة الذهنية لتلك المنتجات»، وأدناها للفقرة رقم (٥) التي تنص على: «تفضيل المستهلكين للمنتج الدوائي بناء على المواد الاولية المكونة للمنتج (اعتمادا على رأي الطبيب المعالج والصيدلاني المختص)» . وبلغ متوسط نسبة التكرار لاستجابات عينة الدراسة (٠,٨١) للاستجابات التي تراوحت ما بين محايد وموافق بشدة، وهي نسبة مرتفعة وتزيد عن (٠,٥٠) . وتدل على ارتفاع درجة الموافقة.

ومن أجل اختبار الفرضية الأولىطبِّق تحليل الانحدار (Regression Analysis) جدول (٥) .

الجدول (٥)

نتائج تحليل ANOVA ومعاملات Coefficients لجودة المنتج الدوائي

	المتغير المستقل	r	r 2	β	t	F	Sig	النتيجة
٢	جودة المنتج الدوائي.	٠,٢٧٤	٠,٠٧٥	٠,٢٩٤	٣,٢٦٠	١٠,٦٢٥	٠,٠٠١	رفض العدمية

يبين الجدول (٥) أن معامل الارتباط بين جودة المنتج الدوائي والقدرة التنافسية لشركات الأدوية بلغ (R= 0.274) ، وأن قيمة معامل التحديد (R^2) فسر ما نسبته (٠,٠٧٥) من التغير الحاصل في قدرة جودة المنتج الدوائي على زيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية. وهي نسبة تدل على درجة تأثير ضعيفة نسبياً مقدارها (β = 0.294). وتؤكد معنوية هذه العلاقة قيمة (F) البالغة (١٠,٦٢٥) وهي قيمة دالة إحصائيا ضمن النموذج العام لمتغيرات الدراسة المستقلة مجتمعة، وبدلالة إحصائية مقدارها (٠,٠١) ، وبالتالي فإن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين جودة المنتج الدوائي والقدرة التنافسية، وبناء على القرار الإحصائي ترفض الفرضية العدمية لوجود علاقة ذات دلالة احصائية.

الفرضية الثانية:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين سعر المنتج الدوائي وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين سعر المنتج الدوائي وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

ولاختبار هذه الفرضية حُسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية للفقرات الخاصة بمجال أسعار المنتجات الدوائية والمجموع الكلي لهما، كما يظهر في الجدول (٦) .

الجدول (٦)

المتوسط الحسابي والانحرافات المعياري لجميع فقرات مجال اسعار المنتجات الدوائية والمجموع الكلي لهما

	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعباري
١	اعتقد ان ارتفاع أو انخفاض سعر الدواء لا يدل على جودته.	٤,٢٦	٠,٧٦
٢	انا على استعداد لدفع سعر اعلى مقابل الحصول على جودة اعلى للمنج الدوائي.	٣,٩٥	٠,٨٤
٣	تسعر شركات الادوية منتجاتها على اساس التكلفة.	٣,٨١	٠,٩٢
٤	جودة المنتج الدوائي اهم بالنسبة لي من السعر الذي ادفعه.	٣,٤٧	١,١٠
٥	لا توجد هنالك فروقات واضحة ما بين اسعار المنتجات الدوائية المحلية والاجنبية المستوردة.	٣,٧١	٩٩.
	أسعار المنتجات الدوائية	٣,٨٣٩	٠,٤٩٧

بينت نتائج تحليل الإحصاء الوصفي الواردة في الجدول (٦) على موافقة المستجيبين على أهمية سعر المنتج الدوائي باعتباره مكوناً رئيساً للقدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية، وقد تراوحت المتوسطات الحسابية لمجال سعر المنتج الدوائي ما بين (٣,٤٧- ٤,٢٦) ، فكان أعلاها للفقرة رقم (١) والتي تنص على: «إن سعر المنتجالدوائيوعدالة تسعير المنتجات الدوائية، وعدم المبالغة فيها تساهم في تعزيز الصورة الذهنية لتلك المنتجات»، وأدناها للفقرة رقم (٤) والتي تنص على: «أهمية سعر المنتج الدوائي للمستهلك». وبلغ متوسط نسبة التكرار لاستجابات عينة الدراسة (٠,٧٧) للاستجابات التي تراوحت ما بين محايد وموافق بشدة، وهي نسبة مرتفعة، وتزيد عن (٠,٥٠) . وتدل على ارتفاع درجة الموافقة.

ومن أجل اختبار الفرضية الثانيةطبِّق تحليل الانحدار (Regression Analysis) كما يظهر في الجدول (٧) .

الجدول (٧)

نتائج تحليل ANOVA ومعاملات Coefficients لأسعار المنتجات الدوائية

	المتغير المستقل	r	r 2	β	t	F	Sig	النتيجة
٢	أسعار المنتجات الدوائية	٠,٤٢٤	٠,١٨٠	٠,٤٥٦	٥,٣٦٠	٢٨,٧٣٠	٠,٠٠٠	رفض العدمية

يبين الجدول (٧) أن معامل الارتباط بين سعر المنتج الدوائي، والقدرة التنافسية لشركات الادوية بلغ (R= 0.424) ، وأن قيمة معامل التحديد (R^2) فسر ما نسبته (٠,١٨٠) من التغير الحاصل في قدرة سعر المنتج الدوائي على زيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية. وهي نسبة تدل على درجة تأثير مقدارها ($\beta = 0.456$). وتؤكد معنوية هذه العلاقة قيمة (F) البالغة (٢٨,٧٣٠) ، وهي قيمة دالة إحصائيا وبدلالة إحصائية مقدارها (٠,٠٠) ، وبالتالي فإن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين سعر المنتج الدوائي والقدرة التنافسية، وبناء على القرار الإحصائي ترفض الفرضية العدمية لوجود علاقة ذات دلالة احصائية.

الفرضية الثالثة:

H_0: لا توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين القيمة المدركة للأدوية (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

H_1: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين القيمة المدركة للأدوية (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية.

ولاختبار هذه الفرضية حُسبت المتوسطات والانحرافات المعيارية للفقرات الخاصة بالقيمة المدركة للمنتجات الدوائية والمجموع الكلي لهما، كما يظهر في الجدول (٨) .

الجدول (٨)

المتوسط الحسابيوالانحرافات المعياري لجميع فقرات مجال القيمة المدركة للمنتجات الدوائية والمجموع الكلي لهما

	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
١	سمعة الدواء الاجنبي افضل من سمعة الدواء الاردني.	٣,٩٥	٠,٧٧
٢	للدواء الاجنبي مفعول اكبر واسرع من الدواء المصنع محليا.	٣,٩٠	٠,٨٣

	الفقرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
٣	تهتم الشركات الاجنبية بجودة منتجاتها اكثر من الشركات المحلية	٤,٠٦	٠,٨٢
٤	السعر الذي ادفعه ثمنا للدواء الاجنبي يوازي المنفعة المتحققة منه، والعكس غير صحيح بالنسبة للدواء المصنع محليا.	٣,٧٥	٠,٨٧
٥	الكلمة المنطوقة عن الدواء الاجنبي ايجابية.	٤,٢٠	٠,٨٢
	القيمة المدركة للمنتجات الدوائية الاردنية	٣,٩٧٣	٠,٤٨٥

بينت نتائج تحليل الإحصاء الوصفي الواردة في الجدول (٨) على موافقة المستجيبين على أهمية متغير القيمة المدركة للمنتج الدوائي باعتباره مكوناً رئيسياً للقدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية، وقد تراوحت المتوسطات الحسابية لمجال القيمة المدركة ما بين (٣,٧٥– ٤,٢٠) ، فكان أعلاها للفقرة رقم (٥) التي تنص على: «إيجابية الكلمة المنطوقة فيما يخص منتجات الأدوية الأجنبية المستوردة لارتفاع قيمتها المدركة، حيث يعتقد المرضى بأن السعر المدفوع يوازي المنفعة المتحققة منه»، وأدناها للفقرة رقم (٤) التي تنص على: «ان السعر المدفوع للأدوية الأردنية لا يوازي القيمة المدركة والمنفعة المتحققه منه إشارة إلى ارتفاع أسعار الأدوية الأردنية غير المبرر والذي لا يرتبط بالجودة». وبلغ متوسط نسبة التكرار لاستجابات عينة الدراسة (٠,٧٩) للاستجابات التي تراوحت ما بين محايد وموافق بشدة، وهي نسبة مرتفعة وتزيد عن (٠,٥٠) . وتدل على ارتفاع درجة الموافقة.

ومن أجل اختبار الفرضية الثانيةطبِّق تحليل الانحدار (Regression Analysis) كما يظهر في الجدول (٩) .

الجدول (٩)

نتائج تحليل ANOVA ومعاملات Coefficients الخاص بالقيمة المدركة للمنتجات الدوائية الأردنية

	المتغير المستقل	r	r 2	β	t	F	Sig.	النتيجة
٣	القيمة المدركة للمنتجات الدوائية الاردنية	٠,٤٩٧	٠,٢٤٧	٠,٥٤٧	٦,٥٤٧	٤٢,٨٨٠	٠,٠٠٠	رفض العدمية

يبين الجدول (٩) أن معامل الارتباط بين القيمة المدركة للمنتج الدوائي والقدرة التنافسية بلغ (R= 0.497) ، وأن قيمة معامل التحديد (R^2) فسر ما نسبته (٠,٢٤٧) من التغير الحاصل في زيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية. وهي نسبة تدل على درجة تأثير مقدارها (β= 0.547). وتؤكد معنوية هذه العلاقة قيمة (F) البالغة (٤٢,٨٨٠) وهي

قيمة دالة إحصائيا، وبدلالة إحصائية مقدارها (٠,٠٠) ، وبالتالي فإن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين القيمة المدركةللمنتج الدوائي والقدرة التنافسية لشركات الادوية، وبناء على القرار الإحصائي ترفض الفرضية العدمية لوجود علاقة ذات دلالة احصائية.

وقد أُجري اختبار تحليل الانحدار المتعدد لمتغيرات الدراسة المستقلة، وأثرها على المتغير التابع كما هو مبين في الجدول (١٠) .

الجدول (١٠)

تحليل الانحدار المتعدد لمتغيرات الدراسة

Model	Sum of Squares	df	Mean Square	F	Sig
Regression	١١,٦١٣	٣	٣,٨٧١	١٩,١٨٤	٠,٠٠٠
Residual	٢٦,٠٣١	١٢٩	٠,٢٠٢		
Total	٣٧,٦٤٤	١٣٢			

نلاحظ من الجدول (١٠) أن قيمة (F) المحسوبة والبالغة (١٩,١٨٤) ذات دلالة إحصائية عند مستوى معنوية (٠,٠١) ، مما يدل على وجود علاقة تأثيرية بين المتغيرات المستقلة مجتمعة والمتغير التابع، وتبلغ قوة هذه العلاقة (R= 0.55) .

تحليل ومناقشة نتائج الدراسة:

اعتماداً على نتائج الاختبار الإحصائي لفرضيات الدراسة ستُحلل نتائج الاختبارات للمتغيرات الرئيسية لكل فرضية من الفرضيات وتناقش في محاولة للإجابة عن أسئلة الدراسةالمنبثقة من عناصر مشكلتها التي بنيت عليها الدراسة.

- السؤال الأول: **ما العلاقة بين جودة المنتج الدوائي، وزيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية في السوق المحلية والعربية؟**

أفادت نتائج الدراسة أن هناك علاقة ارتباط معنوية بيندرجة تبني شركات الأدوية الأردنيةللمتغيراتالخاصة بجودة المنتج الدوائي، وزيادة قدرتها التنافسية، احتل متغير جودة المنتج المرتبة الثالثة اعتماداً على قيمة معامل التحديد (٠,٠٧٥) ،وبمتوسط حسابي مقداره ٤,٠٣٠، ويدل على ارتفاع درجة موافقة العينة على اعتماد الجودة أكثر من بلد المنشأ. وقد تطابقت النتيجة مع دراسة (Ashok, et, al. 1999) ، التي ركزت على أهمية جودة المنتج الدوائي في إكساب الشركات الدوائية ميزة تنافسية مستدامة.

- السؤال الثاني: **ما العلاقة بين سياسات التسعير التي تتبعها شركات الادوية وزيادة قدرتها التنافسية؟** أشارت نتائج الدراسة إلى وجود علاقة معنوية بين درجة تبني شركات الأدوية الأردنية لسياسات تسعيرية تتلاءم وطبيعة الأسواق المحلية والخارجية المستهدفة، وطبيعة المنافسة فيها، وقد احتل هذا المتغير المرتبة الثانية من حيث الأهمية النسبية بمعامل تحديد مقداره (٠,١٨٠) وبمتوسط حسابي مقداره ٣,٨٣٩، فمستوى الدخل الفردي عامل رئيس بالنسبة لمختلف فئات الشعب الأردني في تحديد السلوك الشرائي نحو المنتجات الدوائية، وبالتالي مقارنة الجودة والسعر لمنتجات الأدوية المحلية مع جودة وسعر منتجات الأدوية الأجنبية المستوردة، بالتالي فهو على استعداد لدفع سعر أعلى مقابل حصوله على المنافع المرجوة. وقد تطابقت هذه النتيجة مع دراسة كل من (رحاحلة، ١٩٩٧، نصر، ١٩٩٩) التي أكدت على أهمية السياسات السعرية المتبعة في إكساب الشركات القدرة التنافسية لمنافسة الشركات المحلية والاقليمية.

- السؤال الثالث: **ما العلاقة بين القيمة المدركة للمنتج الدوائي (من وجهة نظر المستهلك) وزيادة القدرة التنافسية لشركات الادوية الاردنية؟** دلت نتائج الدراسة أن هناك علاقة ارتباط معنوية بين درجة تبني شركات الأدوية الأردنية لمتغير القيمة المدركة، وقد احتل هذا المتغير المرتبة الأولى بمعامل تحديد قدره (٠,٢٤٧) وبمتوسط حسابي مقداره ٣,٩٧٣ ، فمستوى إدراك العملاء لاهمية المنتج الدوائي والمنافع والفوائد المتحققة والمرجوه منه مقارنة مع ما يتحمله العميل من التكاليف المالية وغير المالية، وبخاصة أن العملاء غالباً ما يعتمدون على الكلمة المنطوقة بما يصدر عن الأطباء والصيادلة المختصين من تلميحات وتصريحات حول الأدوية الأردنية والأدوية الأجنبية المستوردة، وبالتالي تتشكل مواقفهم واتجاهاتهم نحو تلك الأدوية، وقد جاءت هذه النتيجة مطابقة ومؤيدة لدراسة: (Drik, 2008, Hsu Li, 1999) . التي تناولت كل منها أهمية تكنولوجيا المعلومات المستخدمة في إنتاج الأدوية التي تنعكس إيجابا على جودة المنتجات الدوائية.

التوصيات العامة:

في ضوء نتائج هذه الدراسة التي بنيت على إجابات المرضى في مستشفيات القطاع العام العاملة **قدم الباحث التوصيات الآتية**:

- **أولا**: إعادة النظر في سياسات التسعير التي تتبعها شركات الأدوية الأردنية، والتسعير على أساس التناسب الطردي ما بين التكلفة وجودة المنتج الدوائي، حيث يرى

المستهلك الأردني أن ارتفاع أسعار الأدوية الأردنية غير مبرر، ولا يتلاءم مع جودتها، مقارنة بالأدوية الأجنبية المستوردة.

♦ **ثانيا**: تسعير المنتجات الدوائية التي تباع في الأسواق المحلية والخارجية بالأسعارنفسها، وعدم تحميل تكاليف المنتجات الدوائية التي تباع في الأسواق الخارجية للمنتجات الدوائية التي تباع في الاسواق المحلية.

♦ **ثالثا**: استخدام البرامج التسويقية الموجهة بما يتلاءم والأسواق المحلية والأسواق العربية المستهدفة، بحيث يمكن تقديم حزمة متكاملة لجزء سوقي، أو عدة أجزاء سوقية في محاولة لدخول أسواق عربية جديدة، بالتركيز على جودة المنتجات الدوائية والمنافع التي تقدمها لهم.

♦ **رابعا**: ضرورة الاهتمام بتطبيق مفهوم التوجه نحو العملاء الذي ينطوي على دراسة حاجات المرضى لتقديم منتجات دوائية تتلاءم مع حاجاتهم ورغباتهم، وتتفق مع إدراكاتهم (القيمة المدركة) .

اتجاهات بحث مستقبلية:

سعت هذه الدراسة إلى تطوير مفهوم إدراكي للمنتجات الدوائية الأردنية بالتركيز على المتغيرات الخاصة بجودة المنتج الدوائي وأسعار المنتجات الدوائية، إضافة إلى ضرورة الاهتمام بالعملاء من أطباء ومرضى بتقديم منتجات دوائية تتفق مع إدراكاتهم للمنافع المتحققة منها (القيمة المدركة للمنتجات الدوائية) . **وانطلاقا من نتائج هذه الدراسة يمكن اقتراح المجالات الآتية لتكون مكملة لمتغيرات أخرى لم يتناولها الباحث**:

♦ **أولا**: دراسة متغيرات مستقلة أخرى لم يتضمنها نموذج الدراسة مثل سمعة الشركات، جودة المدخلات الدوائية، درجة النمو الاقتصادي، أو مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي.

♦ **ثانيا**: البحث في تطوير نموذج آخر يعتمد عليه في تسويق المنتجات الدوائية الأردنية في السوق المحلية، والأسواق العربية بشكل عام.

♦ **ثالثا**: التفاعل مع المجتمع المحلي، وخدمة المجتمع المحلي، ورعاية الأحداث فيها لتعريف الجمهور بها، وبالمنتجات التي تقدمها.

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

١. البنك المركزي الأردني، الأردن، التقرير السنوي الخامس والثلاثون، دائرة الأبحاث والدراسات، عمان، ٢٠٠٦.

٢. تقارير وزارة الصناعة والتجارة، عمان، ص ٤- ص ٩، ٢٠٠٦.

٣. رحاحلة، نسيم، (١٩٩٧) ، «الصناعة الدوائية في الأردن»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد.

٤. طشطوش، وليد، (٢٠٠٠) ، «تسويق الدواء الأردني في المملكة الأردنية الهاشمية»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، المفرق.

٥. معلا، ناجي وتوفيق رائف، (٢٠٠٩) ، «أصول التسويق»: مدخل تحليلي، دار وائل للنشر، عمان- الأردن.

٦. عدس، عبد الرحمن وتوق، محي الدين (١٩٩٨) . المدخل إلى علم النفس، عمان، دار الفكر للطباعة والنشر.

٧. غرفة صناعة عمان، بيانات غير منشورة، ٢٠٠٦.

٨. نصر، رلى، (١٩٩٠) ، «الصناعة الدوائية في الأردن»، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. *Art Kovacic, (2007) , «Benchmarking the Slovenian competitiveness by system of indicators», Benchmarking journal, volume: 14 Issue 5. (On-Line) Available on: www.emeraldinsight.com , 21/ 4/ 2008*
2. *A shok Kumar and others, (1999) , "A quality competitiveness index for benchmarking", benchmarking Journal, Volume: 6 issue: 1 page 12- 21. , (On- Line) Available on: www.emeraldinsight.com , 21/ 4/ 2008*
3. *Chan, Lien. (1999), "Sealing The Peak Of Global Competitiveness Pledges And Measuresto Take The Nation Into The 21 Century", Working Paper, Vice President, Premier, China, 15/ 3/ 2008, (On- Line) Available on: Http:// www.Findarticle.Com*

4. *Deakin, Simon and Patten, Stephen. (1999) , "Building A Technologically Advance Nation", Working Paper, Center Of Business Reaearch.*
5. *Drik Frantzen, (2008) , "Technology, Competitiveness, and Specialization in OECD Manufacturing". Journal of economic studies, Volume: 35 issue: 1 (On- Line) Available on: www.emeraldinsight.com , 20/ 4/ 2008*
6. *Friedewald, Michael and Others. (2006) , "Assessing European National Policies To Support The Competitiveness Of Information And Communication Technology Producers", Emerald Group Publishing Limited, Vol. 8, Issue: 5. 20/ 3/ 2008, (On- Line) Available on: Http:// www.Emeraldinsight.Com*
7. *Jorgensen A. Lerberg. (2006) , "Sustainable Competitiveness In Global Value Chains: How Do Small Danish Firms Behave?" Corporate Governance Journal. Vol. 6, Issue: 4. 20/ 3/ 2008, (On- Line) Available: Http:// www.Emeraldinsight.Com*
8. *Hsu, Li- Ling. (1999) , "The IT Effects On Competitiveness For Interaction Between Manufacturing And Marketing": Six Taiwan Cases, Industrial Management &Data Systems Journal. Vol. 99, Issue: 4. 20/ 4/ 2008, (On- Line) Available: Http:// www.Emeraldinsight.Com*
9. *Kiston, Michael, and Michie, Jonthan, (1998) , "Markets, Competitiveness In Global Value Chains: How Do Small Danish Firms Behave?" Corporate Governance Journal. Vol. 6.*
10. *Kotler, Ph. and Armstrong, G. (2008) , Principles of Marketing, 12th, Ed, Pearson, Prentice- Hall. Upper Saddle River, New Jersey, NJ.*
11. *Kotler, Ph. and Armstrong, G, (2004) . "Principle of Marketing", 10th, ed. Pearson Education, New Jersey.*
12. *Lovelock, C. and Wirtz Jochen. (2006) . "Service Marketing, People, Technology, Strategy".USA: Pearson Prentice Hall, PP: 63- 65.*
13. *Malhotra, N. K. (2007) , "Marketing Research", New Jersey: Prentice Hall.*
14. *Pride W. M. and O.C. Ferrell, (2006) . "Marketing concepts and Strategy", 13th ed, Houghton Mifflin Company, Boston, New York.*
15. *Sanjib K. Dutta, (2007) , "Enhancing competitiveness of India Inc, creating linkages between organizational and national competitiveness".*

International journal of social economics. 2007 Volume: 34 Issue: 9. (On-Line) Available on: www.emeraldinsight.com , 21/ 4/ 2008

16. *Schacht, Wendy H. (1999) , "Manufacturing Technology And Competition And Innovation": Working Paper, Howard Cobb.20/ 4/ 2008, (On- Line) Available: Http:// www.Emeraldinsight.Com*
17. *Schiffman, L.G. and Kanuk, L.L. (2004) . "Consumer Behavior". New Jersey: Pearson Prentice Hall. , P: 269.*
18. *Sharma B. and Fisher, T. (1997) , "Functional Strategies And Competitiveness: An Empirical Analysis Using Data From Australian Manufacturing. Benchmarking": An International Journal. Vol. 4, Issue: 4. 20/ 4/ 2008, (On- Line) Available: Http:// www.Emeraldinsight.Com*
19. *Solomon R. M. (2004). "Consumer Behavior, Buying, Having, And Being". New Jersey: Prentice Hall, Englewood Cliffs. P: 224.*
20. *Winer, Russels (2004) . "Marketing Management". New Jersey: Prentice Hall, Englewood Cliffs. P: 40, 232*
21. *Zeithmal, V. et al., (2006) , Service Marketing, Integrating Customer Focus Across the Firm. 4th, ed, McGraw- Hill/ Irwin, New York, NY.*

استبانه الدراسة

أخي المستجيب/ أختي المستجيبة

يقوم الباحث بإجراء دراسة حول جودة المنتج الدوائي وسعره والقيمة المدركة له (من وجهة نظر المستهلك) واثرها على القدرة التنافسية لشركات الأدوية الأردنية في السوق المحلية والعربية. الرجاء التكرم بالإجابة على الأسئلة الواردة في جميع فقرات هذه الاستبانة بموضوعية، علما بان المعلومات والبيانات الواردة فيها ستعامل بسرية تامة وسوف تستخدم لأغراض البحث العلمي فقط، شاكرين لكم تعاونكم في إنجاح هذه الدراسة.

القسم الأول

«معلومات عامة»

يرجى إكمال العبارات التالية:

- العمر: ....
- المستوى التعليمي:

[ ] دون التوجيهي   [ ] توجيهي   [ ] دبلوم   [ ] بكالوريوس.

[ ]ماجستير   [ ]دكتوراه.

- الوظيفة:

[ ]مدير عام.

[ ] نائب مدير عام.

[ ] مدير اداره وسطى.

القسم الثاني

الرجاء إبداء رأيكم بوضع إشارة (√) داخل المربع المناسب على المقياس الليكرتي المحاذي لكل عبارة، واختيار إجابة واحدة فقط لبيان درجة موافقتكم عليها.

	الفقرة	موافق بشدة	موافق	محايد	لا أوافق	لا أوافق بشدة
١	جودة المنتج الدوائي.					
	افضل شراء المنتج الدوائي الاجود بغض النظر عن بلد المنشأ.					
	افضل الشراء من الشركات التي تعتمد على البحوث والتطوير لتحسين منتجاتها.					
	اذا كان المنتج الدوائي الاردني اجود فسوف اشتريه.					
	جودة وفاعلية المنتج الدوائي قمة اولوياتي عند الشراء.					
	تفضيلي للمنتج الدوائي يعتمد على المواد الاولية المكونة له.					
٢	أسعار المنتجات الدوائية					
	١. اعتقد ان ارتفاع أو انخفاض سعر الدواء لا يدل على جودته.					
	٢. انا على استعداد لدفع سعر اعلى مقابل الحصول على جودة اعلى للمنج الدوائي.					
	٣.تسعر شركات الادوية منتجاتها على اساس التكلفة.					
	٤.جودة المنتج الدوائي اهم بالنسبة لي من السعر الذي ادفعه.					
	٥.لا توجد هنالك فروقات واضحة ما بين اسعار المنتجات الدوائية المحلية والاجنبية المستوردة.					
٣	القيمة المدركة للأدوية الأردنية					
	١.سمعة الدواء الاجنبي افضل من سمعة الدواء الاجنبي.					
	٢.للدواء الاجنبي مفعول اكبر واسرع من الدواء المصنع محليا.					
	٣.تهتم الشركات الاجنبية بجودة منتجاتها اكثر من الشركات المحلية					
	٤.السعر الذي ادفعه ثمنا للدواء الاجنبي يوازي المنفعة المتحققة منه، والعكس غير صحيح بالنسبة للدواء المصنع محليا.					

	الفقرة	موافق بشدة	موافق	محايد	لا أوافق	لا أوافق بشدة
	٥.الكلمة المنطوقة عن الدواء الاجنبي ايجابية.					
٤	**يمكن الاستدلال على زيادة القدرة التنافسية لشركات الأدوية من خلال المؤشرات التالية.**					
	١. نمو حجم المبيعات السنوية.					
	٢. نمو الأرباح السنوية					
	٣. نمو الحصة السوقية للأسواق الحالية واستهداف أسواق جديدة.					
	٤. قدرةالادوية الاردنيةعلى منافسة الأدوية الأجنبية المستوردة					
	٥. الكلمة المنطوقة world of mouth عن الشركة في الأسواق المحلية والأسواق العربية المستهدفة.					

جوانب من حياة الدروز
في ضوء كتابات رحالة غربيين

د. مروان جرار*

* أستاذ مشارك في تاريخ العرب الحديث والمعاصر/ منطقة جنين التعليمية/ جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

عالجت الدراسة جوانب من حياة الدروز في ضوء كتابات رحالة غربيين، أي إنها لم تعالج القضايا التي تحدَّث عنها الرحالة كافة، بل ركزت على أصولهم ،ومناطق انتشارهم، ومعتقداتهم، وجوانب من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. ولم تعتمد على الرحالة الغربيين كافة، بل اعتمدت نماذج متنوعة منهم: (بريطانيين، وفرنسيين، وأمريكان، وسويديين، وايطاليين، وإسبان) ممن زاروا مناطق الدروز في فترات تاريخية مختلفة: (القرن الثاني عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين) .

واختلف الرحالة في تحديد أصول الدروز وطبيعة معتقداتهم. واتفقوا حول بنية مجتمعهم الذي يضم طبقيتين: العقال والجهال، أو العامة والخاصة.ولاحظوا أن مجتمعهم مجتمع طبقي وذكوري.ووصفوا الدروز، بأنهم أقوياء البنية ،شجعان، كرماء، مضيافون ،مرتبطون بالأرض، لكنهم غدارون. ووصفوا لباسهم ،وميزوا بين لباس العقال والجهال، وبين لباس الرجل والمرأة.وتحدثوا عن الزواج والطلاق وطقوس الولادة والطعام والشراب. وبحثوا في حياتهم العسكرية: (تسليحهم، وتدريبهم، وإجراءات إعلان الحرب)، وحياتهم الاقتصادية، وعمادها الزراعة، وخاصة زراعة التوت لتربية دودة القز، وزراعة الدخان والقطن، والفواكه بأنواعها. ووصفوا تجارتهم التي تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية.

وكان للحياة العمرانية نصيبها في كتابات الرحالة ، لكنهم ركزوا على مساكن كبار القوم من الحكام والشيوخ، وهي أشبه بالقصور الفخمة . أما مساكن بقية القوم فهي بسيطة لا تقيهم برد الشتاء.

Abstract:

This study focuses on certain aspects related to the life of Druze in the eyes of Western writers- travelers; aspects that recount their origin, distribution, beliefs, socioeconomic and military ones. This paper relies on studies by a miscellany of Western travelers (British, French, Americans, Swedish, Italians and Spanish) who visited Druze in different historical epochs (twelfth's century, sixteenth's century through the twentieth's century) .

Even though they differed on their origin, critics in general agreed that Druze are of two classes: the knowledgeable and the ignorant, who, collectively, constituted a patriarchal- based society. On the one hand, Druze are described as fearless, well- built, welcoming, hospitable and connected to their land; on the other hand, they are marked as treacherous, crafty and deceitful.

Western travelers wrote about Druze's customs, traditions and norms that are related to their social life: marriage, divorce, food, clothing and gender; they also marked their economic life of their methods of farming, harvest and all kinds of trade. Travelers also viewed Druze military tactics of recruiting, training and waging wars. Demography of Druze also took its share in the study of Western travelers: while luxurious houses, travelers noted, were built for the rich and the monarch, poor houses were built for the poor and the deprived.

مقدمة:

تعالج هذه الدراسة «جوانب من حياة الدروز في ضوء كتابات رحالة غربيين». أي أنها لا تعالج الرحالة الغربيين كافة، بل تعالج نماذج مختلفة من هؤلاء الرحالة وفي فترات مختلفة (القرن الثاني عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين) .

هدفت الدراسة إلى استعراض ما جاء في كتابات الرحالة الغربيين حول أصل الدروز ومناطق انتشارهم ، وحياتهم الدينية، وبنية مجتمعهم ، وحياتهم الثقافية والاجتماعية (صفاتهم، وأخلاقهم، والزواج والطلاق، واللباس، والطعام) ، وحياتهم الاقتصادية والعسكرية.

وبعد عمل مسح للدراسات السابقة ذات العلاقة بمُتغيرات الدراسة الحالية، لم يجد الباحث أيّة دراسة تناولت متغيرات الدراسة الحالية سواء أكانت عربية أم أجنبية. لذا سوف يتناول الباحث أقرب الدراسات إلى الموضوع ، ويأتي في مقدمتها دراسة للباحث الدرزي جميل أبو ترابي بعنوان: (من هم الموحدين الدروز) استشهد فيها بإيجاز بأقوال بعض الرحالة الغربيين حول عادات الدروز وتقاليدهم ، والدراسة الثانية للباحث الدرزي حسن البعيني بعنوان: (دروز سوريا ولبنان في العهد الفرنسي ١٩٢٠– ١٩٤٣م) رد فيها على محاولات بعض الرحالة الغربيين نفي الأصل العربي عن الدروز والتشكيك في إسلامهم. ودراسة ثالثة لصالح زهر الدين بعنوان: (تاريخ المسلمين الموحدين الدروز) ، فنَّد فيها بعض ما قدمه الرحالة الغربيين عن الدروز. ودراسة رابعة لعباس أبي صالح وسامي مكارم بعنوان: (تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي) استعرض بإيجاز أقوال عدد من الرحالة الغربيين في أصول الدروز ومعتقداتهم وحياتهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية.

اشتملت الدراسة على تمهيد وسبعة مباحث. خُصص التمهيد للتعريف بالدروز وظروف نشأة دعوتهم. وتحدث المبحث الأول عن أصولهم وأهم الفرضيات التي قدمها الرحالة الغربيون في هذا المجال. وخُصص المبحث الثاني للحديث عن ديارهم، بينما ركز المبحث الثالث على تحليل دعوتهم وحياتهم الدينية. واستعرض المبحث الرابع بنية مجتمعهم (المكانة والدور) .وناقش المبحث الخامس حياتهم الثقافية والاجتماعية من خلال الحديث عن أخلاقهم وصفاتهم، والزواج والطلاق، واللباس والطعام. أما المبحث السادس، فكُرس للحديث عن حياتهم الاقتصادية: (زراعة، وصناعة،وتجارة) . وخُصّص المبحث السابع، لاستكشاف حياتهم العسكرية: (الإعداد، والتسليح ، والتموين ، والتدريب، ودعوات الحرب، وفنون القتال وغيرها) .

اعتمدت الدراسة مجموعة متنوعة من كتب الرحالة: (البريطانيين، والفرنسيين، والايطاليين، والإسبان، والسويسريين، والأمريكان)، بهدف تقديم صورة متكاملة تخْدم الدراسة في استكشاف السياسات الغربية المختلفة إزاء المنطقة، كون هؤلاء الرحالة في معظمهم مثلوا مقدمات لمشاريع استعمارية غربية إزاء المنطقة العربية.

تمهيد:

نشأ مذهب الدروز في أحضان الدعوة الشيعية الإسماعيلية الفاطمية (١) ،وأُعلن عنه في عهد الحاكم بأمر الله (٢) سادس الخلفاء الفاطميين، حين قُرِىء سجلٌ من الإمام الحاكم عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧م دعا الناس إلى إعلانه دون خوف أو تستر (٣) .وكان الداعي محمد بن إسماعيل الملقب بنشتكين الدرزي (٤) من أوائل العاملين على نشر الدعوة في بلاد الشام بشكل عام ووادي التيم (٥) بشكل خاص. ولكن المكانة التي احتلها كبير الدعاة وإمامهم حمزة الزوزني (٦) لدى الحاكم بأمر الله أدى إلى تقليده الإمامة، مما تسبب في غضب نشتكين وارتداده عن المذهب الدرزي (٧) الذي انتشر في المناطق الممتدة من إفريقيا الشمالية إلى الهند خصوصًا في المناطق التابعة للدولة الفاطمية. ولكن عدم تقبل أي معتنق جديد بعد إغلاق باب الدعوة إليه عام ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م (٨) والردات عنه، وسنوات المحنة في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر (٩) ،وقيام الدولة الأيوبية التي أعادت سيطرة المذهب السني إلى بلاد الشام ومصر، وتشدد دولة المماليك مع أتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، قلص عدد المؤمنين به، واقتصر أتباعه الذين يعرفون اليوم باسم الدروز على بلاد الشام التي حظيت بقسط وافرٍ من النشاط المبذول لنشر الدعوة، بدليل كثرة الدعاة المرسلين إليها وكثرة الرسائل الواردة إلى أمرائها ومشايخها ومنهم مشايخ فلسطين (١٠) .

واسم الدروز الذي اشتهر به الموحدون لا يرد على الإطلاق في مخطوطاتهم الدينية، وخاطبهم أئمتهم بالموحِدين والمسْلمين والإخوان، وكنوهم ببني معروف ووصفوهم بالأشراف (١١) .

أما بشأن تسميتهم بالدروز فقد تعددت الآراء، وأصدقها الرأي الذي يقول إنهم حملوه منذ بداية الدعوة نسبة إلى نشتكين الدرزي الذي نسب الدروز إليه. وهناك رأي يقول إنهم اكتسبوا اسمهم هذا من قائدهم المظفر نشتكين الدرزي الدزبري (١٢) وأن الدرزية تسمية عسكرية لا مذهبية. كما أن هناك رأيًا آخر يقول: «إن إمام الموحدين حمزة بن علي (١٣) كان يسأل تلاميذه المبتدئين عما أصابوه من علوم الحكمة، فيجيبونه إنَّهم مُتدرّسون، وبعد أن أصبحوا علماء، وفي لحظة إعجابه بهم. قال: أنتم متدرِزون لا متدرِسون، أي أنكم أصبحتم مُدرزين بالعلوم والعقيدة دخلت فيكم كما يدخل الخيط في النسيج» (١٤) .

تميز الدروز منذ بداية دعوتهم بتأويلات دينية خاصة بهم، ولبثوا فرقة زادت خصوصيتها وضوحًا وتكريسًا مع الزمن. وحجبهم لتعاليمهم هو من باب التقيَة، ويبررون ذلك بظروف الاضطهاد والخوف التي أَحاطت بهم كونهم أقلية وسط أغلبية [١٥] .

لقد شكل الدروز بغموضهم مادة دسمة للرحالة الغربيين الذين زاروا مناطق انتشارهم في سوريا ولبنان وفلسطين، ونظموا العديد من الدراسات دون أن يتمكنوا من فهم أسرار هذه الطائفة، ووقعوا في مغالطات دفعتهم للتعامل مع الدروز كجسم بعيد عن محيطه العربي [١٦] يسهل فصله وتشكيله ككيان سياسي مستقل وتابع للغرب [١٧] .

المبحث الأول- أصولهم:

قدَّم الرحالة الغربيون فرضيات مختلفة حول أصول الدروز، وقالت الفرضية الأولى: إن الدروز من أصول أوروبية، وبالتحديد بقايا الجيوش الصليبية التي جاءت لتحرير الأراضي المقدسة. ومن أصحاب هذه الفرضية الرحالة الانجليزي هنري مندرل (Maundrell Henry) [١٨] [١٩] .

وانقسم دعاة هذه الفرضية إلى فريقين.الأول: ويرجع الدروز إلى أصل فرنسي [٢٠] ، وأَيَّد هذا الرأي الرحالة والكاتب الفرنسي فرانكوس فيكومتي (François Vicomte) [٢١] [٢٢] ، بينما عارضه الرحالة الايطالي الأب جيوفاني ماريتي () (Giovanni Mariti23) حيث قال: «ربما يكون الدروز ينحدرون من شعوب فرنسية بدائية، لكن هذه الفكرة لا تستند إلى أساس تاريخي، بل مصدرها بعض التجار الفرنسيين الذين أقاموا علاقات مع الدروز واقتضت مصالحهم القول بذلك» [٢٤] .

وأيد ماريتي (Mariti) في موقفه الكاتب والرحالة الاسْكتلندي روبرت هيرون (Robert Heron) [٢٥] الذي استند إلى معلومة أوردها الرحالة اليهودي الاسباني بنيامين الطليطلي (Benjamin of Tudela) [٢٦] ومفادها أن المعتقدات الدرزية كانت موجودة قبل الحروب الصليبية [٢٧] .

أما الفريق الثاني ويتزعمه الرحالة السويسري جون بيركهاردت (John Burckhardt) [٢٨] فيرجعهم إلى أصول انجليزية [٢٩] . وأَيد هذا الرأي السياسي والرحالة الانجليزي لورنس أوليفانت (Laurence Oliphant) [٣٠] ، فالدروز برأيه «انجليز بكل تفصيلات حياتهم» [٣١] .كما أيده الرحالة الاسكتلندي وليام ولسون (William Wilson) [٣٢] [٣٣] والكاتب والرحالة الأمريكي تشارلز وارنر (Charles Warner) [٣٤] [٣٥] .

وتجنب الرحالة الانجليزي ريتشارد بوكوك [٣٦] (Richard Bockocke) حسم أَمر الدروز فيما إذا كانوا فرنسيين أو انجليز، واكتفى بالقول: «إن الدروز مختلفون في وصف أنفسهم ، فبعضهم يقول إنهم ينحدرون من أصول انجليزية وآخرون يقولون إنهم ينحدرون من أصول فرنسية» [٣٧] .

أما الرحالة الفرنسي قسطنطين فولني (volney Constantin) [٣٨] فقد رفض فرضية أن الدروز ينْحدرون من أصول أوروبية، لأن كلمة الدروز ستخدمت من قبل الطليطلي (Benjamin of Tudela) قبل الحروب الصليبية [٣٩] .وافترض فولني (volney) أن منشأ الفرضية القائلة بعلاقة الدروز بالجيوش الصليبية ترْجع إلى الفترة التي وثَّق فيها فخر الدين المعني الثاني [٤٠] علاقته مع الأوروبيين وخاصة مع فلورنسا، وأنه هو من اهتم بإبراز هذه العلاقة[٤١] .

وتُرْجع الفرضية الثانية الدروز إلى الأصول العربية. وكان الرحالة الطليطلي (Benjamin of Tudela) أول رحالة يذكرهم في القرن الثاني عشر الميلادي باسم (Dogziyin) ، وذكر أن الدروز ينحدرون من سلالات عربية [٤٢] وأن القائد الروماني بومبي (pompous) أنزلهم لبنان عام ٦٤ ق.م [٤٣] .

والفرضية القائلة بعروبة الدروز تطرق لها كل من الرحالة الألماني ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim) [٤٤] والرحالة الألماني كارستين نيبور (Carsten Niebuhr) [٤٥] [٤٦] والرحالة السويسري بيركهاردت (Burckhardt) [٤٧] والرحالة الأمريكي جورج روبنسون George (Robinson) [٤٨] [٤٩] والرحالة الأمريكي وليام ثومسون (William Thomson) [٥٠] [٥١] .

ورفض (Volney) هذه الفرضية [٥٢] ، كما رفضها الرحالة النمساوي فيلكس فون لوشان (Felix von Luschan) [٥٣] [٥٤] .

وتقول الفرضية الثالثة بانْحدار الدروز من أصول فارسية. وقال بها وليام ولسون (William Wilson) [٥٥] لكن ماريتي (Mariti) رفض ذلك [٥٦] .

أما الفرضية الرابعة، فتُرْجع الدروز إلى أصول يهودية أو سامرية، وقال بها ماريتي (Mariti) [٥٧] والرحالة الانجليزي هنري تريسترام (Henry Tristram) [٥٨] [٥٩] .

وتقول الفرضية الخامسة أن أصولهم قد تكون مصرية. وهذا ما ألمح إليه ادوارد كلارك (Edward Clarke) [٦٠] عندما قال: «إن عبادتهم للعجل قد توحي بأصولهم المصرية»[٦١].

وتقول الفرضية السادسة أن الدروز قدموا أصلا من الصين، وأنهم وصلوا إلى حمص وحماة (في سوريا) وجبل لبنان. وهذه الفرضية وردت عند الرحالة الانجليزية غيرتورد بيل (Gertrude Bell) [٦٢] [٦٣] .

ويمكن القول إن الفرضيات السابقة كانت الأكثر شيوعًا، لكن وجدت آراء أخرى رددها رحالة وهي كثيرة، ومنها ما قاله الفرنسي جوزيف بارفت (Joseph Parfit) من أن الدروز خليط من أصول عربية وفارسية وهندوسية [٦٤] .

المبحث الثاني- ديارهم:

يُستشف مما كتبه الرحالة أن الدروز ينتشرون في سوريا ولبنان وفلسطين ، وذكر بعضهم مصر.ويبدو أن بعض ما ذكروه منقول عن آخرين، وليس بالضرورة أن يكونوا قد زاروا جميع مناطق الدروز في البلدان المذكورة.

قال عنهم الطليطلي (Benjamin of Tudela) : «إنهم يسكنون الجبال وشقوق الصخور في المناطق العالية، وتمتد مناطقهم إلى جبل حرمون (الشيخ) [٦٥] وأنهم يُسيْطرون على الجبال اللبنانية ومسكن أميرهم قرب بيروت» [٦٦] .

وحدد فولني (Volney) مناطق انتشار الدروز في مصر وفلسطين وساحل سوريا والجبال اللبنانية [٦٧] . وذكر بعلبك وصور وعكا وبيروت في لبنان [٦٨] . وأطْلق على لبنان اسم بلاد الدروز [٦٩] .وأشار إلى أن نفوذ الدروز توسع في عهد فخر الدين المعني الثاني «الذي أصبح سيد البلاد من عجلون إلى صفد» [٧٠] . وتحدث فولني (Volney) عن الجليل والكرمل في فلسطين ووصفهما بأنهما ارض الدروز [٧١] .

أما مندرل (Mandrel) فقد ذكر أن الدروز في وقته يُسيْطرون على مناطق تمْتد من كسروان في لبنان إلى الكرمل في فلسطين. [٧٢] ووصف قصر فخر الدين المعني الثاني بأنه يقع في الزاوية الشمالية الغربية لبيروت، وله مدخل بوابة بأعمدة من الرخام ، وفيه اصطبل للخيول وجحور للأسود والحيوانات المفترسة الأخرى. وعدّ منْدرل (Mandrel) زخرفة القصر دليلا على أن فخر الدين لم يكن متحمسًا للإسلام [٧٣] .

ولاحظ تريسترام (Tristram) اصطفاف القرى الدرزية على الجبال اللبنانية، وذكر جبل صنين أعلى قمم جبال بيروت [٧٤] وبعبدا [٧٥] وراشيا في لبنان [٧٦] .وذكر أنه قابل بعض الدروز في منطقة الحولة قرب عين ملاحة [٧٧] وفي عسفيا في فلسطين [٧٨].

وكان بيركهاردت (Burckhardt) أكثر دقة وتفصيلا في تتبُع مناطق انتشار الدروز، وذكر مناطق عدة يتواجد الدروز فيها منها جبل لبنان، وركز على بلدة دير القمر [٧٩] .

وذكر أن الدروز كانوا دائمًا في صراع مع والي دمشق للسيطرة على البقاع [٨٠]. وأشار إلى وجود الدروز في راشيا وحاصبيا [٨١] وإقليم التفاح وإقليم الشوف وجزين وكسروان والمتن والغرب الفوقاني والغرب التحتاني والجرد والشمار والخروب والمناصيف والشوف والعرقوب في لبنان، وجبل العلي وحوران في سوريا [٨٢] وقرب أبواب مدينة دمشق وداخلها وفي قرى مرجان وأم الزيتون ودير علي [٨٣].

واهتم ادوارد روبنسون وإيلي سميث (Edward Robinson & Eli Smith) [٨٤] بدروز حوران [٨٥]، وأشارا إلى وجود دروز في القنيطرة [٨٦] يُسيْطرون على الطريق من الحولة إلى دمشق [٨٧] وفي وادي التيم ومرج عيون وحاصبيا والشقيف في لبنان وبانياس في سوريا [٨٨] وبيت جن والجرمق في فلسطين [٨٩].

وذكر روبنسون (Robinson) أن شيخ الدروز يقيم في المتن، وأن وجود الدروز لا يقتصر على جبل لبنان، بل ينْتشرون في حوران في سوريا [٩٠].

واكتفى ولسون (Wilson) بالإشارة إلى بيروت كمدينة درزية انتزعها الترك منهم، لذا قليلا ما يترددون عليها. وذكر أن الدروز يسكنون جبل لبنان ولا يَسْمحون للمحمديين (المسلمين) بالإقامة في مناطقهم [٩١].

وتحدث جيمس باكنجهام (James Buckingham) [٩٢] عن جبل العرب باعتباره مركزًا للدروز [٩٣]، وقسّم الدروز إلى شرقيين وغربيين [٩٤].

وكرر فان ايجموند وجون هيومان (Van Egmont & John Heyman) ما ذكره الآخرون حول انتشار الدروز في سوريا ولبنان وفلسطين، لكنهما انفردا بالإشارة إلى وجودهم في مصر قرب القاهرة وحول ضفاف النيل [٩٥]. وحصرا انتشار الدروز في جبال لبنان المطلة على البحر المتوسط، وفي السهول الضيقة بين الجبل والساحل، وفي الساحل من جبيل وحتى صيدا، وفي بعلبك ومناطق متفرقة من سوريا وفلسطين [٩٦]. واعتبرا بيروت عاصمة الدروز، «فكل أمرائهم سكنوا فيها، لكنهم في العادة يُفضلون الإقامة في بلدة دير القمر في المتن» [٩٧]. وذكرا أن الجبال اللبنانية والمناطق المحيطة ببيروت هي موطن الدروز، «إلا إننا نجد متطرفين منهم وجماعات منشقة في كل بقاع الأراضي المقدسة خاصة في الجليل والناصرة وطبريا»، وفي سوريا [٩٨].

المبحث الثالث دعوتهم وحياتهم الدينية:

أَجمع الرحالة الغربيون على غموض المعتقدات الدرزية، وأن الدروز يُظْهرون عكس ما يُبْطنون ومن الصعب تحديد ديانتهم، أو حصر أفكارهم الدينية بدقة. وقدم الرحالة

أفكارًا متعددة . فالدروز وثنيون ومحمديون [٩٩] ومسيحيون وعبدة عجل، وأصحاب فلسفات قديمة، وعبدة للحاكم بأمر الله الفاطمي، وبلا دين وغير ذلك. وكانت هذه الآراء إما انعكاسًا لمشاهدات معينة أو انعكاسًا لما سمعوه، أو نتيجة لفهم خاطئ لبعض الطقوس عند الدروز. وقدم الواحد منهم معلومات متناقضة، جعلت من الصعب صياغتها في فرضِيات محددة. أضف إلى ذلك أن الرحالة أنفسهم ذكروا أن القسم الأكبر من معلوماتهم جاءت إما من مصادر غير درزية أو سمعوها من دروز دون تحديد مستوياتهم الدينية، ولربما عجز هؤلاء عن توضيح ديانتهم للرحالة. ومن هنا نجد الرحالة يَسْتخدمون عبارات (وروي لي، وسمعنا، وذُكر) في إشارة إلى أَنهم لم يشاهدوا كثيرًا من الطقوس التي وصفوها، مما يقلّل من دقة ما جاء في كتبهم.

لقد كان الطليطلي (Benjamin of Tudela) أول رحالة أوروبي تحدث عن حياة الدروز الدينية، فهم بنظره «وثنيون لا دين لهم ، غارقون في الزنا» [١٠٠] .

وبالرغم من وصفه الدروز بأن لا دين لهم إلا أنه ناقض نفسه في موقع آخر، وذكر أنهم من الشيعة الإسماعيلية [١٠١] وأنهم يتشابهون مع النصيرية [١٠٢] في معتقداتهم مع فوارق بسيطة [١٠٣] .

وربط فولني (Volney) بين ظهور المعتقدات الدرزية، والخلاف الذي نشب بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب، وأدى إلى ظهور الفرق الإسلامية [١٠٤] . فالدروز بنظره فرقة إسلامية سرعان ما ارتبطت بشخص الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي ظهر في مصر وادَّعى الإلوهية. ولم يؤكد فولني (Volney) حقيقة عبادة الدروز للعجل على الرغم من إشارته إليها استنادًا إلى ما سمعه من غير الدروز [١٠٥] .

والدروز عند ايجموند وهيومان (Heyman & Egmont) «يعبدون الله متفردًا بذاته»، وهذا ليس فقط لتمييزهم عمن يعبدون آلهة متعددة، بل كذلك لمن يجمعون آلهة عدة في إله واحد. وتَرْجع هذه المعتقدات (برأيهما) إلى فترة ما قبل مجيء– محمد صلى الله عليه وسلم– ورسالة الإسلام ،وهي أفكار وجدت في مصر القديمة وارتبطت بنزعة إلهية تخيلية (فلسفية) اعتقدوا بوجودها في إلههم الذي يُفْترض أن الحاكم بِأمر الله يحكم باسمه بالسيف. وينْتظر الدروز رجعة الحاكم، وهذا في دينهم مقدم على الأَفكار الأخرى [١٠٦] .

وانطلق بيركهاردت (Burckhardt) في حديثه عن معتقدات الدروز الدينية من حقيقة أن معتقداتهم غامضة وأن قلة منهم تحتفظ بكتب مقدسة تحتوي على سر عقائدهم. ومما يزيد من صعوبة تشخيص ديانتهم أَنهم يُظهرون عكس ما يُبطنون، فهم مع المسلمين مسلمون ومع المسيحيين مسيحيون، وديانتهم تفرض عليهم اتباع ديانة الأقوى في

المنطقة، «وحتى حجابهم هو انعكاس لما هو موجود حولهم» (١٠٧). وقال عنهم: «إنهم يعشقون الجنس ويقدسون الفرج، وأنهم يجتمعون بعض أيام السنة لممارسة الفاحشة والبغاء وتبادل النساء، لكنهم يخْفون ذلك عن المسلمين» (١٠٨).

وتحدث بيركهاردت (Burckhardt) عن أماكن العبادة (الخلوات) (١٠٩) عند الدروز في حوران، وكيف أن العبادة تتم تحت مراقبة العقلاء؟ (١١٠)، وأشار إلى عدم السماح لغير الدروز بدخولها (١١١).

وقدم روبنسون وسميث (Robinson & Smith) وصفًا للخلوات ، حيث توجد في المناطق المرتفعة المنعزلة على طرف غابة مثلا– ومن موقعها أخذت التسمية– لكن من الصعب تمييزها عن البيت العادي (١١٢).

ولاحظ ماريتي (Mariti) اختلاف مبادئ الدين الدرزي عن تلك الموجودة عند الأتراك (المسلمين) والمسيحيين «فهي مبادئ غريبة وكتبهم الدينية (١١٣) غامضة ومليئة بالأخطاء وحتى الدروز أنفسهم لا يتمكنون من فهمها،ولا يتحدثون عنها لأن أسيادهم (مشايخهم) يُقْنِعونهم بأَنهم الوحيدون الملمون بأَسرار هذه الكتب». وذكر أن مشايخ الدروز يعْقدون حلقات لمناقشة الأمور الدينية، ويضيفون كثيرًا من السخافات إلى كتبهم الدينية. واسْتنتج ماريتي (Mariti) أن عباداتهم وطقوسهم السرية مناقضة في جوهرها لروح الإسلام (١١٤).

وقدم كلارك (Clarke) معلومات متناقضة عن حياة الدروز الدينية، فتارة يذْكر أن لهم نبياً خاصاً يُدْعى (Jonas) (شعيب) ، وتارة أخرى يؤكد أنهم يعبدون كل الأنبياء لكن جذورهم وثنية ، فقسم منهم يعبد العجل، مما يدل– في رأيه– على علاقة هذه المعتقدات بمصر القديمة (١١٥).

ولاحظ ولسون (Wilson) تأثير الفلسفات القديمة في مصر على معتقدات الدروز. وتعرّض إلى فكرة التناسخ عند الدروز. ونقل إحدى الآراء المنتشرة حول ذلك، ومفادها أن أرواح الناس الذين عاشوا حياة أخلاقية تنتقل عند الموت إلى الخيول التي تُطْعم جيدًا وتُعامل بلطف من قبل الدروز. أما أصحاب المبادئ الشريرة، فإن أرواحهم تنتقل إلى الحيوانات الجائعة التي يُعاملها أَصحابها بقسوة (١١٦) (١١٧).

وتحدث باكنجهام (Buckingham) عن دروز حوران وكيف أنهم يختلفون عن السكان المحمديين في الاعتقاد، أي أنهم ليسوا بمسلمين، لكنهم يصومون رمضان. وأكد كرههم للمحمديين (المسلمين) (١١٨). وتكررت فكرة عدم تحمس الدروز للإسلام عند مندرل (Mandrel) (١١٩).

وأشار روبنسون (Robinson) إلى وجود نزعة وثنية عند الدروز تتمثل في عبادتهم للحاكم بأمر الله الفاطمي. وذكر أن هذه الملاحظة وردت عند العديد من الرحالة، لكنها ربما تكون بعيدة عن الواقع لأن الدروز يُنْكرون ذلك (١٢٠) .

وعَدّ ثومسونَ (Thomson) الدروز في سوريا جزءًا من المسيحيين البروتستانت، وأكد على إيمانهم بالأناجيل (١٢١) . وتكررت هذه الإشارة عند تريسترام (Tristram) الذي قابل بعض الدروز في فلسطين، واسْتنتج من حركاتهم أنهم مسيحيون ،لأنهم استخْدموا عبارة (sowa sowa) سوا سوا (all alike) تعقيبًا على قوله لهم بأنه مسيحي (١٢٢).

وعدَّ أوليفانت (Oliphant) الدروز جماعة انبثقت عن الشيعة ،وأن المؤسس الحقيقي للمعتقد الدرزي هو الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي «يَحْظى بعبادتهم وتوقيرهم على أنه آخر وأفضل التجليات الإلهية على شكل إنسان». وتحدث عن إيمانهم بتناسخ الأرواح، وأن الأئمة لا يموتون، وإنما يتسترون في أشخاص مزودين بصفات متعددة (١٢٣) .

وكرر وارنر (Warner) ما ذكره الرحالة من إيمان الدروز بمبادئ الحاكم بأمر الله وأُلوهيته من خلال تجلي الله به. وذكر أنهم يدّعون حوزتهم للحكمة، ويتظاهرون بالإسلام مع المسلمين، وبالمسيحية مع المسيحيين (١٢٤) .

ويبدو أن السرية التي مارسها الدروز في إخفاء حقيقة مذهبهم وممارساتهم لتعاليمه قد دفعت الرحالة الغربيين إلى إطلاق التهم والافتراءات القائلة إنهم يمارسون الفسق والفواحش والمنكرات في خلواتهم ليلة الجمعة التي يقدسها الدروز لأسباب عدة (١٢٥)(١٢٦).

المبحث الرابع بنية مجتمعهم (المكانة والدور) :

اهتم الرحالة بتفصيلات المجتمع الدرزي وبالتحديد الفئات الأكثر نفوذًا ، وكأنهم أرّخوا للقوى الرئيسة في الطائفة الدرزية. ولاحظوا أن المجتمع الدرزي يضم العامة والخاصة أسوة ببقية المجتمعات والطوائف. واختلفوا في الأسس التي اعتمدوا عليها في تحليل بنية المجتمع. فمثلا اعتمد فولني (Volney) على الثروة (الملكية) وقسّم الدروز إلى العامة- الذين تجاهل الحديث عنهم- والنخبة (أصحاب الفضيلة والملكيات) الذين يُسموْن الشيوخ أو الحكام (١٢٧) . وأشار إلى أن السلطة في المجتمع الدرزي تؤول إلى الرجال الأكثر عددًا وثروة ونفوذًا، لكن الخطوة الأولى هي نيل موافقة الأتراك الذين يُطْلقون عليه اسم الحاكم. وللحاكم مكتب يهتم بتطبيق تعليمات الدولة التركية، ويحول دون شن الأمراء والعائلات والقرى حربًا على بعضهم بعضاً. وهو رأس القوة المدنية، ويُسمي الحاكم (القاضي) ، وهو الذي يحكم بحق الحياة والموت، ويجْمع الضريبه المفروضة للباشا سنويًا (١٢٨) .

أما روبنسون (Robinson) فقد اعتمد على الدور والمكانة الدينية كأساس للتمايز، ووجد أنهم ينقسمون إلى طبقتين كبيرتين: طبقة العقال (الحكماء أو الحكام) ومفردها عقل، وطبقة الجهال. ويخْتص العقال بالتشريعات والأوامر الدينية ولهم دور تعليمي، فهم يُعلمون القراءة والكتابة ويُدفع لهم من قبل التلاميذ. [١٢٩] .

وحدّد روبنسون (Robinson) صفات العقال الذين يتميزون بعمائمهم البيضاء، (رمز الطهارة والنقاء) ، ولا يُسْمح لهم بالتدخين ولا يحْلفون، وهم حريصون في كلامهم وأخلاقهم، ويُسمح لهم بالزواج. ويسْكن شيخهم في المتن ، وليس بالضرورة أن تنتقل القيادة والامتيازات من الأب إلى الابن بل قد تنتقل إلى أي شخص درزي يصل إلى عمر معين شريطة أن لا يكون قد لطخ اسمه برذيلة [١٣٠] .

وتعرض روبنسون (Robinson) لطبقة الجهال، «فهم الأكثرية وليس لهم دور ديني إلا إذا طُلب منهم ذلك خلال الاحتفالات للظهور بمظهر المسلمين. ففي هذه المناسبات يَدْخلون المسجد للصلاة مع المسلمين» [١٣١] .

ويُشْبه ما ذكره روبنسون (Robinson) ما ذكره بيركهاردت (Burckhard) عند حديثه عن طبقة العقلاء أو العقال ، فأساس التمايز هو الأهمية الدينية والدور الديني. لكن الجديد هو حديث بيركهاردت (Burckhard) عن وجود صغار سن (بين الثامنة والعاشرة) بين العقال في حوران. ورأى أنه من غير الممكن امتناعهم عن القسم والتدخين طبقًا للشروط المطلوبة من العقال [١٣٢] ،لكنه سرعان ما تدارك ذلك، وذكر أن بين العقال درجات ومراتب [١٣٣] .

وتحدث تشارلز تشرشل (Charles Churchill) [١٣٤] عن العقال بقوله: «والعقال يحْرصون على أكل مال الحلال، ولا يشاركون في الولائم التي يُنظمها الشيوخ، لأن طعامهم يجب أن يكسبوه بعرق جبينهم ومن أملاكهم المحللة لهم. لذا من المألوف أن يكون لدى الشيخ مخزنان، واحد منهما خاص بالموحدين العقلاء، إذ إن كل ما يجري شراؤه بمال الدولة التركية أو من مبيعات أسلاب الحرب يُعْتبر حرامًا» [١٣٥] .

وعدّ تشرشل (Churchill) هذا التدقيق مبنيًّا على مبادئ تعاليم ديانة التوحيد التي تمْنع بحزم أي اختلاط مع غير المؤمنين الذين هم من الدروز غير المدققين. ولما كان هذا الرفض القاطع من العقال لتناول الطعام على موائد المشايخ يُؤثر سلبًا على العلاقات اليومية، لذلك استجاب المشايخ لرغبة العقلاء في إيجاد مخازن للموارد غير المشبوهة وبذلك ارتفعت الشبهات [١٣٦] .

ولاحظ تشرشل (Churchill) أن مراتب عائلاتهم القيادية تخضع لنظام أولويات لا يجوز تخطيه ، وأن «مجرد تقديم فنجان من القهوة على غير ما يقتضيه نظام هذه الأولويات لا بد وأن يُعْرف سببه أو يُرْفض رفضًا باتًا. وكم هي شديدة الدقة أمور المداخلات مع الدروز فيما يتعلق بمراسيم الاحترام والتقدير، حتى أن العامة من الفلاحين بينهم، عرف عنهم في الحالات التي قد تؤدي إلى نشوب خلافات بينهم وبين المسيحيين. إنهم كانوا يُفضلون الوقوف في موقف المعْتدي، ويعاملون كذلك ويدخلون السجون أحيانًا على الاعتراف بأن مسيحيًا تجرأَ على التعدي عليهم، ومس كرامتهم دون أن يكونوا هم البادئون» [١٣٧] .

واتفق الرحالة الذين حللوا بنية المجتمع الدرزي على أنه شأنه شأن المجتمعات الشرقية مجتمع ذكوري الدور والمكانة محصورة بالرجل والمرأة تابعة ومنصاعة له [١٣٨] [١٣٩] ، ومحرومة من التوريث في القضايا السياسية والمدنية [١٤٠] .ويظهر ذلك مما ذكره تشرشل (Churchill) : «فكل ما لدى الأبوين من ممتلكات يُقسّم بالتساوي بين الذكور، ولا تأخذ الإناث أي شيء إلا في حالات نادرة. والأرملة لا تنال نصيبها من التركة إلا إذا أوصى الرجل لها بذلك» [١٤١] .

لكن ماريتي (Mariti) خرج عن هذا التشخيص عندما أشار إلى شُغْل زوجات أمراء الدروز مقاعد في الحكومة بعد موت أزواجهن لحين نضوج أبنائهن (في إشارة إلى نقل الكرسي إلى الأبناء) .وهذا لا يتناقض مع ما ذكره من أن هنالك اختلافاً في طريقة معاملة المرأة في أوروبا عن تلك المعاملة الموجودة عند الدروز [١٤٢] .

ودلل أوليفانت (Oliphant) على أن المجتمع الدرزي مجتمع ذكوري بقوله: «إن نساء الدروز لا تفرح وتغني وتزغرد وتهاهي لولادة أنثى. ولو ولدت أنثى فإن الطوابير التي تأتي إلى الأب ستنقلب إلى طوابير تعازي على ولادتها» [١٤٣] .

وأكد تشرشل (Churchill) على ما سبق بقوله: «أما مناسبات الولادة– إلا في أحوال نادرة وعند الضرورة– ، فلا تُسْتقبل بالاحتفالات العامة. ويقْتصر الابتهاج على أفراد الأسرة والأقرباء اللوازم الذين يشاركون في الابتهاج. وقد يقدّمون هدايا أو مبالغ من المال تُسجّل في العادة ليتم ردها في المستقبل. بيد أنه إذا كان المولود أنثى تُعدُّ الولادة غير سعيدة ولا تُعْطى أي اهتمام كما لا تُقدّم الهدايا» [١٤٤] .

وذكر في الوقت نفسه ما يُدلل على مكانة المرأة الدرزية ودورها في الحياة العامة. وفي التاريخ الدرزي شواهد على ذلك ومنها بروز أميرة درزية من عائلة أرسلان في القرن الثامن عشر حيث استطاعت أن تحكم جزءًا من لبنان، واستمعت للقضايا وأصدرت حكمها فيها ،»وأحكامها موضع قناعة ورضا المتخاصمين» [١٤٥] .

وذكر أوليفانت (Oliphant) أن المرأة الدرزية تتحدث بكل جرأة بعيدًا عن الاستحياء والحياء والتواضع [١٤٦] وأن الاكتفاء بزوجة واحدة قد عزز موقعها وجعلها أكثر تأثيرًا بالمقارنة مع المجتمعات المجاورة التي ينتشر فيها تعدد الزوجات [١٤٧].

وخلص أوليفانت (Oliphant) إلى القول إن الدروز مجتمع مُنظّم سري وقوي ولديهم إشارات سرية للتعرف على بعضهم [١٤٨].

المبحث الخامس. حياتهم الثقافية والاجتماعية:

ـ صفاتهم وأخلاقهم:

كان فولني (Volney) من الرحالة الأوائل الذين وصفوا الشخصية الدرزية، فالدروز أقوياء البنية، يكرهون الحرارة بحكم أن مناطقهم مرتفعة وباردة ، شجعان ، جريئون إلى حد التهور، سريعو التشاؤم، مطيعون لقادتهم، يتمتعون بالزهد والاعتدال [١٤٩] [١٥٠] ،منتمون لأرضهم [١٥١] ، كرماء، مضيافون لكل متوسل أو مسافر، «فالفلاح الدرزي يقدم أخر كسرة خبز في بيته للمسافر الجائع. وإذا ما تعاقدوا مع الضيف فإن الرباط المقدس (الخبز والماء) لا يمكن نقضه؛ لأن هذا مرتبط بشرف الدرزي» [١٥٢] [١٥٣] .والدروز لا يُسلمون من يستجير بهم ،ولا يسمحون بمس شعرة منه وإن تطلب الأمر استخدام القوة. وفي حال عدم تمكن الدروز من حماية المستجير بهم يتم تهريبه إلى خارج مناطقهم [١٥٤].

وأكد تشرشل (Churchill) ذلك بقوله: «أما الأجانب والغرباء من مختلف الجنسيات؛ فإنهم يلاقوْن من قبل المشايخ بالترحاب ويعاملون بكرم واحترام. ولو صدف أن لجأَ إليهم معوز أو متجول كما هي الحالة، فإنهم يقومون بجمع المال له بفرض مبلغ على كل شيخ منهم بالنسبة لإمكانيته المالية. والقهوجي هو الذي يقوم بجولات لتحصيل المبالغ المطلوبة في المناسبات المتعاقبة وتُدْفع فورًا. وفي حال اللجوء إلى حمى الشيخ من قبل خائف أو لاجئ، فإن منزل الشيخ الدرزي لا يجوز انتهاك حرمته، وليس من شيء يمكن أن يقنعه بتسليم من شمله بحمايته، أو يدل على مكان وجوده عنده ، وإنه ليُعرّض نفسه لأشد الأخطار والخسائر حفاظًا على الثقة والاطمئنان» [١٥٥].

ولاحظ فولني (Volney) تعصب الدروز لجنسهم (قومهم) شأنهم شأن العرب في ذلك[١٥٦] . وهم برأيه بعيدون عن العنف والإهانات ويَعْتبرون أنفسهم أفضل من جيرانهم. فلديهم ثروة وشخصية أكثر حيوية وفاعلية [١٥٧] .وهم حساسون لقضية الشرف التي لا تحل عندهم إلا بالدم [١٥٨].

وكرر بيركهاردت (Burckhardt) ما ذكره فولني عن خصائص الدروز . وأشار إلى حسن معاملة الدروز للرحالة (١٥٩) وشجاعتهم (١٦٠) وعدم أكلهم أو قبولهم أي أموال إذا ما شكوا أن حيازتها غير صحيحة. لذا هم حريصون على تبديل أي مبلغ يحصلون عليه بعملة أخرى قبل تخزينه.وذكر أن أفضل شيء عند الدروز هو الضيافة التي تُحرّم عليهم خداع الضيف أو تسليم من يلجأ إليهم. وإذا ما تعرض الأمير لإغراء وضغط لتسليم لاجئ، فعلى الدروز جميعًا التحرك لمنع ذلك حرصًا على السمعة العامة للدروز (١٦١) .

وذكر بيركهاردت (Burckhardt) أن دروز حوران أَحسنوا المعاملة مع الرحالة باعتبارهم (غشيمين) في الديرة، وأن شيخهم استقبلهم في بيته بحضور وجهاء الدروز وحثّهم على طلب ما يريدون من مُضيفيهم .ويرفض الدروز في العادة قبول أي مبلغ من الرحالة (١٦٢) .وأكد أن الشخص المضياف والكريم هو الذي يحتل أعلى الدرجات عند الدروز(١٦٣) .

وفي مقابل الصفات الحسنة التي اختص الدروز بها، ذكر بيركهاردت (Burckhardt) أن ليس لروابط الدم والصداقة قيمة عندهم. «وقد يتآمر الابن على والده، ولا يتردد في الاعتداء على أفراد أسرته» (١٦٤) .

ووصف تريسترام (Tristram) الدروز بأنهم نظيفون ومؤدبون بالمقارنة مع العرب ذوي الطباع والمظهر الخشن، وهم وسيمون وجنسهم نقي (١٦٥) . وهذا يتعارض مع ما ذكره هيرون (Heron) عندما قال: « قليل من الدروز الذين قابلتهم مؤدبون ونظيفون» (١٦٦) .

وعدّهم باكنغهام (Buckingham) الأكثر «تسامحًا بين المحمديين» (١٦٧) ، واعتبرهم روبنسون (Robinson) ريفيو الطباع (١٦٨) .

ولاحظ ايجموند وهيومان (Egmont& Heyman) أن الدروز من أفضل الأجناس البشرية عندما تعيش معهم بسلام، لكنهم أعداء خطيرون جدًا؛ لأنهم لا ينسون الإهانة والجرح عند الوقوع بين أيديهم، غُيُرٌ على نسائهم إلى أكبر درجة إلى حد قناعتهم بأنهم يملكونهن وأنهم مخولون بقتلهّن إذا ما تحدّث أحد إليهن بحرارة أو بسوء خُلق (١٦٩) . وهذا يتفق مع ما ذكره أوليفانت (Oliphant) (١٧٠) وبيركهاردت (Burkhardt) من أن الدروز مثل جميع الشرقيين غيورون على زوجاتهم من الزنا وعقوبة الزانية الموت. لكن الدروز يخافون من القتل تجنبًا للانتقام، ويخْشون من انتشار هذه العادة، مما يوفر فرصة للحاكم التركي لابتزاز الطرفين (أهل القاتل والمقتول) (١٧١) .

والدروز برأي ايجموند وهيومان منافقون (Egmont & Heyman) (١٧٢) ،وبرأي ولسون (Wilson) «أكثر الناس تخلفًا وانغماسًا في الوثنية والخطأ، وأخلاقهم كاليهود فلا يُحبّذون مشاركة الآخرين لهم في السكن» (١٧٣) .

وأشار ماريتي (Mariti) إلى أنهم أقوياء البنية ومن أصول نبيلة، وعندما يولد الطفل، فان الأم لا تضع وسادة تحت رأسه كما يفعل الآخرون وإنما تضعه على (ذراعها) لإبقاء الرأس معلقًا مما يمنحه الشجاعة في الكبر. والدروز برأي ماريتي (Mariti) مخلصون وصارمون في الوقت نفسه، يكْرهون احتيال الترك وابتزاز وجشع العبرانيين (١٧٤) . وتكررت هذه الإشارة عند هيرون (١٧٥) .

ووصفهم كلارك (Clarke) بأنهم ضخام البنية منفتحون وحادون، ويشتهرون بالفراسة والنبل والكرم (١٧٦) .

وقدم أوليفانت (Oliphant) تحليلا مفصلا للشخصية الدرزية.ويظهر ذلك من الاقتباسات الآتية حيث قال: «وتحت مظهرهم الخارجي المتسم بالصراحة والرجولة والصلافة يُخّفي الدروز أقصى درجات الرقة وحدة الذهن والمكر البارع والخداع. ولا شك أنهم مدينون لعقيدتهم في هذا الفن الباطني الذي يتباين فيه المظهر عن الجوهر.ويتم تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على الاقتصاد في الحقيقة من جهة، ومخادعة المسلمين والمسيحيين من جهة أخرى» (١٧٧) . وفي رأيه أن هناك مقياسًا معنويًا واحدًا يحكم الدروز في تعاملهم فيما بينهم، ومقياسًا آخر يحكم اتصالاتهم وتعاملهم مع بقية العالم. وقال: «أما الرياء والإخفاء فهو أمر يعْترف به دينهم على أنه مكتسبات وانجازات جديرة بالثناء». واستشهد أوليفانت (Oliphant) بمثل يتداوله الدروز ويُعبر عن ميولهم واعتقاداتهم فيقولون «إن قميص الإنسان لا يغير لون جلده» (١٧٨) .

وعلل أوليفانت (Oliphant) ذلك بقولة: «ولا شك أن حاجتهم إلى ذلك قد فُرضت عليهم بسبب خصوصية وضعهم الشاذ. فهم حفنة من المؤمنين بعقيدة خاصة، والذين إذا ما عُرفوا وانكشفوا أمام الملأ فإنهم سيتعرضون للهجوم والاضطهاد» (١٧٩) .

وعلّق أوليفانت (Oliphant) على ذلك بقوله: «وهكذا شأن الدرزي، فقد يكون ماكرًا مراوغًا كالثعلب لكنه ليس جبانًا، وأن عينيه الصلفتين ووجهه المفتوح المتدفق بالتحدي تُشكلان دليلا على انعدام أي نوع من أنواع الخجل لديه مما يمارسه من براعة في فنون الخداع. لذلك، بقليل من التمرين ، يمكن لهؤلاء الدروز أن يكونوا دبلوماسيين من الطراز الأول» (١٨٠) .

وفي السياق نفسه قال تشرشل (Churchill) : «أما في شعورهم الداخلي، فهم يُلْقون نظرة ازدراء على كل الذين ليسوا منهم. إنهم يعرفون تمامًا حقيقة مكانتهم إذ إنهم محاطون بجماعات ليس بينها وبينهم ود» (١٨١) .

ـ الزواج والطلاق:

كان الطليطلي (Benjamin of Tudela) أول رحالة أوروبي تحدث عن الزواج والعلاقات الجنسية عند الدروز. فهم بنظره «غارقون في الزنا، الأخوة يتزوجون الأخوات والآباء يتزوجون بناتهم». (١٨٢) .

واتفق ولسون (Wilson) مع ما ذكره الطليطلي (Benjamin of Tudela)، فتحدث باشمئزاز عن الزواج عند الدروز، «فلا قانون ينظمه ويتبادلون الزواج من أنسابهم (البدل)، ولا يوجد ما ينظّم العلاقات الجنسية عندهم، ويُسْمح عند الدروز بالزواج بين الإخوة والأخوات»، ويُميَّز العزاب (غير المتزوجين) بلبس العمائم البيضاء (١٨٣) .

ولاحظ بيركهاردت (Burckhardt) أن المهور المدفوعة إلى الفتاة عند خطبتها ترتبط بمكانة والد الفتاة، فإذا كانت عائلة الفتاة غنية، فإنها تُجهّز بناتها بالملابس والصيغة (أساور من الفضة أو عقد يوضع حول رقبة العروس) .وأشار إلى أن هذه العادة موجودة أيضًا عند المسيحيين في لبنان وعند العائلات من أصول تركية (١٨٤) .

وتعرّض تريسترام (Tristram) إلى إشكالية بين عائلتين درزيتين سببها أن فتاة درزية كانت مخطوبة لجار لها، لكن الأب خطّبها لأخر دفع مهرًا أكثر ، فحدث اقتتال بين عائلة الخطيبيْن مما استدعى سجْنهما وسجْن الفتاة ووالدها على أمل أن تقرر من تريد(١٨٥).

وأشار ماريتي (Mariti) إلى أن تعدد الزوجات مسموح به عند الدروز، لكن في الوضع الطبيعي يكتفي الرجل بزوجة واحدة يختارها من الشعب الدرزي. وإذا عدّد الزوجات من خارج الطائفة ، فإن الزوجة الأخرى تكون بمثابة عبده للزوجة الأولى (١٨٦) .

وتحدث تشرشل (Churchill) عن تبادل الزواج عند الدروز بين عائلات معينة. ويحظر على هذه العائلات أن تطْلب لها علاقة رحم مع عائلات أخرى. وقال: «إن مبدأ زواج شيخ من وسط أقل مكانة من وسطه غير معمول به في الوقت الراهن .إن زواج شيخ من ابنة درزي لمالها وغناها ومن وسط أقل رتبة تكون له نتائج ذات طابع خطير على من يَقْدم على مثل هذا العمل الذي يُعْتبر احتقارًا لعرقية العائلة. ولو أن الزوج (الشيخ) نجا من العقوبة، فالزوجة لن تُكتب لها النجاة» (١٨٧) .وأضاف: «وليس من انتقاد لمثل هذا التشدد في بلاد يُفْرض على الأرستقراطية فيها أن تُحافظ على مكانتها في جميع الأحوال، إذ لا بد من الحفاظ على المراتب الإقطاعية تلك التي ترْسم الخطوط بين طبقة النبلاء وعامة الناس. ولن يكون هناك تساهل أو غض نظر عن تصرف فيه انتقاص لاحترام أو تقدير يتقّيد به كل الأرستقراطيين في جميع مراحل الحياة ومتطلباتها . فقد تضطر بنت الشيخ للبقاء عزباء طول حياتها ولا تُعْطى يدها لمن يقل عنها نبلا» (١٨٨) .

وعندما يريد شيخ أن يتزوج– وفقًا لما ذكره تشرشل (Churchill) – فإنه يُرسل رسولا إلى والد الفتاة التي وقع عليها اختياره طالبًا الموافقة. فإذا كان والد الفتاة راضيًا يَطْرح الأمر على ابنته التي تتْرُك مصيرها رهنًا بحكمته ومشيئة الأبوية . لكن لو أنها كانت لا تشعر بميل لطالب يدها، فإن رأيها مأخوذ به ولن يجْري زواج بغير قبولها ورضاها[١٨٩].

ولدى الموافقة على الزواج يبْعث الخاطب بهداياه المؤلفة من ملابس وحُلي. وفي اليوم الذي يُحدّد للزواج يتوجه بعض العقال وأقرباء العريس إلى بيت العروس، ويُعْقد العقد ويوقعه شيخ العقال وبعض الشهود. وعندئذ تمتطي العروس فرسًا معدة لذلك، ويسير في ركابها جمْع كبير من الرجال والنساء بينهم عدد من أقاربها إلى منزل زوجها [١٩٠] .وعندما يتزوج درزي يتوجب عليه أن يعتبر زوجته مساوية له، وإذا قضى ظرف ما بالانفصال تجري التحقيقات حول المُلام. فإذا ظهر أن الزوجة كانت غير مطيعة لزوجها بينما سلوك الزوج نحوها لا شائبة فيه وكانت تُصر على الفراق ، يكون من حقه أن يحتفظ بنصف ما تملك (ملابس ، أو حلي ، أو ممتلكات أخرى) . أما إذا كان العكس فإنه يحق لها الاحتفاظ بكل ما تملك (المتوجب على الزوج أو ما اصطحبته من بيت أهلها) [١٩١] .

وبشكل عام أجمع غالبية الرحالة على سهولة الطلاق عند الدروز [١٩٢] . فمثلا» إذا طلبت الزوجة من زوجها الخروج خارج البيت، وقال لها اذهبي دون تعليق تُصْبح طالقة بعد عودته إلى البيت. ولا يستطيع زوجها إرجاعها ويُمْكنها الزواج مره ثانية وفقًا للقانون التركي» [١٩٣] . أو أن يُقال لها كما ذكر أوليفانت (Oliphant): «إن من الأفضل لها الذهاب عند أمها. وبعد تكرار هذه الجملة ثلاث مرات لا يبقى أمامها أي خيار سوى العودة إلى أهلها» [١٩٤] .

ـ لباسهم وطعامهم:

وصف الرحالة الغربيون لباس الدروز وفرقوا بين الرجال والنساء في اللباس . ويُسْتشف من مجمل ما دونوه أن لباس الرجال عبارة عن ستره قصيرة– نادرًا ما تصل إلى ركبهم– مصنوعة من شعر الماعز وصوف الشاة وتكون مخططة بألوان متعددة. ويضعون على أجسادهم عصبات مذهبة ويلبسون تحت هذه السترة رداءً تركيًا جميلاً يصل إلى الكوع. ويلبسون القمصان البيضاء، وتكون بكم طويل بدءًا من الخريف. ويوجد زنار فوق القميص يدفع القميص بشدة إلى الجسد. وفي العادة يلبسون أكثر من قطعة قماش، ويربطون رؤوسهم برباط جميل يُشكّل عمائمهم. وحتى أحذيتهم تختلف عن تلك المستخدمة في الشرق، وتشبه تلك المستخدمة في الغرب لكنها تختلف في اللون حيث تكون في العادة صفراءَ أو حمراءَ وتكون مصنوعة من الجلد المغربي وتكون طويلة الساق [١٩٥]

ولاحظ بيركهاردت (Burckhardt) أن الدروز في منطقة حوران يلْبسون لباس الفلاحين نفسه دون أن يوضح ما هو هذا اللباس (١٩٦) .

وركز روبنسون (Robinson) على وصف لباس المرأة الدرزية الذي يتكون من القبعة التي تضعها على رأسها وتُسمى التنطور ويشبه الأنبوب طوله ١٨ أنش تقريبًا، ويكون مزيّناً بالأشكال، ويختلف من امرأة إلى أخرى حسب ثروة المرأة (فضة أو نحاس) ، ويُثبت على الرأس كوسادة تتدلى إلى الخلف وكأنه بوق ينْسدل إلى الأمام على هيئة لباس أسطوري يمتد إلى الوركين ويُسْتخدم في تغطية الوجه عند الخروج إلى الأفراح. وهناك فروقات في شكله وطريقة وضعه من منطقة إلى أخرى،وهو لا يشبه ما هو موجود عند المسيحيين الأرذثوكس (١٩٧).

وركّز أوليفانت (Oliphant) في حديثه عن لباس المرأة الدرزية على الخمار. وقال: «ترتدي النسوة خمارًا ابيضَ لا ترى منه إلا عينًا واحدة، وذلك لأن الحُكْم على بقية السحنة وجمال الوجه يجب أن تُؤخذ من هذه النظرة. وتستطيع المرأة الدرزية أن تُعبّر عن جمالها ومكنونات نفسها بعين واحده أكثر مما تُعبّر عنه المرأة الأوروبية بعيْنين اثنتيْن» (١٩٨).

أما بالنسبة لطعام الدروز فقد وردت معلومات مقتضبة حوله،ومنها ما ذكره فولني (Volney) من أن غذاءهم يتكون من أرغفة الخبز، والبصل، والزيتون، وقليلاً من الفاكهة والنبيذ (١٩٩) .ومنها ما ذكره بيركهاردت (Burckhardt) حول بعض عادات الدروز في دير القمر في لبنان في رمضان حيث يذبح شيخ العائلة شاة أو أكثر ويُطْعمها لأفراد عائلته ويُقدّم لهم بقية أيام السنة البرغل، «ونادرًا ما يُقدّم لهم لحم البقر الكبير أو لحم الماعز الكبير» (٢٠٠) . ولاحظ بيركهاردت (Burckhardt) أن الدروز مغرمون بأكل اللحم الني «فحيثما تُقتل شاة فإنهم يتناولون الكبد الني والقلب باعتبارهما من الأكلات الطيبة»(٢٠١).

وذكر ايجموند وهيومان (Egmont & Heyman) أن الدروز لا يأكلون الأيل ولا الطير، ولكنهم يُكْثرون من أكل لحم الخنزير (٢٠٢) (٢٠٣) ،ويكْثرون من شرب الخمر (٢٠٤) .

وقال عنهم ثومسون (Thomson) : «إنهم يأكلون اللقلق والوز والبجع والبط وكل أنواع الحمام والحجل وطير القبر وكل الطيور الصغيرة» (٢٠٥) .

وقدم أوليفانت (Oliphant) وصفًا آخرًا لمائدة الدروز لكنها من الواضح أنها مائدة كبار القوم وضمت الحساء، والخراف المحشية بالأرز والصنوبر، وطبيخ اللبن ، والكوسا المحشية ،والباذنجان المحشي، والفريكة، وأطباق أخرى من اللحم والخضار، والحلوى

الشعبية (لم يحدد ما هي) ، «ويأكلون المكسرات مصحوبة بالشراب» [٢٠٦] . وحدد في موقع أخر أن الشراب هو (القهوة والشاي) ، ولم يذكر النبيذ كغيره من الرحالة [٢٠٧] .

المبحث السادس- حياتهم الاقتصادية:

يُسْتشف مما ذكره بيركهاردت (Burckhardt) أن حياة الدروز الاقتصادية لا تختلف عن بقية سكان المناطق المجاورة لهم، وأنهم يَعْتاشون من بساتين الكروم والتوت، ومن تجارة الخراف وبعض الحرف مثل حياكة القطن الذي يُستخدم في صناعة القمصان البيضاء التي يلْبسها الدروز [٢٠٨] وفي صناعة الأحزمة [٢٠٩] . وذكر أن هذا القطن يُنْتج في بعض المناطق من قبل بعض العائلات الدرزية [٢١٠] أو يتم شراؤه من بلاد صفد ونابلس [٢١١] .وأشار إلى أن جزءًا من ثروة الدروز يأتي من تربية المواشي والأبقار [٢١٢] ومن تربية دودة القز (لإنتاج الحرير) ومن الدخان (التوباكو) [٢١٣] .

وذكر بيركهاردت (Burckhardt) أن الدروز فلاحون مهره خاصة في قرية مرجان قرب دمشق، فقد أنتجوا كميات وفيرة من القمح والشعير واستخرجوا الملح الصخري، واستفادوا في قرية أم الزيتون قرب دمشق من مصادر المياه بعد توقف الأمطار [٢١٤] . ولاحظ انتشار حقول الحنطة في مناطق الدروز، بينما الأراضي المجاورة لهم بلا زراعة [٢١٥] .

وتحدث بيركهاردت (Burckhardt) عن استخدام العبيد السود من قبل مشايخ الدروز في فلاحة الأرض، بينما بقية السكان يسْتخدمون السكان المحليين. وذكر أن الفلاح الذي يزرع الأرض عند الدروز يحْصل على ربع المحصول بعكس من يعمل عند الآخرين فيحْصل على ثلث المحصول [٢١٦] .

ولاحظ كلارك (Clarke) وجود وفرة من الخيول والبغال والجمال للاستخدام الخاص في الزراعة والتجارة [٢١٧] .

واعتبر تريسترام (Tristram) أن حياة الدروز الاقتصادية تعْتمد في المقام الأول على العسل وزيت الزيتون، وزراعة الكرمة [٢١٨] .

أما فولني (Volney) فعدّ ثروة الدروز الحقيقية تأتي من شجر التوت الأبيض في المقام الأول، والكرمة التي

تُصنّع إلى نبيذ ابيض واحمر في المقام الثاني [٢١٩] يليها التوباكو والقطن والحنطة. ولاحظ تركز معظم الأراضي في أيدي عدد قليل من العائلات الإقطاعية، مما منحها قوة بكل مقاييس القوة عند الأمم وذكر أن بعض كبار الملاك قسّموا الأراضي إلى قطع وُزِّعت على مستأجرين بهدف تحسين إنتاجية الأرض وربط المستأجرين (الفلاحين) بها. [٢٢٠] .

وأشار فولني (Volney) إلى أن طبيعة مناطقهم الوعرة حالت دون فلاحة مساحات كبيرة وحالت دون إنتاج كميات وفيرة من القمح والشعير. فإنتاجهم لا يكفيهم إلا لثلاثة أشهر وليس لديهم مصنوعات كثيرة. ومعظم تصديرهم الحرير والقطن ومردودهما يتجاوز قليلا ثمن صادراتهم من القمح من حوران ، والزيت من فلسطين، والقهوة والأرز من بيروت[٢٢١] . وأشار إلى أن بلاد الدروز مقسمة إلى مناطق، أو قطاعات تتميز كل واحده بطبيعة خاصة وإنتاج خاص. فالمناطق الممطرة في الشمال أكثر وعورة وتزخر بالحديد. والغرب من أكثر المناطق جمالا ويُنْتج الصنوبر، والسهل يُنْتج التوت والكرمة ، والشوف الحرير، وإقليم التفاح الفاكهة، والشقيف الدخان (التو باكو) [٢٢٢] .

وتحدث فولني (Volney) عن مسألة إيجاد آثار أو ذهب في بلاد الدروز. وذكر أن أي شخص يعْثر على قلادة ذهب أو هلال أو غيره عليه أن يخفيه بسرية؛ لأن الشيوخ والأمراء يَبْحثون عن ذرائع، ويلتزمون بإعادته [٢٢٣] .

وخلُص فولني (Volney) إلى القول: «إذا عرفنا عدد السكان مع المساحة الضيقة التي يعيشون فيها، فإننا نكتشف السبب الحقيقي لوهج الحرية في سماء هذا القطر. إنهم على عكس الترك يعيشون بسلام وانسجام تام في أراضيهم علمًا أن فلاحيهم ليسوا بأغنى من الفلاحين في المناطق المجاورة إلا أنهم يشعرون بالحرية، فلا خوف لديهم كما يحدث عند الآخرين حيث سمعت أن الباشا يبعث جندًا لنهب بيوتهم وسلب نسائهم. فالأمن الكامل هو المهيمن ، إنهم مرتاحون في حياتهم ومن السهل الحصول على رزقهم» [٢٢٤] .

لكن هذا الوصف لا ينسجم مع ما ذكره روبنسون (Robinson) – الذي زار مناطق الدروز في النصف الأول من القرن التاسع عشر– من أن الملاك الدروز استغلوا العاملين عندهم (الفلاحين) وساهموا في فقرهم [٢٢٥] .وقال: «إن بين الدروز طبقة فلاحين وطبقة من أصحاب الثروات. إنهم يعملون بأيديهم وهم في المعظم فقراء لكنهم يكْفون أنفسهم بشأن حاجات الحياة» [٢٢٦] . وأشار إلى خلو بعض المناطق في حوران من زراعة الفاكهة؛ لأنها تُسْرق من قبل الغرباء والعرب في إشارة إلى البدو [٢٢٧] .

وأشار ايجموند وهيومان (Egmont & Heyman) إلى أن جزءًا من ثروتهم تأتي من

الزراعة والتجارة. فهم يُمارسون تجارة الحرير (٢٢٨) ،وهناك تبادل تجاري كبير بينهم وبين الفرنسيين في هذا المجال . وهم جادون في تجارتهم وفي البحث عما يحقق الفائدة لهم، ويدفعون للأتراك جزءًا من الأموال التي يحصلون عليها (٢٢٩) .وذكر الطليطلي (Benjamin of Tudela) أن حرفيين يهود وباعة متجولين يأتون إليهم للتجارة ويعودون (٢٣٠) .

وتحدث الرحالة والكاتب الفرنسي بيجيه ده سان بيير (Pierre Puget de st) عن الحياة الاقتصادية عند الدروز. فعندهم الأشجار العطرة وأشجار الحامض والبرتقال والدراق والتفاح والأجاص واللوز والزيتون والقطن. لكن شجرة التوت تتبوأ المركز الأول بفائدتها لأن الحرير هو اكبر ثروة للبلاد . وتَكْثر عندهم أشجار الغابات التي تُسْتخدم في صناعات عدة: (السفن والمقاعد وغيرها). وعندهم الكرْمة التي تُسْتخدم في إنتاج الخمر الذي يُلاقي رواجًا بين الأجانب. وأشار إلى إنتاج كميات كبيرة من القمح تزيد عن حاجة البلاد تُصدّر إلى فلورنسا.وتحدّث عن توافر المن وملح البارود وبعض النباتات الطبية ومنها نبات اليرباص الذي يصنّع منه شراب يُفيد في علاج ضعف المعدة وأمراض الكبد. وتوجد عندهم كميات كبيرة من العسل وشمع العسل والمعادن (الحديد) وأنواع مختلفة من الطيور وحيوانات النقل مثل الخيل والحمار والبغال والجمال والثيران والشاه والماعز (٢٣١). وذكر متاجرة الدروز بجلود الدببة والنمور والخيول (٢٣٢) .

المبحث السابع حياتهم العسكرية:

قدم الرحالة الغربيون باستثناء فولني (Volney) وأوليفانت (Oliphant) وصفًا مختصرًا لحياة الدروز العسكرية. فعلى سبيل المثال لا الحصر أشار الطليطلي (Benjamin of Tudela) إلى أن الدروز محاربون من الصعب شن الحرب عليهم، لأنهم يتّخذون من الجبال حصونًا لهم (٢٣٣) .

وذكر روبنسون (Robinson) أن الدروز مجتمع عسكري وأن ثلث البالغين الدروز يحْملون السلاح (٢٣٤) . وعدّهم ايجموند وهيومان (Egmont & Heyman) محاربين شجعان سلاحهم في الأساس بنادق أوروبية قديمة، ومن ثم صنّعوا أسلحتهم وذخائرهم من الفحم والملح الصخري والكبريت لكنها ليست بفاعلية الذخائر المصنعة في أوروبا (٢٣٥) .

وتحدث فولني (Volney) عن قوتهم العسكرية التي بلغت أقصاها في القرن السابع عشر في عهد فخر الدين المعني الثاني الذي حاول توسيع مناطق نفوذه على حساب الترك (٢٣٦) . ولاحظ أن الحاكم لا يستطيع تخصيص فرق عسكرية نظامية، بل يحتفظ فقط بقوات لحراسة بيته وبعض العبيد السود. وعند الحرب يُدْعى الجميع للمشاركة في الزحف بغض النظر كان شيخًا أو فلاحًا: (ويحمل معه سلاحه وحقيبة صغيره فيها كميات قليلة من

الطحين وبعض الرصاصات وكميات من مسحوق البارود المُصنع في قريته) . وإذا كانت حرب أهلية كما كان يحصل، فان الفلاحين والخدم والرعاة يحملون أسلحتهم من أجل شيخ عائلتهم. وفي الحروب الأهلية لا يكون الهدف التدمير الكامل للخصم، ففي كثير من الأحيان يتم التوسط وإنهاء التوتر بين جهتين بينما في الحروب الخارجية يكون الهدف إلغاء الطرف الأخر وتدميره أو التوصل إلى معاهدة مذلة قد يقبلها أو لا يقبلها (٢٣٧) .

وقدم فولني (Volney) وصفًا لإجراءات إعلان الحرب، فقال: «عندما يقرّر الأمير والشيوخ في دير القمر إعلان الحرب، فإنهم يستحضرون العادات القديمة في هذا الشأن وتنطلق الصرخات من أعالي قمم الجبال: إلى الحرب إلى الحرب ، خُذ سلاحك ورصاصاتك، خذوا مسدساتكم، الشيوخ النبلاء، سلحوا أنفسكم، اللقاء غدًا في دير القمر، حماسة الله، حماسة المعركة». وذكر أن هذه الصرخات تُسْمع في القرى والمناطق المجاورة، ويَنْتقل النداء خلال ساعات إلى الحدود. وقال: «هذه النداءات وسط الليل الساكن والصدى الكبير تُثير الفزع». (٢٣٨) .

وقارن فولني (Volney) بين المتطوعين الدروز والقوات الأوروبية، وقال: «لا يمكن لهذه القوات أن تتشابه مع قواتنا، فلا لباس موحد لها ولا نظام لها ولا تعليمات. إنهم قوات بمعاطف قصيرة وسيقان عارية. وهم جميعهم مشاة باستثناء الأمراء والشيوخ فإنهم يمْتطون الخيول وهي قليلة لأن استخدامها صعب بسبب وعورة الجبال». ولاحظ أن الدروز لا يُورّطون أنفسهم في قتال السهول. فليس لديهم ما يسْتطيعون من خلاله وقف زحف الطرف الآخر. إنهم يجيدون إطلاق النار والقنص مما جعلهم خطيرين ومتمرسين فهم برأيه «صيادون مهرة يحققون نجاحات مفاجئة، لديهم عنصر المفاجئة الليلي ويجيدون نصب الكمائن والالتحام المباشر مع الخصم، ويستطيعون تطوير نجاحاتهم واستثمارها نحو الأفضل. وهم مطيعون جيدون لقياداتهم، يتمتعون بالزهد والاعتدال والصحة الجيدة». فقد امضوا ثلاثة أشهر في الهواء المفتوح دون خيام ولا أغطية باستثناء جلد الشاه، وكانت الضحايا في صفوفهم كأنهم بقوا في بيوتهم (٢٣٩) .

وتحدث فولني (Volney) عن زاد المقاتلين الدروز، وقال «انه يتكون من بعض الأرغفة والبصل والزيتون وقليلا من الفاكهة والنبيذ». وذكر أن ليس لدى الدروز أي معرفة بالعلوم العسكرية الحديثة بجميع حالاتها، لكن ذلك لا ينفي وجود بعض الدروز ممن لديهم معرفة بالأسس الأولية للعلوم العسكرية. ولاحظ أن الدروز يمْضون فترات طويلة في التدريبات العسكرية (٢٤٠) .وهذا يتطابق مع ما ذكره أوليفانت (Oliphant) الذي شاهد بعض هذه التدريبات ووصفها بأنها: «استعراض عسكري تُسْتخدم فيه الخيول والبنادق والسيوف

والخناجر والرماح وتدل على مهارتهم. ففي كل لحظة تخرج مجموعة من الرجال من وسط الحشد ليطلقوا النار من بنادقهم باتجاه حوض الماء في الساحة. جو يُنتج نمطاً من الدخان الشبيه بالزبد. لقد اختلط الحابل بالنابل حيث الغناء بصوت مرتفع، الموسيقى والنشاز والإطلاق الدائم للنار وتصفيق الأيدي وصياح النساء مما جعل الجو برمته يبعث على الصمم» (٢٤١) .

وأشاد أوليفانت (Oliphant) باعتماد الدروز على أنفسهم في توفير تجهيزاتهم العسكرية وانضباطهم حيث قال: «إن جميع التجهيزات العسكرية هنا هي من صنْع محلي داخل القصر. ورأيت بعض الخياطين الذين يقومون بمهماتهم بجد ونشاط داخل المخازن التي تحتوي أسلحة وعتاد الحامية العسكرية. انه لمن دواعي السرور والغبطة أن يكون الشخص في منطقة حيث الحياة والممتلكات يحميها الشعب نفسه.كما أن الدرك الكردي، والجنود الذين لا يرْضخون للضبْط والربْط العسكري غير معروفين هنا» (٢٤٢) .

الاستنتاجات:

١. اهتم الرحالة بتفصيلات المجتمع الدرزي، وبالتحديد الفئات الأكثر نفوذًا، وكأنهم أرّخوا للقوى الرئيسة في الطائفة الدرزية. ولاحظوا أن المجتمع الدرزي يضم العامة والخاصة أسوة ببقية التجمعات والطوائف. واختلفوا في الأسس التي اعتمدوا عليها في وصف بنية المجتمع. فمثلا اعتمد (فولني) على الثروة (الملكية)، وقسّم الدروز إلى العامة والنخبة: (أصحاب الفضيلة والملكيات) الذين يُسموْن الشيوخ أو الحكام. بينما اعتمد (بيركهاردت) وآخرون على المكانة الدينية وقسموا الطائفة الدرزية إلى طبقة العقال وطبقة الجهال.

٢. يتصف الدروز بالغموض، فالمعتقدات سر، والأصول سر، وكل الطائفة أسرار محصورة بفئة محددة للحفاظ على وجود الطائفة وهيبتها وتماسكها . ويصعب فهم هذه الطائفة أو بمعنى أدق التعرف إلى تفصيلاتها لأنها سر وجودها. ويبدو أن السرية التي مارسها الدروز في إخفاء حقيقة مذهبهم وممارساتهم لتعاليمه، قد دفعت الرحالة الغربيين إلى إطلاق التهم والافتراءات، بسبب عدم قدرتهم على فهم طقوس معينة أو دلالات هذه الطقوس.

٣. إضفاء طابع القداسة على الطائفة والتعصب للطائفة صفة أساسية لدى الدروز .ويستند ذلك إلى اعتقادات دينية وعرقية معينة أفرزت ثقافة بسمات خاصة (ثقافة التفوق والهيبة والتميز) .وربما كان ذلك سببًا رئيسًا في عدم قدرة الدروز على الاندماج مع

الآخرين.وربما نفهم اختيارهم للمناطق المرتفعة المعزولة على أنه تجسيد لهذه الثقافة ، بالرغم من وجود أسباب أخرى منها التعرض للأذى في فترات متباعدة.

٤. الدروز مجتمع طبقي محافظ لا يقبل الثقافات الواردة على الطائفة ويتقوقع على ثقافته (لتصبح ثقافة مقدسة) .والمجتمع الدرزي مجتمع طبقي اتفق الرحالة كافة على أنه طبقتان: العقال وهم أصحاب المكانة والسلطة استنادًا إلى العرق (النسب) والدين والثروة، والجهال الذين يُشكلون الأغلبية المنقادة في القضايا الدنيوية والدينية. والعقال (الشيوخ) مراتب طبقًا للثروة والمرتبة الدينية والنفوذ. وهم مصدر التشريع والملمون بتفاصيل المعتقدات الدرزية ويقرّرون السلوك المقبول والممنوع في الطائفة، وهم حلقة الوصل مع العالم الخارجي، طاعتهم واجبة والولاء لهم قضية في غاية الأهمية، وهناك تسلسل هرمي في السلطة.

٥. الطائفة الدرزية نظام مغْلق، والحراك أفقي (من دور إلى دور) وليس حراكًا رأسيًا، ولا يرافقه تغيير في الهيبة.والملكية محصورة بفئات محددة ، والتوزيع للإنتاج في الطائفة يتم اعتمادًا على الحاجة، وليس فقط على المشاركة. ومن يمْلك السلطة عند الدروز يملك الثروة والنفوذ، ولا يُشْترط بمن يملك السلطة أن يملك الثروة.

٦. الحياة الثقافية والاجتماعية مغلقة. فعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم مقدسة يصعب الخروج عليها للحفاظ على تماسك الطائفة واستمراريتها. والرباط الذي يجمع الطائفة رباط شعوري أي أن الفرد في الطائفة لا يتمتع بإرادة شخصية حرة، بل تنبع إرادته من إرادة الجماعة، ولا قيمة للفرد عند الدروز إلا من خلال طائفته.

٧. لباسهم تكريس لثقافة التفوق والهيبة التي يُصر الدروز عليها، وهو علامة فارقة في المراتب الاجتماعية والدينية (مميز أساسي للمرتبة) .

٨. يُصنف الدروز على أنهم طبقة وسطى، تخشى من النزول إلى الطبقة الدنيا، ولديها رغبة بالارتقاء إلى الطبقة العليا شأنها شأن الطوائف الأخرى وهذا يؤثر على مواقفهم السياسية التي يلّفها غالباً التردد والشك والخوف. فلا يثقون بمن حولهم، لكنهم يتحالفون مع الأقوى على مر الزمان.

٩. الدروز مجتمع ذكوري شأنه شأن المجتمعات الشرقية. فالدور والمكانة محصورة في الرجال في المعظم، وان وجدت حالات شاذة لأسباب خاصة. وعلى الرغم من مشاركة المرأة في الإنتاج، فإن ذلك لا يمنحها مكانة مساوية للرجل.

١٠.الزواج عند الدروز محصور بالطبقة الواحدة وبالمرتبة والمكانة وهي التي تحدد القيمة (المهر) ، وهم مجتمع طبقي مقيد، ولا صحة للادعاء بوجود المساواة في الطائفة، وحصر الزواج في الشريحة الواحدة منبعه اجتماعي واقتصادي وثقافي.

١١.اقتصاد الدروز زراعي يرافقه اهتمام بتربية الحيوانات للاستخدام الزراعي والمتاجرة بها ، وهي مصدر للثروة. وتعتمد تجارتهم على المنتجات الزراعية. وطبيعة مناطقهم حددت طبيعة اقتصادهم، لكن السمة العامة هي محاولة الاكتفاء الذاتي انسجامًا مع ثقافة العزلة عن الآخرين.

١٢.الدروز مجتمع عسكري والثقافة العسكرية هي مدعاة للتفاخر، ويبدو أن كونهم أقلية وسط أغلبية تحيط بهم قد دفعهم للإبقاء على الجاهزية القتالية المستمرة . تلك الجاهزية التي تُمكنهم من القتال لمدة طويلة اعتمادًا على الإعداد الجيد . وتلبية دعوات القتال عندهم لا مجال للتردد فيها . فالقتال في معظمه قائم على التطوع والإحساس بالخطر المحدق والطاعة العسكرية للأمير أمر واجب . لذا بإمكان الأمير أو القائد زجهم في القتال لفترات طويلة لأسباب شخصية، والتمرد في صفوفهم شبه معدوم، وحسم المعركة قضية إستراتيجية للاستمرارية والبقاء.

١٣.للإسراف والبذخ عند الدروز وظيفة اجتماعية مرتبطة بالهيبة. وقد نفْهم صفة الكرم والنبل ضمن هذا الإطار. وحماية الضيف والمستجير قضية أساسية ارتبطت بالهيبة والسمعة والمكانة، وهي قضية اتفق عليها الرحالة الغربيون.

١٤.بغض النظر عما أورده الرحالة الغربيون من معلومات غير دقيقة أحيانًا، فإن كتبهم تضمنت معلومات أخرى يُمْكن الاسترشاد بها لفهم كثير من المعالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وفهم العلاقة بين الطوائف المختلفة. وهي مصدر رئيس عند الكتابة عن الدروز في التاريخ الحديث.

الهوامش:

١. طائفة من الشيعة الإمامية ينتسبون إلى «إسماعيل بن جعفر الصادق»، ويتفقون مع الإثني عشرية في الأئمة إلى «جعفر الصادق» ومن بعده ابنه «موسى الكاظم»./ انظر: أبو زهرة ، محمد. تاريخ المذاهب الإسلامية. (القاهرة،دار الفكر ، ط١، ب .ت) ، الجزء الأول (في السياسية والعقائد) ، ص٦٣– ٦٤ . وسيشار إليه: أبو زهرة، تاريخ المذاهب./ للمزيد انظر: علم الدين، سليمان. تذكر يا مروان: المدارس الفكرية والتيارات السياسية ودعوة التوحيد الدرزية. (بيروت ، دار نوفل للنشر، ط١، ١٩٩٨م) ، ص٢٧. وسيشار إليه: علم الدين، المدارس الفكرية.

٢. هو أبو علي المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي الملقب بالحاكم بأمر الله./ انظر: عنان، محمد . الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية. (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ط٢، ١٩٨٣م) ، ص ٨٦– ٩٥ . وسيشار إليه: عنان، الحاكم بأمر الله.

٣. البعيني، حسن أمين. دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠– ١٩٤٣م: دراسة في تاريخهم السياسي والمذهبي. (بيروت، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ط١، ١٩٩٣م) ،ص٣١– ٣٢.وسيشار إليه: البعيني، دروز سوريا ولبنان

٤. من أصل فارسي، والدرزي كلمة فارسية معناها خياط./ انظر: زهر الدين،صالح. تاريخ المسلمين الموحدين الدروز. (بيروت، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ط٢ ،١٩٩٤م)، ص٣٧.وسيشار إليه: زهر الدين، تاريخ.

٥. بين دمشق وبانياس ، وسمي كذلك نسبة إلى قبائل تُنْتسب إلى تيم الله بن ثعلبة./ انظر: فرو، قاسم. الدروز: من هم وما قيل فيهم بالقرن العشرين. (جنين، مطبعة السلام، ط١ ، ١٩٧٨م) ، ص١٠. وسيشار إليه: فرو، الدروز

٦. ولد سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م في مدينة زوزن في خراسان، وأغلب الظن أنه نشأ فيها إلى أن قارب العشرين من عمره، ثم هاجر إلى مصر والتحق بدار الخلافة فعُرف بحمزة الفاطمي./ انظر: أبو صالح، عباس، ومكارم سامي. تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي. (بيروت، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، ط٢ ، ١٩٨١م)، ص ٦٠– ٦١. وسيشار إليه: أبو صالح ومكارم، تاريخ الموحدين.

٧. زهر الدين، تاريخ، ص٢٧،ص ٣٠/. انظر: أبو صالح ومكارم، تاريخ الموحدين، ص ٦٣– ٦٤.

٨. راجع بهذا الشأن: تشرشل، تشارلز. بين الدروز والموارنة: في ظل الحكم التركي من ١٨٤٠– ١٨٦٠م ترجمة فندي الشعار. (بيروت، دار المروج للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٤م) ، ص ١٦– ١٧. وسيشار إليه: تشرشل ، بين الدروز والموارنة.

٩. الظاهر لأعز دين الله أبو الحسن علي. امتد حكمة من (٤١١- ٤٢٧ هجري) ./ انظر: العبادي، أحمد مختار. في التاريخ العباسي والفاطمي. (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١، ١٩٩٣م) ، ص ٢٩٤- ٢٩٥. وسيشار إليه: العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي.

١٠. المرجع نفسه ،ص٣٢.

١١. المرجع نفسه ،ص٢٤.

١٢. قائد الجيش الفاطمي في معركة الأقحوانه ١٠٢٩ م./ انظر: أبو صالح، ومكارم، تاريخ، ص٧٧.

١٣. طائفة من الشيعة الإمامية منتشرة في أقاليم متفرقة من البلاد العربية ووسط إفريقيا وجنوبها والهند وباكستان./ انظر: أبو زهرة، تاريخ المذاهب،ج١ ، ص٦٣- ٦٤ ./ للمزيد أنظر: علم الدين ، المدارس الفكرية،ص٢٤

١٤. البعيني ، دروزسوريا ولبنان ،ص٢٤

١٥. المرجع نفسه ، ص٣٢

١٦. المرجع نفسه ، ص٥١- ٥٤

١٧. المرجع نفسه ،ص٨٢

١٨. Henry Maundrell (1665–1701): ولد عام ١٦٦٥م وتوفي عام ١٧٠١م. أكاديمي انجليزي ذو خلفية دينية. تَنقّل بين حلب والقدس ووصف الأماكن الواردة في الكتاب المقدس./ انظر : Henry Maundrell

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Henry_Maundrell

١٩. Mandrel, Henry. A Journey from Aleppo to Jerusalem, at Easter, A.D. 1697. S. G. Simpkins: Boston, 1836. pp65- 66

وسيشار إليه: Mandrel , A Journey from Aleppo to Jerusalem

٢٠. Ibid,pp 32- 34

٢١. François- René, vicomte de Chateaubriand (1768 –1848) : كاتب ودبلوماسي وروائي فرنسي. يُعْتبر مؤسس الحركة الرومانسية في الأدب الفرنسي. زار مناطق عدة./ أنظر: François- René de Chateaubriandhttp:

// en.wikipedia.org/ wiki/ Fran%C3%A7ois- Ren%C3%A9_de_Chateaubriand

٢٢. Vicomte, François- René Chateaubriand. Travels to Jerusalem and the Holy Land: through Egypt and the Holy Land. Translated from the French by Frederic Shoberl. H. Colburn, London, 1835,p31

وسيشار إليه: Vicomte, Travels to Jerusalem

٢٣. Giovanni Mariti: رجل دين ورحالة ايطالي. زار قبرص وسوريا وفلسطين، ونشر نتاج رحلاته عام ١٧٦٩م ./ انظر: Giovanni Mariti

www.cyprusexplorer.globalfolio.net/ eng/ bibliography/ .../ mariti/ index.php

٢٤.. Mariti, Giovanni Travels through Cyprus, Syria, and Palestine with a General History of the Levant. Translated from the Italian .vol, 1. Printed for P. Byrne. Dublin, 1792,p255

وسيشار إليه: Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine

٢٥. Robert Heron (1764 –1807) كاتب ورحالة سكوتلندي، عمل أستاذًا ومترجمًا من اللغة الفرنسية./ أنظر: Robert Heron

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Robert_Heron

٢٦. Benjamin of Tudela Hebrew: בִּנְיָמִין מִטּוּדֶלָה binjamin mitudela], pronounced [,]:

رحالة يهودي من القرون الوسطى زار أوروبا وأسيا وأفريقيا، وبدأ رحلته من اسبانيا عام ١١٦٥م./ أنظر: Benjamin of Tudela

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Benjamin_of_Tudela

٢٧. Heron, Robert. A collection of Late Voyages and Ttravels: Chiefly Translated and Abridged from the French and other Foreign Bublications of Niebuhr, Mariti, Beauchamp, &c.The Whole Forming A Body of Important and A musing Information, Concerning the Present State of Society and manners, of arts and ...Published by Watson and Co., London, 1797. pp 238- 239

وسيشار إليه: Heron, A collection of Late Voyages and Ttravels

٢٨. Johann Ludwig (also known as John Lewis, Jean Louis) Burckhardt 1784 - 1817 : جوهان لودوينج، (جون لويس أو جين لويس) بيركهاردت. رحالة ومستشرق سويسري ولد عام ١٧٨٤م وتوفي عام ١٨١٧م./ انظر:

Johann Ludwig Burckhardt

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Johann_Ludwig_Burckhardt

٢٩. Burckhardt, John Lewis. Travels in Syria and the Holy Land. Published by the Association for Promoting the Discovery of the Interior. Plain Label Books .London, 1823, p88

وسيشار إليه : Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land

٣٠. Laurence Oliphant (1829 - 1888): مغامر وسياسي استعماري بريطاني، نشر

كتابين عن فلسطين هما أرض جلعاد وحيفا ./ عوض، عبد العزيز. مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث (١٨٣١– ١٩١٤) . (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٣) ، ص ٧٠ ، وسيشار إليه: عوض، مقدمة

٣١. Oliphant. Laurence.Memoir of the Life of Laurence Oliphant and of Alice Oliphant, His Wife.Ayer Publishing, New York, 1976,p242

وسيشار إليه : Oliphant , Memoir

٣٢. (Wilson, William Rae) 1772–1849 : رحالة سكوتلندي مشهور. ولد في بياسلي عام ١٧٧٢م. أظهر اهتمامًا بالرحلات والاستكشافات في فلسطين/ . أنظر

William Rae Wilson

http: // www.electricscotland.com/ history/ other/ wilson_william.htm

٣٣. Wilson, William Rae. Travels in Egypt and the Holy Land. Longman, Brown, Green, and Longmans, London, 1824,p483

وسيشار إليه: Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land

٣٤. (1829 –1900) Charles Dudley Warner : كاتب أمريكي من ومواليد ماساتشوستس، درس الحقوق في جامعة بنسلفانيا ،وعمل محررًا لإحدى الصحف ورئيسًا للمعهد الوطني للفنون والآداب./ أنظر: Charles Dudley Warner

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Charles_Dudley_Warner

٣٥. Warner, Charles Dudley. In the Levant, Travels in Palestine, Lebanon and Syria. Gorgias Press LLC.U.S.A, 2002,p258

وسيشار إليه: Warner, In the Levant

٣٦. ((Richard Bockocke (1704- 1764): مسْتشرق إنجليزي وعالم بالكتاب المقدس./ انظر: بدوي، عبد الرحمن. موسوعة المستشرقين. (بيروت، دار العلم للملايين، ط٢ ١٩٨٩) ، ص٩٠. وسيشار إليه: بدوي، موسوعة.

٣٧. Falah, Salman. History of the Druze Settlements in Palestine during the Ottoman Period in: Moshe Ma’oz (Editor) , Studies on Palestine during the Ottoman Period. The Magnes Press, Jerusalem., 1975, pp 32- 34

وسيشار إليه: Falah, History of the Druze Settlements

٣٨. (1757- 1820) Constantin François de Chasseboeuf, comte de Volney: مؤرخ وفيلسوف ومستشرق فرنسي ولد عام ١٧٥٧م وتوفي عام ١٨٢٠ م. أظهر اهتمامًا بالتاريخ واللغات. زار مصر وسوريا./ انظر:

Constantin- François Chasseboeuf

http://en.wikipedia.org/wiki/Constantin-Fran%C3%A7ois_Chasseb%C5%93uf

٣٩. Volney, Constantin. Travels through Syria and Egypt, in the years 1783, 1784, and 1785: Containing the Present Natural and Political state of those Countries, their Productions, Arts, manufactures, and Commerce, with Observations on the Manners, Customs, and Government of the Turks and Arabs. Translated from the French in two volumes vol, 2, G.G.J, and J.Robinson London , 1788,pp 44- 45

وسيشار إليه: Volney, Travels through Syria and Egypt

٤٠. فخر الدين المعني الثاني: أمير عربي امتدت سلطته من حدود حلب إلى لبنان فحدود القدس غربًا. وهو ابن قرقماز بن فخر الدين الأول./ انظر: الكيالي، موسوعة السياسية، ج٤، ص ٤٧٥.

٤١. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol 2,pp 44- 45

٤٢. Hitti, Philip. Origins of the Druze People and Religion (with extracts from their sacred writings) . Published by Forgotten Books, Charleston, South Carolina, 1928,pp30- 31

وسيشار إليه : Hitti, Origins of the Druze People

٤٣. زهر الدين ، تاريخ ، ص٧٨

٤٤. Max Freiherr von Oppenheim (1860- 1946): مؤرخ وعالم آثار ألماني ولد عام ١٨٦٩م وتوفي عام ١٩٤٦م. انضم في الحرب العالمية الأولى إلى المخابرات الألمانية (قسم الشرق) ./ انظر: Max Freiherr von Oppenheim

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Max_von_Oppenheim

٤٥. Carsten Niebuhr or Karsten Niebuhr (1815– 1733): عالم رياضيات ورسام خرائط ومستكشف ألماني. قام بتكليف من فردريك الخامس ملك الدينمارك بمهمة استكشافية في مصر والجزيرة العربية وسوريا ./ انظر:

Carsten Niebuhr or Karsten Niebuhr

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Carsten_Niebuhr

٤٦. Hitti, Origins of the Druze People,pp30- 31

٤٧. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land ,p200

٤٨. George Livingston Robinson (1863 – 1958): مؤلف وعالم بالكتاب المقدس . سافر إلى أوروبا والشرق.حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة برلين في موضوع

اللغات القديمة،وشغل وظائف عدة منها وظيفة في كلية بيروت./ أنظر

Georg Livingston Robinson

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ George_Livingston_Robinson

٤٩. Robinson, George. Travels in Palestine and Syria, vol 2. Henry Colburn publishers, London,1837,p272

وسيشار إليه: Robinson, Travels in Palestine and Syria

٥٠. William McClure Thomson (1806- 1894): رجل دين أمريكي.درس في المدرسة اللاهوتية في جامعة برينستون. أُرسل مبشرًا إلى سورية وفلسطين ./ أنظر:

William McClure Thomson

http: // en.wikipedia.org/ w/ index.php?title=Special%3ASearch&search=William+McClure+Thomson

٥١. Thomson ,William . The Land and the Book, or, Biblical illustrations drawn from the Manners and Customs, the Scenes and Scenery of the Holy Land, T. Nelson, London,1861,p169

وسيشار إليه: Thomson , The Land and the Book

٥٢. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol 2,pp33- 34

٥٣. Felix Ritter von Luschan (1854 – 1924): طبيب،أنثربولوجي،مستكشف،عالم آثار. ولد في النمسا عام ١٨٥٤م وتوفي في برلين عام ١٩٢٤م./ أنظر

Felix Ritter von Luschan

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Felix_von_Luschan

٥٤. Hitti, Origins of the Druze People, pp30- 31

٥٥. Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land,pp481- 482

٥٦. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine,vol, 1, p255

٥٧. Ibid, p255,p255

٥٨. Tristram, Henry Baker (1822–1906) : رجل دين ، وباحث في الكتاب المقدس، ورحالة انجليزي. ولد عام١٨٢٢ م وتوفي عام ١٩٠٦م./ انظر:

:Henry Baker Tristram

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Henry_Baker_Tristram

٥٩. Tristram, Henry. The land of Israel: a Journal of Travels in Palestine, Undertaken with Special Reference to its Physical Character. Gorgias Press LLC. Piscataway, U.S.A.,1882,p113

وسيشار إليه: Tristram ,The land of Israel

٦٠. Edward Daniel Clarke (1769- 1822) : رحالة بريطاني، وأستاذًا في علم المعادن في جامعة كمبردج. بدأ كلارك رحلته من جزيرة قبرص في أيار ١٨٠١./ انظر: جرار ، صلاح. قلعة صانور وتاريخ آل جرار (صور من مشاهدات الرحالة في القرنين الثامن عش والتاسع عشر). أعده وترجم نصوصه الدكتور صلاح جرار. (عمان ، دار المأمون للنشر والتوزيع ،ط١ ، ٢٠١٠) ،ص ٤٧ ، وسيشار إليه: جرار ، قلعة

٦١. Clarke, Edward. Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa Communsing, January 1, 1801. Published by Whiting and Watson, New York.,1813,pp224- 226

وسيشار إليه: Clarke, Travels in Various Countries

٦٢. Gertrude Margaret Lowthian Bell (1868 –1926) : كاتبة،رحالة،محللة سياسية، عالمة آثار انجليزية. ولدت عام ١٨٦٨م وتوفيت عام ١٩٢٦م.التحقت بالجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى./ انظر:

Gertrude Margaret Lowthian Bell

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Gertrude_Bell

٦٣. Bell ,Gertrude. the Arabian Diaries (1913- 1914) : Contemporary issues in the Middle East. Edited by Rosemary. Syracuse University Press. Syracuse, New York,2000,p152

وسيشار إليه: Bell, the Arabian Diaries

٦٤. أبو صالح ومكارم،تاريخ،ص١٦

٦٥. Benjamin of Tudela,The Itinerary of Benjamin of Tudela. BiblioBazaar, LLC, Charleston, SC, U.S.A,2009, ,vol,2p37

وسيشار إليه : Benjamin of Tudela, The Itinerary of Benjamin

٦٦. Benjamin of Tudela , the itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vol 2. ,p73

٦٧. Volney, Travels through Syria and Egypt,vol,2,p38

٦٨. Ibid,p43

٦٩. Ibid, PP,292- 295

٧٠. Ibid,p43

٧١. Ibid.P302

٧٢. Maundrell , A Journey from Aleppo to Jerusalem,p73

٧٣. Ibid- pp67- 69

٧٤. Tristram, The land of Israel,p7

٧٥. Ibid,p,18 ,p23.p.25

٧٦. Ibid,p610

٧٧. Ibid,p588

٧٨. Ibid,pp112- 114

٧٩. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p26

٨٠. Ibid,pp 32- 33

٨١. Ibid,pp 32- 33-

٨٢. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p 205-

٨٣. Ibid,p218-

٨٤. (Eli Smith) 1801- 1857 : عالم ومبشر أمريكي ولد في نورثفورد وتخرج من جامعة ييل عام ١٨٢١م. عمل في مالطا حتى العام ١٨٢٩م، ومن ثم زار أرمينيا وجورجيا وفارس واستقر في بيروت عام ١٨٣٣م حيث قام مع ادوارد روبنسون برحلة إلى الأراضي المقدس ./ أنظر: Eli Smith

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Eli_Smith

*: (-1794 1863) Edward Robinson أمريكي ،عالم بالكتاب المقدس وعرف بأب الجغرافيا التوراتية/ أنظر: Edward Robinson

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Edward_Robinson_%28scholar%29

٨٥. Robinson, Edward& Smith, Eli. Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea: A Journal of Travels in the year 1838, vol, 1.Published by Crocker & Brewster, Boston,1841, ,PP 365- 366

وسيشار إليه : ،Biblical Researches, Smith& Robinson

٨٦. Ibid, PP274- 276

٨٧. Ibid,PP337- 338

٨٨. Ibid,PP 380- 397

٨٩. Ibid,p75

٩٠. Robinson, Travels in Palestine and Syria, ,PP 13- 14

٩١. Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land.pp 481- 483

٩٢. James Silk Buckingham (1855 - 1786) : مؤلف ورحالة انجليزي. تعليمه محدود . أمضى شبابه بالبحر وانتهى به الأمر إلى الاستقرار في الهند حيث أسس مجلة كالكوتا. طُرد من الهند لكن ذلك لم يمنعه من إكمال مشاريعه الصحفية.زار

أوروبا وأمريكا والشرق./ انظر: James Silk Buckingham

http: // en.wikipedia.org/ wiki/ James_Silk_Buckingham

٩٣. Buckingham, Travels among the Arab Tribes,P66

٩٤. Ibid, P 189

٩٥. Van Egmont, &Heyman , Travels, Vol 2, P 294

٩٦. Mariti , Travels through Cyprus, Syria, and Palestine.Vol, 1,P 252

٩٧. Ibid,PP 256- 257

٩٨. Clarke, Travels in Various Countries,PP224- 225

٩٩. لفظ أطلقه بعض المستشرقين ممن لا يعترفون بالدين الإسلامي على المسلمين./ انظر: الخطيب، مصطفى. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦م) ،وسيشار إليه: الخطيب، معجم.

١٠٠. Benjamin of Tudela .The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vol 2. Translated and edited by A. Asher .Hakesheth pub. New York, 1841,p37, p 62,p81

وسيشار إليه : Benjamin of ,The Itinerary of Rabbi Benjamin

١٠١. فرقة شيعية تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق./ انظر، الخطيب، معجم، ص٣٠/ الحفني، عبد المنعم. موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الاسلاميه. (القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٢ ١٩٩٩م) ،ص٥٩ ، وسيشار إليه: الحفني ، موسوعة .

١٠٢. فرقة شيعية تُنْسب لرجل اسمه محمد بن نصير النمري أو النميري من أهل القرن الثالث الهجري./ انظر: الخطيب، معجم، ص٤٢٣.

١٠٣. Benjamin of Tudela ,The Itinerary of Rabbi Benjamin,vol,2p78

١٠٤. انظر: عاقل، نبيه. تاريخ خلافة بني أميه. (دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٥،٢) ، ص ٢٠– ٣٠، وسيشار إليه: عاقل، تاريخ.

١٠٥. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol 2,pp35- 38

١٠٦. Van Egmont, J Aegidius & Heyman, Joh.Travels through Part of Europe, Asia Minor, the Islands of the Archipelago, Syria, Palestine, Egypt, Mount Sinai, etc. Vol 2, printed for L. Davis and C. Reymers, London, 1759.pp296- 297

وسيشار إليه : Van Egmont, &Heyman , Travels

١٠٧. Burckhardt, Travels to Jerusalem and the Holy Land, ,pp 200- 201

١٠٨. Ibid,pp 15 1- 152

١٠٩. المركز الديني للعقال الدروز./ انظر زهر الدين، تاريخ، ص٤٧ .

١١٠. هم أولئك الذين أَلموا بأمور الدين ولازموا الصلاة التي تُتْلى ليلة الجمعة من كل أسبوع./ انظر: زهر الدين، تاريخ ، ص٤٥.

١١١. Burckhardt, Travels to Jerusalem and the Holy Land ,p304

١١٢. Robinson, & Smith, Biblical Researches, PP 381- 382

١١٣. أطلق الدروز على كتبهم المقدسة اسم كتب العقيدة (الحكمة) ./ انظر: زهر الدين، تاريخ، ص ٥٧– ٥٨

١١٤. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine,vol, 1p253- 254

١١٥. Clarke, Travels in Various Countries, ,p244

١١٦. Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land,pp484- 486

١١٧. يرفض الدروز ذلك ،ويؤكدون على إيمانهم بفكرة التقمص التي تُعْتبر من الدعائم الأساسية عندهم/ انظر: زهر الدين ، تاريخ ،ص ٥٩ ، ص ٦٢.

١١٨. Buckingham, James Silk. (1825) . Travels among the Arab Tribes Inhabiting the Countries east of Syria and Palestine. Printed by A& R. Spottiswood S, London,1825,pp246- 247

وسيشار إليه: Buckingham, Travels among the Arab Tribes:

١١٩. Mandrel, A Journey, p69

١٢٠. Robinson, Travels in Palestine and Syria, ,pp11- 12

١٢١. Thomson , The Land and the Book,p292-

١٢٢. Tristram ,The land of Israel,p588

١٢٣. اوليفانت، أرض جلعاد ،ص٣٦٧– ٣٧٠

١٢٤. Warner, In the Levant,p259

١٢٥. زهر الدين، تاريخ ، ص ٥٥

١٢٦. يرْفض الدروز ذلك ،ويؤكدون أن الموضوع لا يخرج عن كونه أن الدروز يقدسون ليلة الجمعة لأنها تمثل رمزًا عظيمًا في ترسيخ جذور المبدأ ومبادئه/ انظر: زهر الدين، تاريخ ، ص ١٩، ص٥٥

١٢٧. Volney, Travels through Syria and Egypt,vol,1 ,p64

١٢٨. Ibid, pp64- 66

أنظر: Van Egmont, & Heyman ,Travels pp296- 297 ,vol,2

١٢٩. Robinson, travels in Palestine and Syria, vol 2,pp11- 13
١٣٠. Ibid, vol 2,pp11- 13
١٣١. Ibid,, vol 2,pp11- 13
١٣٢. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,p304
١٣٣. Ibid,pp202- 203
١٣٤. Colonel Charles Henry Spencer- Churchill (1828 –1877): ضابط ودبلوماسي بريطاني في سوريا في ظل الحكم العثماني. كان من أوائل من وضع خطة صهيونية لإقامة دولة يهودية في فلسطين. انظر: Charles Henry Churchill
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Charles_Henry_Churchill
١٣٥. تشرشل ، تشارلز. جبل لبنان: عشر سنوات إقامة: ١٨٤٢– ١٨٥٢ م.ترجمة فندي الشعار. (بيروت ،شركة المطبوعات الشرقية، ط١ ، ١٩٨٥م) ،ج٢،ص٢٦ ،وسيشار إليه: تشرشل ، جبل لبنان، ص٢٦
١٣٦. المصدر نفسه،ج٢،ص٢٦
١٣٧. المصدر نفسه ،ج٢،ص٤٦
١٣٨. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p203
١٣٩. Tristram, The land of Israel,p21,p113-
١٤٠. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol 2, pp65- 66
١٤١. تشرشل ، جبل لبنان ، ج٢،ص٣٠
١٤٢. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine,.vol,1.,p257
١٤٣. أوليفانت، أرض جلعاد ، ص ٣٦٠
١٤٤. تشرشل ، جبل لبنان ، ج٢،ص٣٠
١٤٥. أوليفانت، أرض جلعاد ، ص ٣٨٦
١٤٦. المصدر نفسه ، ص ٣٨٧
١٤٧. المصدر نفسه ، ص٣٨٦
١٤٨. المصدر نفسه ، ص ٣٨٥
١٤٩. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol, 1, pp70- 74,p314
١٥٠. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine, vol, 1,p256
١٥١. Volney, Travels through Syria and Egypt,vol,1pp72- 74
١٥٢. Ibid, p76

١٥٣. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine, vol, 1,p256
١٥٤. Ibid,vol, 1,p78
١٥٥. تشرشل ، جبل لبنان ، ج٢،ص٢٦
١٥٦. Volney, Travels through Syria and Egypt,vol,1p78
١٥٧. Ibid ,p74- 75
١٥٨. Ibid ,p76
١٥٩. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, pp208
١٦٠. Ibid,p218
١٦١. Ibid,pp203- 204
١٦٢. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, pp208,p205
١٦٣. Ibid,p205
١٦٤. ,Ibidpp201- 202
١٦٥. Tristram, The land of Israel.p18
١٦٦. Heron , A collection of late voyages and travels,pp238- 239
١٦٧. Buckingham, Travels among the Arab Tribes,p265
١٦٨. Robinson, Travels in Palestine and Syria, pp11- 13
١٦٩. Van Egmont, & Heyman ,Travels, vol 2,p295
١٧٠. أوليفانت، أرض جلعاد ، ص ٣٨٦
١٧١. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, pp202
١٧٢. Van Egmont, & Heyman , Travels, Vol 2,p 316
١٧٣. Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land, pp483- 484
١٧٤. Mariti, Travels through Cyprus, Syria, and Palestine. vol, 1,pP256
١٧٥. Heron , A collection of late voyages and travels,pp238- 239
١٧٦. Clarke, travels in various countries of Europe, Asia, and Africa,p252
١٧٧. أوليفانت ، أرض جلعاد ، ص ٣٤٠
١٧٨. المصدر نفسه ، ص ٣٤١– ٣٤٣
١٧٩. المصدر نفسه ، ص ٣٤١– ٣٤٣
١٨٠. المصدر نفسه ، ص ٣٤١– ٣٤٣
١٨١. تشرشل ، جبل لبنان ،ج٢، ص ٤٦
١٨٢. Benjamin of ,The Itinerary of Rabbi Benjamin ,vol 2 ,p37, p 62,p81

١٨٣. Wilson, Travels in Egypt and the Holy Land,pp491- 492
١٨٤. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,p258
١٨٥. .Tristram, The land of Israel ,p21
١٨٦. Mariti , Travels through Cyprus, Syria, and Palestine.vol, 1.,p257
١٨٧. تشرشل، جبل لبنان ،ج٢، ص٢٧
١٨٨. المصدر نفسه
١٨٩. المصدر نفسه
١٩٠. المصدر نفسه
١٩١. المصدر نفسه
١٩٢. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,pp202
أنظر: تشرشل ، جبل لبنان ،ج٢، ص٢٧/ أنظر: أوليفانت، أرض جلعاد ، ص ٣٨٦
١٩٣. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,pp202
١٩٤. أوليفانت، أرض جلعاد ، ص ٣٨٦/ . أنظر: تشرشل ، جبل لبنان ،ج٢، ص ٢٧– ٢٩
١٩٥. Mariti , Travels through Cyprus, Syria, and Palestinene.vol,1,pp257- 258
١٩٦. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p 303
١٩٧. Robinson, travels in Palestine and Syria, vol 2, London,p10
١٩٨. أوليفانت ، أرض جلعاد ، ص ٣٦٣
١٩٩. Volney, Travels through Syria and Egypt, Vol, 2, ,p70- 71
٢٠٠. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,p26
٢٠١. Ibid,p204
٢٠٢. Van Egmont, &Heyman , Travels, Vol 2.p316
٢٠٣. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, p304
٢٠٤. Van Egmont, &Heyman , Travels, Vol 2.p316
٢٠٥. .Thomson, The land and the book,p193
٢٠٦. اوليفانت ، أرض جلعاد، ص ٣٥٧
٢٠٧. المصدر نفسه،ص٣٦٢
٢٠٨. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,pp6- 7
٢٠٩. Ibid,p21
٢١٠. Ibid,p77
٢١١. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, pp6- 7

٢١٢. Ibid,p25
٢١٣. Ibid,p32
٢١٤. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, ,p218
٢١٥. Ibid,p252
٢١٦. Ibid,p303
٢١٧. Clarke, travels in various countries,p874
٢١٨. Tristram, The land of Israel.p113
٢١٩. Volney, Travels through Syria and Egypt,. Vol, 1, p319
٢٢٠. Ibid,p64
٢٢١. Ibid,pp72- 73
٢٢٢. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol, 2, , p 190
٢٢٣. Ibid,244
٢٢٤. Ibid,pp73- 74
٢٢٥. Ibid,p383
٢٢٦. Ibid,p389
٢٢٧. Robinson, travels in Palestine and Syria, vol 2,p169
٢٢٨. Van Egmont, &Heyman , Travels, vol 2 ,p294
٢٢٩. Ibid,p295
٢٣٠. Benjamin of Tudela (2009) , the Itinerary of Benjamin of Tudela. Vol 2, p37
٢٣١. بيجيه، جبل العرب،ص ١٠٠– ١٠١
٢٣٢. المصدر نفسه، ص ١٤٣
٢٣٣. Benjamin of Tudela (2009) The Itinerary of Benjamin of Tudela. Vol 2,p37
٢٣٤. Robinson, travels in Palestine and Syria, vol 2,P14
٢٣٥. Van Egmont, & Heyman , Travels, Vol 2, vol, 2, ,P 295
٢٣٦. Volney, Travels through Syria and Egypt, vol, 2, p43
٢٣٧. Ibid,pp67- 69
٢٣٨. Ibid,p69
٢٣٩. Ibid ,pp70- 71
٢٤٠. Ibid ,pp70- 71
٢٤١. أوليفانت، أرض جلعاد، ص٣٥١– ٣٦١
٢٤٢. المصدر نفسه، ص ٣٥٢

المصادر والمراجع:

أولاـ المراجع العربية:

١. أوليفانت، لورنس .أرض جلعاد (رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين ١٨٨٠) .ط١. ترجمة وتعريب: احمد عويدي العبادي. (عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤) .

٢. بدوي، عبد الرحمن. موسوعة المستشرقين. (بيروت، دار العلم للملاين، ط١٩٨٩، ٢) .

٣. البعيني، حسن أمين. دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠– ١٩٤٣م: دراسة في تاريخهم السياسي والمذهبي (بيروت، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ط١٩٩٣، ١) .

٤. بيير، بيجيه ده سان ،الدولة الدرزية. ترجمة حافظ أبو مصلح . (بيروت، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٣م) .

٥. الترابي، جميل، من هم الموحدون الدروز: نشأتهم– أشهر أعلامهم. (دمشق ، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ٢٠٠٣م) .

٦. تشرشل ، تشارلز. بين الدروز والموارنة: في ظل الحكم التركي من ١٨٤٠– ١٨٦٠م ترجمة فندي الشعار. (بيروت، دار المروج للطباعة والنشر، ط١٩٨٤، ١) .

٧. تشرشل ، تشارلز. جبل لبنان (عشر سنوات إقامة: ١٨٤٢– ١٨٥٢ م) .ج٢ ،ترجمة فندي الشعار. (بيروت ،شركة المطبوعات الشرقية (دار المروج) ، ط١ ، ١٩٨٥) .

٨. الدباغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. الجزء الأول، القسم الأول. (بيروت، دار الطليعة. ط٤، ١٩٨٨) .

٩. أبو حجر، آمنه. موسوعة المدن والقرى الفلسطينية. (عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣) .

١٠. الحفني، عبد المنعم . موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الاسلاميه. (القاهرة، مكتبة مدبولي ط١٩٩٩، ٢) .

١١. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن أبي عبد الله. معجم البلدان . (بيروت، دار صادر، (ب.ط) ، ١٩٧٧) .

١٢. الخطيب، مصطفى.معجم المصطلحات والألقاب التاريخية. (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦م)

١٣. زهر الدين ،صالح. تاريخ المسلمين الموحدين الدروز (. بيروت، المركز العربي للأبحاث

والتوثيق، ط٢ ،١٩٩٤م) .

١٤. أبو زهرة، محمد.تاريخ المذاهب الإسلامية. الجزء الأول (في السياسية والعقائد) . (القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ب. ت) .

١٥. شربل، كمال. الموسوعة الجغرافية للوطن العربي. (بيروت، دار الجليل، ط١٩٩٨،١) .

١٦. صالح،شكيب. الدروز والتاريخ (بيروت، مطبعة الشرق العربية، ط١٩٧٩،١) .

١٧. أبو صالح، عباس، ومكارم، سامي، تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي. (بيروت، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، ط٢ ،١٩٨١) .

١٨. عاقل، نبيه. تاريخ خلافة بني أميه. (بيروت، دار الفكر، ط١٩٧٥،٢م) .

١٩. العبادي، احمد مختار .في التاريخ العباسي والفاطمي. (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١ ١٩٩٣م) .

٢٠. عراف، شكري.المواقع الجغرافية في فلسطين (الأسماء العربية والتسميات العبرية) . مراجعة إلياس شوفاني. (بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط٢٠٠٤،١) .

٢١. علم الدين، سليمان. تذكر يا مروان: المدارس الفكرية والتيارات السياسية ودعوة التوحيد الدرزية. (بيروت، دار نوفل للنشر، ط١٩٩٨،١) .

٢٢. أبو عز الدين، نجلاء. الدروز في التاريخ . (بيروت، دار العلم للملايين، ط١٩٩٠،٢) .

٢٣. العبادي، أَحمد مختار، في التاريخ العباسي والفاطمي. (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط١٩٨٣،١) .

٢٤. عنان، محمد عبد الله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية. (القاهرة ،مكتبة الخانجي ، ط٢، ١٩٨٣) .

٢٥. عوض، عبد العزيز. مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث (١٨٣١- ١٩١٤) . (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٣) .

٢٦. فوك، يوهان. تاريخ حركة الاستشراق. (الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين) . نقلة عن الألمانية عمر لطفي العالم. (بيروت، دار المدار الإسلامي، ط٢٠٠٢،٢) .

٢٧. الكيالي، عبد الوهاب. موسوعة السياسة. (كفر قرع ، دار الهدى للنشر والتوزيع، د،ط ، ب.ت) .

٢٨. مراد، يحيى. معجم أسماء المستشرقين. (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٤م) .

٢٩. أبو النيل، محمد عبد السلام ، بنو إسرائيل في القرآن الكريم. (الكويت، مكتبة الفلاح، ط٢٠٠٣،١) .

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. *Bell,Gertrude. The Arabian Diaries (1913- 1914) : Contemporary issues in the Middle East. Edited by Rosemary. Syracuse University Press. Syracuse, New York. 2000.*
2. *Benjamin of Tudela.The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vol 2. Translated and edited by A. Asher .Hakesheth pub. New York. 1841.*
3. *Benjamin of Tudela . The Itinerary of Benjamin of Tudela. vol,2 BiblioBazaar, LLC, Charleston, SC, U.S.A. 2009*
4. *Buckingham, James Silk. Travels among the Arab Tribes Inhabiting the Countries east of Syria and Palestine. Printed by A& R. Spottiswood S, London. 1825.*
5. *Burckhardt, John Lewis. Travels in Syria and the Holy Land. Published by the Association for Promoting the Discovery of the Interior. Plain Label Books .London. 1823.*
6. *Clarke, Edward. Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa Communsing, January 1, 1801. Published by Whiting and Watson, New York. 1813.*
7. *Falah, Salman. History of the Druze Settlements in Palestine during the Ottoman Period in: Moshe Ma'oz (Editor) , Studies on Palestine during the Ottoman Period. The Magnes Press, Jerusalem. 1975.*
8. *Heron, Robert. A collection of Late Voyages and Ttravels: Chiefly Translated and Abridged from the French and other Foreign Bublications of Niebuhr, Mariti, Beauchamp, &c.The Whole Forming A Body of Important and A musing Information, Concerning the Present State of Society and manners, of arts and ...Published by Watson and Co., London. 1797*
9. *Hitti, Philip. Origins of the Druze People and Religion (with extracts from their sacred writings) . Published by Forgotten Books, Charleston, South Carolina. 1928.*
10. *Mandrel, Henry. A Journey from Aleppo to Jerusalem, at Easter, A.D. 1697. S. G. Simpkins: Boston. 1836*
11. *Mariti, Giovanni. Travels through Cyprus, Syria, and Palestine with a General History of the Levant. Translated from the Italian .vol, 1. Printed for P. Byrne. Dublin. 1792.*
12. *Oliphant. Laurence.Memoir of the Life of Laurence Oliphant and of Alice Oliphant, His Wife.Ayer,Publishing, New York. 1976*

13. *Robinson, Edward & Smith, Eli. Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea: A Journal of Travels in the year 1838, vol, 1.Published by Crocker & Brewster, Boston. 1841*

14. *Robinson, George. Travels in Palestine and Syria, vol 2. Henry Colburn publishers, London. 1837*

15. *Thomson ,William . The Land and the Book, or, Biblical illustrations drawn from the Manners and Customs, the Scenes and Scenery of the Holy Land, T. Nelson, London. 1861*

16. *Tristram, Henry. The land of Israel: a Journal of Travels in Palestine, Undertaken with Special Reference to its Physical Character. Gorgias Press LLC. Piscataway, U.S.A, 1882*

17. *Van Egmont, J Aegidius,Heyman,John. Travels through Part of Europe, Asia Minor, the Islands of the Archipelago, Syria, Palestine, Egypt, Mount Sinai, etc. Vol 2, printed for L. Davis and C. Reymers, London. 1759*

18. *Vicomte, François- René Chateaubriand. Travels to Jerusalem and the Holy Land: through Egypt and the Holy Land. Translated from the French by Frederic Shoberl. H. Colburn, London. 1835.*

19. *Volney, Constantin. Travels through Syria and Egypt, in the years 1783, 1784, and 1785: Containing the Present Natural and Political state of those Countries, their Productions, Arts, manufactures, and Commerce, with Observations on the Manners, Customs, and Government of the Turks and Arabs. Translated from the French in two volumes vol, 2, G.G.J, and J.Robinson London. 1788.*

20. *Warner, Charles Dudley. In the Levant, Travels in Palestine, Lebanon and Syria. Gorgias Press LLC.U.S.A, 2002*

21. *Wilson, William Rae. Travels in Egypt and the Holy Land. Longman, Brown, Green, and Longmans, London. 1824.*

ثالثا- مواقع انترنت:

1. *Henry Maundrell*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Henry_Maundrell

2. *François- René de Chateaubriand*
http://en.wikipedia.org/wiki/Fran%C3%A7ois-Ren%C3%A9_de_Chateaubriand

3. *Robert Heron*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Robert_Heron

4. *Benjamin of Tudela*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Benjamin_of_Tudela
5. *Johann Ludwig Burckhardt*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Johann_Ludwig_Burckhardt
6. *William Rae Wilson*
http: // www.electricscotland.com/ history/ other/ wilson_william.htm
7. *Charles Dudley Warner*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Charles_Dudley_Warner
8. *Max Freiherr von Oppenheim*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Max_von_Oppenheim
9. *Carsten Niebuhr or Karsten Niebuhr*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Carsten_Niebuhr
10. *Georg Livingston Robinson*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ George_Livingston_Robinson
11. *William McClure Thomson*
http: // en.wikipedia.org/ w/ index.php?title=Special%3ASearch&search =William+McClure+Thomson
12. *Felix Ritter von Luschan*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Felix_von_Luschan
13. *Henry Baker Tristram*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Henry_Baker_Tristram
14. *Edward Daniel Clarke*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Edward_Daniel_Clarke
15. *Gertrude Margaret Lowthian Bell*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Gertrude_Bell
16. *Eli Smith*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Eli_Smith
17. *Edward Robinson*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Edward_Robinson_%28scholar%29
18. *James Silk Buckingham*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ James_Silk_Buckingham
19. *Constantin- François Chassebœuf*
http: // en.wikipedia.org/ wiki/ Constantin- Fran%C3%A7ois_ Chasseb%C5%93uf

تأثير المدرسة المعمارية المحلية
على بناء قبة الصخرة

د. عدنان أحمد أبو دية *

* أستاذ مساعد في الآثار/ قسم التاريخ والآثار/ كلية الآداب/ جامعة الخليل/ الخليل.

ملخص:

يدور الحديث في هذا البحث عن تأثير المدرسة المعمارية المحلية في فلسطين وبلاد الشام على بناء قبة الصخرة، وذلك في مواضيع نموذجية محددة مثل المخطط والمداخل والبوائك، تاركاً العناصر الأخرى إلى بحث آخر وذلك بسبب ضيق عدد الصفحات المسموح بها للنشر في المجلات العلمية. وقد تناول البحث الحديث عن الأصول التي جاءت منها فكرة تلك العناصر المعمارية، وهي عناصر وأفكار معمارية شرقية من بلاد الشام، وبخاصة فلسطين. وفي هذا البحث أيضاً نرد على إدعاءات المستشرقين ومصادرهم فيما يتعلق بالعمال والمهندسين الذين أنجزوا هذا العمل المعماري المتفوق في مرحلة مبكرة من حياة الدولة الإسلامية، حيث تدعي تلك المصادر أن عمالاً من غير العرب هم من أبدعوا هذا العمل. وأن مواد البناء قد جلبت من مبانٍ سابقة على الإسلام دون أن يكون للمسلمين دور كبير في هذا الإبداع الأكثر تألقاً عبر التاريخ الإسلامي كله. والحقيقة التي كشف عنها في هذا البحث هو أن العمال والمهندسين إضافة إلى مواد البناء كلها ذات أصول محلية شرقية شامية، وأن شيئاً من خارج فلسطين لم يُشرك في إنجاز هذا المعلم الكبير، الذي ما زال شاهداً على عظمة تلك المرحلة.

Abstract:

This research paper discus the influence of the local architectural school in the mosque of the Dome of the Rock. In particular subjects Such as plane, entrance, arcades. The other important architectural elements were discussed in other paper. Many western scholars have their own doubts about the origins of those architectural elements in the mosque of the dome of the rock, and their doubts about the employees, the architects, and the place that the artifacts came from. In this research paper we try to respond on all these claims, and to show truth which is depending on scientific debates. Finally we find that all those elements established in the dome of the Rock besides the architects and employees were come from the eastern school of architecture which has its own tradition in the region centuries of years before established the Dome of the Rock.

مقدمة:

ما زال مبنى قبة الصخرة المشرفة يبهر الكثيرين في مستوى العمارة الرفيع الذي يتمتع به، إضافة إلى المستوى العالي من الأعمال الفنية الزخرفية التي تكسي جدرانه الداخلية والخارجية. أما العناصر المعمارية وأصولها داخل مسجد قبة الصخرة فقد كان موضوع بحث سابق تناولنا فيه عشرة من العناصر المعمارية بالوصف والشرح والتحليل والبحث في الأصول التي أُخذت عنها؛ أما هذا البحث فإنه يبحث في العناصر المعمارية وأصولها خارج قبة الصخرة مثل: المخطط والمداخل، والبوائك المنتشرة على أطراف الفناء الخارجي .

وكنت أفضل أن أجعل البحثين في بحث واحد، ولكن عدد الصفحات أصبح كبيراً، مما اضطرني أن أجعلهما بحثين منفصلين، ولكنهما في النهاية يكمل كل منهما الآخر . وفي مكان آخر من البحث تناول الباحث الأصول التي ينتمي إليها العمال والمهندسون الذين أشرفوا ونفذوا هذا العمل المميز، وبخاصة أنه كثر الحديث من قبل المستشرقين على أنهم ربما كانوا من أصول غير عربية، محاولين أن يظهروا العرب والمسلمين سكان المنطقة بأنهم قوم يحسنون صنعة الحرب والقتال، ولا دراية لهم بفنون الحضارة، وبخاصة في بناء معلم بمستوى عمارةٍ وفنونٍ رفيعة مثل قبة الصخرة . كما يرد الباحث في مكان آخر من هذا البحث على القولٍ الذي جاء به المستشرقون أيضاً عن الأصول التي تنتمي لها مواد البناء، حيث إنهم – المستشرقون– قد أكثروا القول في هذا الموضوع دون إيراد الحجج والبينات المادية أو المنطقية، بل كان رأيهم محاولة لتجريد العرب والمسلمين من أي مستوى حضاري، وإلحاق مثل تلك الإنجازات الرفيعة بالحضارة الغربية، دافعهم في ذلك التعصب، وليس البحث العلمي .

أما مصادر المعلومات في هذا البحث فقد كانت تعتمد على الزيارات الميدانية لقبة الصخرة إضافة إلى كتب الرحالة والمؤرخين، والدراسات الحديثة التي تناولت الموضوع بعيداً عن الإنحياز إلا للحقيقة العلمية .

١. المخطط:

قبة الصخرة عبارة عن بناء مثمن الشكل من الخارج، يتوسطه بناء دائري تعلوه قبة نصف كروية (أنظر أشكال رقم١٦، رقم ٢) . طول ضلع المثمن من الخارج (٢٠,٥٩م) وإرتفاع الجدار الخارجي قبل السقف (٩,٥م) . وهذه الجدران يفصلها عن الصخرة الشريفة التي

تتوسط البناء تثمينة خارجية وأخرى داخلية تشكلان رواقان للصلاة . التثمينة الداخلية عبارة عن مجموعة من الأقواس يحملها عدد متناوب من الأعمدة والأكتاف (الأساطين) –سيأتي الحديث عنها لاحقاً– . أما الأقواس المرفوعة على أعمدة وأكتاف وتحيط بالصخرة مباشرة فهي تشكل دائرة تحمل فوقها رقبة القبة. كما أستعمل في سقف المسجد إضافة إلى القبة النصف كروية الرئيسة، أسقف مائلة تغطي أروقة التثمينة الداخلية والخارجية، وهذه الأسقف تفصل بين رقبة القبة من الخارج، وبين أعلى الجدران الخارجية .

ولقبة الصخرة ٥٦ شباكاً موزعة على رقبة القبة وجدران المبنى الخارجية، وله أربعة مداخل في الجهات الأربع، تفضي إلى فناء الصخرة المربع الشكل الذي يُصعد إليه بوساطة ثمانية مراقٍ تعلوها البوائك وتنتشر في جميع الاتجاهات . كما أن فناء الصخرة فيه عدد من القباب والخلوات والمعالم الدينية والتاريخية والثقافية، إضافة إلى آبار الشرب .

بكلمات مختصرة يمكن القول إن مخطط مسجد قبة الصخرة هو عبارة عن بناء ذي صفة مركزية محوط بدائرة من الأعمدة والدعائم، تعلوه قبة مركزية نصف كروية، ويحيط بذلك كله بناء مثمن منتظم الشكل والأبعاد، قوامه رواقان تفصلان ما بين الصخرة والجدار الخارجي.

الأصول:

إن تشكيل البناء الثماني، وفي مركزه قبة يمثل أسلوباً معمارياً كان معروفاً وشائعاً في بلاد الشام [(١)] ، وقد لاقى رواجاً كبيراً في فلسطين بشكل خاص، منذ القرن الأول الميلادي، حيث إزدهر هذا الطراز المعماري بعد الإمبراطور قسطنطين الكبير ليصبح المخطط الهندسي المميز لكثير من المباني ذات الصبغة الدينية المعتبرة في فلسطين وبلاد الشام [(٢)] .

مع ذلك فإنه يوجد هناك بعض المخططات التي لا نقول إنها متطابقة، بقدر ما هي متشابهة مع بناء مسجد قبة الصخرة الحالي. **نذكر منها الآتي**:

♦ **قبة المارينيون في غزة**: وهو الضريح الذي بني في القرن الثاني الميلادي على شرف مارناس (الإله – السمكة) وقد أشار «كريزويل» [(٣)] إلى أنه قد وصل إلينا وصف هذه القبة، وهو عبارة عن بناء مستدير تعلوه قبة، وهو البناء الوحيد الدائري الذي سبق مخطط كنيسة القيامة في بلاد الشام وفلسطين، أما في بلاد اليونان فقد سبق وجود أبنية دائرية عديدة هناك مثل معبد باليمون في كورنث، ومعبد أثينا برونيسا في دلفي، وفيلبيون في أولمبيا ... إلخ . ولكن «كريزويل» يقول بأن قبة كنيسة القيامة كما هي قبة المارينيون في غزة كانت مخروطية الشكل وليست قبة نصف كروية [(٤)] كما هو الحال في قبة الصخرة .

♦ لقد **اقتبس الرومان عن الإغريق التخطيط الدائري والمضلع** في بناء بعض معابدهم ومقابرهم مثل معبد البانثيون ومعبد فستا في روما، وكذلك معبد فينوس في مدينة بعلبك اللبنانية الذي يؤرخ إلى حوالي عام ٢٧٣م، وأصبح البناء الدائري المقبب أكثر الأشكال شيوعاً في عمل الضريح الروماني، مثال ذلك في روما باينتون هادريان المعظم (١٢٠- ١٢٤م) والنمفايوم في الحدائق الليسنينه والمعروف اليوم باسم منيرفا مديكا (٢٥٣- ٢٦٨م) وماسوليوم القديسة هيلينا (أول القرن الرابع الميلادي) . وهذا النوع من التخطيط الهندسي المنتظم هو النموذج الذي تطور منه تخطيط الكنائس والعمائر الدينية المسيحية البيزنطية ذات المسقط المستدير أو المضلع لاحقاً (٥) .

♦ وبشكل عام، فإن **الأبنية المستديرة المتحدة** المركز تظهر منذ القرن الرابع الميلادي، مثال ذلك طارمة سانتا كوستانزا (٣٢٤- ٣٢٦م) . ويبدو أن كنيسة القيامة (٦) مشتقة مباشرة من هذه الأخيرة، والتي بنيت بعدها ببضع سنوات، لأنها أيضاً تتألف من حلقة مركزية من الدعائم تحمل قبة تحتوي على رواق بينها وبين الجدار الدائري الخارجي. ترتكز قبه سانتا كوستانزا على حلقة داخلية من الدعائم مؤلفة من ١٢ زوجاً من الأعمدة المنتظمة في دائرة. وينتج الانطباع الصليبي من جعل الأقواس المقابلة للنقاط الأربعة الأساسية أعرض من البقية، وهذا الانطباع نفسه وُجد في كنيسة القيامة التي لها حلقة داخلية من الدعائم مؤلفة من ١٢ عموداً و٨ عضائد (دعامات) مرتبة بحيث إن زوجاً من العضائد أو الدعامات يوضع بين كل ٣ أعمدة.- كل هذه الأعمدة مغلقة الآن بالبناء- ، وهنا أيضاً نرى الأقواس المرتكزة على العضائد والتي تقابل النقاط الأساسية الأربعة أعرض قليلاً من البقية (٧) . وهكذا نرى عضادتين وثلاثة أعمدة، عضادتين ثم ثلاثة أعمدة... وهكذا. والانتظام في قبة الصخرة هو نفسه تقريباً حيث نرى عضادة ثم ثلاثة أعمدة....وهكذا.

وقد أشار الباحث صفوان التل إلى نقاط التشابه بين كنيسة القيامة ومسجد قبة الصخرة وذكر منها:

- أن قطر قبة الصخرة حوالي ٢٠,٤م مقابل ٢٠,٤٤- ٢٠,٤٨م في الثانية.

- من ناحية أخرى وحسب رواية «يوسفيوس» المؤرخ البيزنطي، فإن قبر السيد المسيح كان في تلك الأيام يتألف من كتلة من الصخر الطبيعي غير المنقوش داخله كهف يرتفع قليلاً في وسط الأرضية المرصوفة تحت القبة، وهذه الكلمات يمكن أن تصف قبة الصخرة قبل إحاطتها بحاجز في نهاية القرن ١٢م (٨) .

- إضافة إلى ذلك فإن الآثار الموجودة على الصخرة، والتي قيل إنها آثار أقدام سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم عندما صعد إلى السماء تعيد إلى الأذهان الآثار على الصخرة في وسط قبة كنيسة الصعود على جبل الزيتون في القدس، والتي تعرض على الحجاج بأنها أقدام سيدنا عيسى عليه السلام ساعة صعوده إلى السماء.

♦ **المثال الآخر للقبة الخشبية قبل الإسلام، هي قبة كنيسة القديس «سمعان العمودي»** في قلعة سمعان (التي تبعد ٢٥ ميلاً عن حلب) والتي بنيت عام ٤٧٠م [٩]، وهذه الكنيسة تتألف من أربع بازيليكات [١٠] عظيمة، تتصالب مع المثمن المركزي الذي يبلغ قطره «٢٧م» وكان الاعتقاد السائد بأن ذلك البناء لا يمكن أن تعلوه قبة حسب الرحالة «غريوس» الذي زار الموقع سنة ٥٦٠م بعد زلزال كان قد ضرب المنطقة عام ٥٢٦م في منطقة أنطاكيا ربما تسبب في سقوط القبة، إلا أن الفكرة بأن ذلك البناء كانت له قبة برزت في عام ١٩٣٣م، عندما قامت الحفريات على يد عالم الآثار «كرنكر» الذي تفحص البناء المهدم على أرض المثمنة كتلة كتلة، ووجد لبنات عقد نصف قطرها ٢٠,٢م تخص النوافذ المزدوجة التي تخرق قبة المثمن.

وخلاصة القول إن أبحاث كرنكر بين عامي ١٩٣٣– ١٩٣٨ أثبتت وجود بناء مثمن تعلوه قبة بني قبل عام ٥٠٠م، تعرض للسقوط في زلزال أنطاكيا المشهورة في عام ٥٢٦م، وأن ذلك البناء شبيه إلى درجة كبيرة جداً بقبة الصخرة التي بنيت بعد قرنين من الزمن تقريباً [١١].

♦ **كنيسة الصعود**: التي بناها الإمبراطور قسطنطين في جبل الزيتون في القدس والتي تحيط بالصخرة التي يعتقد أن السيد المسيح عرج منها إلى السماء، والصخرة يحيط بها ١٦ عموداً يعلوها قبة خشبية، ويحيط بها بناء ثماني منتظم الشكل [١٢].

♦ **لقد كانت كنيسة المهد** في الأصل– في القرن الرابع الميلادي– بناءً ثماني الشكل يحيط بمغارة المهد في مدينة بيت لحم [١٣]. ولكن قبته كانت مخروطية الشكل كما هو الحال في قبة المارنيون في غزة وقبة كنيسة القيامة الأصلية.

♦ **كاثدرائية بصرى في حوران في الشام**: من العهد البيزنطي، بنيت في عام ٥١٢م، ذات مخطط ثماني مقسم من الداخل بوساطة ٨ دعائم و ١٦ عموداً، وُزعت بحيث تشكل الدعائم أركان الشكل الثماني، وبين كل دعامتين يوجد عمودان [١٤]، وهو يشابه ما هو موجود في الرواق الأوسط في قبة الصخرة الخارجي. أما القبة المركزية فهي مرفوعة على أربعة دعائم، بين كل دعامتين ٣ أعمدة. وهو يشابه من حيث المخطط الأساس الدائري الذي يحمل قبة الصخرة. مع العلم أن قطر قبة كاثدرائية بصرى تساوي ١٤,٩م فقط [١٥]، في حين أن قطر قبة الصخرة تساوي ٢٠,٤م.

وهناك نماذج أخرى من الأبنية ذات المخطط الثماني، كان قد أحصاها صفوان خلف التل في بحثه عن أصول المخطط الثماني في بناء قبة الصخرة نذكر منها الآتي[١٦] :

- بناء ضريح السيدة مريم في القدس (٣٣٥م) .
- بناء كنيسة هبة الله (ثيوثوكاس) على جبل جرزيم/ نابلس (٤٨٤م) .
- بناء كنيسة ثمانية في بيسان (القرن الخامس الميلادي) .
- الكنيسة الثمانية في أم قيس، وأخرى في شمال مدينة جرش (القرنين ٥– ٦) .
- الكنيسة الثمانية الذهبية في أنطاكيا – سوريا ٠ القرن الرابع الميلادي) .
- كنيسة القديس سرجيوس وباخوس في إستانبول (٥٢٥م) .
- كنيسة هيرابوليس في تركيا (القرن الخامس الميلادي) .
- كنيسة القديس سان فيتال (Sanvitale) في رافينا – إيطاليا (٥٤٦م) .
- بناء قبة الصخرة في مدينة القدس (٧٢هـ/ ٦٩١م) .

مما سبق يتبين لنا أن معظم النماذج ذات المخطط الثماني التي عُرضت هي من منطقة بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، مما يدل على أن هذا النمط من البناء هو تقليد سوري شامي فلسطيني شرقي منذ مرحلة ما قبل الإسلام، وما حصل مع مخطط قبة الصخرة هو عودة نحو الأصول المحلية أكثر منه إستيراد نماذج من حضارات أخرى .

٢. المداخل:

لقبة الصخرة أربعة مداخل [١٧] كبيرة (أنظر أشكال رقم١، رقم٣) ، أبوابها مزدوجة مصنوعة من الخشب، ومكسوة بصفائح النحاس، وكانت هذه الأبواب مذهبة عندما زارها المقدسي [١٨] ، والأبواب هي باب القبلي ويسمونه باب الأقصى، باب اسرافيل وهو الباب الشرقي، باب السور المعروف بباب الجنة وهو الباب الشمالي، باب النساء الذي يفتح إلى الغرب ويقابل باب القطانين، ويقول المقدسي أن هذه الأبواب بشكلها المذهب الذي وصفها به عبارة عن هدية من والدة الخليفة العباسي المقتدر (٨٠٩– ٨٣٢م) [١٩] .

وبخلاف ما هو معروف في الأبنية التذكارية المشابهة، فإنه لا يوجد مدخل رئيسي وآخر ثانوي في مبنى قبة الصخرة، على الأقل من الناحية المعمارية لا يوجد ما يميز المدخل المقابل لمحراب المسجد كما جرت العادة، حيث نجد أن المدخل المقابل للمحراب يكون هو المدخل الرئيس، ويعامل معاملة خاصة [٢٠] ، وتكون عمارته قد صممت بشكل

مختلف وأكثر فخامة وزخرفة وأكثر اتساعاً، والسبب في ذلك هو أن المصلين يتجهون ويتجمعون في مقدمة القبة جهة القبلة، ولا يكون ذلك ميسراً إلا إذا تقدم المصلون من الجهة المقابلة لجهة القبلة. وربما لم نجد هذه الظاهرة في مسجد قبة الصخرة نظراً لأن البناء مثمن الشكل، إضافة إلى أن قبة الصخرة تقع في وسط المسجد الأقصى مما يعني أن الوصول إليها لا يتم من جهة واحدة بل من جميع الاتجاهات، كما أن المسجد يضم أربعة أبواب في الجهات الأربعة . مما لا يجعل خصوصية للجهة المقابلة للقبلة.

معظم هذه الأبواب قد جددت في عهد السلطان سليمان القانوني ١٥٣٨ م وفي عهد السلطان عبد الحميد الأول ١٧٨٠م. وأمام الباب القبلي بني رواق مفروش بالرخام، طوله ١٦م، وعرضه ٣ أمتار، وفي مدخل المسجد من الشرق والغرب والشمال أبواب بنيت خلال القرن ١٦م. ويتقدم المداخل سقائف عرضها ٢,٥م [٢١] ، مؤلفة من قبة نصف أسطوانية محمولة على عمودين رخاميين بتيجان كورنثية، ويتفرد المدخل القبلي من الخارج بوجود شمسية بارزة عن الجدار تسندها في كل جهة يمين الباب ويساره ثلاثة أعمدة من الطراز ذاته. وفي كل مدخل من مداخل المسجد غرفتان، واحدة يراها الداخل عن يمينه والأخرى عن يساره، أنشئت لتكون إحداهما مخزناً للآلات والأدوات اللازمة لتنظيف المبنى، وأخرى من أجل إقامة خدم القبة. ويبلغ عرض المدخل ٢,٦م وارتفاعه ٤,٣م. وفوق كل منها نافذة ذات قوس نصف دائري [٢٢] ، أما الأبواب الداخلية، فإنها لم تؤرخ، والمعروف عنها أنها أنشئت بعد الأبواب الخارجية.

الأصول:

والمداخل ظاهرة معمارية معروفة منذ أن عرف الإنسان البناء، وقد حاول المعماري العراقي القديم إعطاء المداخل قوة دفاعية إضافية، خاصة مداخل المدن الكبرى [٢٣] ، وظهرت منها أنواع عديدة، منها المدخل المباشر كما هو الحال في مداخل قبة الصخرة، والمداخل المنكسرة أو المزورَّة كما في مداخل مدينة السلام (بغداد) أو بعض مداخل مدينة القدس (باب العمود وباب الخليل) ، وقد حفت بها الأبراج الدفاعية، في حين نجد مداخل قبة الصخرة قد حفت بها الأعمدة في نموذج مصغر لمداخل المدن المشهورة .

إن مداخل الأبواب في قبة الصخرة مزودة بعتبات علوية وكوات، وهي من الطراز الذي كان سائداً في بلاد الشام منذ القرن الرابع الميلادي . والأمثلة على ذلك عديدة منها بيت معمودية مار يعقوب في «نصيبين» في بلاد الجزيرة، المبنية عام ٣٥٩م. ومثال آخر في كنيسة قلعة سمعان العظيمة من القرن الخامس الميلادي. كما أن مداخل أبواب كاتدرائية بصرى الشام (٣- ٥١٢م) تقترب من مداخل قبة الصخرة في الشكل. وكذلك مداخل كنيسة

القديس جورج في أذرع (٦- ٥١٥م) ؛ حيث المداخل متطابقة تقريباً مع مداخل قبة الصخرة، لأن البناء بسيط جداً. وكذلك الحال في مدخل قصر الحير في الصحراء السورية، وفي المسجد الكبير في قرطبة [٢٤] .

٣. فناء الصخرة:

يسميه عامة الناس اليوم سطح الصخرة أو سطوح الصخرة أو صحن الصخرة أو فناء الصخرة، وقد سماه ناصر خسرو والمقدسي «الدكة» [٢٥] (أنظر شكل رقم ٤) . من المعروف أن طبوغرافية المنطقة التي بني عليها مسجد قبة الصخرة غير مستوية بل هي عبارة عن منطقة جبلية وعرة، ومن أجل الحصول على منطقة مستوية يرتكز عليها مسجد قبة الصخرة كان لا بد من عمل المسطبة التي نشاهدها اليوم ونطلق عليها أسم صحن الصخرة أو فناء الصخرة، ويضم هذا الفناء العديد من آبار المياه التي تتجمع فيها المياه من سطح مسجد الصخرة ومن الفناء نفسه.

يقوم مبنى قبة الصخرة في وسط ذلك الفناء المربع الشكل تقريباً، والبناء قائم على أرض مرتفعة في وسط الحرم ومفروش بالبلاط الأبيض، طوله أكثر من عرضه، طوله من الشمال إلى الجنوب ٢٢٩ ذراعاً (٧٦م تقريباً) ، ومن الشرق إلى الغرب ٢٢٣,٥ ذراعاً (٧٤,٥م تقريباً) ، وهو يرتفع ١٢ذراعاً (٤م تقريباً) عن أرض المصلى القبلي [٢٦] ، يرقى إليه بمراقي يسميها الناس الدرج [٢٧] . وفي أعلى كل مرقاة قنطرة قائمة على أعمدة من الرخام. وهذه القناطر يسمونها «موازين» لأعتقادهم بأن الميزان سوف ينصب هنا يوم القيامة، وتسمى كذلك البوائك [٢٨] . وهي عبارة عن أقواس مدببة مرفوعة على أعمدة ويعلوها إفريز يمتد عرضياً ويملأ الفراغات التي تتركها الأقواس في الأعلى، عدد الأقواس يتراوح بين ثلاثة إلى خمسة أقواس، وتضم المسافات بينها نقشاً أو أكثر يشير إلى من بنى هذه البائكة أو أشرف على بنائها، وقد نقش على البائكة القبلية من جهة المصلى القبلي «مزولة» عبارة عن ساعة شمسية [٢٩] .

ويقول الرحالة الفارسي « ناصر خسرو» بأن عدد المراقي في عصره بلغت ٦ مراقٍ [٣٠] ، ويبدو أن عدد البوائك (القناطر) قد ازداد أيضاً مع الزمن، فبلغ في يومنا هذا ثمانية بوائك (أنظر شكل رقم ٥) ، **وصفها كالتالي**:

- **البائكة الشمالية**: انشئت في عصر المماليك البحرية، حيث أمر بتشييدها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في عام ٧٢١هجري (١٣٣١م) ، وهي بائكة صغيرة مؤلفة من عمودين رخاميين في الوسط، تسندها دعامتان حجريتان من الأطراف، وهي بائكة من

ثلاثة عقود حجرية مدببة، الأوسط منها أعلى ارتفاعاً وأكثر سعةً من العقدين الجانبين، وقد ازدان أعلى البائكة بزخارف هندسية بسيطة محفورة بشكل غائر [٣١] . (أنظر شكل رقم٦) .

- **البائكة الشمالية الشرقية**: أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإنشاء هذه البائكة في سنة ٧٢٦هجري (١٣٢٦م) حسبما هو مسجل في لوح من الرخام مثبت في كوشة العقد الأخير، ويفهم من خلال قراءة النقوش فوق بلاطات تلك البائكة بأن البلاط المفروش في بناء الصخرة تم فرشه هناك في زمن السلطان المملوكي المنصور قلاوون. وتختلف هذه البائكة بشكل واضح عن تصميم البوائك الأخرى المنتشرة حول الحرم، على الرغم من أنها مؤلفة من دعامتين حجريتين بينهما عمودان حجريان رشيقان، وهي جميعاً تحمل ثلاثة عقود مدببة. وتمتاز العقود بأن أرجلها أطول بشكل ملحوظ (مشمورة) وقد اتخذت هيئة المخدات المتلاصقة التي رصدت وفقها صنجات العقود ذاتها (قوس الوسائد) . وزيادة على ذلك فقد زخرف أعلى البائكة بصف من المقرنصات الحجرية [٣٢] . (أنظر شكل رقم ٨) .

- **البائكة الشمالية الغربية**: شيدت هذه البائكة في نهاية عصر دولة المماليك البحرية، وذلك في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن قلاوون في سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) ، وقد جرى تجديدها في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني. وتتألف هذه البائكة من دعامتين حجريتين في الأطراف، بينهما ثلاثة أعمدة رخامية، ويعلو العمودين الجانبيين في جسم البائكة بين الأقواس شكل زخرفي مروحي محصور في دائرة صغيرة. في حين نجد النقش الحجري في شكل مربع فوق العمود الأوسط ومكتوب عليه كلمات تشير إلى أن الذي أمر بتجديد هذا الميزان السلطان سليمان القانوني. وعقود البائكة الأربعة مدببة الشكل، كما زخرف أعلى البائكة بصف من المقرنصات الحجرية [٣٣] . (أنظر شكل رقم ٧).

- **البائكة الجنوبية**: وهي أقدم بوائك المسجد، ويصعد إليها بدرجات من جهة المصلى الجنوبي، وقد شيدت في العصر العباسي ربما في أثناء أعمال الخليفة المهدي لإعادة بناء المسجد الأقصى أو وقت الترميمات التي قام بها الخليفة المأمون في قبة الصخرة بعد الزلزال المدمر الذي أصاب القدس في بداية القرن الثالث الهجري (٩م) ، وقد قام الفاطميون عام ٤٢٦ هـ (١٠٣٥م) بترميم هذه البائكة. وجددها العثمانيون أيضا في سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣م) وتتألف هذه البائكة من أربعة عقود حجرية ترتكز على دعامتين حجريتين بينهما ثلاثة أعمدة رخامية رشيقة مختلفة التيجان ولعلها منقولة من عمائر سابقة، وتتوسط كوشات عقود هذه البائكة مزولة شمسية لمعرفة دخول أوقات الصلاة أثناء النهار، وقد قام بعمل هذه المزاولة الرخامية رشدي الإمام مهندس المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٠٧م [٣٤] . (أنظر شكل رقم٩) .

- **البائكة الجنوبية الغربية**: تقع مقابل باب السلسلة والسكينة، وهي الأحداث بين بوائك المسجد الأقصى، إذ شيدت بأمر من السلطان المملوكي الأشراف قايتباي في عام ٨٧٧هـ (١٤٧٣م) وكان المشرف على عمارتها ناظر الحرمين الشريفين في حينه، وتتألف هذه البائكة من ثلاثة عقود مدببة متساوية في الارتفاع والسعة (٣٥) . (أنظر شكل رقم١٠).

- **البائكة الجنوبية الشرقية**: هذه البائكة أنشئت ضمن أعمال التجديد والترميم التي أجريت أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي عام ٤٢٦هـ (١٠٣٥م) ، وقام بالإشراف على إنشائها قائده الشهير أنوشتكين الغوري أمير الجيوش، ولكن بناءها لم يكن محكماً، إذ اضطر الملك المعظم عيسي الأيوبي إلى ترميمها مرة أخرى في عام ٦٠٨ هجري (١٢١١م) ، وأشرف على ذلك الأمير عز الدين بن عمر بن يعقوب كما تشير بذلك النقوش على البائكة (٣٦). وتتألف البائكة من دعامتين حجريتين، بينهما عمودان رخاميان، وهما يحملان ثلاثة عقود حجرية مدببة (٣٧) . (أنظر شكل رقم ١١) .

- **البائكة الغربية**: من المرجح أن الآمر بإنشاء هذه البائكة هو الأمير أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد، وكان ذلك في عام ٣٤٠ هـ (٩٥٢م) ، وذلك في وقت لاحق لإنشاء البائكة الشمالية الغربية، وقاعدة هذه البائكة مؤلفة من ثلاثة أعمدة رخامية تحيط بها على الجانبين من الخارج دعامتان حجريتان مبنيتان، وهي جميعاً تحمل أربعة عقود حجرية مدببة، وقد زخرف أعلى البائكة بزخارف من مربعات حجرية غائرة تشبه الموجودة في البائكة الشرقية وقد تم تجديد هذه البائكة في عصر الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي بعد الزلزال الذي ضرب القدس، وهي تقع غربي مسجد الصخرة مباشرة (٣٨) . (أنظر شكل رقم١٢) .

- **البائكة الشرقية**: شيدت هذه البائكة في العصر العباسي، وأعيد ترميمها في العصر الفاطمي، ثم قام بترميمها بوساطة المجلس الإسلامي الأعلى في عام ١٩٥٤م، وهذه البائكة مؤلفة من دعامتين حجريتين بينهما ثلاثة أعمدة رخامية وتحمل جميعها خمسة عقود نصف دائرية، وهي في ذلك تختلف عن البوائك السابقة في عدد العقود ونوعها، وأغلب الظن أنها شيدت بعد البائكة الجنوبية نظراً لاهتمامها بالتوزيع المتوازن للعقود، بحيث يصبح العقد الأوسط محوراً تتوزع من حوله العقود الأربعة الباقية بترصيف وتوازن هو من أهم خصائص فن العمارة الإسلامية بعد نضجه المبكر في العصر العباسي، فضلاً عن العناية بزخرفة أعلى البائكة بمربعات حجرية غائرة (٣٩) . (أنظر شكل رقم١٣) .

هناك درج ضيق شرقي صحن الصخرة، وتجاه باب «التوبة والرحمة» ليست له قنطرة، عرضه ١,١ م، وعدد درجاته ١٩ درجة، ولكنه غير مستعمل.

جدير بالذكر أن فناء قبة الصخرة كما هو الآن يعطي الموقع نوعاً من التكاملية في البناء المعماري، بحيث لا يمكن تخيل جسم قبة الصخرة بدون القناطر والمراقي والبلاطات التي تحيط به، مما يجعل وظيفتها جمالية و تكميلية.

الأصول:

إن فكرة إقامة أبنية على مساطب مرتفعة عن منسوب الأرض المحيطة كما هو الحال في الفناء الذي تتوسطه قبة الصخرة هي فكرة قديمة نجدها في فن العمارة الآشوري والبابلي، حيث كان يصل إرتفاع تلك المساطب أحياناً إلى ١٥ متراً فوق منسوب سطح الأرض، ويمكن الوصول الى المنسوب العلوي بمدرجات أو منحدرات في جميع الإتجاهات . وكان الغرض من إنشاء هذه المساطب المدرجة هو دفاعي أو للوقاية من الأمراض الأرضية وخاصة الملاريا [٤٠] . وفي العصر اليوناني رأينا أن الأبنية الرئيسة في المدينة اليونانية تبنى في الأكروبولس (مركز المدينة المرتفع) . كما أن المعابد الإغريقية كانت في الغالب تبنى على مسطبة يُصعد إليها بدرجات عدة من جميع الاتجاهات، والأمر نفسه يمكن رؤيته في المعابد الرومانية .

أما في العمارة الإسلامية فإن الطبيعة الجغرافية لمنطقة جبل الحرم الذي تتوسط الصخرة يحتم على من يريد البناء أن يقوم بعمل تسوية أو مسطبة للتغلب على الطبيعة الطبوغرافية الوعرة، حتى وإن تطلب ذلك الصعود إليها بمراقٍ أو درجات في كافة الاتجاهات [٤١] . وقد تطور هذا الأمر لاحقاً حتى أصبح يعرف في العمارة الإسلامية باسم المباني أو المساجد المعلقة، والتي يمكن رؤيتها في العمارة الفاطمية في مصر بشكل خاص .

٤. أصول مواد البناء:

لسنا هنا بصدد الحديث عن مواد البناء في مبنى قبة الصخرة، فهو موضوع آخر ليس هنا مكانه، ولكن لا بد من التعريج على الأصول التي ترجع إليها بعض مواد البناء المستعملة في هذا البناء التاريخي المهم .

فقد ذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك قد استعمل في بناء قبة الصخرة بعض الحجارة والأعمدة المأخوذة من كنائس مهدمة في فلسطين، وقالوا إن بعضها كانت مبعثرة هنا وهناك في القدس من بقايا بعض الكنائس البيزنطية التي هدمها الفرس عندما أغاروا عليها في عهد كسرى سنة ٦١٤م قبل الفتح الإسلامي [٤٢] .

إن عدم التماثلية في أعمدة مسجد قبة الصخرة يدل على أنها جُلبت من مبانٍ أو عمائر قديمة، حيث نجد أن أطوالها وأقطارها ليست متساوية، وقد تم التغلب على ذلك بإطالة

قاعدة العمود أو تقصيرها. كما أن ألوانها ليست موحدة فمنها ما هو معرق ومائل إلى اللون الرمادي ومنها المعرق المائل إلى اللون البني أو الأخضر وهكذا .

ولكن لا بد من ترك الباب مفتوحاً إلى إحتمال آخر وهو أن العرب المسلمين هم الذين قاموا أو أشرفوا على عمليه تصنيع هذه الأعمدة من مقالعها الأصلية، وبخاصة إذا عرفنا أن فلسطين تضم في منطقة بيت جبرين إلى الغرب من الخليل مقالع حجرية كبيرة الشأن . وهذا يعني توافر الخبرة المحلية في تصنيع مثل تلك الأعمدة، إضافة إلى توافر المواد الخام وقربها من مكان البناء .

أما ما قيل عن أن الوليد بن عبد الملك قد أحضر قبة من النحاس المذهب من كنيسة في بعلبك ووضعها فوق الصخرة (٤٣) ، فهو أمر جاء به المستشرقون، وذكره بعض المؤرخين المتأخرين الذين لم يعاصروا البناء أو كانوا قريبي عهد به. بل على العكس من ذلك فقد أشارت المصادر كيف أن المشرفين على بناء مسجد قبة الصخرة (يزيد بن سلام ورجاء بن حيوة) رفضا أن يتسلما أجرهما بعد اكتمال البناء وكان يعادل ١٠٠ ألف دينار من الذهب، فسكبت ذهباً على القبة النحاسية من الخارج لتبدو مذهبة كما هي عليه الآن (٤٤) . من ناحية أخرى فإنه من شبه المستحيل حمل قبة من بعلبك في لبنان إلى القدس في فلسطين هي في الحقيقة ليست قطعة واحدة من العمل بل هي عبارة عن قبتين داخلية وأخرى خارجية وبينهما فاصل، ناهيك عن حجمها الضخم الذي يشكل معوقاً كبيراً أمام مجرد التفكير في نقلها. كما أن أعمال البحث والحفريات لم تثبت أي تطابق في المساحة بين مسجد قبة الصخرة وكنيسة بعلبك أو أي بناء آخر سابق عليه.

ويبدو أن عادة جلب الحجارة ومواد البناء من عمائر قديمة عادة معروفة ومألوفة منذ زمن بعيد، فقد قام البيزنطيون بهدم المعابد والعمائر الإغريقية والرومانية لأستخدام موادها من أحجار وأعمدة ورخام في بناء كنائسهم وعمائرهم، مثال ذلك ما أخذه أهل البندقية من مئات الأعمدة من مبانٍ إغريقية قديمة من أجل بناء كنيسة سان مارك، وكذلك الخيول الأربعة التي رفعت فوق مدخل تلك الكنيسة كانت في الأصل ترتفع فوق قوس نصر روماني، ثم انتقلت إلى القسطنطينية مع تماثيل أخرى، ثم دخلت ضمن الأسلاب التي أخذتها البندقية، ثم أخذها نابليون إلى باريس، ثم عادت مرة ثانية إلى البندقية بعد سقوطه، وهناك أمثلة كثيرة قام بها الأمبراطور شارلمان والإمبراطور جستنيان وغيرهما (٤٥) .

وفي العصور الإسلامية لم يتوقف المسلمون عن استخدام مواد بناء تُجلب من مبانٍ قديمةٍ إلا في بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، كما هو الحال في مباني مدينة سامراء في العراق في العصر العباسي . ويعد مسجد أحمد بن طولون أول مبنى في مصر الإسلامية لا تستعمل فيه عناصر حاملة مأخوذة من المباني الأخرى، حيث عملت دعائم بأعمدة في الأركان من الطوب (٤٦) .

٥. أصول المهندسين والفنيين:

يدور جدل كبير بين العلماء حول الأصول التي انحدر منها العمال والمهندسون الذين اشتركوا في بناء مسجد قبة الصخرة، ففي حين يرى المستشرقون أن العمال هم أيدي عاملة ماهرة ومدربة قامت بإنجاز هذا العمل الضخم، فهم يرون أنه لا بد أن يكونوا من العمال الروم أو الساسانيين الذين ألفوا إنجاز مثل تلك المباني في بلاد الشام والعراق، في حين أن الفاتحين الجدد لم يتسنَّ لهم بعد تعلم أسرار هذا المستوى من البناء الفخم وتقنياته، مما لم يألفوه في جزيرة العرب التي جاؤوا منها، ويأتي على رأس هؤلاء جميعاً أستاذ العمارة الإسلامية المبكرة المستشرق كريزويل الذي أشار إلى أن مهندس مسجد قبة الصخرة هو شخصية مجهولة، في حين أن رجاء بن حيوة الكندي والشخص الآخر الذي ضمه إليه وهو يزيد بن سلام – وكلاهما من فلسطين – لم تكن المهمة الموكلة إليهما أكثر من الإشراف المالي والإداري على البناء، ويستدل كريزويل على ذلك من خلال كلام المؤرخين الذين يذكرون بناء خزينة شرق قبة الصخرة هي قبة السلسلة [٤٧] ووضعها تحت إمرة هذين الرجلين [٤٨] . حيث يرى أن وظيفة قبة السلسلة هي أنها كانت مركزاً إدارياً ومالياً تدار منها أعمال البناء في مسجد قبة الصخرة المجاور.

من ناحية أخرى فإن المصادر تصف رجاء بن حيوة وتمدحه بأنه «من العلماء الأعلام ومن جلساء عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه» [٤٩] ، في حين لم تذكر أي من المصادر أن هذين الرجلين من المهندسين أو من البنائين . من ناحية أخرى يجب أن لا ننسى أن تخطيط مسجد قبة الصخرة وعمارتها بالغ الدقة والفخامة مما لا يستقيم إلا لذوي الخبرة والإختصاص [٥٠] ، مما لا ينطبق على العالم رجاء بن حيوة أو الشخص الذي ضمه إليه مع ولديه وهو يزيد بن سلام . إذاً من الذي قام بهندسة مسجد قبة الصخرة؟ .

إن سكان بلاد الشام خلال الحقبة التي بنيت فيها قبة الصخرة كانوا في معظمهم من القبائل العربية الأصلية، ومن أشهرها قبيلة الغساسنة، وكانت الدولة البيزنطية تعتمد عليهم في تأمين الشام من الخطر الساساني الشرقي. من ناحية أخرى فإن مسجد قبة الصخرة بني عام ٧٢هـ/ ٦٩١م، أي بعد ٥٥ عاماً على الفتح الإسلامي لفلسطين على يد الخليفة عمر بن الخطاب، وفي هذه المدة لا بد أن عدد العرب ازداد ولم ينقص، بل إن السكان العرب الأصليين من المسيحيين والوثنيين قد تحول قسم كبير منهم إلى الأسلام، وهذا يعني أن سكان فلسطين وبلاد الشام عموماً في الحقبة التي بنيت فيها قبة الصخرة كانوا في أغلبهم من العرب المسلمين [٥١] . ومن بين هؤلاء السكان خرج المهندسون والعمال الذين بنوا مسجد قبة الصخرة، ونحن هنا لا ننكر تأثر هؤلاء المهندسين والعمال العرب المسلمين

بالعمائر التي تملأ الجوار من العهد البيزنطي أو الساساني، ولكن الموضوع هو موضوع تأثر وليس أكثر.

ولم لا نقول بأن المنطقة السورية (بلاد الشام) التي أنجبت المهندس (زنوبيوس) وهو أحد المهندسين السوريين الذين ساهموا في بناء كنيسة القيامة من القرن الرابع الميلادي حسب المؤرخ البيزنطي يوسيبوس [٥٢]؛ قد أنجبت المهندسين الأفذاذ القادرين على بناء قبة الصخرة حسب التقاليد العريقة المتداولة في المنطقة الشامية عامة وفلسطين خاصة من قرون عدة. وبذلك يكون الخليفة عبد الملك بن مروان من الأوائل في الدولة الإسلامية الذين قاموا بإحياء تراث المنطقة القديم بأيدٍ عربية مدربة من سكان المنطقة نفسها (فلسطين وبلاد الشام). ونحن نعلم السيرة الحضارية للخليفة الأموي الخامس الذي نهج نهجاً استقلالياً عربياً إسلامياً في العديد من أمور الدولة ليس أقلها تعريب العملة، وتعريب الدواوين، وليس آخرها بناء قبة الصخرة بأيدٍ عربية إسلامية أيضاً.

الخاتمة والنتائج:

١. يتبين لنا مما سبق أن معظم النماذج ذات المخطط الثماني التي عُرضت في البحث هي من منطقة بلاد الشام عامة وفلسطين خاصة، مما يدل على أن هذا النمط من البناء هو تقليد سوري شامي فلسطيني شرقي منذ مرحلة ما قبل الإسلام، وما حصل مع مخطط مسجد قبة الصخرة هو عودة نحو الأصول المحلية، كان رائده الخليفة الأموي التابعي عبد الملك بن مروان، أكثر منه استيراد نماذج من حضارات أخرى.

٢. عرفنا من خلال بحثنا بأن نموذج قبة الصخرة سبقه وجود بعض النماذج المشابهة لها في غزة- قبة المارينيون في القرن ٢م - وفي القدس كنيسة القيامة في القرن ٤م، وفي حلب كنيسة القديس سمعان في القرن ٦م وغيرها.

٣. على الرغم من أن مسجد قبة الصخرة مثمن التخطيط فإنه لا يتطابق تماماً مع النماذج المشابهة التي سبقته، حيث نجد الفرق في العديد من العناصر، مثل القبة المخروطية بدل القبة نصف الكروية في قبة الصخرة، أو في المدخل الواحد بدل المداخل الأربعة التي نشاهدها في قبة الصخرة.

٤. إن الشكل الدائري أو المثمن الذي اقتبسته العمارة العربية الإسلامية المبكرة سواء في تخطيط مدينة السلام (شكل دائري)، أو في شكل قبة الصخرة (مثمن) هما المثلان الوحيدان اللذين اقتبسا عن الطرز السابقة على الإسلام، وفيما لم يصلنا شكل مدينة السلام (بغداد) إلا من خلال وصف المؤرخين (أنظر الشكل رقم ١٥)؛ فإن نموذج قبة الصخرة المثمن بقي مثلاً وحيداً لم يتكرر مرة أخرى في العصر الإسلامي.

الهوامش:

١. نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣ م، ص ٧١– ٧٢.

٢. التل، أصول المخطط الثماني في بناء قبة الصخرة . ١٩٨٩م، ص ١٢٣ .

٣. كريزويل: هو البروفسور كيبل آرشيبلد تشارلس كريزويل، ولد في بريطانيا عام ١٨٧٩م، درس في معاهد وست منستر، ويعتبر من أهم العلماء المتخصصين في العمارة الإسلامية . خدم في مصر وبلاد الشام ضمن قوات الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، عين أستاذاً للعمارة الإسلامية في جامعة القاهرة ثم الجامعة الأمريكية في القاهرة . (كريزويل،ك . الأثار الإسلامية الأولى، د.ت.، ص ١٠) .

٤. كريزوسل، الآثار الإسلامية الأولى، ص ٥٥ .

٥. الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ١٩٩٤م، ص ١٠٣ .

٦. قبة كنيسة القيامة بناها قسطنطين عام ٣٣٥م، وأحرقها الفرس عام ٦١٤م، وأعاد بناءها «مودستوس» في عام ٦١٦م– ٦٢٨م. (التل،أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٢٨) .

٧. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص ٥٦ .

٨. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٢٨ نقلاً عن (Krautheimer, 1965, p. 40).

٩. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٣٢ نقلاً عن (Krautheimer, 1965, p110).

١٠. البازليك أو دور العدالة أو بورصة التجارة هي من الأبنية التي عرفتها العمارة الرومانية منذ مرحلة ما قبل الميلاد، مهندسها الأول هو «أبوللو درواس الدمشقي» وكانت عبارة عن أروقة يتخللها صفوف من الأعمدة، وعلى نسقها بنيت الكنائس المسيحية الأولى (عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، ١٩٨٣م، ص ٣٦٣) حتى أن بعض المساجد الإسلامية بنيت على الطراز البازلكي منها المصلى القبلي في المسجد الأقصى المبارك على يدي الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك .

١١. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى . ص ٥٩.

١٢. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٢٩ نقلاً عن (Creswsll , 1969, p. 40) .

١٣. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٣٠ .

(Lassus, 1967, pp. 34- 35؛ Krautheimer , 1965, pp 36- 38. ؛ Hamilton, 1934 , p. 1)

١٤. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٣١ نقلاً عن (Krautheimer, 1965, p. 166 ؛ Butler , 1929, p.124) .

١٥. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م ن ص ١٣١ نقلاً عن (Creswell, 1969 , p 102)

١٦. التل، أصول المخطط، ١٩٨٩م، ص ١٣٧ .

١٧. مفردها مدخل وهو موضع الدخول (إبن منظور، لسان العرب، ط١، ج١، ج٢، د.ت.، ص ٢٣٩) ومن الأخطاء الشائعة إستعمال كلمة باب للدلالة على المدخل، فالباب ما يسد ويغلق من الخشب وغيره (الزبيدي،تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، ١٩٨٩م، ص١٦٤) .

١٨. المقدسي . احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٨٠م ، ص ١٥٨.

١٩. المقدسي، أحسن التقاسيم،١٩٨٠م، ص١٥٨ .

٢٠. مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، ١٩٨٤م، ص ٤١.

٢١. البهنسي، فن العمارة، ٢٠٠٦م، ص٢١٧ .

٢٢. زيارة ميدانية قام بها الباحث .

٢٣. المومني، العمارة الأموية في مدينة عمان في ضوء التنقيبات الأثرية، ٢٠٠٤.ص ٢٧٤.

٢٤. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى . ص ٥٨ .

٢٥. خسرو، سفر نامة، ط٣، ج١، ١٩٨٣م، ص٦٨؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ج١، ص ١٥٨.

٢٦. العارف، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، ١٩٥٥، ص ١٤٠ .

٢٧. الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ١٧٠ .

٢٨. البوائك: وتسمى أيضا القناطر والموازين (العليمي، الأنس الجليل في أخبار القدس والخليل، ج٢، ١٩٩٩م، ص١٩) . عبارة عن أعمدة تربطها عقود، وتقع أعلى الدرجات الحجرية التي تقود إلى صحن الصخرة المشرفة في قلب المسجد الأقصى المبارك. أنشئت هذه البوائك، لأغراض جمالية، فوق الدرجات التي تقود إلى صحن الصخرة والتي تسهل أيضا انتقال المصلين بين مختلف جهات المسجد الأقصى دون الحاجة إلى الالتفاف حول الصحن. بنيت في عدة عهود إسلامية أبرزها العهد المملوكي (من أزهى العهود التي مرت بالأقصى المبارك) ، وجددت في العهد العثماني.

٢٩. زيارة ميدانية قام بها الباحث .

٣٠. خسرو، سفر نامة، ١٩٨٣م، ص ٦٨ .

٣١. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم ، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص ١٨٣ ؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٧ ؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ج٢، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٦ .

٣٢. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص١٨٤؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٧؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٦ .

٣٣. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٢٩٣؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٧؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص٣٦٧ .

٣٤. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٨٦؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٩؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٩ .

٣٥. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٢٩٣؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص٦٨٩؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٩ .

٣٦. كتب على البائكة (أمر به ليث الدولة أنوشتكين الغوري) (خسرو، سفر نامة، ج١، ٦٩)؛ زيارة ميدانية قام بها الباحث .

٣٧. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٩٠؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٩؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٩ .

٣٨. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٨٨؛ غوشة، تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٨؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٦ .

٣٩. زيارة ميدانية قام بها الباحث؛ نجم، كنوز القدس، ١٩٨٣م، ص٨٧؛ غوشة،تاريخ المسجد الأقصى، ٢٠٠٢م، ص ٦٩؛ يوسف، من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ٢٠٠٠م، ص ٣٦٨ .

٤٠. عبد الجواد، تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، ج١، ١٩٨٣م، ص ٢٦١ .

٤١. حتى أن المصلى القبلي من المسجد الأقصى مبني على مسطبة مرتفعة عن مستوى الأرض، للتغلب على الطبيعة الطبوغرافية الوعرة، مما نتج عنه ما يعرف اليوم بأسم المصلى المرواني وهي في الحقيقة عبارة عن التسوية الشرقية، والأقصى القديم وهو عبارة عن التسوية الواقعة تحت المصلى القبلي مباشرة. (الباحث) .

٤٢. محمود، تاريخ القدس، ١٩٨٤م، ص٢٠٥؛ Richmond, 1924 , p.2 .

٤٣. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى . ص ٥٧؛ يوسف، بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، ط١، ١٩٨٢م، ص٩٣ نقلاً عن (سعيد بن البطريق. التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ج٣، ص٤٢؛ محمد كرد علي . خطط الشام، ص ٢٦٦؛ فيليب حتى، ج١، ص ٢٢٨ طبعة بيروت) .

٤٤. العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص٢٧٣ .

٤٥. الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، ١٩٩٤م، ص١٥٣-١٥٥.

٤٦. مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، ١٩٨٤م، ص ٧٧ .

٤٧. العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٧٢ .

٤٨. كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص ٥٤ .

٤٩. العليمي، الأنس الجليل، ج١، ص ٢٧٢ .

٥٠. هناك العديد من النظريات التي تبحث في كيفية تخطيط مسجد قبة الصخرة، منها نظرية وضعها العالم الهندسي الفرنسي «ماوس» في عام ١٨٨٨م، تقوم على أساس أن مهندس قبة الصخرة رسم دائرة مركزية ورسم بداخلها مربعين متداخلين . وهناك الدكتور أحمد فكري الذي تقوم نظريته على أساس أن مهندس قبة الصخرة إعتمد المربعات المتداخلة بدل الدوائر التي إفترضها «ماوس» . والنظرية الثالثة جاء بها الدكتور محمد عبد الستار عثمان وسماها نظرية التثمين بضرب الخيط: تقوم على أساس تعيين نقطة مركزية في وسط الصخرة المشرفة وتحديد إتجاه القبلة ثم إستعمال الخيط في رسم الشكل الثماني للمبنى . (عثمان، نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة، ١٩٨٨م . ص ٢٣٩- ٢٥٣) .

٥١. الشافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، ١٩٩٤م، ص ٧٥ - ٧٦ .

٥٢. التل، أصول المخطط الثماني في بناء قبة الصخرة، ١٩٨٩م، ص ١٣٩ نقلاً عن (Creswell , 1969, p. 117 ؛ Krautheimer , 1965 , p. 39) .

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

١. البهنسي، سعد صديق . فن العمارة . ط٢، عمان، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م

٢. التل ن صفوان خلف . أصول المخطط الثماني في بناء قبة الصخرة . مجلة أبحاث اليرموك . م ٥، ع ٣، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٩م .

٣. الحموي، ياقوت . معجم البلدان . ج٥، بيروت، دار الفكر د.ت.

٤. خسرو،ناصر . سفر نامة .ط٣، تحقيق: يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣م .

٥. الزبيدي، محب الدين الفيض الحسيني الحنفي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، القاهرة، ١٩٨٩م .

٦. الشافعي، فريد . العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، ط٢، الهيئة المصرية العامة للتأليف النشر، ١٩٩٤م .

٧. عبد الجواد، توفيق . تاريخ العمارة والفنون في العصور الأولى، ج١، ط٣، ١٩٨٣م.

٨. العارف، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية.١٩٥٥م.

٩. عثمان، محمد عبد الستار . نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة . مجلة العصور، م٣، ج١، لندن، دار المريخ للنشر، ١٩٨٨م .

١٠. العليمي، مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.ج١، تحقيق عدنان يونس نباتة، عمان، مكتبة دنديس، ١٩٩٩م .

١١. غوشة، محمد هاشم . تاريخ المسجد الأقصى، ط١، فلسطين، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ٢٠٠٢م .

١٢. كريزويل، ك . الأثار الإسلامية الأولى. نقله إلى العربية: عبد الهادي عبله، دمشق دار قتيبة، د.ت.

١٣. محمود، شفيق جاسر . تاريخ القدس . ط١، عمان، دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م.

١٤. مصطفى، صالح لمعي . التراث المعماري الإسلامي في مصر، ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٤م .

١٥. المقدسي . محمد بن أحمد. احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق غازي طليمات، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠م .

١٦. المومني، سعد محمد . العمارة الأموية في مدينة عمان في ضوء التنقيبات الأثرية . ط١، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ٢٠٠٤م.

١٧. نجم، رائف. كنوز القدس .ط١، طبع في إيطاليا في مطابع SAGDOS, (Milano) Brugherio ، منشورات منظمة المدن العربية، ١٩٨٣ م.

١٨. يوسف، حمد عبد الله . بيت المقدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية . ط١، القدس، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢م .

١٩. يوسف، حمد أحمد عبد الله . من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس، ج٢، بيت المقدس، مؤسسة إحياء التراث والبحوث الإسلامية، ٢٠٠٠م .

ثانياً ـ المراجع الأجنبية:

1. *Landay Jerry. M. The Dome of the rock . London, The Readers digest association limited , 1972*
2. *Richmond.E. T. The dome of the rock in Jerusalem, A description of its structure decoration. clarendon press, 1924.*

الـصحة الـوقـائية في الإسـلام

د. مروان علي القدومي*

* أستاذ مشارك/ كلية الشريعة/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس/ فلسطين.

ملخص:

نحاول من خلال هذه الدراسة تركيز الأضواء على الوقاية الصحية في الإسلام دراسة مقارنة، تظهر ما يتميز به الطب الوقائي في الشريعة الإسلامية من خصائص عظيمة على نظيره في القرن الحادي والعشرين، فالإسلام لم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالطب الوقائي إلا ذكرها تلميحا أو تصريحا.

وقد اشتملت الدراسة على التشريعات الوقائية للرعاية الصحية التي يقوم عليها بناء الصحة المتكامل على مستوى الفرد والمجتمع وهي النظافة والطهارة، وتحريم الخبائث، وأخطار التدخين، ومنع اقتناء الكلاب إلا للضرورة وإجراء الفحص المخبري قبل الزواج، والذبح وفق الطريقة الإسلامية، والوقاية من الحوادث والشروط الصحية للدفن، ودور ولاية الحسبة في الرقابة الصحية، وبخاصة على الصناعات الغذائية والصناعات الدوائية والطبية.

وركزت الدراسة على خصائص الوقاية الصحية من حيث فضل السبق والشمولية والبساطة والتيسير، وصفة الديمومة لضمان قيام مجتمع متميز. ثم تطرقت إلى القواعد الصحية لمنع انتشار الأوبئة؛ مثل قاعدة العزل؛ وقاعدة الحجر الصحي، وقاعدة تحريم بعض الأطعمة والاشربة، وسنن الفطرة، والدعوة إلى التعقيم والحذر من التلوث. وتحدث البحث عن دور العبادات في الوقاية الصحية، وأثر الإيمان في الشفاء من الأمراض بأذنه تعالى .

وفي نهاية البحث رُصدت أهم النتائج والتوصيات.

والله ولي التوفيق

Abstract:

This paper examines health protection from an Islamic perspective. It specifically highlights the features of preventive medicine in Islamic Shari'a in comparison with its 21st century counterpart. Islam has not left one stone unturned pertinent to medicine and healthcare. There are numerous texts which refer explicitly or implicitly to this kind of medicine. The paper began with preventive legislations for healthcare on which integrated/ comprehensive preventive medicine, on the individual and community levels, builds on. These include cleanliness, purity, forbiddance of badness and avoidance of smoking health risks. Further, Islam has made it taboo to keep dogs at home, except for necessity. It has asked for a lab medical test before marriage and slaughter of animals in accordance with the Islamic tradition and accident prevention measures. It has set conditions for burial procedures. In addition, Islam has introduced the hisba system to ensure health protection when it comes to foodstuff industry and pharmaceuticals as well. The paper also dwelt on health procedures to prevent infectious diseases. These included isolation and quarantine measures, principle of banning some foods and drinks, like pork and alcohol, patterns of instinct control and call for sterilization and caution from pollution. The paper then examined the role of ibadat (actions of serving Allah) in health protection and impact of iman (belief/ conviction) on cure from diseases, God willing. The paper concluded with some important results and recommendations.

مقدمة:

الحمد لله الذي خلق الإنسان وأسبغ عليه نعما كثيرة، منها نعمة الصحة والعافية، وحث المسلمين على الاهتمام بالتعليمات الصحية والالتزام، وشرّع للبدن حقوقاً طبيعية أوجبها على الفرد نفسه، وعلى الدولة والهيئة الاجتماعية .

وقد اعتمد الإسلام– بشكل ايجابي لمبادئ الصحة العامة– على التركيز في المجالات التشريعية، ومن خصائصها الاتزان والاعتدال والتوازن إزاء الجسم والعقل والروح والنفس، وقد كانت عنايته بالتدابير الوقائية من الأمراض والمخاطر فائقة وذات اهتمام كبير، حيث طلب من المسلم أن يتخذ من التدابير ما يصون به نفسه وأهله، ويجنبهم وإياه كل أسباب الأذى والهلاك في الدنيا والاخره، قال تعالى ﴿...ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾(١).

والوقاية من الأمراض يتفق ومقاصد الشريعة الإسلامية، ويحقق للإنسان مصلحة كبرى حيث يعيش سليماً معافى من الأمراض والمشاغل والمشكلات .ويعد الأصل التشريعي المعروف «سد الذرائع، قمة المنهج الوقائي في الإسلام،حيث تمنع طبقاً لهذا الأصل كل الأفعال المباحة، إذا كان فعلها سيؤدي إلى مضرة أو مفسدة، ومن القواعد الفقهية للأساليب الوقائية،درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»

ومن هنا تعدُّ الوقاية الصحية مبدأ إسلامياً أصيلاً يدخل ضمن المقصد العام الذي وضعت الشريعة من أجله، وهو جلب المصالح للخلق ودرء المفاسد عنهم .

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة التعرف إلى جملة من الأهداف تتمثل فيما يأتي:

١. التعرف إلى التعليمات والإرشادات والتوجيهات التي تحمي الإنسان من الأوبئة والأمراض السارية.

٢. بيان الإجراءات الوقائية لحماية الفرد والمجتمع من الأوبئة قبل حدوثها.

٣. الاطلاع على الإجراءات الوقائية لحماية المجتمع من الأمراض والأوبئة الوافدة.

٤. بيان الإجراءات المتخذة لمنع العدوى وانتشارها.

٥. بيان العلاقة التي تربط بين الدين والصحة.

دراسات سابقة:

كثيرة هي المراجع التي تحدثت عن مبادئ الصحة العامة في الإسلام، فهناك العشرات من المؤلفات القديمة والحديثة التي تناولت القضية الطبية، حيث لقيت اهتماماً كبيراً من علماء الشريعة الإسلامية، فقد نص عليها الإمام مالك رحمه الله تعالى في الموطأ، وأفرد الإمام البخاري جزءاً من صحيحة للطب، ووضع الإمام الشافعي- رضي الله عنه- باباً إضافياً في الجزء السابع من كتاب الأم بعنوان «خطأ الطبيب» ولم تخل الكتب الفقهية من الحديث عن هذا الموضوع في أبواب متعددة،وكذا أبواب الحسبة الموجودة في كتب السياسة الشرعية .

يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: «والطب كالشرع، وضع لجلب مصالح السلامة والعافية، ولدرء مفاسد المعاطب والأسقام» [٢]

أما الصحة الوقائية بأنماطها المتعددة، فلم تحظ بقدر كاف من الدراسة والتحليل من الزاوية الشرعية في وقتنا الحالي،وهذا لا ينفي وجود العديد من المقالات والدراسات التي تتحدث عن هذه الجزئية أو تلك من جزئيات هذا البحث، ومن هذه الدراسات التي تيسر لي الإطلاع عليها: تفوق الطب الوقائي في الإسلام للدكتور عبد الحميد القضاة [٣] ، حيث أشار الى أسس الطب الوقائي وخصائصه وإرشاداته، والطب الوقائي في الإسلام للدكتور عمر محمود عبد الله الذي تناول الموضوع بشمولية واسعة، ولكنه لم يتناوله من خلال بعده الفقهي، وما يرتبط به من أحكام وضوابط، كما هو الحال في هذا البحث إلا نادراً، وهو ما أمل أن تسهم هذه الدراسة بشيء منه، والله الموفق

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي بأحد صوره التحليلية نظراً لملاءمتة لأغراض الدراسة، وذلك من خلال دراسة المواضيع ذات العلاقة وتحليلها، واجتهدت في عرض الأمور منه، وجمعت شتات هذا الموضوع، واجتهدت في إخراج زبدها فألفت بين مواضيعها،فكان هذا البحث،وقسمته إلى أربعة مباحث، كان المبحث الأول: في التشريعات الوقائية للرعاية الصحية في الإسلام، والثاني: في خصائص الوقاية الصحية في الإسلام والثالث: في القواعد الصحية لمنع انتشار الأوبئة، والرابع: في دور الإيمان وأثره في الشفاء من الأمراض

ثم اتبعت كل ذلك بالخاتمة والتوصيات

المبحث الأول:

التشريعات الوقائية للرعاية الصحية في الإسلام:

أكد الإسلام من هذه الزاوية على الصحة والمعافاة، ودعا الإنسان إلى حسن الاستفادة من هذه النعمة والحفاظ عليها، وعمل على تعزيزها وتقويتها وتنميتها لئلا يعرض الإنسان نفسه للمكاره أيا كانت، (درهم وقاية خير من قنطار علاج) ، وورد أن (الحمية رأس كل دواء) [٤]، فخير علاج للمرض هو أن نتفادى الوقوع فيه.

لذلك أمر الإسلام بالوقاية اتقاء لأي مكروه يمكن أن يقع سواء أكان ذلك مرضا أم ضرراً متوقعاً. [٥]

فالإرشادات النبوية واضحة جلية في الوقاية بدرجة تكون أقرب إلى الأمر والإلزام، وكلما كانت الحماية مرتبطة بالمقاصد الخمسة التي جاءت بها الشريعة، كلما كانت درجة الإلزام أكبر، وقد طرق عليه الصلاة و السلام موضوع التلوث بشكل مباشر، محذراً أمته من المخاطرة، فقد حدد لهم مصادر التلوث وعلمهم طرق الوقاية منها، فاعتبر فضلات الإنسان نجسه (ملوثة) ، ويجب على كل مسلم أن يتنظف منها، وتشخيصها بهذا الشكل المحدد، هو خطوة كبيرة في مسيرة الطب الوقائي. قال– صلى الله عليه وسلم– : «إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليستطب بثلاثة أحجار فإنها تجزي عنه».[٦]

وعن عائشة– رضي الله عنها– قالت: «ما رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– «خرج من غائط قط إلا مسّ ماء».[٧]

فيجب تنظيف مخرج البول، ومخرج البراز، والأعضاء التناسلية بالاستنجاء أو الاستطابة، وهو غسلها بالماء أو مسحها بالورق أو الحجرعند تعذر وجود الماء، لأنه يزيل النجاسة بالكامل.

ويجب تقليم الأظفار، وإزالة الأشعار التي تتراكم فيها الأوساخ، وتعهد شعر الرأس بالنظافة. قال صلى الله عليه وسلم: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، و تقليم الأظفار، وقص الشارب».[٨] وعالج القرآن الكريم أهم الأسس التي يقوم عليها بناء الصحة المتكامل على مستوى الفرد والمجتمع ومنها[٩]:

النظافة والطهارة:

اهتم القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بالنظافة الشخصية ونظافة البيئة، فقد حض القرآن الكريم على أمرين مهمين في حياة الفرد وهما: الطهارة والوضوء. قال تعالى:

﴿يا أيها الذين امنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا بروؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾.(١٠)

فإذا علمنا أن عدد الصلوات في اليوم هي خمس صلوات، ما عدا السنن، وعلمنا اشتراط الوضوء للطواف بالبيت العتيق، ولمس المصحف ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾.(١١) أدركنا تأثير الوضوء الوقائي وفوائده الصحية في تخليص الأجزاء المكشوفة من البدن من الأوساخ التي تعلق بها باستمرار، وفي تنشيط الدورة الدموية العامة، وتجديد حيوية الجسم بتنبيه الأعصاب وتدليك الأعضاء. وكذلك فقد حبب القرآن الكريم إلى الطهارة عامة بأسلوب رقيق، فقال تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين﴾(١٢)

ويمكن تقسيم الطهارة إلى قسمين: طهارة الجسم وطهارة الملبس وطهارة الجسم من الجنابة بالنسبة للرجال والنساء ﴿وان كنتم جنبا فاطهروا﴾.(١٣) وكذلك الطهارة من الحيض أو النفاس بالنسبة للمرأة. وفوائد الطهارة الصحية متعددة منها تنشيط الجسم وبث الحيوية فيه، وتخليصه من الأدران العالقة به.

وهناك دراسات عديدة قام بها علماء متخصصون منهم البروفسور فايندوف الذي اثبت أن الاستحمام الواحد يزيل عن جلد الإنسان أكثر من مائتي مليون جرثومة، ولأن هذه الجراثيم لا تقف لحظة عن التكاثر، فلا بد من إزالتها بشكل دوري ومستمر. والمتتبع لموضوع الغسل والنظافة، يجد كثيرا من المناسبات التي يكون فيها تنظيف البدن، كالغسل يوم الجمعة. قال عليه الصلاة والسلام: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر ما بينه وبين الجمعة الأخرى».(١٤) إن الطهارة والنظافة جزء من تعاليم الإسلام، وجزء من العبادة المقررة على المسلم أن يأتي بها ، حتى يكون مؤمنا حقاً.

واللباس كذلك من نعم الله عزّ وجل، لدفع البرد والحر، وللزينة والتجمل، ويشترط فيه النظافة والجمال قال تعالى: ﴿وثيابك فطهر﴾(١٥) فطهارة الثياب شرط لصحة الصلاة التي لا تنقطع، وهذا يتطلب من الإنسان حرصاً دائما على طهارة ملبسه من جميع النجاسات، ولا يخفى ما لهذا الأمر من قيمة في إبعاد الإنسان عن مصادر التلوث بالعوامل المعدية(١٦)

وأما نظافة البيئة وطهارتها، فتعاليم الإسلام تدعو إلى حمايتها والمحافظة عليها من التلوث، وتجعل تلويث البيئة بأي ملوث من نجاسة أو مخلفات ضارة، أو مواد سامة من الإفساد في الأرض، يحاسب الله تعالى عليه حساباً شديداً.

ومن المعلوم أن تلويث الماء يؤدي إلى مخاطر جسيمة، وأضرار بالغة، ويمنع أسباب الحياة، فكان أمر رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم– بمنع تلوث الماء وذلك بنهيه عن البول في الماء الراكد حيث قال: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد».[١٧] وذلك أن البول ينجسه ويلحق الضرر بمن استعمله. ويلحق بالتبول التغوط؛ لأنه أقبح والنهي عنه أشد، ويقاس عليهما كل ما يتلوث به الماء، ويصيب الإنسان في صحته كإلقاء فضلات المصانع والحيوانات النافقة، والقمامة في الأنهار والترع.

واعتبر الإسلام من شروط صحة الصلاة أن تكون الصلاة في مكان طاهر من النجس والأقذار، ولا شك في أن اعتبار البول والغائط والميتة وغيرها من الفضلات نجساً يقتضي العمل على تصريف هذه الفضلات بأحسن السبل، وعدم استخدامها في ري الأراضي والمزروعات مباشرة، فمن المعروف في الطب الوقائي أن سوء تصريف الفضلات من أهم أسباب انتشار الأوبئة والأمراض في البلدان المتخلفة.

تحريم الخبائث:

حرم الإسلام أنواعاً من الطعام والشراب، وأحلّ ما طاب منها، قال تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾. [١٨] ومن الأنواع التي حرمها **الله** تعالى: لحم الخنزير، ولحم الميتة، ولحوم الحيوانات المفترسة، ولحوم الطيور الجارحة، والدم المسفوح، والخمر. قال **الله** تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم، ولحم الخنزير، ومما أهل لغير **الله** به، والمنخنقة، والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾.[١٩] وعن عائشة رضي **الله** عنها، أن رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم– قال: «كل شراب أسكر فهو حرام».[٢٠]

لقد جاء الإسلام مطهراً لنفوس البشر، يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فالخمر وهي أم الكبائر، ويتبعها في هذا التحريم المخدرات بصورها المختلفة، كما حرم التعامل بالربا، وحرم الزنا وقتل النفس، وهذه كلها من البلايا التي ابتليت بها المجتمعات الغربية، فالنظام الربوي أوجد ظروفاً يترتب عليها إفلاس كثيرٍ من التجار مما يسلمهم إلى الاكتئاب فالانتحار، وانتشار المخدرات والخمور يؤدي إلى كثيرٍ من الحوادث التي يترتب عليها إزهاق النفس البريئة، و غياب العقل والجنون والإصابة بأمراض مختلفة، إضافة إلى انتشار الجرائم.[٢١]

وعدَّ الإسلام الميتة أذى ورجساً، وحرم الانتفاع منها بأي شيء، أي أن **الله** حرم الميتة لما يتوقع من ضررها، لأن الميتة إما أن تكون ماتت بمرض سابق أو بعلة عارضة، وكلاهما لا يؤمن ضرره، بالإضافة إلى أن الطباع السليمة تعافها وتكرهها وتستقذرها. **والله** عزّ وجلّ لم يحرم شيئاً إلا وفيه ضرر محقق.[٢٢]

والعالم الآن يئن من وطأة الأمراض الجنسية التي أصبحت تتصدر قائمة الأمراض المعدية. وعليه فإن حكمة الله بالغة في تحريم هذه الأشياء كما حرم مجرد الاقتراب منها والتفكير فيها، حيث يقول الله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلا﴾.[٢٣]

ولا ريب أن مقررات العلم والطب المعاصرين، وما كشفته من آثار التدخين على أصحابه، وكذا على من يكون قرب المدخن، قد أكدت وقوع الضرر، فتلوث الهواء في الغرف أو الحافلة أو القاعة يضر ضرراً بالغاً بالحاضرين، يقول عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار».[٢٤]

أخطار التدخين:

فالتدخين إذا مرفوض من قبل الإسلام، بل إنه عادة ممقوتة؛ لأنه يضر بالمصالح الضرورية للخلق، نظراً لما يجلبه من الأذى على مدخنه في البدن والنفس والمال، وأنه نوع من الانتحار البطيء.

منع اقتناء الكلاب إلا للضرورة:

فقد أثبت العلم الحديث أن الكلاب تنقل أمراضاً كثيرة للإنسان كداء الكلب والأكياس المائية ، والرسول –صلى الله عليه وسلم– يقول: «من اتخذ كلباً إلا كلب صيد أو زرعٍ أو ماشيةٍ، انتقص من أجره لكل يوم قيراط».[٢٥]

وقد أخذ جمهور أهل العلم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة من هذا الحديث تحريم اقتناء الكلاب لغير حاجة مشروعة ككلاب الصيد والحراسة.[٢٦]

إجراء الفحص المخبري الطبي قبل الزواج:

أولى الإسلام عنايته بالأسرة، ورسم لها الأحكام الشرعية الكفيلة ببقائها وصلاحها فهي تمثل لبنة في بنيان المجتمع، وركز ديننا الحنيف على توفير الضمانات للزواج الناجح، فأمر بتحري الدين في الأزواج، وحث على الكفاءة بين الزوجين لتوفير ضمانات لصحة النسل، حيث اعتبر الإنجاب مقصداً أساسياً من مقاصد الزواج، وحثّ على الاغتراب في الزواج والابتعاد ما أمكن عن الزواج من القريبات، وذلك ليكون المواليد أقوياء وأذكياء، وقد وردت في ذلك آثار عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأقوال منسوبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وإلي بعض الصحابة منها: «اغتربوا لا تضووا»، «ولا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاوياً»، أي ضعيفاً.[٢٧]

وأرشد الشارع إلى استحباب التخير للنطف، وأثبتت الدراسات الطبية وجود بعض الأمراض الوراثية التي تنتقل إلى الأبناء ويستعصي علاجها. ويمكن تلافي كثير من هذه الأمراض إذا أجري الفحص الطبي للخاطبين قبل إجراء العقد. وفي ذلك تحقيق السعادة لهما وتجنيب النشئ الأمراض والإعاقات، وحفظ المجتمع وتحصينه بقوة أبنائه. قال عليه الصلاة والسلام: «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس».[٢٨]

الذبح وفق الطريقة الإسلامية:

اشترط الإسلام أن يكون الذبح وقطع الأوعية الدموية الكبيرة، والذبيحة بين أيدي القائم بالفعل في أتم صحتها ونشاطها، ويستمر قلبها بالنبض حتى يطرح أكثر ما يمكن من الدم بقوة الدفع هذه، حتى تموت وتكون قد تخلصت من أكثر دمها. وطريقة الذبح الإسلامي هي الفضلى، لأنها أرفق بالحيوان من جانب، وأن اللحم الناتج عن هذه الطريقة أطيب حيث يبدو طازجاً بينما اللحم المذبوح الناتج عن الصعق أزرق اللون كأنه مخنوق، وهو فعلاً حكمه كالمخنوق؛ لأن الدم المشبع بثاني أوكسيد الكربون لم يغادر الذبيحة، وسرعان ما يتغير ويتفسخ.[٢٩]

الشروط الصحية للدفن:

ومن تعاليم الإسلام في الدفن: الإسراع في تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه، ويكون الدفن في اللحد، وفي تطبيق هذه الإجراءات بعناية الوقاية التامة للأحياء الذين يشيعون الميت، ففي الغسل والإسراع في الدفن ، قبل أن تتفسخ الجثة وتنتشر الجراثيم فتؤذي من حوله من المشيعين له، وخاصة عند انتشار الأوبئة.

وفي طريقة الدفن رحمة بالإنسان أن يحفظ رفاته التراب، لا كما تفعل بعض الشعوب في حرق الجثة، وان كان في ذلك وقاية تعادل الدفن في باطن الأرض، ولكنها تحمل كثيراً من الإهانة والقسوة بالإنسان الذي كرمه الإسلام حياً وميتاً.[٣٠]

الوقاية من الحوادث:

ولا يجوز للمسلم أن يتخذ سلوكاً يعرضه للخطر، أو يلقي به إلى المهالك، كتعريض نفسه وبيته للحريق، ، أو تعريض طعامه وشرابه للتلوث، وينسحب ذلك على جميع أنواع البلاء (مثل حوادث السيارات وسائر الحوادث) . قال تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.[٣١]

وقال عليه الصلاة والسلام: «أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب».[٣٢] وهكذا وضع الإسلام القواعد الأساسية للوقاية من الحوادث قبل أن يظهر علم السلامة، ويتبلور في إجراءات محددة في مجالات الصناعة وحوادث الطرق وحوادث المنازل.

دور ولاية الحسبة في الرقابة الصحية:

الحسبة وظيفة دينية تعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحمل الناس على رعاية المصلحة العامة، وقد فرض المسلمون نظام الحسبة للتفتيش على أصحاب المهن الغذائية وحوانيت الأطعمة ومراقبة النظافة، وعدم غش الأغذية وحفظ الصحة العامة.

وكان والي الحسبة يأمر الطباخين بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب، وهوام الأرض بعد غسلها بالماء الحار، ويمنعهم من طبخ لحوم المعز مع لحوم الضأن. وكان يقوم بتفتيش حوانيت القصابين، ويمنعهم من الذبح على أبواب دكانيهم خشية تلويث الطريق بالدم. وحصر الذبح في المجازر ويأمرهم بإدخال اللحوم داخل حوانيتهم، فلا يعلقونها خارجاً، لئلا تؤذي المارة وتلوث ملابسهم.[٣٣] وكان والي الحسبة يراقب الطحانين ويلزمهم بغربلة القمح وتنقيته قبل الطحن، ويراقب الخبازين في حوانيتهم ومخابزهم، ويطالبهم بنظافة المعاجن ونظافة الماء المستعمل للعجين وأن يكون العجان ملثما،[٣٤]

وكان والي الحسبة يأمر البقالين بغسل البقول وتنقيتها من الحشائش، وينهى باعة الخضروات عن بيع ما فسد، ويمنع جلابي الزبل من الدخول إلى الأسواق، لما فيه من الضرر من الرائحة الخبيئة، وإفساد لباس الناس عند المحاكة في الأسواق والطرقات الضيقة، وتضييق أماكن البيع والشراء على المسلمين، وعليه أن يعين لهؤلاء الجلابين مكاناً خاصاً يقفون فيه، ويضعون بضاعتهم، ويقصدهم من يحتاج إليهم في ذلك المكان.[٣٥]

حتى إن المحتسب كان يراقب الأطباء ويأخذ عليهم عهد أبو قراط، ويجبر الطبيب على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه، ويتفقد أحواله الصنا ع الذين يصنعون الأشربة والأطعمة والملابس والآلات وغيرها فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق[٣٦]

ومن مهمات المحتسب: إتلاف البضائع الفاسدة وإراقة الخمور، ومنع التاجر الغشاش من العمل، وإعلان اسمه ليتجنبه الناس، وكذلك كان يستعمل عقوبة التجريس أي التشهير ببعض الصنا ع الذين يسيئون الائتمان ويغشون.[٣٧]

المبحث الثاني:

خصائص الوقاية الصحية في الإسلام:

إن المتتبع لنظرية الهدي الصحي في الإسلام، يستطيع إدراك جملة من الخصائص الآتية:

١. فضل السبق:

إن الإسلام جاء ليعالج حياة الإنسان على الأرض معالجة دقيقة من خلال النظم والتشريعات التي تعمل على سعادة الإنسان وخيره، ومن ضمن هذه التشريعات مجموعة القواعد الوقائية في المجال الصحي، والتي استنبطها فقهاء المسلمين من آيات الأحكام الواردة في القران الكريم والسنة المطهرة، والتوجيهات الدينية التي تتصل بأنماط الحياة وسلوكيات الإنسان العديدة والمباشرة، حيث يحقق اتباعها حفظ صحة الإنسان وتعزيزها.

إن إشارات الرسول صلى الله عليه وسلم – في الطب الوقائي واضحة كل الوضوح في قضايا كثيرة ومنها إشارته ، بل دعوته إلى استعمال السواك وقد أورد المحدثون أحاديث كثيرة تدعو المسلم إلى استعمال السواك، وهي من الأحاديث الصحيحة، كقوله صلوات الله عليه: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» [٣٨] وبعد ١٤ قرناً وجد الأطباء فوائد لا تحصى في استعمال السواك تتعلق بالطب الوقائي، وجعلوا مقارنة بينه، وبين استعمال الفرشاة والمعجون معاً ، فتبين لهم: (أن السواك يفوق من الناحية الكيماوية والميكانيكية الفرشاة والمعجون بمرات عديدة).[٣٩]

ومما يفخر به كل مسلم أن الإسلام في أول شروق شمسه على الوجود، دعا إلى التعقيم، وحذر من التلوث بالميكروبات، وأطلق على ذلك مصطلح الطهارة؛ لتكون البيئة التي يعيش فيها الإنسان بعيدة عن الميكروبات، وحذر من النجاسة، ودعا إلى الوقاية منها و إزالتها، إذا وجدت، ومفهوم الحجر الصحي لم يعرفه العالم إلا في أواخر القرن التاسع عشر، بينما تكلم فيه من لا ينطق عن الهوى قبل أربعة عشر قرناً، وهذه معجزة من معجزات الرسول– صلى الله عليه وسلم– الباهرة فوق معجزاته الكثيرة، في الوقت الذي كان العالم يغط في سبات عميق.

٢. الشمولية:

يتصف الإسلام بالتكامل في أحكامه وتشريعاته، كما يتصف بالشمول في مبادئه وتوجيهاته، وهذا شأن القواعد الوقائية في الإسلام، لأنها تتصف بالشمولية أيضا، إذ إنها تتعامل مع الإنسان على أنه مادة وروح، وعلى أنها ملزمة، لكل من تحققت به صفة الإسلام، لذا نجد القرآن الكريم في كثير من آياته يؤكد الجانب الوقائي لحياة الإنسان، من المرض وسلوكيته من الانحراف والتجاوز، وجاءت التعليمات الوقائية متداخلة مع العبادات، على الوجة المطلوب من الالتزام والجدية والتطبيق اليومي المستمر.

فالمؤمن مدعو – إذن– لحماية جسمه من العلل، وصيانته من الأمراض، وعدم التفريط به فيما يضره ولا ينفعه، ومعرفة طاقة الجسد، ولا يتعداها، وان يعطي الجسد حقه من الراحة لاستجماع واستعادة قابليته ولياقته، ليكون مهيئاً لخدمة الإنسان، وقد قال الرسول صلى **الله** عليه وسلم: (وإن لجسدك عليك حقاً) [٤٠]

ويحض الإسلام على التعلم، ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويؤكد على العمل الذي ينفع، وليس يخفى أن التعلم يرفعه من المستوى الصحي والحضاري للمتعلم، قال تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون﴾.[٤١]

٣. الديمومة:

ان الالتزام بقواعد الوقاية الصحية في الإسلام ليس مرهوناً بمدة محددة، ولا بسن معينة، إنما يستمر الالتزام به طيلة حياته، لأنها جزء من عقيدته، فإذا تخلف عن تنفيذها، يكون قد ترك تكليفاً شرعياً، وعطل حكماً من أحكام الإسلام يؤثم عليه . وبهذه الديمومة يضمن الإسلام مسلماً قوياً، ومجتمعاً نظيفاً.[٤٢]

٤. البساطة والتيسير:

ان المتتبع لنظرية الطب الوقائي في الإسلام يلاحظ فيها خاصية البساطة في التكليف واليسر في التنفيذ، فالسواك والوضوء والختان والاستحداد وتقليم الأظافر، ونتف الإبط وطهارة البدن والثوب وتجنب الملاعن الثلاث عدم الوطء في الحيض والنفاس، وتحري الغذاء الطيب، واجتناب الغذاء الخبيث وحصر النشاط الجنسي في إطار الزواج وهي أمور لا تستلزم كلفة مالية تثقل الكاهل، فيها خاصة البساطة واليسر، وفي ذلك ضمان للصحة وانسجام مع سنن **الله** في الجسم والنفس وفي الفرد والأسرة والمجتمع، وفي الإنسان وبيئته.

المبحث الثالث:

القواعد الصحية لمنع انتشار الأوبئة:

يعدُّ النظام الإسلامي أول نظام إنساني سن القواعد الصحية لمنع انتشار الأوبئة كقاعدة العزل وقاعدة الحجر الصحي.

- **قاعدة العزل:**

لقد وضع الإسلام تعاليم واضحة لعزل المرضى المصابين بداءٍ معدٍ في البيوت أو المستشفيات، وعدم السماح لهم بالاختلاط بعوادهم أو بالآخرين وعلى المريض أياً كان موقعه أن يراعي الله في الناس في صحتهم، وفي ذلك أشار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بقوله: «لا يورد ممرض على مصح»[٤٣]؛ أي لا يأتي صاحب الإبل المريضة ليوردها الماء، وعلى الماء إبل أخرى صحيحة تشرب قبله فيؤدي ذلك إلى اختلاطها، فتحصل العدوى وينتشر المرض، لذا منع الإسلام خلط المريضة بالصحيحة.

وإن كان لهذه العناية بالحيوانات، فالعناية بالإنسان أولى وأوجب، وهكذا يكون عزل المصابين بالأمراض المعدية كالخانوق[٤٤] والسل الرئوي والجدري وداء الكلب والكوليرا وأنفلونزا الخنازير. «ضرورة حتمية حث عليها الإسلام ليصون الحياة، ويبقي على سلامتها، ويدفع عن الإنسان الأذى والمكروه، وما يعكر صفو الحياة ويعطلها».[٤٥]

فعلى المصاب أن يخلد للراحة أياماً عدة للحد من انتشار المرض، وما يؤذي الناس، فيكون سبباً في إصابة غيره من الناس من جراء الاختلاط بهم في المساجد والأسواق والمحلات العامة، قال الإمام الطبري في تهذيب الآثار: «فانه غير جائز لمريض أن يورد على صحيح، ولا ينبغي لذي صحة الدنو منه، لا لأن ذلك حرام ، ولكن حذراً من ان يظن الصحيح ان نزل ذلك به يوما أو أصابه، إنه إنما أصابه بما كان من دنوه منه وقربه، أو من مؤاكلته ومشاربته، فيوجب له ذلك الدخول».

ويبين هذا ويؤكده ويزيده وضوحاً أن الداء، لو كان شأنه أن يعدي، لما سلم أحد منه، لذا نرى أن أكثر من يلامس المرضى من أهاليهم وخدامهم وملابسهم لا يصيبهم شيء من ذك مع طول الملازمة وكثرة المجالسة.[٤٦]

- **قاعدة الحجر الصحي:**

أقر الرسول الأكرم– صلى الله عليه وسلم– مبدأ الحجر الصحي وقاية من الأمراض

المعدية الخطيرة، وظهر ذلك جلياً في موضوعين: مرض الطاعون ومرض الجذام:

أ. **مرض الطاعون**:

قال عليه الصلاة والسلام: «الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض، وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه».[٤٧] واستنادا لهذا الحديث النبوي الشريف، فقد فرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، الحجر الصحي على مناطق في بلاد الشام، وذلك حينما انتشر مرض الطاعون الذي عرف بطاعون عمواس نسبة إلى بلدة عمواس في فلسطين التي تبعد عن مدينة القدس ٣٠ كلم من الجهة الغربية، وقد اكتشف مرض الطاعون أول ما اكتشف فيها[٤٨].

والطاعون من الأمراض الفتاكة الخطيرة، ولهذا أمر النبي– صلى الله عليه وسلم– بأن لا يخرج من الأرض التي وقع فيها، وأمر السليم بأن لا يدخل إليها، وذلك حتى يبقى المرض محصوراً في بقعة واحدة، فلا ينتشر ولا تتسع دائرة الإصابة به.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه ، إنه قال: «الطاعون فتنة على المقيم وعلى الفار، أما الفار فيقول فررت فنجوت، أما المقيم فيقول: أقمت فهلكت، وإنما فرَّ مسلم من لم يجيء أجله، وأقام فهلك من جاء أجله، فالنهي عن الدخول إلى أرض الطاعون تأديب وتعليم والأمر بالمقام بأرضه تفويض وتسليم.»[٤٩] واحتسابه امتحان من الله يكفّر فيه خطايا المبتلين حتى يصرف الله عنهم هذا الوباء،

ب. مرض الجذام:

قال عليه الصلاة والسلام بحق مرض الجذام «فر من المجذوم فرارك من الاسد».[٥٠] والمجذوم هو المصاب بمرض الجذام من الأمراض المعدية، وهو عبارة عن تآكل في الأعضاء، واستناداً إلى هذا الحديث النبوي الشريف، فقد مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– وهو في طريقه إلى الشام على قوم مجذومين أي مصابين بمرض الجذام من نصارى نجران فأمر بمعالجتمهم، وفرض لهم شي من المال، وهذا يؤكد اهتمام الإسلام بمعالجة المرضى مسلمين وغير مسلمين على حد سواء، كما ورد أن الخليفة الراشدي الخامس، عمر بن عبد العزيز الأموي قد عزل المجذومين وأمر بمعالجتهم، ويقاس على الطاعون والجذام كل مرض معدٍ، فالأمراض السارية التي تفتك بالناس، فقد حرص الإسلام على صحة الأفراد والجماعات ، وبين للبشرية ان هناك أوبئة وجراثيم تنقل العدوى من مكان إلى أخر، فتسري من المرضى إلى الأصحاء، فهذا بيان عظيم للبشرية قاطبة. إن الإسلام كشف سر الكون قبل ١٤ قرنا قبل ظهور الأجهزة الحديثة، بل إنه لم يعطل العمل بالعلم ودواعيه، وإنما حثّ على

مواصلة العلم والاكتشاف والتقدم التكنولوجي، فلم يقل بهذه الأحاديث ويتوقف، بل ساهم في حل مشكلات العصر، ودعا إلى مواصلة التقدم العلمي واكتشاف الميكروب.

وعلى سبيل الوقاية الصحية التي شرعها الإسلام للتخفيف من حدة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة، فقد أمر بالتطعيم العام للناس أجمعين، ليس هروباً من قضاء **الله** وقدره، بل ترسيخاً له، «فقد روي أن رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم – رد على رجلٍ جاء يسأله عن أدوية يتعاطاها للوقاية من المرض أيمنع هذا من قدر **الله**؟ ، فقال رسول **الله** –صلى **الله** عليه وسلم– : بل هي من قدر **الله**».(٥١) ومن الرعاية الصحية للأطفال تطعيمهم ضد الأمراض المهلكة والتفريط بذلك نوع من التضييع لهم، بل قتل لهم، وهو خسران مبين، قال **الله** تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم﴾.(٥٢)

وهذا يعني لكل دلالة، وضوح حرص الإسلام الأكيد على التخفيف من حدة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة، وذلك بحصار المرض ومنع انتقاله، والحجر الصحي صورة من صور المحافظة على البيئة، وسبب من أسباب المحافظة على صحة الناس في المجتمع.

المبحث الرابع:

دور الإيمان وأثره في الشفاء من الأمراض:

ان الإسلام اهتم بصحة الإنسان وجعلها من أعظم النعم التي يتنعم بها الإنسان، بإنعام **الله** على عبده بعد نعمة الإيمان واليقين، وقد قال النبي صلى **الله** عليه وسلم: «ان الناس لم يعطوا في الدنيا خيراً من اليقين والمعافاة، فسلموهما **الله** عز وجل. (٥٣)

ويمكن القول إن صحة الإنسان مرتبطة ارتباطاً مباشراً بثلاث من الضرورات الخمس(٥٤) التي أمر **الله** بالحفاظ عليها ورعايتها، وهي النفس والعقل والنسل؛ لأن انتفاء الرعاية الصحية، سيؤثر سلباً على النفس، وعلى العقل وعلى النسل، ويحتاج الإنسان إلى الصحة كذلك للحفاظ على الدين وعلى المال.

ويعدّ الإسلام الصحة كحق من الحقوق الأساسية لكل إنسان، تستند المسؤولية فيها في ثلاثة اتجاهات مختلفة النفس والمجتمع والدولة.

واعتمد الإسلام بشكل إيجابي لمبادئ الصحة العامة على التركيز في المجالات التشريعية فالنظافة وهي واحدة من أهم عناصر التكوين والازدهار في الحياة المادية، والتي تحمي من الأمراض والأوبئة الفتاكة، وقد حثَّ الإسلام على النظافة في كل شيء حيث تشمل البدن والملابس والمكان واعتبر النظافة من الإيمان، كما نهى عن تلويث البيئة،

ومنع من التبول في الماء الراكد غير الجاري.

ومن فضل **الله** عز وجل علينا وعلى الناس، أن التوجيهات الدينية التي تتصل بأنماط الحياة وسلوكيات الإنسان عديدة ومباشرة، فهنا دعوة إلى عدم الإسراف في الطعام والشراب، وهناك تحذير من ظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وهناك ثمة نهي عن الضرر والضرار، وعن إلحاق الأذى بالنفس والغير، فيستطيع الإنسان حفظ صحته بأن يحافظ على الميزان الصحي، في حال اعتدال فلا يطغى في هذا الميزان ولا يخسر الميزان، التزاماً بما أمر به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾.(٥٥)

فالاعتدال في أي أمر، هو أسمى درجاته والاعتدال في أمر الطعام والشراب هو القاعدة الصحية العريضة التي أقرها الإسلام، فقد كان هذا الاعتدال واقعاً في حياة الرسول– صلى **الله** عليه وسلم– وحياة صحابته، فلم تقتصر توجيهاته على عدم الإفراط في الطعام، بل حذر أيضاً من التقتير فيه، ومنع أقواماً عن الصوم أياماً متتاليات دون إفطار. يقول لقمان الحكيم يوصي ولده بقوله: «واذا كنت في الطعام فاحفظ معدتك وعمر بن الخطاب رضي **الله** عنه يحذر من البطنة فيقول: «وإياكم والبطنة في الطعام فانها مفسدة للجسم، مورثة للسقم...». (٥٦)

على أن الدقة في بيان الاعتدال في الطعام و الشراب، تظهر جلياً في حديث الرسول– صلى **الله** عليه وسلم– حيث يقول: «ما ملأ آدمي وعاء قط شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً: فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.» (٥٧) وجاء الإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق، مما يساعد على تحقيق السلام بين أفراد المجتمع، ويساعدهم على التمتع بالصحة النفسية.

ولا شك في أن اتباع المسلم للمنهج الإسلامي اتباعاً صادقاً هو خير ما يساعده على بناء شخصية سوية، متوافقة ، فوسائل العلاج الذاتي من العبادة هو الاستغفار والتوبة والصبر والذكر وغيرها، يساعد الفرد على الشفاء من الأمراض حيث يقوي الإيمان الناحية النفسية، ويحمي من أمراض القلوب، وينشط جهاز المناعة، فيصبح الجسم أقدر على مقاومة الأمراض، علاوة على أن الإسلام يرى في المرض مكفراً أو كفَّاراً للذنوب، وبهذا المعنى يقول صلى **الله** عليه وسلم– : «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط **الله** به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».(٥٨)

وحث الإسلام جموع المسلمين على التحلي بالصبر وهدوء الأعصاب حين تحل بهم مصيبة المرض. فلا يتبرم من المرض ولا يسخط لأن ذلك ليس من خلق المسلم، فالرضا

بقدر الله تعالى تبارك والتسليم الكامل بذلك، والتوجه إلى الله وحده بالدعاء والضراعة يكسب الامن والأمان في قلب المؤمن، ويزيل من النفوس الهم والغم.

هكذا دعا الإسلام إلى استخدام الجانب الروحي في العلاج، ولكنه رشد هذا الاستخدام بالأدعية والآيات القرآنية لما في ذلك من راحة للمريض وطمأنينة له ولأهله، لكنه أنكر على المريض وأهله أن يهملوا العلاج الطبي على حساب الأدعية داعياً إياهم الأخذ بالأسباب لتحقيق الشفاء، وهذا يقتضي ضرورة الاستعانة بالطبيب لتشخيص الداء وتحديد الدواء، فقد أثر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أنه قال: «تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء، فاذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عزّ وجل».(٥٩)

الخاتمة:

مما تقدم من التشريعات الوقائية الصحية، وخصائصها والقواعد الصحية لمنع انتشار الاوبئة ودور الدين في الشفاء يتبين اهتمام الإسلام بالصحة والعافية، وجعلها مطلبا ضرورياً يحرص الإنسان عليه، ولا يفرط بها، ويدعو الله أن يديم عافيته عليه، باعتبار الصحة والعافية من نعم الله على الإنسان.

ومما تقدم يتضح عناية الإسلام بالتثقيف الصحي من خلال تعاليم الدين، ويحقق اتباعها حفظ صحة الإنسان وتعزيزها وسلامة العلائق الاجتماعية والإنسانية، ففي ظل المنهج الإسلامي تعيش الأسرة حياة سعيدة هانئة مطمئنة خالية من الأمراض المعدية.

وتزداد أهمية علم الطب وفضله لوروده في القران الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأنه من فروض الكفايات لاتستغني عنه الجماعة البشرية. والتعاليم الاسلامية غنية بالتدابير الوقائية في المجال الصحي التي تحدّ من مدى المشكلات والسيطرة عليها وقد تبين أن هناك عدداً كبيراً من الأمراض المعدية يمكن السيطرة عليها ومنعها من خلال اتباع تعاليم الإسلام.

ولذلك نجد أن الإسلام لم يترك جزءاً من الطب الوقائي إلا أشار إليه بعموميات واضعاً بذلك الخطوة الأولى، تاركاً لعقل الإنسان ومختبراته أن يبحث على هداها، وقد عني كثير من العلماء العرب والمسلمين بجميع ما ورد عن الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في الأدوية، وصنفوا في ذلك مؤلفات مستقلة، ودونوا فيها ما أثر عنه عليه الصلاة والسلام ونشروا ذلك بين الناس، لينتفعوا بما جاء فيها من هدي نبوي يشفي القلب والبدن.

التوصيات:

مما تقدم يمكن تخليص التوصيات الآتية:

١. على المسلمين أن يلتزموا بهذه التعليمات الصحية ذات الصلة بالطب الوقائي، لأنها جزء من الدين، وأنها ذات قيمة كبيرة على الصحة.

٢. التحذير من عواقب الزنا والفواحش والانحرافات السلوكية والشذوذ الجنسي وغيرها من الموبقات، ففي الطهر والعفة والعناية بالأخلاق العلاج السليم للأمراض الفتاكة المعدية والمستعصية وبدون ذلك لا علاج .

٣. والتحذير من المخدرات وأكل الميتة لما يترتب على ذلك من الأمراض والخسائر المادية والمعنوية.

٤. إجراء الفحص الكامل للدم، وذلك قبل إجراء عقد الزواج للتأكد من سلامة الخاطبين أو سلامة احدهما: الشاب أو الفتاة.

٥. وتطبيق اسس الرعاية الصحية (الوقاية والعلاج) من أجل بناء مجتمع مسلم صحيح أقدر على تحمل الأمانة، وأداء الرسالة في الأرض.

٦. تدريس مادة القانون الطبي وأخلاقيات الطبيب في كليات الطب والقانون والشريعة.

٧. اتخاذ جميع أسباب الوقاية من الأمراض بالتطعيم لاتقاء الأمراض المعدية ، والابتعاد عن كل مصدر من مصادر العدوى.

٨. ضرورة ربط موضوع المحافظة على الصحة بالتربية الإيمانية، ذلك أن الإيمان هو أفضل السبل وأمثلها في المحافظة على الصحة وحمايتها، ومنع التعدي عليها، فضلاً عن دوره الفعال في الشفاء من الأمراض،.

الهوامش:

١. سورة البقرة اية رقم ١٩٥

٢. العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام في مصالح الأنام ١/ ٤

٣. القضاة،عبد الحميد،تفوق الوقائي في الإسلام،رسالة المسجد،العدد ٥ شوال ١٤٢٤/ ٢٠٠٣

٤. من كلام الحارث بن كلده وكان يقول: رأس الطب الحمية.وذكره علي بن سلطان محمد الهروي القارئ في المصنوع رقم (٣٠٦) تحقيق الشيخ عبد الفتاح ابو غدة ١/
172ww.al3ez.net/ vb/ showthreda.php

٥. الهاشمي، عابد توفيق: مدخل الى التصور الإسلامي، ص٩٧.

٦. ابن ماجة: سنن ابن ماجة ١\١١٤– ١١٥– ورواه احمد والنسائي١/ ٤١و٤٢ وابو داوود رقم (٤٠) الدار قطني وقال اسناده صحيح حسن، الشوكاني: نيل الاوطار ١\٩٠.

٧. رواه الترمذي رقم ١٩ في الطهارة، باب ما جاء في الاستنجاء بالماء.وقال حسن صحيح، ابن الاثير: جامع الاصول في أحاديث الرسول ج ب ص ١٤٠ رقم ٥١٢٥

٨. مسلم: صحيح مسلم مجلد (١) ، ص٢٢١، رقم الحديث ٢٥٧.

٩. د. عبد الحميد دياب/ د.أحمد قرقوز: مع الطب في القران الكريم ص١١٩– ١٢٣

١٠. سورة المائدة: آية رقم (٦) .

١١. سورة الواقعة: آية رقم ٧٩.

١٢. سورة التوبة: آية رقم (١٠٨) .

١٣. سورة المائدة: آية رقم (٦) .

١٤. البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الجمعة، باب الدهن للجمعة، م٢، ص٣.

١٥. سورة المائدة: آية ٦.

١٦. دياب، عبد الحميد وآخر: مع الطب في القران الكريم، ص: ١٢١– ١٢٣.

١٧. مسلم صحيح مسلم مجلد١ ص٢٣٨ رقم الحديث ٢٨١ ابن ماجة: سنن ابن ماجة، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، م١، ص١٢٣.

١٨. سورة الأعراف: رقم (١٥٧) .

١٩. سورة المائدة، آية رقم (٣) .

٢٠. البخاري: الجامع الصحيح كتاب الاشربة، باب الخمر من العسل، م٧، ص١١٩.

٢١. الشناوي، محمد محروس: بحوث في التوجيه الإسلامي، ص١٢.
٢٢. صبري، عكرمة: فتاوى في شؤون صحية: ص١٦– ١٧.
٢٣. سورة الإسراء: آية رقم (٣٢) .
٢٤. ابن ماجة: سنن ابن ماجة، ج٢، ص: ٧٨٤، ابن حنبل: مسند ابن حنبل: ج٥، ص٣٢٧.ومن مسند عبادة بن الصامت، حديث رقم ٢٢٨٣٠،ج ه ص ٣٢٦، قال شعيب الارنؤوط: حديث حسن
٢٥. البخاري، صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث، ج٢١٩٨.
٢٦. ابن قدامة، المغنى، ج٤، ص: ١٩١، ابن عابدين، رد المختار ٥\١٣٤.
٢٧. فعن أبي مليكة ان عمر بن الخطاب قال: يابني السائب! أنكم قد أضويتم فأنكحوا في النزائع؛ والنزائع: النساء من الغرائب من عشيرتكم الهندي: علاء المتقي بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الاقوال والافعال مجلد ١٦ ص ٤٩٨
٢٨. السيوطي: الجامع الصغير ١\١٣٠.رواه الديلمي في مسند الفردوس.وقال الحافظ العراقي حديث ضعيف، والذي عليه جمهور العلماء أنه يستحب العمل به في فضائل الأعمال المناوي/ فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٣/ ٢٤١رقم ٣٢٨٣
٢٩. عبدالله، عمر محمود: الطب الوقائي في الإسلام، ص: ١٦٥.
٣٠. المرجع السابق، ص٦٨.
٣١. سورة البقرة: اية رقم (١٩٥) .
٣٢. البخاري، مجلد ٦ص٢٥٠ معنى خمروا: غطوا، صحيح مسلم، م٣، ص١٥٩٤.
٣٣. عبد العزيز بن محمد: نظام الحسبة في الإسلام/ ص: ١١٧– ١١٩.
٣٤. البكري، د عادل: الطب الإسلامي، ص ٣٣٣.
٣٥. الشيرزي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٣.
٣٦. ابن قيم الجوزي، الطرق الحكمية ص٢١٩.
٣٧. الرفاعي: النظم الاسلامية، ص١٢٨.
٣٨. البخاري،: صحيح البخاري، مجلد ١، ص: ٢١٤، باب السواك يوم الجمعة.
٣٩. عبد الرازق، عبد الله: السواك والعناية بالاسنان، ص: ١١.
٤٠. مسلم: صحيح مسلم، م٢ص ٨١٣ رقم الحديث ١١٥٩
٤١. سورة الزمر: آية رقم (٩) .
٤٢. القضاة، عبد الحميد: تفوق الطب الوقائي في الاسلام، رسالة المسجد، العدد ٥، ص٧٧، سنة ٢٠٠٣م

٤٣. مسلم، صحيح مسلم: مجلد ٤، ص: ١٧٤٣. رقم الحديث ٢٢٢١

٤٤. مرض الخانوق: هو الدفتريا مرض معدي وخطير جدا يعرف بمرض الخانوق ويصيب الاطفال الذين تتراوح اعمارهم مابين السابعة والعاشرة.واعراضه: ارتفاع درجة حرارة الجسم مع حدوث صداع في الرأس والاصابة بالسعال مع صعوبة التنفس والشعور بالأختناق forums.graam.com/ 59750.html.

٤٥. عبد الله، عمر محمود: الطب الوقائي في الاسلامي، ص: ٨٣– ٨٤.

٤٦. السمردي، يوسف مسعود محمد، كتاب فيه ذكر الوباء والطاعون صفحة ٦٨.

٤٧. مسلم، صحيح مسلم، مجلد ٤، ص: ١٧٣٨، البخاري، صحيح البخاري، مجلد ٧، ص: ٢٠. باب في الطاعون

٤٨. قرية عمواس: قرية فلسطينية احتلت عام ١٩٦٧ ودمرها الجيش الاسرائيلي، وطرد أهلها، وكانت تقع في منطقة اللطرون جنوب شرق الرملة وكانت تقع على مفترق طرق يوصل بين مدن رئيسية هي: رام الله، الرملة، يافا، القدس، غزة تبعد عن يافا حوالي ٣٠كم ومثل ذلك تقريبا عن القدس قبل النكبة.الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين جزء ج٧ ص ٥١٠– ٥١٤

٤٩. السرمدي يوسف بن محمد بن مسعود: كتاب ذكر فيه الوباء والطاعون، ص٨٣.

٥٠. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الطب، باب الجذام، مجلد ٧، ص: ١٤٣.

٥١. ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ١٩٥٤. مجلد ٢ ص٤٩٩،ابن حنبل،مسند الامام احمد بن حنبل مجلد ٣ص ٤٢١

٥٢. سورة الانعام، الاية رقم (١٤٠) .

٥٣. ابن حنبل: مسند الامام احمد بن حنبل مجلد ١ص ٨، الرقم (٣٨) .

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ج ٢/ ٩١٢ سنن الترميذي.

٥٤. الدين، النفس، النسل، المال، العقل حيث لا يستطيع الانسان العيش في المجتمع بكرامة واستقرار وطمأنية وامن وامان الا اذا تحققت له حماية الضرورات الخمس التي اقرتها الشريعة الاسلامية السمحاء.

٥٥. سورة الرحمن، الاية رقم (٧– ٩)

٥٦. ذياب، عبد الحميد واخرون، مع القطب في القران الكريم، ص: ١٢٨.

٥٧. خرجه الترمذي من حديث المقدام بن معدي كرب، وقال حديث حسن

٥٨. مسلم، حيح مسلم، م٤، ص: ١٩٩١، رقم الحديث ٢٥٧١.

٥٩. مسلم، صحيح مسلم ١٩٥٥، البخاري، صحيح البخاري، ٧/ ١١ باب ما انزل الله داء الا انزل له شفاء.

المصادر والمراجع:

١. القران الكريم

٢. ابن الأثير، مجد الدين بن محمد الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، ط (١٣٩٢هـ– ١٩٧٢م) مكتبة الحلواني، الرياض.

٣. البار، عدنان احمد، الطب الوقائي في الإسلام، السعودية، إسلام ست،

www.islamicmedicines.com

٤. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م،

٥. البكري، عادل، الطب الإسلامي.

٦. البنا، عائدة عبد العظيم، الإسلام والتربية الصحية، ط١، ١٤٠٤هـ– ١٩٨٤م) . مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض.

٧. ابن حنبل، الإمام احمد، المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

٨. دياب عبد الحميد، مع الطب في القران الكريم، ط٢ (١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م) مؤسسة علوم القران دمشق.

٩. الذهبي، محمد شمس الدين، الطب النبوي، ط (١٩٦١م) ، تحقيق: مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢ (١٩٨٦) ، دار احياء العلوم، بيروت.

١٠. الرفاعي، أنور، النظم الإسلامية، ط (١٣٩٣هـ١٩٧٣م) ، دار الفكر.

١١. السرمدي، يوسف بن محمد بن مسعود بن محمد، ذكر الوباء والطاعون، تعليق شوكت بن رفقي/ بن شوكت ط (١٤٢٥هـ– ٢٠٠٥م) الدار الأثرية عمان

١٢. السيوطي، جلال الدين، الجامع الصغير، بإعلاء شرحه فيض القدير للمناوي، طبع، دار المعرفة بيروت.

١٣. الشناوي، محمد محروس، بحوث في التوجيه الإسلامي للإرشاد والعلاج النفسي ط (١٩٩٩م) ، دار غريب للطباعة والنشر. مصر.

١٤. الشيرزي، نهاية الرتبة في طلب الحسبة.

١٥. صبري عكرمه سعيد، فتاوي في شؤون صحية، ط١ (٢٠٠٥م) ، مركز رزان التخصصي– بنابلس

١٦. ابن عابدين، محمد أمين عمر بن عبد العزيز، در المحتار على الدر المختار في شرح تنوير الإبصار.

١٧. عبد الرزاق، عبدالله، السواك والعناية بالأسنان، ط١ (١٤٠٢) الدار السعودية.

١٨. عبد العزيز، محمد بن مرشد، نظام الحسبة في الإسلام، ط (١٣٩٢هـ– ١٣٩٣هـ) المعهد العالي للقضاء، السعودية.

١٩. عبدالله، عمر محمود. الطب الوقائي في الإسلام، ط١، (١٤١٠هـ– ١٩٩٠م) موصل. العراق.

٢٠. العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ط (١٣٨٨هـ) ، دار الشرق للطباعة والنشر، مشر.

٢١. علوان، توفيق، معجزة الصلاة في الوقاية من مرض الدوالي الساقين، ط٣، (١٤١٠– ١٩٩٥) ، دار الوفاء، المنصورة.

٢٢. ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض، السعودية.

٢٣. القضاة، عبد الحميد، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، رسالة المسجد، العدد الخامس، شوال ١٤٢٤– ٢٠٠٣) .

٢٤. ابن قيم، ابو عبد الله بن القيم الجوزي، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مطبعة المدني، القاهرة، مصر.

٢٥. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزيويني، سنن بن ماجة، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

٢٦. مبارك، قيس محمد أل الشيخ، التداوي والمسؤولية الطبية في الشريعة الإسلامية ط١ (١٤١٢– ١٩٩١) مكتبة الفارابي،دمشق

٢٧. مسلم، الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ط (١٤٠٠هـ– ١٩٨٠م) نشر ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد السعودية.

٢٨. منصور، محمد خالد، الإحكام الطبية المتعلقة بالنساء في الفقة الإسلامي، ط٢ (١٤٢٠هـ– ١٩٩٩م) ، دار النفائس، الأردن.

٢٩. منظمة الصحة العالمية، الهدي الصحي، ط (١٩٩٥) ، الإسكندرية، مصر.

٣٠. النجار، عبد الله مبروك، الحسبة ودور الفرد فيها، هدية مجلة الأزهر لشهر ذي الحجة (١٤١٥هـ) .

٣١. الهاشمي، عابد توفيق، مدخل إلى التصور الإسلامي.

منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني
عرض، ونقد، وتجديد

د. علي عبد اللّه علي علان*

* أستاذ مساعد في التفسير وعلوم القرآن/ كلية عمان للعلوم المالية والادارية / جامعة البلقاء التطبيقية/ عمان/ الأردن.

ملخص:

هذه دراسة في منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، عرض ونقد وتجديد، تضمنت عرض ثمانية مناهج ونقدها، أربعة منها هي الأولى في هذا العلم، والجديد في هذه الدراسة بيان قِدم هذا العلم بإشاراته الأولى في القرن الرابع الهجري، وبيان سلبية تقدح في المناهج بتجاوزها مراد الله في الترتيب المصحفي، والحكمة المعتبرة بتفريق الموضوع في سور القرآن، وكيفية الخروج من هذه السلبية المتمثلة بالتجديد في المنهج.

Abstract:

This study deals with the thematic interpretation method of the Quranic subject matter by presentation, criticism and renewal. It includes the presentation and criticism of eight methods, four of which are the first in this science. The new in this study is demonstrating the antiquity of this science that begins in the fourth century A.H, and showing an apparent negativity in the methodologies that contradict Allah's will concerning the Quranic order and the wisdom behind dividing the subject matter in the Quranic verses, and how to abandon this negativity by renovating the methodology.

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم مائدة الله في الأرض، ومورد لا ينضب، يَصدر عنه كل ظمآن ريّان، لا يفتر عن العود إليه بعد العود في كل حال وزمان. والقرآن المعجزة الخالدة التي يستشرف العلماء المتدبرون عبقها ومعالمها وحقائقها، والتي لا تنقضي ولا تعرف الانتهاء، مادام صوت القرآن يعطر الأنام، وتُصغي إليه الآذان إلى أن يأذن الله برفعه قبيل الساعة آخر الزمان.

ومن معالم تجدد العلوم القرآنية «علم التفسير الموضوعي»، وتأتي هذه الدراسة في عرض منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني في نظر الباحثين المعاصرين، ونقدها ثم التجديد الذي أراه في هذه المنهجية، مع إثبات تبلور فكرة التفسير الموضوعي في ذهن العلماء السابقين ومنهجيته المجملة، والدعوة إليه منذ القرن الرابع الهجري.

وقد جعلت هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين، تناولت في التمهيد مفهوم التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، ثم تناولت حقيقة الدعوة إلى التفسير الموضوعي، ومنهجيته المجملة وليدة القرن الرابع الهجري، ثم منهجية البحث فيه على وجه التفصيل في القرن الرابع عشر الهجري، ثم كان المبحث الأول: المناهج التي سطرها الباحثون المعاصرون في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني عرض ونقد، حيث عرضت لثمانية مناهج أتبعت كل واحد منها نقداً، ثم قدمت النتائج النقدية العامة، ثم كان المبحث الثاني: التجديد في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: تحدثت فيه عن الترتيب المصحفي والترتيب النزولي، ثم ما ينبني على تجاوز الترتيب المصحفي من سلبية تقدح في التفسير الموضوعي، ثم بينت التجديد في المنهجية من وجهة نظري، فالمناسبة والوحدة الموضوعية والمقاصد للسورة القرآنية أصل في المنهجية، ثم دراسة تطبيقية تبرهن صحة التجديد في المنهجية وضرورته، ثم أوضحت المنهج العام المعدل للتفسير الموضوعي للموضوع القرآني والقواعد والشروط اللازمة لهذا العلم، ثم كانت الخاتمة حيث قدمت فيها نتائج الدراسة.

والله أسأل أن يجزي مشايخنا خير الجزاء، وأن يوفقنا إلى كل ما يرضيه.

تمهيد:

ما بين الدعوة إلى التفسير الموضوعي ووضع منهجية له:

تقرأ فيه:

- مفهوم التفسير الموضوعي للموضوع القرآني
- الدعوة إلى التفسير الموضوعي للقرآن وليدة القرن الرابع الهجري!
- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن وليدة القرن الرابع عشر الهجري.

مفهوم التفسير الموضوعي:

التفسير الموضوعي مركب وصفي من كلمتي التفسير والموضوعي، ولا بد لدراسة مفهومه الاصطلاحي، من الوقوف على المعنى اللغوي لجزئي المركب والمعنى الاصطلاحي لهما.

التفسير في اللغة:

التفسير مصدر على وزن (تفعيل) ، والثلاثي منه (فَسَرَ) ، ويُقال: فَسَرَ الشيء فَسْراً، وفَسَّرَ يُفسر تفسيراً، والفَسْر: أصل يدل على بيان الشيء وإيضاحه ويدلّ على بيان المعنى المعقول [١] .

وفي لسان العرب الفسر: كشف المغطى [٢] ، وفي الكليات الفسر: الاستبانة والكشف، ومن الاستعمال المادي للفسر: التفسرة: وهي عينة البول التي تكشف عن المرض [٣] .

وترى أقوالهم تلتقي في أن الفَسْر: بيان الشيء وإيضاحه، وكشفه سواء أكان في كشف المحسوس، كما في عينة البول، أو في كشف المعاني المعقولة واستعماله في الثاني أكثر.

التفسير في الاصطلاح:

من السابقين يقول الإمام الزركشي (٧٩٤هـ) : «التفسير علم يُفهم به كتاب **الله** المنزل على نبيه محمد صلى **الله** عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه...» [٤] . ومن المحدثين يقول الشيخ محمد علي سلامة (١٣٦١هـ) – في كتابه منهج الفرقان: «التفسير علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد **الله** بقدر الطاقة البشرية»[٥] .

الموضوع في اللغة:

من وضع: والوضع يدل على الخفض أو الحط [٦] وضده الرفع، تقول وضعه يضعه وضعاً وموضوعاً، وَوَضَع الشيء إلى الأرض: أنزله أو أثبته [٧].

الموضوع في الاصطلاح:

الموضوع عند المناطقة: «هو محل العرض المختص به، أو الأمر الموجود في الذهن»[٨]، وعند الفلاسفة: «المدرك» [٩]، وعند اللغويين: من وضع الشيء موضعه ومواضعه، والخياط يُوَضّع القطن على الثوب توضيعاً [١٠]، ومن هنا قالوا الموضوع: «المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه» [١١].

ويمكننا تعريف الموضوع القرآني بأنه: مجموعة من الآيات- مجتمعة في سورة، أو متفرقة في سور القرآن الكريم- تحمل حقائق ومعاني تعالج قضية ما محققةً هدفاً قرآنياً أراده الله المتكلم به أو أكثر.

التفسير الموضوعي للموضوع القرآني في اصطلاح العلماء:

«هو جمع الآيات القرآنية المتفرقة المتعلقة بموضوع ما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية» [١٢].

هذا هو مفهوم التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، ومن العلماء من عدّ دراسة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية [١٣]، ودراسة المصطلح القرآني أقساماً للتفسير الموضوعي [١٤]، ولكن الوحدة الموضوعية والمصطلح القرآني، الأظهر أنها من مقتضيات التفسير التحليلي لسور القرآن الكريم، كما سيتضح أنها من الخطوات المنهجية للتفسير الموضوعي للموضوع القرآني، يقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: «وقد عدّ بعض العلماء في هذا النوع ما سُمي «بالوحدة الموضوعية» في القرآن كله، أو في سورة منه، وأرى والله أعلم أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي» [١٥].

بدايات التفسير الموضوعي:

الدعوة إلى التفسير الموضوعي وليدة القرن الرابع الهجري!

لقد حظي التفسير الموضوعي للموضوع القرآني باهتمام بالغ في هذا العصر، حيث تعددت دواعيه وتنوعت مجالات الدراسة فيه، ولستُ مبالغاً إن قلت: التفسير الموضوعي من مسهمات تطور المنهجية العلمية في البحث، ومن مفرزات الحاجة البشرية المتنامية والمتجددة عبر الزمان واختلاف المكان، فالمفسر الموضوعي يعرض حاجة عصره،

وتجربته وتجربة العامة على القرآن الكريم، محاوراً آيات الموضوع ذات العلاقة ومستنبطاً منها ما يمكن أن يفي بالحاجة، **فيبدأ من الواقع لينتهي بالقرآن الكريم، ليتوافق بذلك مع حال القرآن في الصدر الأول**، عندما كانت تنزل آياته معالجة لمواقف في حياة النبي صلى **الله** عليه وسلم وصحابته الكرام عليهم الرضوان.

ومع قناعتي بهذا فإنني أخالف من يزعم من الباحثين أن هذا اللون من التفسير لم يبرز في جهود المفسرين قديماً [١٦] كما سيتضح، وكذلك أخالف من بالغ فعدّ نزول القرآن نجوماً وفق أسبابها بداية التفسير الموضوعي [١٧] ؛ لأن النازل كلام **الله**، والتفسير فهم المخاطبين لمراد **الله** من كلامه، لذلك لا يصلح أن يكون نزول القرآن وفق الأسباب بداية لهذا اللون من التفسير، كما أخالف من عدّ تفسير النبي r للقرآن بالقرآن [١٨] – كتفسير الظلم بالشرك– بداية له؛ لأن العلماء يرون التفسير الموضوعي جمع كل الآيات المتفرقة المتعلقة بموضوع ما ودراستها، لا الربط بين آيتين.

ويبدو أن أهمية البحث في التفسير الموضوعي وضرورته كانت متبلورة في أذهان العلماء السابقين، حتى غدت دعوات إليه على ألسنتهم، بدليل أنه كان في المقابل من يطعن في القرآن من حيث طريقة معالجته الموضوعات، فهذا الإمام الخطابي (٣٨٨هـ) – في رسالته (البيان في إعجاز القرآن) يدعو إلى التفسير الموضوعي، وأن **الله** يبلو عباده في جمع المفترق من الموضوع الواحد، في رده على شبهة من قالوا إن القرآن لم يأت في تأليفه على سبيل التفصيل والتقسيم للمعاني والموضوعات كالمعهود في التأليف، حيث يقول: «وأما قولهم: لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز وقبيل، لكان أحسن نظماً وأكثر فائدة ونفعاً، والجواب: إنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية الواحدة وفي الآيات المجموعة قليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه، ولو كان لكل باب منه قبيل، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته، ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين له لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحد الذي تضمنته السورة الواحدة فقط، فكان اجتماع المعاني الكثيرة في السورة الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً، وقد أحب **الله** عز وجل أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم في جمع المفترق منه وتنزيله وترتيبه» [١٩] .

فهذه أسبق إشارة صريحة وقفت عليها تدعو إلى التفسير الموضوعي بجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد، بل قول الإمام الخطابي اشتمل على البادرة الأولى في منهجية التفسير الموضوعي– كما سنوضحه في المبحث الأول– والغريب أن الباحثين الذين تناولت مناهجهم في حديثهم عن نشأة هذا اللون من التفسير لم يشيروا إلى هذا.

منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن: وليدة القرن الرابع عشر الهجري:

نعم الإشارات والدعوات إلى التفسير الموضوعي قديمة، والدراسات العملية فيه امتدت عبر عصورالإسلام، ولكنّ وضع منهجية نظرية للبحث في التفسيرالموضوعي مفصلة شأن حديث، وهو شأن كثير من العلوم الأخرى التي كان السابقون يتعاملون معها بمنهجية ثابتة تعارفوا عليها والتزموها، وإن لم يسطروها أو يصطلحوا لها مصطلحاً.

وأبحاث العلماء السابقين في التفسير الموضوعي من ناحية عملية غنية عن الذكر والتدليل، فقد بحث سلفنا في قضايا عقدية أو فقهية، فجمعوا آياتها من القرآن، وما يتعلق بها في السنة من أحاديث، ودرسوها موضوعياً ضمن تفاسيرهم.

فمثلاً ترى الإمام الطبري (٣١٠هـ) عند أول آية وردت في القرآن الكريم تتحدث عن الخمر في سورة البقرة [آية ٢١٩] عالج الموضوع بصورة متكاملة، حيث ضم إلى هذه الآية آية سورة النساء [٤٣] وآية سورة المائدة [٩٠- ٩١] والروايات المأثورة فيها [٢٠] .

ومثلاً ترى الإمام الرازي (٦٠٦هـ) توقف عند آية سورة البقرة [١٥٤] ليتحدث عن حقيقة حياة الشهداء بعد استشهادهم وقبل دخولهم الجنة، وجمع إليها آيات سورة آل عمران [١٦٩- ١٧١] التي تدل على أنهم أحياء يرزقون فرحون بما آتاهم **الله** من فضله [٢١] .

ومثلاً ترى الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) عند تفسيره قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] تناول الآراء في رؤية **الله** عز وجل في الآخرة، وجمع الآيات الدالة على ذلك، آية سورة القيامة [٢٢- ٢٣] وآية سورة المطففين [١٥] والأحاديث [٢٢] .

ولكن لا ترى هذا الشأن عند سلفنا المفسرين مضطرداً في كل موضوعات القرآن الكريم، وقد تراهم لا يجمعون كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع، فلو رجعت إلى ما كتبه الإمام ابن كثير عند آية الأنعام [١٠٣] لرأيته جمع الآيات والأحاديث الدالة على رؤية **الله** في الآخرة، ولكنه لم يوجه الآية التي تعلق بها المخالف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. كما أفرد بعض العلماء مصنفات تدل على العناية في موضوعات قرآنية نحو «التبيان في أقسام القرآن» للإمام ابن القيم (٧٥١هـ) .

وأول من سطر من المحدثين معالم منهجية مفصلة في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني محمد محمود حجازي في عام (١٣٩٠هـ) ، وتتابع بعده الباحثون وهذا ما سيتضح في المبحث الأول.

المبحث الأول:

مناهج سطرها باحثون محدثون في التفسير الموضوعي: للموضوع القرآني- عرض ونقد:

تقرأ فيه:

- منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني في نظر:
  - د. محمد محمود حجازي.
  - د. أحمد السيد الكومي.
  - د. عبد الحي الفرماوي.
  - د. عبد الستار فتح الله سعيد.
  - د. مصطفى مسلم.
  - د. عبد الجليل عبد الرحيم.
  - د. زياد الدغامين.
  - د. صلاح الخالدي.
- النتائج النقدية العامة.

أذكر بعض المناهج التي سطرها باحثون محدثون في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، حسب السبق الزمني لنرى هل من تجديد في تحديد المنهجية عند المتأخر عن المتقدم، أم هي التبعية والتفنن في العرض فحسب، وكان الاختيار لأربعة مناهج متقدمة في هذا العلم ثم متأخرة.

أول من تحدث عن المنهجية في التفسير الموضوعي: الإمام الخطابي (٣٨٨هـ) رحمه الله:

فما قاله يُعد نواة ما سطره المحدثون، بل ما كانت زياداتهم على ما قال إلا ما تقتضيه منهجية البحث العلمي في أي فن من الفنون أو علم من العلوم- كما سترى- حيث قال: «وقد أحب الله عز وجل أن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم في جمع المفترق منه، وفي تنزيله وترتيبه» [٢٣]، فهما خطوتان في نظره: جمع المفترق في الموضوع الواحد من الآيات في سور القرآن، ثم تنزيلها وترتيبها حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع.

وإليك منهج التفسير الموضوعي كما هو في نظر المحدثين حسب السبق الزمني، مع التعقيب عليها والنقد حسب ما يدعيه المقام [٢٤]:

أولاً- في نظر الدكتور محمد محمود حجازي:

هو أول من تحدث من المحدثين عن المنهجية في التفسير الموضوعي في كتابه الوحدة الموضوعية- في عام (١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م)، **وجعلها في أربع خطوات** [٢٥]:

- جمع الآيات ذات الموضوع الواحد.
- ترتيبها حسب النزول.
- دراستها دراسة منهجية موضوعية متكاملة لتعطينا موضوعاً واحداً.
- التعرض لمناسبة الآيات في سورها.

تراه يلتقي مع ما قرره الإمام الخطابي في خطوتين مما ذكر، والدراسة المنهجية الموضوعية المتكاملة تقتضي تحديد عناصر الموضوع منتزعة من ذات الآيات، ودراسة تفسير الآيات بما يحقق فهماً دقيقاً، كما أراده الله لذلك الموضوع، ولقد تميز في الخطوة الرابعة «التعرض لمناسبة الآيات في سورها» عن غيره من الباحثين المتأخرين عنه الذين كتبوا في منهجية التفسير الموضوعي، وهذا مما سنتحدث عنه في المبحث الثاني.

ثانياً- في نظر الدكتور أحمد السيد الكومي:

حيث أفرد كتاباً في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني وكانت الطبعة الأولى منه عام (١٤٠١هـ- ١٩٨٠م) **وجعل المنهجية** [٢٦] **في التفسير الموضوعي في خمس خطوات:**

- جمع الآيات القرآنية التي تخدم الموضوع.
- ترتيبها حسب النّزول، المكي ثم المدني، وما كان في أول العهد المكي وما كان في آخره وهكذا.
- إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض.
- تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة في إيرادها.
- إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة البناء والإحكام بمراعاة شروط البحث العلمي.

ولقد تميز عمن سبقه بالنص على مراعاة شروط البحث العلمي في إخراج الموضوع، وأما الخطوة الثالثة عنده- إزاحة ما قد يوهم الاختلاف والتناقض- فهو مما تقتضيه

الدراسة التفسيرية للآيات التي نص عليها في الخطوة الرابعة، وما بينه في بعض الخطوات ذكره الدكتور حجازي مجملاً بقوله: «دراسة الآيات دراسة منهجية موضوعية متكاملة».

ثالثاً- في نظر الدكتور عبد الحي الفرماوي:

حيث سطر في كتابه «مقدمة في التفسير الموضوعي» والذي فرغ من تأليفه عام (١٣٩٧هـ- ١٩٧٦م) [٢٧] ، **وعدّ سبع خطوات** [٢٨] **لمنهج التفسير الموضوعي**:

- اختيار الموضوع القرآني المراد دراسته دراسة موضوعية.
- حصر الآيات التي تدور حول هذا الغرض القرآني.
- ترتيبها حسب نزولها على النبي r مع الوقوف على أسباب نزولها.
- التعرض لمعرفة مناسبات هذه الآيات في سورها.
- تكوين الموضوع بجعله في إطار مناسب وهيكل متناسق تام البناء متكامل الأجزاء.
- تكميل الموضوع بما ورد من حديث الرسول صلى **الله** عليه وسلم إن احتاج الأمر ذلك.
- دراسة هذه الآيات دراسة موضوعية متكاملة.

والحق أنه كان متابعاً لما جاء عند الدكتور حجازي والدكتور الكومي ولعلّ الإضافة الجديدة في الخطوة السادسة «تكميل الموضوع بما ورد من حديث الرسول صلى **الله** عليه وسلم» وهي وإن كانت قد تدخل عند السابقين «بدراسة الآيات دراسة تفسيرية منهجيةً» اعتباراً بدور السنة المبينة للقرآن، ولكن التنصيص عليها وإفرادها بالذكر له من الأهمية والضرورة ما له، ويؤخذ عليه عدم النص على مراعاة شروط البحث العلمي التي عدّها الدكتور الكومي خطوة من المنهجية.

رابعاً- في نظر الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد:

ألف كتابه «المدخل إلى التفسير الموضوعي» عام (١٤٨٦هـ- ١٩٨٥م) وأشار في مقدمته إلى تقدم الشيخ الكومي والفرماوي عليه في التأليف [٢٩] ، **وعدّ ثماني خطوات** [٣٠] **لمنهج التفسير الموضوعي**:

- المعرفة الدقيقة لمعنى «التفسير الموضوعي».
- تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديداً دقيقاً من حيث المعنى.
- اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن ذاته أو من معانيه.
- جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع.

- تصنيفها من حيث المكي والمدني وترتيبها حسب النزول ما أمكن.
- فهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفسيرها.
- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة منتزعة من الآيات ذاتها.
- التقيد التام بقواعد التفسير الموضوعي: وهي الالتزام بالعناصر المستفادة من القرآن للموضوع، وعدم إضافة عناصر للموضوع من مصدر آخر، والتقيد بصحيح المأثور، وتجنب الحشو والتدقيق قبل التقعيد والتأصيل.

ترى الشيخ قد ألحق بمنهجية التفسير الموضوعي ما ليس منها: فالخطوة الأولى «معرفة المعنى الدقيق لمصطلح التفسير الموضوعي «والخطوة الأخيرة» التقيد التام بقواعد التفسير الموضوعي» هي من الشروط المعتبرة في المفسر للموضوع القرآني، وليست من خطوات منهج التفسير الموضوعي، وأما ما عدا ذلك من خطوات فهو فيها متابع لمن قبله، ولا جديد فيها، إلا أنه تميز في الدعوة إلى انتزاع عناصر الموضوع من الآيات ذاتها لا من غيرها، وفي التنصيص على تحديد الموضوع القرآني تحديداً دقيقاً من حيث المعنى ـ وهذا أمر مهم ليكون الموضوع تاماً، ولكي لا يدخل فيه ما ليس منه ـ ويؤخذ عليه ما أخذ على الدكتور الفرماوي.

خامساً- في نظر الدكتور مصطفى مسلم:

حيث ذكر في كتابه «مباحث في التفسير الموضوعي» ثماني خطوات [٣١] لمنهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

- اختيار عنوان للموضوع القرآني مجال البحث، وذلك بعد معرفة أبعاده ومعالمه في الآيات.
- جمع الآيات التي تبحث في الموضوع، أو تشير إلى جانب منه.
- ترتيبها حسب زمن النزول.
- دراسة هذه الآيات من كتب التفسير.
- تسجيل العناصر الأساسية للموضوع من خلال الآيات.
- تفسير الآيات إجمالاً وذكر المأثور فيها.
- وضع مخطط للبحث.
- تحديد الأهداف المرجوة من البحث لإبراز حقائق وتوجيهات القرآن.

وهو بهذا كان موافقاً لمن قبله، حيث أكد على ما ذكره الدكتور عبد الستار فتح **الله** سعيد في انتزاع عناصر الموضوع من الآيات، وفي الخطوة السابعة قال: «وضع مخطط للبحث» وما هي إلا من مقتضيات البحث العلمي وشروطه التي سبقه إليها الدكتور الكومي، ولكنه أبرز ضرورة تحديد الباحث الأهداف المرجوة من بحثه وهي خطوة ضرورية، وإن كانت هي أيضاً من مقتضيات البحث العلمي.

سادساً- في نظر الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم:

ذكر في كتابه «التفسير الموضوعي في كفتي الميزان» **خمس خطوات لمنهجية التفسير الموضوعي** [٣٢] **كان متابعاً فيها لمن سبقه وزاد عليها خطوتان**:

- اختيار الموضوع القرآني المراد دراسته.
- جمع الآيات القرآنية ذات العلاقة بالموضوع.
- ترتيبها حسب النزول ما أمكن.
- دراستها دراسة وافية من كتب التفسير.
- استنباط العناصر الأساسية للموضع وتصنيفها في خطة.
- وزاد عليها [٣٣] :
  - أن يكون الموضوع من الواقع.
  - أن يُلم المفسر موضوعياً بالمشكلة أو القضية إلمام المختص بها.

وهما ملحوظتان مهمتان ولكنهما تتعلقان بالشروط المعتبرة في المفسر والموضوع لا في منهجية البحث، ولو قال في الملحوظة الأولى تنزيل آيات الموضوع على واقع المخاطبين لكانت منها.

سابعاً- في نظر الدكتور زياد الدغامين:

أفرد كتاباً بعنوان «منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم» **وعدّ سبع خطوات** [٣٤] **لهذه المنهجية**:

- استقراء النصوص القرآنية لحصر الآيات المتعلقة بالموضوع.
- ضرورة النظر في المكي والمدني منها.
- ملاحظة البعد التاريخي والبيئي.
- تصنيف الموضوع بذكر مقدماته وقضاياه وتحديدها.

- الالتفات إلى الواقع أثناء التفسير.
- استنباط اسم الموضوع من وحي القرآن الكريم.
- ضوابط أخرى وذكر فيها: عدم الدخول إلى القرآن بمقررات سابقة، والتوفيق بين الآيات لإزاحة ما يوهم التعارض، والالتزام بشروط البحث العلمي.

لقد تميز بالخطوة الخامسة «الالتفات إلى الواقع»– والذي يستدعي معالجة واقع المخاطبين بالقرآن بتعزيز الإيجابي وتقليل السلبي ثم التخلص منه، وهو ما سنتحدث عنه في المنهجية المعدلة– ولكن يؤخذ عليه ما أورده في الخطوة الأخيرة، فمنها ما هو من المنهجية، ومنها ما هو من الشروط اللازمة في المفسر، ويؤخذ عليه ملاحظته في الخطوة الثالثة قوله «ملاحظة البعد التاريخي والبيئي» فهي مما تخص بعض الموضوعات نحو المتعلقة بالقصص القرآني، ولعل الأفضل أن يقول: دراسة جو النزول لآيات الموضوع، وهو ما سنبينه في المبحث الثاني.

ثامناً- في نظر الدكتور صلاح الخالدي:

لقد جعل المنهجية على ثلاثة أقسام [٣٥] :

- ♦ **القسم الأول: خطوات عامة:**
- تسجيل الباحث أهدافه التي يريد تحقيقها من بحثه.
- تحديد مدى الحاجة المعاصرة إلى بحثه.
- أن لا يكون للباحث غرض مسبق يريد تحقيقه.
- أن يطلع الباحث على الأبحاث والدراسات القرآنية السابقة.
- أن يقرأ الباحث قراءة عامة شاملة، ويطلع على كل ما له صلة ببحثه.

تراه تميز في الخطوة الثانية التي ذكرها، وأما ما ذكره في الخطوة الثالثة والرابعة والخامسة فما هي إلا من الشروط اللازمة في الباحث والبحث، ولا تصلح أن تصنف خطوات عامة في المنهجية.

- ♦ **القسم الثاني: الخطوات المتعلقة بالمنهجية الخاصة للتفسير الموضوعي:**
- اختيار الموضوع القرآني للبحث على أن تكون له مادة واسعة في القرآن.
- تسجيل الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع.
- جمع الآيات التي تتحدث عن الموضوع، سواء بألفاظ صريحة مباشرة أو بألفاظ قريبة.

- استخراج معاني الألفاظ السابقة التي اختارها من أمهات كتب اللغة.
- حصر الآيات التي استعملت المصطلحات الأساسية لموضوعه والألفاظ المقاربة لها.
- تسجيل ما يدور حول الآيات التي استخلصها، من أسباب نزول ونسخ وقراءات صحيحة، وترتيبها حسب المكي والمدني وزمان النزول.
- قراءة تفسير الآيات من أمهات التفاسير.
- بيان الأبعاد المعاصرة للآيات.
- استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات.
- الاطلاع على الدراسات والأبحاث القرآنية الخاصة المعاصرة ذات الصلة بموضوعه.

يؤخذ عليه في الخطوة الأولى تقييده الموضوع المختار بسعة المادة في القرآن، وذلك لأمر **الله** العام بتدبر كتابه، وترى تداخلاً بين الخطوة الثانية في هذا القسم والخطوة الأولى والثانية في القسم السابق، وترى أن الخطوة الثالثة والخامسة في هذا القسم نفسه متشابهة، كما أن الخطوات الرابعة والسادسة والسابعة والتاسعة، جاءت عند من سبقه مجملة في قولهم «دراسة الآيات دراسة تفسيرية وافية»، وكذا قوله في الخطوة الثامنة «بيان الأبعاد المعاصرة للآيات» هي عند من سبقه «بيان واقعية الآيات»، ولعلّه تميز في دعوته بالاطلاع على الدراسات والأبحاث المعاصرة ذات العلاقة بموضوع البحث، وإن كانت هي من مقتضيات البحث العلمي لا من منهجيته.

♦ **القسم الثالث**: **وهذه الخطوات جعلها تحت مرحلة الترتيب والصياغة**:

- إلقاء نظرة فاحصة على المادة التفسيرية المجموعة أمامه نظرة منهجية بهدف إدراك فصولها ومباحثها.
- وضع مخطط منهجي موضوعي للبحث مفصل الفصول والمباحث.
- توزيع المادة التفسيرية على فصول ومباحث المخطط.
- صياغة وكتابة الفصول بمباحثها وسلامتها.
- وضع اللطائف واللفتات في مواضعها.
- الإخراج الفني المقبول.

وهذه سبقت عند الباحثين قبله مجملة بدعوة الدكتور حجازي دراسة الأيات دراسة منهجية موضوعية متكاملة، والدكتورالكومي بمراعاة شروط البحث العلمي،

والدكتورالفرماوي بتكوين إطار مناسب للموضوع وهيكل متناسق، وعند الدكتور فتح الله سعيد، «تقسيم الموضوع إلى عناصر متنوعة من الآيات»، وعند الدكتور مسلم بقوله: «تسجيل عناصرالموضوع»، وعند الدكتور الدغامين «تصنيف الموضوع بذكر مقدماته وقضاياه وتحديدها» فالجدة في تفصيلها لا في حقيقتها.

النتائج النقدية العامة:

بعد هذا العرض لمناهج أوردها باحثون معاصرون للتفسير الموضوعي حسب السبق الزمني لمعرفة هل من جديد في تحديد المنهجية، أو هي التبعية والتفنن في العرض؟ **نخلص إلى ما يأتي**:

- غالب الجِدّة كانت في العرض، أو في تفصيل اللاحق قضايا مجملة أوردها السابق، أشرت إليها في مواضعها.
- من السلبيات العامة: الخلط بين خطوات المنهجية العلمية [٣٦] والشروط اللازمة في الباحث أو المبحوث (موضوع الدراسة) ، وهذه تكررت عند المتأخرين بشكل واضح.

ولقد تميز بعضهم في بعض النقاط- أشرت إليها في مواضعها- منها ما كان له علاقة بالمنهجية العلمية، ومنها ما له علاقة بمقتضياتها كتلك التي أشرت إليها فيما يتعلق بالباحث أو المبحوث.

هذه الملاحظات النقدية العامة، إضافة لتلك الملاحظات النقدية الخاصة التي أوردتها عقب ذكر كل منهج.

المبحث الثاني:

التجديد في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

تقرأ فيه:

- بين الترتيب المصحفي والترتيب النزولي (التاريخي) .
- سلبية تقدح في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني!
- التجديد في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني سبيل التخلص من سلبيته: المناسبة، والوحدة الموضوعية، والمقاصد للسورة القرآنية أصل في المنهجية.
- دراسة تطبيقية تبرهن صحة التجديد وضرورته.
- المنهج العام المعدل في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.

بين الترتيب المصحفي والترتيب النزولي (التاريخي) :

بالنظر إلى تعريف التفسير الموضوعي ومنهجه الذي سبق بيانه، يتضح أن المفسر في التفسير الموضوعي يُحاول تفسير آيات الموضوع حسب الترتيب النزولي التاريخي لا حسب الترتيب المصحفي. والترتيب النزولي التاريخي: هو الذي تعرف به أزمنة نزول الآيات القرآنية المنجمة– المفرقة– حسب مشيئة الله لأسباب وظروف معينة وأزمنة نزول السور.

وهو الذي يحتاج إليه المفسر تفسيراً موضوعياً، لترتيب آيات الموضوع حسب أزمنة نزولها ما أمكنه ذلك، لما لها من أثر في فهم الموضوع القرآني، وهو شاق وظني غالباً لقلة الروايات الصحيحة فيه، يقول سيد قطب: «ذلك أن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء– اللهم– إلا من ناحية أن هذا قرآن مكي وهذا قرآن مدني على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة [٣٧] ، وأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة فيكاد يكون متعذراً، ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً، إلا في آيات معدودات تتواتر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات... وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة ومن مساعدة في تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإن قلة اليقين تجعل الأمر شاقاً، وتجعل النتائج ظنية وليست نهائية» [٣٨] .

ولقد حظيت آيات القرآن الكريم بالترتيبين، وكل منهما لحِكم أرادها الله:

فهو في ترتيبه النزولي «منهج لتأسيس دعوة وأسلوب إقناع بعقيدة، وطريقة تبشير وإنذار، ودحض كامل لمنطق الإلحاد» [٣٩] ، **وهو في ترتيبه المصحفي**– إضافة لذلك– «أسلوب حياة وبناء حضارة، ودستور للإنسان محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه...» [٤٠] .

وإذا كان الترتيب النزولي أوفق لحال المخاطبين في بدء الدعوة فإن الترتيب المصحفي بعد اكتمال الدين وإتمام النعمة وإقامة الدولة، أوفق لحال المؤمنين مهما تباينت أحوالهم وتعددت أماكنهم وتباعدت أزمانهم إلى يوم الدين.

سلبية تقدح في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني!

لما كان الترتيب النزولي ظنياً تقل فيه الروايات الدالة عليه، وكان الترتيب المصحفي الأوفق لحال المخاطبين بعد اكتمال الدين وإتمام النعمة – ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣: المائدة) – مهما تباينت أحوالهم

وتعددت أماكنهم وتباعدت أزمانهم، وكان لحِكم أرادها الله– أشرنا إلى بعضها [٤١] ، وما خفي علينا أعظم– فإن المفسر في التفسير الموضوعي باجتزاء آيات موضوع ما من بين آيات موضوعات أخرى في السورة يشتط بعيداً عن حكمة الله ومراده ومقصوده، لما جعل آيات ذلك الموضوع مع تلك الموضوعات ضمن السورة الواحدة، لذلك كان على المفسر في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني أن يُراعي الترتيب المصحفي، كما يحرص على الترتيب الزمني ما أمكنه.

بل إن التفسير الموضوعي يُذهب بوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، حيث جاء في أعلى طبقات البلاغة، مع تنقله بقارئه من موضوع إلى آخر دون تشتت ولا تفكك، بل بأعلى درجات الانتظام والالتئام، يقول الدكتور فضل عباس «وإن لهذه الطريقة– التفسير الموضوعي– مآخذ تقوى وتضعف وتزيد وتنقص تبعاً للمفسر نفسه، فمن المعلوم أن طريقة التفسير التي اعتدناها تهيئ لنا معرفة الإعجاز القرآني في ألفاظه إفراداً وتركيباً، وينتقل في الذهن من روضة إلى روضة، والتفسير الموضوعي يحرمه ذلك كله» [٤٢] .

التجديد في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: سبيل التخلص من سلبيته! ؟

للتخلص من هذه السلبية لا بد من النظر فيما يقوم عليه الترتيب المصحفي، ومراعاته في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، وبهذا نحقق بعض الحِكم أو جلّها التي أرادها الله لمّا تكلم بهذه الآيات بهذا الترتيب وفرّق آيات الموضوع الواحد في سور متعددة مقترناً بموضوعات أخرى.

وبعد الدراسة والنظر رأيت أن الترتيب المصحفي يقوم على ثلاثة أسس:

- المناسبة بين آيات السورة.
- الوحدة الموضوعية للسورة.
- مقاصد السورة.

ولتوضيح ذلك، وبيان أصالتها في منهجية التفسير الموضوعي، أقول:

أولاً- المناسبة:

مفهومها: علل ترتيب أجزاء الكلام [٤٣] ، وبها يعرف حسن رص الآيات، واتساق تراكيبها، وإحكام بنائها، وسر نظمها، وعلائق ترابطها، وكوامن تناسقها. يقول البقاعي: وموضوع علم المناسبات: أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته:

الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب [٤٤].

وبناءً على مفهوم المناسبة وثمرة علمها تبين أن لكل جزء من الكلام علةً أو عللاً في ترتيبه مع غيره من أجزاء الكلام، وارتباطاً وتعلقاً كلحمة النسب، لذلك صح ما قلناه في أن الترتيب المصحفي من أسسه التي يقوم عليها المناسبة بين الآيات.

ولما كان المفسر تفسيراً موضوعياً يجتزئ آيات موضوع ما من السور التي ورد فيها، ولها علل وروابط وعلائق، وحِكم أرادها **الله**، كان ينبغي عليه أن يدرس مناسبة آيات الموضوع– الذي يبحثه– بعضها مع بعض من جهة، ومناسبة موضوع البحث للآيات السابقة عليه وعلاقته بالآيات اللاحقة به في كل سورة ورد فيها مستفيداً من ظلال الموضوعات الأخرى في السورة على موضوع بحثه من جهة أخرى، فيعزز بذلك موضوعه، ويضفي عليه لطائف وحِكم، **وبذلك لا يشتط بعيداً عن مراد الله حين جعل ذلك الموضوع في ذلك الموضع من تلك السورة**، وسيتضح الأمر جلياً عند تقديم دراسة تطبيقية.

والحق أن مناسبة الآيات في سورها عدّها الدكتور حجازي من مقتضيات منهجية التفسير الموضوعي– كما سبق ذكره [٤٥] – وتابعه على هذا الدكتور الفرماوي [٤٦]، ولكن لم تكن خطوة بارزة في منهجية التفسير الموضوعي عند أكثر الباحثين فيه، ولم ينظر إليها على أنها تسهم في تحقيق مراد **الله** في نظم الآيات وحِكم الترتيب المصحفي، وأن المفسر بهذا قد جمع بين فوائد الترتيب النزولي والمصحفي.

ثانياً- الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية:

مفهومها: هي أمر كلي عام تتعانق حوله موضوعات السورة القرآنية الواحدة وتنشد إليه وتجتمع حوله الآيات [٤٧]. لذلك كان كل موضوع في السورة ينتظم مع الموضوعات الأخرى في وحدة موضوعية، وهذا الانتظام لا يحققه إلا الترتيب المصحفي، الذي أراده **الله** المتكلم سبحانه بالقرآن.

فإذا قلنا إنه ينبغي على المفسر تفسيراً موضوعياً أن يتعرف على مناسبة آيات موضوع البحث ومناسبته لما قبله وعلاقته بما بعده، فإنه يلزمه أيضاً أن يعرف علاقة موضوع البحث بالأمر العام الذي تتعانق حوله موضوعات السورة (أي الوحدة الموضوعية) ، ليحقق له هذا معاني ولطائف، ويفتح له آفاقاً في الفهم وعناصر في رسم خطة موضوعه، وليحقق بذلك الجمع بين حِكم **الله** ومراده في ترتيبه المصحفي عند اجتزاء بعض الآيات، **ولعله يستشف مراد الله حين تكلم عن ذلك الموضوع في تلك السور دون غيرها**.

ويرى الإمام الشاطبي أنه لا يمكن فهم مراد المتكلم سبحانه إلا بردّ آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وهو بفعله هذا يقف على الوحدة الموضوعية للسورة، حيث يقول «فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق ببعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، **وإذ بذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف**، فإن فرّق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض» (٤٨) .

ثالثاً ـ مقاصد السورة القرآنية:

مفهوم المقصد القرآني: هو الهدف والغاية الملحوظة في السورة القرآنية بمجموعها أو في آيات الموضوع القرآني– في لفظها ومعناها– فهو المحصول منها وما ترمي إليه، والآيات القرآنية شرح وتفصيل له، أو تعليل وإثبات له ليتحقق عند المخاطبين به. (٤٩)

ويشترط في المقصد القرآني أن يكون قضية كلية عامة متعلقة بالمخاطبين كافة بالآيات القرآنية. (٥٠)

واعلم أن مقاصد السورة القرآنية تتفرع عن مقاصد القرآن العامة التي أنزله **الله** من أجلها، وأجمع الأقوال أن مقصد القرآن الكريم العام هو إثبات صدق النبي r، وتحقيق الهداية في العباد. (٥١)

وبناءً على المفهوم الاصطلاحي للمقصد القرآني، اتضح أن آيات السورة القرآنية تشرح المقصد من السورة وتفصّله أو تعلله وتثبته ليتحقق عند المخاطبين بها، فمن هنا تبين أن المقاصد القرآنية أساس في الترتيب المصحفي من جهة، كما تبين أن دراسة مقاصد السورة القرآنية التي ورد فيها موضوع البحث في التفسير الموضوعي يحقق مراد **الله**، ويترك أثراً جلياً واضحاً في الدراسة الموضوعية لذلك الموضوع، ويبرز معالمه ويكشف حقائقه، بل يُسهم في تحديد هدفه وتحقيقه، ويكون المفسر بذلك قد جمع بين حِكم **الله** في الترتيب الذي نزل عليه القرآن، وفي الترتيب المصحفي الذي استقر عليه كلام **الله**.

وإليك الدراسة التطبيقية التي تدلل على صحة ما ذهبنا إليه:

دراسة قرآنية تطبيقية:

أقدم هذه الدراسة العملية القرآنية أُثبت فيها أن دراسة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ومقاصدها والمناسبة للآيات خطوة أصيلة في منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

فلو أن مفسراً أراد أن يُعد دراسة عن الربا في ضوء القرآن الكريم، فأول آيات تحدثت

عن الربا في سورة البقرة– من آية (٢٧٥) إلى آية (٢٨٠) – ولا أريد تتبع المواضع الأخرى (٥٢) ؛ لأن غايتي إثبات ما ذهبت إليه لا إجراء دراسة متكاملة عن الربا.

وللتدليل على ما سبق أبين الظلال التي تلقيها الوحدة الموضوعية لسورة البقرة ومقاصدها، ومناسبة آيات تحريم الربا فيها للآيات السابقة عليها وعلاقتها بالآيات اللاحقة بها.

فالوحدة الموضوعية، والأمر العام الذي تتعانق حوله موضوعات سورة البقرة الاستخلاف في الأرض، حيث تحدثت عن استخلاف آدم عليه السلام– ثم طوت صفحات المستخلفين إلى آخر أمة سابقة على أمة محمد صلى **الله** عليه وسلم، فتحدثت عن استخلاف بني إسرائيل مبينة أسباب نزع الخلافة منهم– محذرة أمة الإسلام من الوقوع فيها– مبينة موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة ومواجهتهم لسيدنا رسول **الله** صلى **الله** عليه وسلم، ثم تتحدث الآيات عن موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والعقيدة والخلاقة في الأرض بمنهج **الله**، مبينة ما يلزمها من تشريع على المستوى الفردي والأسري والمجتمعي (٥٣) .

وأما مقاصدها فهو إقامة الدليل على أن القرآن كتاب هداية يُتَّبع، وإثبات سمو هذا الدين على ما سواه ببيان تشريعاته التي تحقق مصالح المجتمع (٥٤) .

وأما مناسبة آيات تحريم الربا للآيات السابقة عليها: فالسابقة جاءت تحدثنا عن الإنفاق ومثوبته– كما يتخلل آيات تحريم الربا الدعوة لإيتاء الزكاة والتصدق والتذكير بالتقوى– وأما الآيات اللاحقة لها فتحدثنا عن مشروعية الدَّين وأحكامه وعن الرهان، وما ذلك إلا من قواعد الاقتصاد الإسلامي كنظام من أنظمة الخلافة في الأرض، يقول سيد قطب «منذ الآن– آية (٢٦١) – إلى قرب نهاية السورة يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يريد الإسلام أن يقوم عليه المجتمع المسلم...» (٥٥) .

قلت: **والتناسب بينها قوي**: فإن كان الربا استغلال حاجة المحتاجين، فإن الصدقة تسد حاجتهم، وإن كان الربا عنوان جشع النفس، فإن الصدقة تطهير النفس وتهذيبها– ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾ (١٠٣: التوبة) – والتقوى ضابط الالتزام ومانعة الاستغلال.

وأما ربط آيات تحريم الربا بآيتي الدّين والرهان فهي بمثابة البديل للقضاء على الربا وذلك بالدّين المؤجل المكتوب إقراضاً **لله**، أو المرهون مقابله به المشهود عليه، لتحفظ حقوق العباد من الضياع؛ لأن ضياعها يورث النزاع ويذهب سلامة الاجتماع الذي به يصلح الاستخلاف.

وبعد هذا العرض الموجز للوحدة الموضوعية لسورة البقرة ومقاصدها المتضمنة لآيات تحريم الربا- موضوع الدراسة- ومناسبة هذه الآيات لما قبلها وعلاقتها بما بعدها، **ليخرج المفسر لها تفسيراً موضوعياً بلطائف وأفكار ومحاور ما تسنت له لولا ذلك وإليك هي**:

- يجب على الأمة المستخلفة في الأرض أن تسير وفق منهج الله وشريعته في عمارتها للأرض، وذلك في كل الجوانب والأنظمة- ومنها النظام الاقتصادي- وأن الخروج عن المنهج من دواعي نزع الخلافة- كما كان شأن بني إسرائيل- وذهاب الدولة. (أُخذت هذه بالنظر إلى الوحدة الموضوعية في السورة) .

- يريد الله المجتمع المسلم المستخلف كالجسد الواحد، والربا يقطع أواصر التلاحم بين أعضاء المجتمع، بينما الصدقة تعززه، إذ هي سد حاجة المحتاجين والربا استغلالها. (أُخذت هذه بالنظر إلى المناسبة بين آيات تحريم الربا وما قبلها في الإنفاق) .

- الربا يورث الأمراض في المجتمع كالجشع والطمع والشح، بينما الصدقة تربي الإيثار والمحبة، فالأحكام الشرعية تقوّم أخلاقيات المجتمع وتحقق مصالح للعباد ومعالم هداية فردية ومجتمعية. (أُخذت هذه بالنظر إلى مقاصد سورة البقرة والمناسبة بين الآيات).

- يقرر الإسلام البدائل عما يحرمه، فبديل الربا التصدق أو الدَّين المؤجل قرضاً حسناً مكتوب مشهود عليه أو مرهون مقابله به، مما يؤكد سمو دين الله والتوازن فيه وعلو شأنه وعظيم هدايته. (أخذت هذه بالنظر إلى مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها ومقاصد السورة) .

- كما يمكنه أن يتحدث عما تبرزه الآيات- بمناسبتها ومقاصد سورتها ووحدتها الموضوعية- من خصائص النظام الاقتصاد الإسلامي الذي يقوم على قاعدة توزيع الثروة في المجتمع بدلالة التأكيد على الإنفاق وسدّ جيوب الفقر، والتخلص من الطبقية وسلبيتها؛ لأنه بالربا يؤول المال إلى قلة في المجتمع يتحكمون به.

ومن خصائصه التي تؤكدها الآيات: أن هذا النظام في الإسلام يوجب تنمية المال، فالزكاة والصدقة المضادتان للربا في استغلالها حاجة المحتاجين إنما تكون في المال النامي وتحمل صاحبها على تنميته، مما يعني تحريك عجلة الاقتصاد ونموه، وهوالذي يحقق قوة الدولة ويحقق استقرارها حيث التآلف بين أفراد المجتمع والرضا المتبادل بين الساسة والرعية.

وهذا قليل من كثير أفادته مناسبة آيات تحريم الربا للآيات السابقة وعلاقتها بالآيات اللاحقة عليها والوحدة الموضوعية لسورتها ومقاصدها.

نتائج المبحث الثاني:

يتبين لنا مما تقدم أن المناسبة والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ومقاصدها تعد أصلاً في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.

فالمفسر في التفسير الموضوعي إذا قام بدراسة وافية لمناسبة آيات موضوع بحثه في سورها وظلال الموضوعات الأخرى في كل سورة على موضوع بحثه منتبهاً لمقاصد تلك السور ووحدتها، فإن موضوع بحثه يتسِّع وتبرز معالمه وتنكشف حقائقه، كما تضفي عليه آفاقاً جديدة وأفكاراً عميقة ومعاني جليلة، يستخرجها حال النظر في السورة تلو النظر والتدبر مع التفكر والتبصر، إذا علا ذلك الإخلاص وصاحبه، ويكون بذلك قد أدرك مراد **الله**، أو كاد يدركه بل لعله يصيب حكمة **الله**، لمّا جعل ذلك الموضوع في ذلك الموضع من تلك السورة، ولا يكون بذلك مجتزئاً لآيات موضوع بحثه من السور التي ورد فيها اجتزاء مخلاً، ولا يكون بذلك متعدياً على حكمة **الله** ومراده، ولا مستدركاً على **الله** في ترتيب آيات كتابه، بل جامعاً بين الحِكم من الترتيب النزولي حيث واكب القرآن حال المخاطبين وقت نزوله، والحِكم من الترتيب المصحفي الذي استقر عليه كلام **الله** خطاباً للناس في كل مكان وعبر الزمان.

المنهج العام المعدل في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

لا بد من تحديد المعنى الاصطلاحي للمنهج، حيث يسهم في دقة الوصف والتحديد للخطوات المنهجية.

المنهج لغةً: من نهج، وقالوا نهج الثوب: إذا بان فيه البلَى، والمنهاج: الطريق الواضح، ونهج الطريق: أبانه وأوضحه، ونهجه: إذا سلكه، ونهج لي الأَمر: إذا أوضحه [٥٦] . ومن هنا يتضح أن المنهج طريق يتبع ويسلك للوصول إلى مراد أو ليتضح منه المراد، فهو عملي للوصول إلى نتائج عملية أو نظرية. وعليه فالمنهج في البحث العلمي هو: الخطة المرسومة المبنية على قواعد وأسس ينطلق منها الباحث في بحثه فتضبط عمله كله للوصول إلى حقيقة ما أو تحقيق هدف ما. [٥٧]

لذلك اعترضت على بعض الباحثين المعاصرين – ممن ذكرت مناهجهم– في خطوات ذكروها لمنهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، حيث أدخلوا فيها ما ليس منها.

ومناهج المفسرين لا تختلف من حيث الأهداف؛ لأن المفسر في التفسير التحليلي أو الموضوعي يدور مع مقاصد القرآن الكريم، ويريد الكشف عن مراد **الله**، وإن اتخذ المفسر لنفسه هدفاً آخر يكون بذلك دخل إلى فهم القرآن الكريم بمقررات سابقة تؤدي إلى التحكم بآيات القرآن الكريم، والخروج عن مراد **الله**.

والأصول العامة في المناهج ثابتة لا تتغير، فمثلاً ما صح من المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على غيره، وما صح عن الصحابة رضي الله عنهم فيما له حكم المرفوع مقدم على ما كان حكمه الموقوف وهكذا.

وقد يؤثر اختلاف الثقافات والبيئات على منهاج المفسرين في الفروع وأساليب العرض، فمثلاً يركز أكثر المفسرين في زماننا على إظهار المضامين العلمية أكثر من إظهار المعاني البيانية، كما قد يفترض زماننا على المفسر تفسيراً موضوعياً أسلوباً خاصاً في تنزيل موضوع دراسته على الواقع، ومعالجة تطلعات الأمة من خلاله.

وإليك المنهج العام المعدل من المناهج سابقة الذكر، فيما يصلح منها منطلقات عملية يسلكها الباحث في التفسير الموضوعي **والتجديد المقترح**، والقواعد والشروط اللازمة لهذا العلم.

الخطوات المنهجية لعلم التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

- **أولاً**: تحديد الهدف ثم تعيين الموضوع المحقق له، وبيان أهميته.
- **ثانياً**: جمع الآيات ذات العلاقة بموضوع الدراسة، سواء المرتبطة به ارتباطاً مباشراً أو المتعلقة بمعانيه.
- **ثالثاً**: ترتيبها حسب زمن النزول ما أمكن ذلك.
- **رابعاً**: دراسة تفسير الآيات دراسة وافية مع التركيز على معرفة سبب النزول وجو النزول وصحيح المأثور، ورفع ما يوهم التعارض.
- **خامساً**: الوقوف على الظلال والمعاني التي تكشفها مناسبة آيات الموضوع في كل سورة ترد فيها مع ما قبلها وما بعدها، ومقاصد تلك السور ووحدتها الموضوعية، فإنه ثمة حكمة لله أرادها عندما جعل آيات ذلك الموضوع في تلك السور بمقاصدها ووحداتها الموضوعية، في تلك المواضع ومناسباتها في تلك السور، ولعل الباحث بذلك يهتدي لمراد الله، ولا يتجاوز حكمة الله بالترتيب المصحفي، ويتسع موضوعه وتتفتح له فيه آفاقٌ جديدة ومعاني جليلة.
- **سادساً**: تنزيل الآيات على الواقع والالتفات إليه، وذلك بوضع اليد على المشكلات الواقعة التي يمكن معالجتها بالموضوع والحاجات القائمة التي يفي بها، فيعرض المفسر الموضوعي حاجة عصره وحال المخاطبين على القرآن الكريم، فيبدأ من الواقع لينتهي بما أراده الله إصلاحاً لعباده في كتابه ليتوافق بذلك مع حال القرآن الكريم في وقت نزوله،

واعلم أنه بمعرفة زمن نزول الآيات وسببه يعرف جو نزولها، الذي يطلعك على كيفية معالجة القرآن الكريم للقضايا في الحياة الإسلامية في صدرها الأول، لتفيد منها أساليب في معالجتك ما يستجد في الحياة، كما أنه يساعدك في تحقيق فاعلية الخطاب القرآني، واستثمار نتائجه بمعرفة الحال والظرف ومقابلة الواقع بالواقع.

- **سابعاً**: تكميل دراسة الموضوع بدراسة ما ورد في السنة، مما له علاقة بالموضوع مباشرة.
- **ثامناً**: تقسيم الموضوع إلى عناصر منتزعة من ذات الآيات مترابطة، حسب المنهجية العلمية في البحث العلمي.
- **تاسعاً**: الدراسة المنهجية للموضوع.
- **عاشراً**: عرض المادة العلمية.
- **الحادي عشر**: التقويم، وذلك بالنظر في مدى تحقق حقائق القرآن في موضوع الدراسة في واقع حياة المخاطبين بكلام **الله**، أو كيفية إمكان تحقيقها.

القواعد والشروط اللازمة لهذا العلم:

- **أولاً**: اختيار عنوان الموضوع من ألفاظ القرآن الكريم.
- **ثانياً**: واقعية الهدف المرجو، والذي يعني واقعية الموضوع لنسير بذلك سير القرآن الكريم، حيث كانت الآيات تنزل عقب موقف ما لمعالجته.
- **ثالثاً**: أن لا يكون للباحث غرض خاص.
- **رابعاً**: إدراك الحاجة الواقعية للموضوع.
- **خامساً**: إلمام المفسر بالموضوع المراد معالجته إلمام المتخصص.
- **سادساً**: عدم الدخول إلى الموضوع بمقررات سابقة لكي لا يخرج بالموضوع عن قرآنيته، وإنما يخرج بحقائق القرآن كما أرادها **الله**.
- **سابعاً**: الالتزام بالعناصر المنتزعة من ذات آيات الموضوع والاستغناء عن غيرها لتكون دراسة قرآنية خالصة.
- **ثامناً**: التقيد بقواعد التفسير من الأخذ بصحيح المأثور...
- **تاسعاً**: مراعاة عامة شروط وقواعد البحث العلمي، كالتوثيق والاطلاع على الدراسات والأبحاث السابقة وتجنب الحشو...

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد:

بعد هذه الرحلة في جنبات الدراسات القرآنية والعيش في ظلال القرآن وصحبة العلماء الربانيين في كتبهم، **أقدم هذه النتائج العامة**:

١. التفسير الموضوعي من مسهمات تطور المنهجية العلمية في البحث، ومن مفرزات الحاجة البشرية المتنامية المتجددة عبر الزمان.

٢. الدعوة إلى التفسير الموضوعي ووضع منهجية مجملة له وليدة القرن الرابع الهجري، ووضع المنهجية المفصلة وتفعيل دوره في تفسير قضايا القرآن، وتنزيله على الواقع وليدة القرن الرابع عشر الهجري.

٣. غالب الجدة عند الباحثين المعاصرين في عرض المناهج أو تفصيل اللاحق لقضايا مجملة أوردها السابق، مع تميز قليل عند المتأخرين من الباحثين المعاصرين عن المتقدمين منهم.

٤. عدم وضوح مصطلح المنهج يؤدي إلى الخلط وإلحاق ما ليس من المنهج فيه، كالشروط اللازمة في الباحث والمبحوث والقواعد، وهذا مما وقع فيه بعض الباحثين.

٥. المقاصد والوحدة الموضوعية للسور التي يرد فيها موضوع الدراسة في التفسير الموضوعي، والمناسبة بين آيات الموضوع والآيات السابقة عليها، وعلاقتها بالآيات اللاحقة بها، أصول في المنهجية في التفسير الموضوعي وتجديد فيها، يُخَلص الباحث من سلبية تقدح في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني بمجاوزته حِكم الله المرادة في ترتيب المصحف، وتفتح له آفاقاً جديدة، وأفكاراً عميقة، ومعاني جليلة، يستخرجها حال النظر تلو النظر، والتدبر مع التفكر والتبصر، إذا علا ذلك الإخلاص وصاحبه، وليجمع الباحث في ذلك بين الحِكم المرادة من ترتيب القرآن النزولي ومن ترتيبه المصحفي.

٦. الدراسة التطبيقية تبرهن صحة التجديد الذي ذكرنا، وتؤكد ضرورته في منهجية التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.

وأخيراً أسأل الله أن يجزي مشايخنا خير الجزاء، وأن يوفقهم ويوفقنا إلى كل ما يرضيه عنا.

الهوامش:

١. ابن فارس، أحمد، (٣٩٥هـ) ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٩م (ص٨٣٧) .

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم، (٧١١هـ) ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١٩٦٨م (٥/ ٥٥) .

٣. الكفوي، محمود بن سليمان، (٩٩٠هـ) ، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م، (ص٢٦٠) .

٤. الزركشي، محمد بن بهادر، (٧٩٤) البرهان في علوم القرآن، تحقيق المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م، (٢/ ٢٧٦) .

٥. سلامة، محمد علي، (١٣٦١هـ) ، منهج الفرقان في علوم القرآن، تحقيق محمد المسير، نهضة مصر، ط٢٠٠٢ (٦/ ٢) .

٦. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (ص١٠٩٤) .

٧. ابن منظور، لسان العرب، (١٥/ ٣٢٥) . مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار عمران، القاهرة، لم تذكر السنة، (٢/ ١٠٨١) . الراغب الأصفهاني، حسين، (٥٠٢هـ) ، المفردات، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، (ص٨٧٤) .

٨. الجرجاني، علي بن محمد، (٨١٦هـ) ، التعريفات، تحقيق الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، ١٩٨٥، (ص٣٠٥) .

٩. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (٢/ ١٠٨١) .

١٠. الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، (ص٨٢٦) .

١١. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، القاهرة، (٢/ ١٠٨١) .

١٢. انظر: حجازي، محمد محمود، (١٣٩٠هـ) ، الوحدة الموضوعية، دار الكتب الحديثة، مصر، ط١٩٧٠م، (ص٢٤) . الفرماوي، عبد الحي، مقدمة في التفسير الموضوعي، لم تذكر الدار، ط٤، ١٩٨٩م، (ص٥٢) . مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩١م، (ص١٦) . الخالدي، صلاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، عمان، ط١، ١٩٩٧م، (ص٣٠) . عبد الرحيم، عبد الجليل، التفسير الموضوعي في كفتي ميزان، لم تذكر الدار، ط١، ١٩٩٢م، (ص٣٤) . الخضيري، محمد، مقال بعنوان: (مقدمة في التفسير الموضوعي) ، مجلة البيان، العدد (٢٤) لعام ١٩٩٣م.

١٣. انظر: حجازي، الوحدة الموضوعية، (ص٢٥) .

١٤. انظر: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، (ص٥٢– ٥٦) .

١٥. فتح الله سعيد، عبد الستار، المدخل إلى التفسير الموضوعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، لم تذكر الطبعة، ولا تاريخها، (ص٢٤– ٢٥) .

١٦. انظر: الدغامين، زياد خليل، منهجية البحث في التفسير الموضوعي، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٥م، (ص٨) .

١٧. انظر: عبد الجليل، التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، (ص٥– ١٥) .

١٨. انظر: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، (ص٣٢) .

١٩. الخطابي، حمد بن إبراهيم، (٣٨٨هـ) ، البيان في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (ضمن كتاب ثلاث رسائل في الإعجاز، (ص٥٤)) .

٢٠. انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، ضبطه وعلق عليه محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، (٢/ ٤٢١– ٤٣٧) .

٢١. انظر: الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير، تحقيق وطباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، (٢/ ١٢٥– ١٢٦) .

٢٢. انظر: ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق وطباعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، (٢/ ١٦٤– ١٦٦) .

٢٣. الخطابي، البيان في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، (ص٥٤) .

٢٤. الانتقاد ليس انتقاصاً، وكان الأستاذ الدكتور فضل عباس رحمه الله يدعو طلاب العلم إجلال العلماء وعدم انتقاص ذواتهم، والجرأة في العلم لا على العلماء، وما المعارضة والتعقب والنقد إلا قوة للعلم وإحقاقاً للحق، أو بحثاً عنه، فالكمال ليس من شأن البشر، وإنما هو لرب البشر.

٢٥. حجازي، الوحدة الموضوعية، (ص٢٥) .

٢٦. الكومي، أحمد السيد، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دار الهدى، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م، (ص٢٣– ٢٤) .

٢٧. كانت للشيخ الكومي مذكرات تدرس في الأزهر قبل طبعها في كتاب عام (١٩٨٠م)ـ موجودة منها نسخة مخطوطة في مكتبة الأستاذ الدكتور فضل عباس رحمه اللهـ وبذلك هو سابق على الدكتور الفرماوي، حيث اعتمد على هذه المذكرات ورجع إليها في ذكره خطوات المنهج، انظر (ص٦٢) من كتاب الفرماوي.

٢٨. الفرماوي، مقدمة في التفسير الموضوعي، (ص٦١– ٦٢) .

٢٩. فتح **الله** سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، (ص٨) .

٣٠. المرجع السابق، (ص٥٦– ٥٨) .

٣١. مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، (ص٣٧– ٣٩) .

٣٢. عبد الجليل، التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، (ص٦٠) .

٣٣. المرجع السابق (ص٧١) .

٣٤. الدغامين، منهجية التفسير الموضوعي، انظر: (ص٣٧– ٤٥) .

٣٥. الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، انظر: (ص٦١– ٦٢) ، و (ص٦٧– ٦٨) ، و (ص٧٠– ٧٢) .

٣٦. يبدو أنه من الضروري تحديد معاني المصطلحات، وهذا يُسهم في دفع كثير من السلبيات، ولذلك سنحدد– إن شاء **الله** تعالى– المعنى الاصطلاحي للمنهج لاحقاً.

٣٧. لي دراسة مفصلة في المكي والمدني تتبعت فيها الروايات مع دراسة أسانيدها والحكم عليها والترجيح في مواضع الاختلاف وتعدد الروايات، ضمن رسالة الدكتوراه، سائلاً **الله** أن ييسر طباعتها.

٣٨. قطب، سيد، (١٣٨٧هـ) ، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث، ط٧، ١٩٧١م، (٣/ ٧٢٨).

٣٩. شريف، محمد إبراهيم، اتجاهات التجديد في التفسير في مصر، دار التراث، ط١، ١٩٨٢م، (ص٣١٨) . وعطا، عبد القادر، عظمة القرآن، الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٤م، (ص١٣٢) .

٤٠. المرجعان السابقان بنفس صفحاتهما.

٤١. راجع الصفحة السابقة.

٤٢. عباس، فضل حسن، اتجاهات التفسير في مصر وسوريا، رسالة دكتوراة، ١٣٥٢هـ، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، لم تطبع، مودعة في مكتبته. (ص١٧٠) ، وانظر: عبد الستار سعيد، المدخل إلى التفسير الموضوعي، تحت عنوان شبهات على التفسير الموضوعي، (ص٩٠) .

٤٣. انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر، (٨٨٥هـ) ، مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور، تحقيق عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٧٨، (١/ ١٤٣) .

٤٤. انظر: البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق مهدي، الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، (١/ ٥) .

٤٥. حجازي، الوحدة الموضوعية، (ص٢٤) .

٤٦. الفرماوي، مقدمة في التفسير الموضوعي، (ص٦٢) .

٤٧. هذا التعريف صغته بناء على قراءة عامة في كتاب الفراهي، حميد الدين، (١٣٤٩هـ) ، دلائل النظام، مطبعة الدائرة الحميدية، ط ١٩٨٨م

٤٨. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، (٧٩٠هـ) ، الموافقات، تحقيق عبد الله دراز، دار ابن عفان، ط١، ١٩٩٧م (٢/ ٣٧٥) .

٤٩. انظر: علان، علي عبد الله، منهج المناسبات بين الآيات وتطبيقه على سورة الإسراء، رسالة ماجستير، بإشراف أ.د. فضل عباس، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩، لم تطبع، (٤٢– ٥٧) .

٥٠. المرجع السابق بنفس الصفحات.

٥١. المرجع السابق بنفس الصفحات.

٥٢. أعتقد أن أول آيات نزلت في ذم الربا وأن الله لا يربيه آية سورة الروم المكية [٣٩]، ثم آية آل عمران [١٣٠] التي حرمت الربا المضاعف، ثم آيات سورة البقرة التي حرمت الربا على إطلاقه واشتملت على الوعيد وإعلان الحرب من الله على المرابين، وأفادت آية سورة النساء [١٦١] أن تحريم الربا تشريع عام على الأمم السابقة، فقد حرمه الله على أهل الكتاب من قبل.

٥٣. انظر نحو هذا عند سيد قطب، في ظلال القرآن، (١/ ٢٢– ٣٤) .

٥٤. انظر: البقاعي، نظم الدرر، (١/ ٢٤) . وابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، نسخة مصورة، لم تذكر الدار ولا تاريخ الطبعة، (١/ ٢٠٣) .

٥٥. انظر: قطب، في ظلال القرآن، (١/ ٤٤٤) .

٥٦. أنظر: الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢٠٠٤م، (ص٣٢٩) ، والراغب، الأصفهاني، المفردات (ص٨٢٥) .

٥٧. علان، منهج المناسبات بين الآيات وتطبيقه على سورة الإسراء، (ص٤٠) .

المصادر والمراجع:

١. البقاعي، إبراهيم بن عمر، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٧م.

٢. البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق مهدي، الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٣. الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، ١٩٨٥م.

٤. حجازي، محمد محمود، الوحدة الموضوعية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط ١٩٧٠م.

٥. الخالدي، صلاح، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، عمان، ط١، ١٩٩٧م.

٦. الخضيري، محمد، مقال بعنوان: (مقدمة في التفسير الموضوعي) ، مجلة البيان، العدد (٢٤) لعام ١٩٩٣م.

٧. الخطابي، حمد بن إبراهيم، البيان في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف **الله** ومحمد زغلول، دار المعارف، القاهرة، ط٤، لم تذكر السنة، ضمن كتاب «ثلاث رسائل في الإعجاز».

٨. الدغامين، زياد خليل، منهجية البحث في التفسير الموضوعي، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٥م.

٩. الرازي، محمد بن أبي بكر، تحقيق أحمد إبراهيم زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢٠٠٤م.

١٠. الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، المفردات، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.

١١. الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق المرعشلي وآخرون، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٤م.

١٢. سلامة، محمد علي، منهج الفرقان في علوم القرآن، تحقيق محمد المسير، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

١٣. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، تحقيق عبد **الله** دراز، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٤. شريف، محمد إبراهيم، اتجاهات التجديد في التفسير في مصر، دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٢م.

١٥. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، نسخة مصورة، لم تذكر الدار ولا تاريخ الطبعة.

١٦. عباس، فضل حسن، اتجاهات التفسير في مصر وسوريا، رسالة دكتوراة ١٣٥٢هـ، كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر ـ لم تطبع،مودعة في مكتبته.

١٧. عبد الجليل، عبد الرحيم، التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، لم تذكر الدار، ط١، ١٩٩٢م.

١٨. عطا، عبد القادر، عظمة القرآن، الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

١٩. علان، علي عبد الله، منهج المناسبات بين الآيات وتطبيقه على سورة الإسراء، رسالة ماجستير، بإشراف أ.د. فضل عباس، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩م، لم تطبع.

٢٠. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٩م.

٢١. الفرماوي، عبد الحي، مقدمة في التفسير الموضوعي، لم تذكر الدار، ط٤، ١٩٨٩م.

٢٢. قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث، بيروت، ط٧، ١٩٧١م.

٢٣. الكفوي، محمد بن سليمان، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.

٢٤. الكومي، أحمد السيد، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، دار الهدى، القاهرة، ط١، ١٩٨٠م.

٢٥. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار عمران، القاهرة، لم تذكر الطبعة ولا تاريخها.

٢٦. مسلم، مصطفى، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، ط١، ١٩٩١م.

٢٧. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١٩٦٨م.

الإبراء حقيقته وأنواعه، وشروط صحته

أ. عبد الحميد عبد المحسن عبد الحميد هنيني*

* محاضر في القضاء الشرعي/ كلية الشريعة/ جامعة الخليل/ فلسطين.

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوعاً فقهيا مهمّاً في حياة الفرد، وهو بعنوان: (الإبراء: حقيقته، وأنواعه، وشروط صحته) ، وقد انبنى من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة؛ كان الأول منها في بيان حقيقة الإبراء؛ وذلك بمعرفة معناه في اللغة، ثم تعريفه اصطلاحاً بعد عرض تعريفات الفقهاء له ومناقشتها، والمبحث الثاني في أنواعه، حيث يتنوع الإبراء إلى أنواع عدة، بيَّنها الباحث في بحثه، وأما المبحث الثالث فكان في شروط صحته، حيث يشترط لصحة الإبراء شروط عدة ذكرها الباحث مُفَصِّلاً آراء أئمَّة الفقه في هذه الأحكام، ومُبَيِّناً الرّاجح منها، ثم جاءت الخاتمة في أهم نتائج البحث.

Abstract:

This research deals with the subject doctrinal However, in a person's life, entitled: (discharge: its reality, and types, and conditions of health) , was based of the three sections and a conclusion; was the first of all in terms of discharge, by knowing the meaning in the language, and then defined conventionally after the View definitions scholars to him and discussed, and the second topic in its different forms, with varied discharge into several types, including a researcher in his research, and the third section was in terms of health, where required for the health of discharge a number of conditions mentioned by the researcher, detailed views of the imams of Islam in these terms, and indicating correct them, and then came the most important conclusion in the search results.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الخلق والمرسلين وبعد:

فمبدأ التسامح عظيم، ومن التسامح والعفو ما يسمى بالإبراء، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١) .وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ...﴾ (٢) .وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ» (٣) . فالإبراء من المواضيع المهمَّة في الدِّيْن الإسلامي؛ لما فيه من التيسير، وتفريج كربة المُعسر.

أهداف البحث:

للبحث ثلاثة أهداف رئيسة:

- معرفة حقيقة الإبراء، حيث إنَّ الفقهاء لم يعتنوا بتعريفه، فعرَّفوه بالرسم، وليس بالحد.
- التعرف على أنواعه.
- معرفة شروط صحَّته؛ ليكون المرء على بصيرة من أمر دِيْنه.

ونظراً لأهمية الموضوع، ولعدم وجود بحث مستقل – على حد علمي– يجمع شتاته، ويبحثه بشكل منفرد، ويُظْهره باعتباره موضوعاً فقهياً مهماً، يجدر بالمسلم معرفته، فقد ارتأيت أَنْ أكتب فيه ، خدمة للعلم الشرعي، وأهله.

أسباب اختيار البحث:

♦ موضوع الإبراء لم يأخذ حقَّه من البحث والتمحيص، من قِبل الفقهاء المعاصرين، وقد بحثه الفقهاء القدامى في موسوعاتهم، ولكن بشكل مبعثر، فاحتاج إلى تجميع وترتيب.

♦ اختلاف العلماء القدامى في كثير من أحكام الإبراء، يدعو إلى الكتابة فيه، وترجيح ما يقوِّيه الدليل، في كل جزئية وقع الخلاف حولها.

♦ الحاجة إلى بحث متعمق – قدر المستطاع– في هذا الأمر؛ لأن البحث يتطرق إلى أهم الجوانب حيوية، وهو الحفاظ على حقوق الفرد، وسمعة المجتمع.

♦ المساهمة في تعريف الباحثين وطلاب العلم بأحكام الإبراء.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة البحث في نقطتين رئيستين هما:

- ♦ تشتت موضوع حقيقة الإبراء، وأنواعه، وشروط صحته، في كتب الفقه القديمة.
- ♦ عدم وضوح أحكام أنواع الإبراء وشروط صحته؛ لكثرة الخلاف حولها بين الفقهاء.

الدراسات السابقة:

لم أجد مرجعاً يجمع شتات الموضوع، وقد تناول هذا الموضوع الفقهاء القدامى، ولكن بشكل مُبَعْثَر يحتاج إلى تجميع وعنونة؛ لأنه بُحِث في مباحث مختلفة ، فتارة في مباحث العفو، وتارة في مباحث الإسقاط، وأخرى في باب الصلح، وليست على نسق واحد، وقد اختلفوا في كثير من أحكامه، فاقتضى توضيح هذه الأحكام.

منهج البحث:

لتحقيق أهداف البحث على الوجه الأمثل، اتبع الباحث المنهج الوصفي، مستفيداً من المنهجين الاستنباطيّ والاستقرائيّ، وسلكت في معالجة الموضوع طريقة موضوعية فقهية، **وفق الخطوات الآتية:**

- ♦ أخذ أقوال كل مذهب من مصادره المعتبرة.
- ♦ ذكر أدلة كل مذهب مبينا وجه الدلالة .
- ♦ تحليل الأدلة و مناقشتها والاعتراضات الواردة عليها لاستنباط الأحكام منها.
- ♦ ترجيح ما يقويه الدليل بموضوعية وحياد دون تعصب لرأي أو مذهب.
- ♦ تخريج الأحاديث النبوية والآثار والحكم عليها – ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.
- ♦ الاعتماد على المصادر اللغوية المعتبرة في ترجمة المصطلحات.
- ♦ الترجمة للأعلام غير المعروفين الذين أوردهم في البحث .
- ♦ عرض النتائج التي توصلت إليها في خاتمة البحث.

محتوى البحث:

تضمَّن البحث مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

- المقدِّمة: تضمنت عنوان البحث، وأهدافه، وأسباب اختياره، والمنهجية في كتابته.
- المبحث الأول: تعريف الإبراء.
- المبحث الثاني: أنواع الإبراء.
- المبحث الثالث: شروط صحة الإبراء.
- الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

المبحث الأول: تعريف الإبراء:

الإبراء لغة (٤) : أَصلُ تَركيب البَرْءِ لخُلوص الشيءِ من غيره، إما على سَبِيل التقصي، كَبَرَأَ المَرِيض من مَرَضه، والمَدْيُون من دَيْنه، أو الإنشاء، كبَرأ **الله** آدمَ من الطين، وهو بمعنى المسامحة، والإسقاط فيُقال: برئ من الدَّين وأبرأه من الدَّين وبرَّأه تبرئة، سامَحَهُ، وأسقطه عنه، فهو بَراء منه، وأَبْرأْته جَعلته بَريئاً من حَقِّي، وَبَرَّأْته صحَّحْتُ بَراءَته، وأَبرأْتُه مَالي عليه، وَبَرَّأْته تَبرِئَةً وتَبَرَّأْتُ من كذا، لا يُثَنَّى ولا يُجْمَع لأنه مصدر، وبَرِيء يُثَنَّى ويُجْمع، هي بريئة وهما بريئتان وهن بريئات وبرايا، ورجل بريء وبُراء.

ولمادة برأ وما اشتُقَّ منها في لغة العرب معان عدة (٥) :

- **الخَلْق**: بَرَأَ **الله** الخَلْقَ يَبْرَؤُهم بَرْءًا وبُرُوءًا، أي خَلَقَهُمْ. ومنه قول **الله** عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ في الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ... ﴾ (٦) ، أي من قبل أن نخلقها (٧) .
- **الإنذار**: بَرِء إذا أَعْذر وأَنْذَر، ومنه قولُ **الله** عز وجل: ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ **اللّهِ** وَرَسُولِه إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨) ، أي إنذار بنصب الحرب، والقتال بين المسلمين ومَنْ نقضوا العهد (٩) .
- **البحث والتقصي**: يقال: استبرأ أَرْضَ كذا فما وجَدَ ضالَّته، واستبرَأْتُ الأَمْرَ، طلبْتُ آخِرَه.
- **الصحة والسلامة**: برئ من العيب سَلِمَ، والبريء الصحيح الجسم والعقل.
- **الفُرقة والمفارقة**: بارأ شريكه، فارقه، تَبَرَّأْنَا تَفارَقنا، وبارأ الرجل امرأته فارقها.

- **الاجتناب والبعد**: ومنه قول **الله** عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (١٠) . أي مجتنب له، ومبتعد عنه (١١) .

- **الاستيضاح**: ومنه قول ابن عمر– رضي **الله** عنهما– : «إذا وُهِبَت الوليدة التي توطأ، أو بِيْعَتْ أو عُتِقت فليُستبرأ رَحِمُها بحيضة، ولا تُسْتَبْرأ العذراء» (١٢) ، يستبرئها بحيضة، ومعناه طلب استيضاح براءتها من الحمل، واستبرأ المرأةَ إذا لم يطأها حتى تحيض، وكذلك استبرأ الرحم.

- **الاستنزاه**: فقد روي أن رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– مرَّ على قبرين، فقال: «إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لاَ يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» (١٣) . فقوله صلى **الله** عليه وسلم: «لا يستنزه»؛ أي لا يستبرئ، ومعناها لا يتجنبه ويتحرز منه (١٤) .

الإبراء اصطلاحاً: لم يعتن الفقهاء القدامى بتعريف الإبراء تعريفاً حدِّيّاً، ولم يُفردوا له باباً، مثل كثير من المصطلحات الفقهية، بل ذكروا موضوع الإبراء في مسائل مختلفة من كتاباتهم؛ فتارة في باب الصلح، وأخرى في باب العفو، وغيرها في باب الإسقاط ...، ولكن وُجد منهم من عرَّف الإبراء، حسب فهمه له، من حيث، هل هو إسقاط، أو تمليك، أو إسقاط فيه معنى التمليك، أو تمليك فيه معنى الإسقاط؟ ، وفيما يلي عرض لجملة من هذه التعريفات، ثم مناقشتها، في محاولة للوصول إلى ما يغلب على الظن أنَّه الراجح، **وبالله** التوفيق:

الإبراء عند الحنفية: جاء في كتاب «غمز عيون البصائر» أنَّ الإبراء: « إسقاطُ وهبَة الدَّيْن ممَّن عليه الدَّيْن» (١٥) . وعرَّف الكرابيسي الإبراء أنَّه: «إسقاط الطَّلب لا إلى غاية» (١٦) . وجاء في كتاب «درر الحكام»: «هُوَ حَطٌّ وَتَنْزِيلُ قِسْمٍ مِنْ الْحَقِّ الَّذِي فِي ذِمَّةِ شَخْصٍ أَوْ كُلِّه»(١٧) .

والإبراء عند الحنفية تمليك من وجه، وإسقاط من وجه آخر (١٨) ؛ لأن الإبراء عن الدَّيْن، وإن كان إسقاطاً فإنَّ فيه معنى التمليك (١٩) ، وهم يرون أنَّ الإبراء يكون في الديون فقط؛ لأن الإبراء عن العين لغو، فالإبراء إسقاطٌ والعين ليست بمحل له؛ إذ لا تسقط حقيقة ولا يسقط ملك المالك عنها أيضاً؛ لأن الإبراء مُفْرِغ للذمة بعد اشتغالها، فالإبراء عن الأعيان لا يصح؛ لعدم ثبوتها في الذمة (٢٠) .

والإبراء عند المالكية: «نقل للملك» (٢١). وهو إسقاط ما يثبت في الذمة، فلا يجري في الأعيان، بخلاف الدَّيْن، فلا يصح بَرَّأْتُكَ من داري التي تحت يدك؛ لأن الإبراء إسقاط، والمُعيَّن لا يسقط (٢٢) . بينما عرَّف الشافعية الإبراء أنَّه: «إسقاط ما في الذمة أو تمليكه»(٢٣).

وقال صاحب كتاب «المنثور»: توسط ابن السمعاني فقال: إنه تمليكٌ في حق من له الدَّيْن، إسقاط في حق المديون [٢٤] . والإبراء عند الحنبلية: «إسقاط حق وليس بتمليك»[٢٥].

وعند الشيعة الإمامية: له تعريفان متشابهان:

- «إسقاط لِمَا في الذمة» [٢٦] .
- «إزالة ما يثبت في الذمة» [٢٧] .

فالإبرَاء عندهم إسقاط ، لا تمليك [٢٨] ولو أَسْقَطَ المنفعة المعيَّنَة لَمْ تسقط؛ لأَنَّ الإِبراء لا يتناول إلا ما هو في الذِّمَم [٢٩] .

مناقشة التعريفات، وبيان التعريف المختار:

ملاحظات عامة حول التعريفات:

- يلاحظ مِمّا سبق من التعريفات أن جميع المذاهب السابقة – الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والشيعة الإمامية– اعتبرت الإبراء إسقاطاً، عدا المالكية الذين اعتبروه نقلاً للملك.
- ويُلاحظ أن تعريف الإبراء في التعريفات السابقة هو بالرسم، وليس بالحد.
- ويُلاحظ أيضاً، بأن جميع التعريفات عامة، تخلو من قيود لصحة الإبراء، فهل يصح الإبراء من أي شخص؟ ، وهل يصح من غير صاحب الحق؟ ، وهل يصح من فاقد أهلية التبرع؟ كما أن بعض التعريفات لا تخلو من ملحوظات أخرى غير التي ذَكَرْت:

- فتعريف الحنفية: «إسقاط وهبة الدَّيْن مِمَّن عليه الدَّيْن». فقولهم هبة الدَّين: غير صحيح؛ لأن الهبة تكون بنقل وقبض الشيء الموهوب، من الواهب، إلى الموهوب له [٣٠] ، والإبراء ليس فيه نقل؛ بل فيه تنازل.

- كما أن الإبراء حقيقة فيه معنى التمليك، فالمُبْرَأ من ألف دينار زاد ملكه بقدر الألف؛ لأنه لو دفعها لنقص ملكه بمقدارها، وبالإبراء زاد ملكه بقدرها، فكأنه دفعها ثم كسب بمقدارها.

- وتعريف الكرابيسي: «الإبراء إسقاط الطلب لا إلى غاية». غير مُسَلَّم من ناحيتين:

الأولى: أَنَّ الإبراء ليس إسقاط الطلب، بل هو إسقاط للحق، فَمُسْقِط الطلب ليس مُسْقِطاً للحق حقيقة، وله المطالبة فيما بعد، والمُبرئ ليس له الطلب بعد الإبراء.

الثانية: قيد (لا إلى غاية) : يفيد أَنَّ الإبراء غير مقيَّد بزمن، مع أَنَّ الأَصل تقييده بزمن، منعا للنزاع، إذا ترك مطالبته مدة ثم عاد وطالبه، ويؤيد هذا قول الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ

ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [٣١]، فأمهل الله تعالى المدين حتى يساره، وكذا إسقاط الطلب الأصل فيه أن يكون إلى غاية.

- وأمّا تعريف المالكية بأنَّ الإبراء نقل للملك، فيُناقش بأنَّ الإبراء ليس نقلاً للملك؛ بل تنازل، وإن كان فيه معنى التمليك، فلا يَنْقُل إليه مِلْكا؛ بل يُمَلِّكُه ما في ذمته، فكلمة نقل غير مناسبة في التعريف.

- وتعريف ابن السمعاني الذي ورد في كتاب «المنثور» بأنَّه: تمليك في حق مَنْ له الدَّيْن، إسقاط في حق المديون.

هو شرح للإبراء، وليس تعريفاً له.

- أمّا تعريف الحنبلية بأنَّ الإبراء: إسقاط حق وليس بتمليك. وتعريف الشيعة الإمامية له بأنَّه: إسقاط لا تمليك. فلا يسلم القول بأن الإبراء ليس فيه معنى التمليك، فكما قال الباحث في مناقشة تعريف الحنفية: المُبْرأ من ألف دينار زاد ملكه بقدر الألف؛ لأنه لو دفعها لنقص ملكه بمقدارها، فزاد ملكه بالإبراء بقدرها، فكأنه دفعها ثم كسب بمقدارها.

التعريف المختار:

أرى أن يُعَرَّف الإبراء بأنَّه: «تنازل صاحب الحق عنه إلا لمانع».

شرح التعريف:

تنازل: جنس في التعريف بمعنى التَّرك [٣٢]، فيشملُ تَرْك حقه في ما ثبت في الذمة، وتَرْك الدعوى والقيمة فيما لا يثبت في الذمة.

صاحب الحق: قيد في التعريف، يخرج به تصرف الإنسان في غير حقه، مثل إبراء الفضولي، وإبراء الموكَّل من مال وكيله دون إذن بالإبراء، وما شاكلهم، فالمبرئ وحده مَنْ يستطيع التصرف في حقه.

إلا لمانع: قيد آخر في التعريف، يخرج به الإبراء من ناقصي أهلية الأداء، فهو ضرر محض في حقهم، فلا يُقبل منهم.

المبحث الثاني أنواع الإبراء:

ينقسم الإبراء إلى أقسام عدة باعتبارات مختلفة، فَيُقْسَم من حيث اللفظ إلى إبراء عام، وإبراء خاص، ومن حيث الموضوع إلى إبراء إسقاط، وإبراء استيفاء، ويَنْقَسِم في صُوَرِهِ والغرض المقصود منه إلى إبراء مقيد بالشرط، وإبراء مُعَلَّق، وفيما يأتي عرض وتحليل هذه الأنواع، وبالله التوفيق:

المطلب الأول- أنواع الإبراء من حيث اللفظ:

- **المسألة الأولى**: الإبراء العام: جاء في مجلة الأحكام العدلية أنَّ الإبراء العام: «إبراء أحد آخر من الدعاوى كافة » [٣٣] .

ولكن هذا التعريف غير دقيق؛ لأنَّ الحق أعم من الدعاوى، فأرى أن يكون تعريفه: «إسقاط شخص حقوقه عن غيره كافة».

وللإبراء العام ألفاظ عدة تدل عليه، منها:

لا حق لي قِبَل فلان: وهو أعم ألفاظ الإبراء، بحيث يدخل فيه كل عَيْن، أو دَيْن، وكل كفالة، أو جناية، أو إجارة، وبرئ أيضاً من الحقوق البدنية؛ مثل حد القذف ما لم يبلغ الإمام، وبرئ من مال السرقة لا الحد؛ لأنه حق الله، ليس لأحد إسقاطه [٣٤] . والقول هو بريء ممّا لي قِبلَه: برئ من الأمانة، والغصب جميعاً؛ لأن هذا اللفظ يفيد عموم البراءة [٣٥].

و كل لفظ يدل على الإبراء العام فهو له، على نحو: لا خصومة لي قِبَل فلان، أو هو بريء من حقي، أو لا دعوى لي عليه، أو لا تعلق لي عليه، أو لا أستحق عليه حقا ولا دعوى، أو أبرأته من حقي، أو مِمّا لي قِبلَه، أو ليس لي معه أمر شرعي [٣٦] .

ثمرة هذا الإبراء: إنْ ادَّعى المبرئ بعد الإبراء العام حقاً، لم تُقْبل بَيِّنَتُه عليه، فلو قال المشتري للبائع: لا حق لي قِبلَك، ثم ظهر في المبيع عيب، ليس له دعوى الرد به؛ لأن الرد بالعيب من جملة الحقوق الثابتة له، وقد أبرأه منها، إلا أن يشهد الشهود أنه فعل ذلك بعد البراءة، لأن قوله لا حق لي، نَكِرَة في موضع النفي، والنكرة في موضع النفي تعم كل حق، وهو قول جمهور الفقهاء من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية [٣٧] .

وقال الشافعي: « وبرئ إليه فلان من مائة عيب بهذا العبد المُشترى، وبرأته من مائة عيب، فإن زادت رده، وإن نقصت فقد أبرأه من أكثر مِمّا وجد فيه، فليس له رده بعيب دون المائة» [٣٨] ، ولفظ المائة هنا يساوي الإبراء العام، فمن يجد في سلعة مائة عيب؟ .

- **المسألة الثانية**: الإبراء الخاص: عرَّفت مجلة الأحكام العدلية الإبراء الخاص أنَّه: «إبراء أحد آخر من دعوى متعلقة بخصوص مادة، كدعوى الطلب من دار، أو ضَيْعَة، أو جهة أخرى» [٣٩] . لكن أرى استبدال كلمة «دعوى» بكلمة «حق»؛ لأنَّ الحق أعم من الدعوى، فيكون التعريف: «إبراء أحد آخر من حق متعلق بخصوص مادة»، فيشمل كل حق خاص، كما في أقسام الإبراء الخاص الآتية. وللإبراء الخاص ألفاظ خاصة به بحسب نوع الحق، فإن كان خاصاً بِدَيْنٍ خاص، يُقال: أبرأته من دَيْن كذا، أو هو بريء من الدَّيْن الذي لي قِبلَه،

أو من دَيْني عليه. وإن كان من حق فيقول: أبرأتك من حقي عليك، أو ليس لي قِبَل فلان حق، فيكون بريئاً من كل قليل وكثير، دَيْناً، أو وديعة، أو عاريَّة، أو كفالة، أو غصباً، أو قرضاً، أو إجارة، أو غير ذلك، فيتناول الجهة التي أراد الإبراء عنها [٤٠] ، **وينقسم هذا النوع من الإبراء إلى أربعة أقسام** [٤١] ، **وهي كما يأتي**:

- **أولاً**: الإبراء من دعوى مال مخصوص: كالإبراء عن دعوى متعلقة بدار، فيقول له أبرأتك عن خصومتي في هذه الدار [٤٢] .

- **ثانياً**: الإبراء من ذات المال المخصوص: كقول المُبْرِئ للمُبْرأ: أبرأتك عن نصف الدَّيْن، وقول المولى لِمُكَاتِبِه: أبرأتك عن مال الكتابة، وإبراء الزوجة زوجها من بعض صداقها، أو كله [٤٣] .

- **ثالثاً**: الإبراء الخاص بالعين: وهو موضع خلاف بين الفقهاء، فمذهب جمهور الفقهاء من المذاهب الأربعة إلى أنَّه يقع باطلاً، قال السرخسي: «الإبراء عن العين لغو؛ فإن الإبراء إسقاط، والعين ليست بمحل له، إذ لا تسقط حقيقة، ولا يسقط ملك المالك عنها أيضا، وإضافة التصرف إلى غير محله لغو» [٤٤] ، وقال القرافي: «الإبراء من المُعَيَّن لا يصح، بخلاف الدَّيْن، فلا يصح إبراؤك من داري التي تحت يدك، لأن الإبراء الإسقاط والمُعَيَّن لا يسقط» [٤٥] ، وقال البجيرمي: «أما الإبراء من العين فباطل جزما» [٤٦] ، وقال ابن تيمية: «لا يصح الإبراء عن العين بل عن الدَّيْن» [٤٧] . واستدل أصحاب هذا القول بأنَّ الإبراء إسقاط ما في الذمة، والمعيَّن لا يسقط، ولا يُعقل، والذي يسقط هو المطالبة بها– العين [٤٨] .

وذهب خواهر زاده ومحمد بن الحسن الشيباني، من الحنفية [٤٩] ، والمازري وابن عبد السلام من المالكية [٥٠] ، والزيدية [٥١] ، والإمامية [٥٢] ، إلى أنَّ الإبراء من العين جائز وصحيح، قال ابن عابدين: «وفي كافي الحاكم [٥٣] لا حق لي قِبَلَه، يبرأ من الدَّيْن، والعين، والكفالة، والإجارة، والحدود، والقصاص» [٥٤] .

وقد حاول الحنفية توجيه هذا القول، فقالوا: إنْ كان الإبراء على وجه الإخبار، كقوله هو بريء مما لي قِبَلَه، فهو صحيح متناول للدَّيْن والعين، وأمَّا إن كان على وجه الإنشاء، فإن كان عن العين فهو باطل من جهة أن له الدعوى بها [٥٥] . وحاولوا توجيهه توجيهاً آخر، بأنه قصد بكلامه صحته قضاء، لكنه باطل ديانة [٥٦] . ولكن الكلام واضح وصريح، فلا أرى هذا التأويل.

وقال الحطّاب: «الإسقاط في المُعَيَّن، وأن لفظ الإبراء أعم منه؛ لأنه يطلق على المُعَيَّن وغيره» [٥٧] ، وقال الشوكاني: «في الإبراء من العين، فإن هذا الإبراء لمجرده، يوجب مصير

تلك العين ملكا لمن وقع له الإبراء عنها» [٥٨] ، **واستدل أصحاب هذا القول بالمعقول من وجهين**:

- إنَّ المناط الشرعي [٥٩] في انتقال الأملاك، من مالك إلى مالك، هو حصول التراضي، وقد رضي المبرئ عن العين بمصيرها إلى ملك من أبرأه عنها، فليس المراد إلا أنها تصير ملكا للمباح له، يتصرف بها كيف شاء، والمراد ما تحصل به الدلالة على المعنى، كائناً ما كان، وعلى أي صفة وقع، ولو بغير لفظ من الدوال –المتداولة– التي ليست بلفظية [٦٠] .
- إنَّ الإبراء العام يشمل الأمانات، وهي معينات، فيصح الإبراء من الأعيان [٦١] .

وقبل المناقشة والترجيح، يجب معرفة رأي المانعين في الإبراء من الأمانات:

جاء في كتاب «الفتاوى الهندية: «إذا أقر الرجل أنه لا حق له قِبَل فلان دخل تحت البراءة كل حق هو مال، وما ليس بمال، كالكفالة بالنفس والقصاص، وحد القذف، وما هو دين وجب بدلاً عمّا هو مال، كالثمن والأجرة، أو وجب بدلا عمّا ليس بمال، كالمهر وأرش الجناية، وما هو عين مضمونة كالغصب أو أمانة كالوديعة والعارية والإجارة» [٦٢] .

وجاء في كتاب «حاشية الدسوقي: «وإذا قال أبرأتك مما عندك برئ من الدَّيْن والأمانة» [٦٣] . وقال الشافعية، الحنبلية: إذا وقع الإبراء صحيحاً يبرأ المُبْرأ من عموم الحقوق المبرأ منها، وهل الأمانات إلّا حقوق؟! [٦٤] . وجاء في كتاب «درر الحكام: «الْإِبْرَاءُ الَّذِي يَعُمُّ الْحُقُوقَ كَافَّةً كَالْإِبْرَاء، بِقَوْلِ: لَا حَقَّ لي قِبَلَ فُلَانٍ وَلَيْسَ في الإبراءات لَفْظٌ أَعَمُّ وَأَجْمَعُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تُوجِبُ الْبَرَاءَةَ مِنْ الْأَمَانَاتِ وَالْمَضْمُونَاتِ» [٦٥] .

المناقشة والترجيح:

أمّا بخصوص قول الجمهور القاضي ببطلان الإبراء الخاص بالعين، واستدلالهم بأن الإبراء إسقاط، فلا يكون إلا عمّا ثبت في الذمة. فيمكن أن يُناقَش بأنَّ هذا القول لا يؤخذ على إطلاقه، فالأعيان تُقسم إلى قسمين، قيميات، ومثليات، فالقيميات لا تثبت في الذمة، لصعوبة ضبطها بالوصف، كالحيوانات، وكل متفاوت [٦٦] ، أمَّا المثليات فهي مضبوطة بالوصف، فتثبت في الذمَّة، ودليل ذلك قول النبي– صلى الله عليه وسلم– في السَّلم: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» [٦٧] .

وقد عرَّف الفقهاء السَّلم بأنه: «عقد على موصوف في الذِّمَّة مُؤَجَّل بثمن مقبوض في مجلس العقد» [٦٨] .

فالمعقود عليه هو عين، لكنَّها مضبوطة بالوصف، وقد اعتبر الفقهاء كل عين تُضبط بالوصف، ثابتة في الذِّمة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء في كتاب «بدائع الصنائع»:

«باع عبدا بثوب موصوف في الذمة مؤجل، فإنه يجوز بيعه، ولا يكون جوازه بطريق السَّلَم، بدليل أن قبض العبد ليس بشرط، وقبض رأس مال السَّلَم شرط جواز السلم، وكذا إذا أجر داره بثوب موصوف في الذمة مؤجل، جازت الإجارة، ولا يكون سَلَماً» (٦٩) . وعلى هذا تجوز الإجارة على موصوف في الذمة، وشراء ثوب بصفته ينعقد، لأنه بيع موصوف في الذمة، وهذا بيع عين متميزة موصوفة (٧٠) .

ويصح العقد في كل عين يجوز بيعها، مكيلا كان أو موزونا أو غيرهما، ويجوز قرض كل مال يملك بالبيع، ويضبط بالوصف، لأنه عقد تمليك، يثبت العوض فيه في الذمة، فجاز فيما يُمْلك ويُضْبط بالوصف كالسَّلَم» (٧١) ، ولهذا صح خيار التعيين في القيميات، لا في المثليات (٧٢) .

فعلى قولهم بأن الإبراء هو عما يثبت في الذمة، كان عليهم تقييده بالقيميات فقط، واستثناء المثليات التي تثبت في الذمة عندهم.

أمّا بخصوص أدلة القول الثاني القاضي بجواز الإبراء الخاص بالعين، فيمكن أن يُناقش:

قولهم: المناط الشرعي في انتقال الأملاك، من مالك إلى مالك، هو حصول التراضي، وقد حصل، صحيح، لو كان الإبراء تمليكاً محضاً، ولكن الإبراء فيه معنى الإسقاط وفيه معنى التمليك، ووجه الإسقاط أوجه.

أمّا قولهم بأن الإبراء العام يشمل الأمانات، وهي معينات، فيصح الإبراء من الأعيان؛ استدلال صحيح، لأن الأمانات كما تكون أموالا، تكون أعياناً.

الترجيح:

الأمانات قد تكون عيناً، وقد تكون نقوداً، ولا خلاف في صحة الإبراء منها، وإن كانت عيناً، والمانعون يقولون بصحة الإبراء من الأمانات. فلماذا لا تثبت الأعيان في الذمة؟ ، فهل هناك نص، أو قياس معتبر، أو إجماع، أو قول صحابي، أو غيره من الأدلة المعتبرة، يقول بذلك؟ ولماذا لا تثبت الأعيان في الذمة؟ ، أليست الذمة وصفاً يصير الشخص به أهلا للإيجاب والاستيجاب؟ (٧٣) . أي لتثبت الحقوق له وعليه، والأعيان مما يثبت له وعليه.

وعليه، يترجح لي – **والله** أعلم– بأن الإبراء من العين المثلية صحيح؛ لثبوتها في الذمة، ولسهولة ضبطها بالوصف، والقيمية تثبت قيمتها لصعوبة ضبطها بالوصف.

- **رابعاً**: الإبراء من حق مخصوص: ومن ذلك:

الإبراء عن حق الشُّفعة: فلو قال الشفيع: أبرأتك عن الشفعة جاز ذلك؛ لأن الشفعة خالص حقه، فيملك التصرف فيها (٧٤) .

الإبراء عن الخيار [٧٥] في البيع: لأن الخيار حق المشتري، فيملك الإبراء عنه [٧٦].

الإبراء عن الضمان: فإن قال صاحب الضمان: أبرأتك عن الضمان، فيبرأ عنه؛ لأنه أسقط حق نفسه، وهو من أهل الإسقاط، والمحل قابل للسقوط، فيسقط [٧٧].

الإبراء من القصاص، وأروش [٧٨] الجنايات، فقد جرى لفظ العفو، أو الإبراء، بأن قال: عفوت عن أرش هذه الجناية، أو أبرأته [٧٩].

المطلب الثاني- أنواع الإبراء من حيث الموضوع:

يتنوع الإبراء من حيث موضوعه إلى إبراء إسقاط، وإبراء استيفاء.

- **أولاً**: إبراء الإسقاط: وهو أن يبرئ أحد غيره بإسقاط تمام حقه الذي هو عند الآخر، أو بحط مقدار منه عن ذمته [٨٠]. فإذا ذُكِرَ لفظ الإبراء، وكان دلالته تصرفه إلى الإسقاط، فهو إبراء إسقاط وله عدة ألفاظ تدل عليه منها، أسقطت عنك الدَّيْن، أو أسقطت عنك دَيْنِي عليك، أو عفوت عن حقي، أو ملكتك إياه، أو وهبتك، أو أحللتك منه، أو تركته لك، فهي كلها كأبرأتك [٨١].

فإذا صدر بهذه الألفاظ، وما شاكلها، كان إبراء إسقاط؛ لأن الدائن قد عبَّر بما يدل على أنه قد ترك دَيْنه، وأسقطه عن مدينه، ويكون إبراء الإسقاط في الدَّين كله، كما يكون في جزء منه، كإبراء المدين عن جزء من الدَّين، أو عن الدَّين كله، وإسقاط المرأة مهرها، أو بعضه عن زوجها [٨٢].

والغالب على استعمال الفقهاء لإبراء الإسقاط، هو لإسقاط الديون، لأنه إن كان عيناً لم يصح؛ لأن إسقاط العين غير صحيح، عند أكثر الفقهاء [٨٣]. وهذا الإبراء هو المقصود في كتب الفقه، وفي هذا البحث.

- **ثانياً**: إبراء الاستيفاء: وهو عبارة عن الإقرار بأنه استوفى حقه وقبضه [٨٤]. ومن الألفاظ الدالة عليه نحو قوله: أبرأتك براءة استيفاء، أو قبض، أو أبرأتك عن الاستيفاء، واستوفيت منك، وبرئت إليَّ من الدَّيْن، وبرئت إلي من المال [٨٥]. ويكون إبراء الاستيفاء في الدَّين، والعين، والحقوق [٨٦]؛ لأنه درب من دروب الإقرار بالوفاء، فكما يتحقق في الدَّين، يتحقق في العين، وذلك بدفعها إلى مالكها.

المطلب الثالث- أقسام الإبراء من حيث صُوَرُه والغرض المقصود منه:

ينقسم الإبراء من حيث صُوَرُه والغرض المقصود منه إلى قسمين:

- **الأول**: **الإبراء المقيد بالشرط**: ويقال له: إبراء معلق على معنى الشرط، ويُقصد به عند الفقهاء بالإبراء عن بعض الدَّيْن بشرط أداء الباقي، وصورته: إن كان لِرَجُل على

آخر ألف درهم، فقال له: أدِّ إليَّ غداً خمسمائة على أنك بريء من الباقي، وهو ما يُعرف عند الفقهاء بمسألة «ضع وتعجَّل»، وقد اختلف الفقهاء في صحة ذلك على قولين:

- **القول الأول**: التقييد في الإبراء عن بعض الدَّيْن بشرط أداء الباقي صحيح، فلو قال المُبْرِئ للمُبْرأ: أدِّ إليَّ نصف ما عليك غداً، وأنت بريء من الزيادة، على أنك إن لم تدفعها إلي غداً فلا تبرأ عن الباقي، فإن أدَّى بقي الإبراء ماضياً، وإن لم يؤدِّ بطل الإبراء، وإن لم يحدد وقتاً، فهو جائز أيضاً، وهو قول ابن عباس، وسفيان الثوري، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين [٨٧] ، زفر من الحنفية [٨٨] ، وقول مرجوح عند المالكية [٨٩] ، ورواية عند الشافعية[٩٠] ، وابن القيم من الحنبلية [٩١] ، والإمامية [٩٢] .

حجتهم:

- عن ابن عباس قال: لما أراد رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– أن يُخرج بني النضير قالوا يا رسول **الله**: إنك أمرت بإخراجنا، ولنا على الناس ديون لم تَحِل، فقال رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– لهم: «ضعوا وتعجلوا» [٩٣] . ووجه الدلالة: الحديث صريح في جواز أن يضع الدائن من الدَّين الذي في ذمة المدين ويتعجله. واعتُرِض على هذا الاستدلال: بأنه ضعيف من جهة السند [٩٤] .

وقد أجاب ابن القيم عن هذا الاعتراض فقال: «هو على شرط السنن، وقد ضعَّفه البيهقي، وإسناده ثقات، وإنما ضُعِّفَ بمسلم بن خالد الزنجي وهو ثقة فقيه روى عنه الشافعي واحتج به» [٩٥] .

- عن ابن عباس– رضي **الله** عنهما– سئل عن الرجل يكون له الحق على الرجل إلى أجل فيقول: عجل لي وأضع عنك، فقال: لا بأس بذلك [٩٦] .

ويمكن الاعتراض على الاستدلال بهذا الأثر: بأنه اجتهاد صحابي، خالفه فيه غيره من الصحابة، فقد خالفه في هذه المسألة عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت وغيرهما من الصحابة، ومن المقرر عند الأصوليين أن قول الصحابي لا يكون حجة إذا خالفه صحابي آخر [٩٧] .

- الاستدلال بالمعقول من وجهين:

أ. إنَّ الوضع من الدَّيْن في مقابل التعجيل فيه نفع للدائن والمدين، حيث قال ابن القيم في ذلك: «وهذا ضد الربا، فإن ذلك يتضمن الزيادة في الأجل والدين، وذلك إضرار محض بالغريم، وهذه المسألة تتضمن براءة ذمة الغريم من الدين، انتفاع صاحبه بما يتعجله، فكلاهما حصل له الانتفاع من غير ضرر، بخلاف الربا المجمع عليه، فإن ضرره

لاحق بالمدين، ونفعه مختص برب الدين فهذا ضد الربا صورة ومعنى، ولأن مقابلة الأجل بالزيادة في الربا ذريعة إلى أعظم الضرر، وهو أن يصير الدرهم الواحد ألوفاً مؤلفة، فتشتغل الذمة بغير فائدة، وفي الوضع والتعجيل تتخلص ذمة هذا من الدين، وينتفع ذاك بالتعجيل له، ولأن الشارع له تطلع إلى براءة الذمم من الديون، وقد سمي الغريم المدين أسيراً، ففي براءة ذمته تخليص له من الأسر، وهذا ضد شغلها بالزيادة مع الصبر» (٩٨) .

ب. هذا يُعتبر من قبيل الصلح، والصلح من دَيْنٍ على بعضه جائز، وللإنسان حرية التصرف فيما يملكه، في حدود المباح (٩٩) .

- **القول الثاني**: التقييد في الإبراء عن بعض الدَّيْن بشرط أداء الباقي حرام، وهو قول عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد **الله** بن عمر (١٠٠) ، وقول الحنفية (١٠١) ، والمالكية (١٠٢) ، والمشهور عند الشافعية (١٠٣) ، والمذهب عند الحنبلية (١٠٤) .

حجة هذا القول:

عن المقداد بن الأسود – رضي **الله** عنه– قال: أسلفت رجلاً مئة دينار، ثم خرج سهمي في بعث بعثة رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– فقلت له: عجِّل لي تسعين ديناراً وأحط عشرة دنانير فقال: نعم، فذكر ذلك لرسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– فقال: «**أكلت ربا يا** مقداد وأطعمته» (١٠٥) .

فهذا يعتبر ربا، حيث قال الإمام مالك: «والأمر المكروه الذي لا اختلاف فيه عندنا، أن يكون للرجل على الرجل الدين إلى أجل، فيضع عنه الطالب، ويعجله المطلوب، وذلك عندنا بمنزلة الرجل الذي يؤخر دينه بعد محله عن غريمه، ويزيده الغريم في حقه فهذا الربا بعينه لاشك فيه» (١٠٦) .

وحاصل هذا الاستدلال: قياس وضع بعض الدَّيْن مع إسقاط بعض الأجل على زيادة الدين في مقابلة زيادة الأجل.

واعترض على هذا التعليل: بأن قياس وضع بعض الدين مع إسقاط بعض الأجل على زيادة الدين في مقابل زيادة الأجل قياس مع الفارق، حيث قال ابن القيِّم: «الربا يتضمن الزيادة في احد العوضين في مقابلة الاجل، وهذا يتضمن براءة ذمته من بعض العوض في مقابلة سقوط الاجل، فسقط بعض العوض في مقابلة سقوط بعض الاجل، فانتفع به كل واحد منهما ولم يكن هنا ربا لا حقيقة ولا لغة ولا عرفاً، فإن الربا الزيادة وهي منتفية ها هنا، والذين حرَّموا ذلك إنما قاسوه على الربا، ولا يخفى الفرق الواضح بين قوله: إما أن تربي، وإما أن تقضي، وبين قوله عجِّل لي وأهب لك مائة، فأين احدهما من الآخر، فلا نص في تحريم ذلك ولا اجماع ولا قياس صحيح» (١٠٧) .

الترجيح:

تَبيَّن بأنَّ الأحاديث والآثار التي أوردها الطرفان لا يُحتج بها لضعفها، ولكن يترجح للباحث – **والله أعلم**– القول الأول القاضي بجواز التعامل بمسألة (ضع وتعجل) ، لقوة ما استدلوا به من المعقول، ولضعف ما استدل به أصحاب القول الثاني، ولأن الأصل في الأشياء الإباحة [١٠٨] والحِلّ، ما لم يرد دليل على التحريم، ولا يوجد دليل واضح صحيح يقتضي التحريم، و**الله أعلم**.

واختلف الحنفية فيما إذا قال المبْرِئ للمُبْرأ: أدِّ إليَّ نصف ما عليك غداً، وأنت بريء من الزيادة، ولم يؤدِّ في الموعد، هل يرجع الدين كاملا، أو لا يعود؟ :

قال أبو حنيفة، ومحمد: إن لم يدفع إليه في الوقت المحدد عاد عليه الدَّين كاملاً؛ لأن هذا إبراء مقيد بالشرط فيفوت بفواته [١٠٩] ، وقال أبو يوسف [١١٠] : لا يعود عليه؛ لأنه إبراء مُطْلَق، فجعل أداء بعضه عِوَضاً، حيث ذكره بكلمة إليّ، وهي للمعاوضة، واشتراط الأداء ضائع؛ لأن النقد واجب عليه في كل زمان يطالبه هو فيه، إذ المال عليه حال، فبطل التعليق، وصار إبراء مطلقا، فجرى وجوده مجرى عدمه، فبقي الإبراء مطلقاً فلا يعود كما إذا بدأ بالإبراء [١١١] .

وقول أبي حنيفة ومحمد هو الراجح عندي و**الله** أعلم؛ لقول النبي– صلى **الله** عليه وسلم– : «الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ» [١١٢] ، وحيثما ورد النص، فعلينا اتِّباعه، فما شرطه عليه يجب أن يفي به، وإلا بطل الشرط والاتِّفاق، فلو قيل لا يرجع فما الذي استفاده المُبْرِئ؟! ، فلم يأخذ دَيْنه، وخسر منه دون فائدة، فيتضرر كثيراً بذلك، والنبي– صلى **الله** عليه وسلم– يقول: «لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ» [١١٣] .

● **الثاني**: **الإبراء المعلق على شرط**: ويكون الإبراء معلقاً على شرط مطلق، أو على شرط ملائم، أو شرط كائن، وبيان ذلك:

- الشرط التعليقي: ما يتم به عليَّة العلة، وآخر ما يتوقف عليه الشيء، وما جُعِلَ بمنزلة الملزوم لما عُلِّقَ عليه [١١٤] ؛ أي ما يترتب عليه الحكم، ولا يتوقف عليه. وقد اختلف الفقهاء في تعليق الإبراء على الشرط إلى ثلاثة أقوال أعرضها في التفصيل الآتي:

▪ **القول الأول**: لا يصح تعليق الإبراء بالشرط مطلقاً، وهو رأي جمهور الفقهاء الحنفية [١١٥] ، والشافعية [١١٦] ، وقول للحنبلية [١١٧] ، والزيدية [١١٨] وقول للإمامية [١١٩] . فمن قال لمدينه: إن متَّ فأنت بريء، فلا يجوز؛ لأنه إبراء معلق على شرط [١٢٠] . وكذا إذا قال له: إن جاء رأس الشهر فأنت بريء [١٢١] .

وإن قال الدائن للمدين: أبرأتك من الدَّيْن بعد وفاتي، لم يصح منه هذا الإبراء، لأنه إنشاء معلق غير منجز، فلا يكون صحيحاً، سواء كان الدائن سليما، أم مريضاً، فإذا مات وأجاز الورثة ذلك الإبراء، صح ذلك، وبرىء المدين، لأنه إبراء جديد، فالشرط ينافي الإنشاء، والإبراء إنشاء (١٢٢) .

وكمن قال لِرَجل: إن متُّ فأنت في حلٍّ من دَيْنِي، وكقوله: إن دخلت الدار فأنت بريء مما لي عليك، أو قال: أدِّ إلي كذا على أنك بريء من باقيه ولم يوقت، ولو قال: إن أديت إليَّ خمسمائة، أو إذا أديت، أو متى أديت، فأنت بريء من الباقي، لم يصح مطلقا، ولا يبرأ، لعدم صحة تعليق البراءة بصريح الشرط، لما فيها من معنى التمليك، والإبراء مشروع في الإسقاط المحض فقط (١٢٣) .

حجة هذا القول:

- لا يصح تعليق الإبراء بشرط؛ لأنَّه يقتضي المعاوضة، فكأنَّه عاوض ببعض حقه عن بعض، وهذا فيه معنى الربا الجاهلي، وأكل لأموال الناس بالباطل (١٢٤) .
- التعليق مشروع في الإسقاط المحض، والإبراء فيه معنى التمليك، فلا يصح (١٢٥).
- القياس على الهبة، فلا يصح تعليقها على شرط (١٢٦) .

▪ **القول الثاني**: يجوز تعليق الإبراء بالشرط المتعارف، مثل أن يقول: إن عجَّلت لي البعض، أو دفعت البعض فقد أبرأتك، أما التعليق بالشرط غير المتعارف فلا يجوز، وهو قول للحنفية (١٢٧) ، ولم أقف على دليل لهم على هذا القول.

▪ **القول الثالث**: يجوز تعليق الإبراء بالشرط مطلقاً، وهو قول المالكية (١٢٨) ، ورواية للحنبلية (١٢٩) ، وقول للإمامية (١٣٠) ؛ لأنه إسقاط محض، فهو كالطلاق والعتق (١٣١) .

مناقشة الأدلة، والترجيح:

♦ **مناقشة أدلة القول الأول:**

- الدليل الأول: قولهم: لأنَّه يقتضي المعاوضة، فكأنَّه عاوض ببعض حقه عن بعض، وهذا فيه معنى الربا الجاهلي.

هذا قول لا يَسْلم لهم، فهذا تعليق ليس فيه معنى المعاوضة، فإن الإبراء فيها لم يقع في مقابلة شيء حتى إذا فسد، فسد الإبراء، فلما كان الإبراء دون عوض، انتفى معنى المعاوضة، فانتفت علة الربا (١٣٢) .

- الدليل الثاني: التعليق مشروع في الإسقاط المحض، والإبراء فيه معنى التمليك، فلا يصح.

الوصية تمليك، وهي في الحقيقة تعليق للتمليك بالموت، فإنه إذا قال المريض: إن متُّ في مرضي هذا فقد أوصيت لفلان بكذا فهذا تميلك معلق بالموت، ولا خلاف في صحة الوصية (١٣٣) .

- الدليل الثالث: القياس على الهبة، فلا يصح تعليقها على شرط، وكذا الإبراء.

▪ لا يوجد دليل على بطلان تعليق الهبة بالشرط، وقد صح عن النبي – صلى **الله** عليه وسلم– أنه علق الهبة بالشرط في حديث جابر لمَّا قال: «لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا ثم هكذا»– ثلاث حثيات (١٣٤) ، وأنجز ذلك له الصديق– رضي **الله** عنه– لمّا جاء مال البحرين بعد وفاة النبي – صلى **الله** عليه وسلم– (١٣٥) .

فإن قيل كان ذلك وعداً، قلنا: نعم، والهبة المعلقة بالشرط وعد، فالصحيح صحة تعليق الهبة بالشرط عملا بهذا الحديث (١٣٦) .

▪ لا يلزم من بطلان تعليق الهبة بطلان تعليق الإبراء، بل القياس الصحيح يقتضي صحة تعليقه؛ لأنه إسقاط محض، فهو بالعتق والطلاق أشبه منه بالتمليك (١٣٧) .

♦ القول الثاني إنَّما هو حقيقة يمثل للتعليق على معني الشرط (ضع وتعجَّل) .

♦ القول الثالث: بأنَّه يجوز تعليق الإبراء بالشرط مطلقاً، لأنه إسقاط محض، فهو كالطلاق والعتق.

هو قول صحيح، فالإبراء مجاناً أشبه بالعتق والطلاق منه للتمليك (١٣٨) .

وعليه فالذي يترجح لي بعد هذا العرض أنَّه يجوز تعليق الإبراء بالشرط مطلقاً، فأدلة المانعين لم تسلم من الاعتراض، وحقيقة الربا انتفت، إذ الإبراء المعلق على شرط ليس معاوضة، وعموم الأدلة تدل على صحة تعليق الإبراء بالشرط، ومنها:

- قول **الله** عز وجل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ **اللّهِ** إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ **اللّهَ** عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ **اللّهَ** يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١٣٩) . فظاهر الآية عام، في وجوب الوفاء بكل عقد (١٤٠) ، والإبراء عقد.

- وقول رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– : «مَنْ ابْتَاعَ نَخْلاً بَعْدَ أَنْ تُؤَبَّرَ – تُلَقَّح– فَثَمَرَتُهَا لِلَّذِي بَاعَهَا إِلا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ» (١٤١) . فهذا الشرط خلاف مقتضى العقد المُطْلق وقد جوزه الشارع (١٤٢) .

- وقوله صلى **الله** عليه وسلم: « ... وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إِلا شَرْطًا حَرَّمَ حَلالاً أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا» (١٤٣) . وهذه الشروط في الإبراء لا تُحلُّ حراماً، ولا تحرِّم حلالا.

- وقول عمر بن الخطاب– رضي **الله** عنه– : مقاطع الحقوق عند الشروط (١٤٤) . وأراد بمقاطع الحقوق مواقفه التي ينتهي إليها (١٤٥) .

▪ التعليق على شرط ملائم: كقوله: إن متُّ فأنت بريء من دمي، أو وهبتك دمي إن متُّ، ونحوه، يجوز؛ لأنه وصية، يصح تعليقها لأنه متبرع بما بعد الموت، وهو حقيقة الوصية (١٤٦) .

▪ التعليق على شرط كائن: كقول المُبْرِئ: إن كانت الشمس طالعة فأنت بريء من الدين، لقولهم: إن التعليق به تنجيز، والشرط الكائن هو الموجود الحالّ (١٤٧) .

أقول: هذا ليس تعليقاً، وإنما لغو في الكلام لا حاجة له، فما الفائدة منه؟! .

المبحث الثالث شروط صحة الإبراء:

يشترط لصحة الإبراء ثلاثة شروط، هي كما يأتي:

١. **أن يكون الإبراء موافقاً للشرع**، فإن كان الإبراء مخالفاً للشرع فلا اعتبار له، ولذلك صور منها:

أ. الإبراء من التقابض عن بدل عقد الصرف:

فقد اتفقت المذاهب الأربعة على أن التقابض عن بدل الصرف في المجلس شرط لصحة الصرف، والإبراء من هذا الشرط لا يجوز (١٤٨) ، لحديث النبي- صلى **الله** عليه وسلم- : «الْوَرِقُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلا هَاءَ وَهَاءَ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلا هَاءَ وَهَاءَ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ رِبًا إِلا هَاءَ وَهَاءَ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رِبًا إِلا هَاءَ وَهَاءَ» (١٤٩) . وقد أوضح هذه المسألة صاحب كتاب «البحر الرائق» حيث قال: «وتفرع على اشتراط القبض، أنه لا يجوز الإبراء عن بدل الصرف، ولا هبته، والتصدق به، فإن فعل لم يصح بدون قبول الآخر، فإن قبل انتقض الصرف» (١٥٠) .

ب. الإبراء من حق السكنى للمطلقة: فحق السكنى للمطلقة الرجعية، هو حق أثبته الشرع لها، بقوله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ٤...﴾ (١٥١) .

واتفق الفقهاء أن حق السكنى لها، هو من قبيل حقوق **الله**- عز وجل- ، فلا يجوز الإبراء عنه (١٥٢) .

ولكن هذا القول يتعارض مع ظاهر حديث النبي- صلى **الله** عليه وسلم- بقوله لفاطمة بنت قيس: «لا سكنى لك ...» (١٥٣) .

ويُدفع التعارض بأنَّ: السكنى واجبة للمُطَلَّقَةِ رجعياً، أما البائن - مثل فاطمة بنت قيس- فلا سكنى لها، ويؤيده ما ورد في صحيح مسلم، عن النبي- صلى **الله** عليه وسلم- في المُطَلَّقَة ثلاثاً، قال: «لَيْسَ لَهَا سُكْنَى وَلا نَفَقَةٌ» (١٥٤) .

٢. **أن يكون الحق في الإبراء مملوكاً لصاحبه** (١٥٥) : قال الرملي: «صاحب الإبراء يَمْلك الدَّيْن في ذمة من عليه، ويَملك التصرف فيه، على الوجه المعتبر» (١٥٦) . وقال الرحيباني: «ولا يصح الإبراء من الدَّيْن قبل وجوبه» (١٥٧) . وقال البجيرمي: «صحة الإبراء تتوقف على سَبْقِ الملك» (١٥٨) . فلا يَبْرأ المُبْرأ إلا بإبراء صاحب الحق، فالعفو دائماً من صاحب الحق (١٥٩) . **ومن هذا يتفرع مسائل**:

أ. المسألة الأولى: إبراء الوكيل: هل يجوز للوكيل الإبراء في مال مُوكِّله؟ ، **اختلف الفقهاء في هذه المسألة إلى قولين**:

- القول الأول: الوكيل المأذون يملك الإبراء، وهو قول جمهور الفقهاء من الحنفية (١٦٠) ، والمالكية (١٦١) ، والشافعية (١٦٢) ، والحنبلية (١٦٣) ، وقول للإمامية (١٦٤) . واستدلوا بأنَّ المُوكَّل إن كان مأذوناً بالإبراء، يصح منه لانتفاء التهمة عنه؛ لأنه إذا جاز التوكيل في إثبات الحقوق واستيفائها، جاز التوكيل في الإبراء عنها (١٦٥) .

القول الثاني: الوكيل لا يملك الإبراء: وهو قول أبي يوسف من الحنفية (١٦٦) ، وقول للشافعية (١٦٧) ، وقول الظاهرية (١٦٨) ، والزيدية (١٦٩) ، والمشهور عند الإمامية (١٧٠) . واستدلوا بأنَّ الإبراء من قبيل التبرع، والوكيل لا يملك التبرع (١٧١) ، فلا يجوز أن يتكلم أحد عن أحد إلا حيث أوجب ذلك نص، ولا نص على جواز الوكالة في الإبراء (١٧٢) ، ولأنَّ الإبراء تابع للملك، وإذا كان الوكيل لا يملك الثمن، فلا يصح منه الإبراء، وهذا من قبيل أكل أموال الناس بالباطل (١٧٣) .

والراجح عندي وإن كان المُوَكَّل مأذوناً بالإبراء، إلّا أنَّ تصرُّفه يكون موقوفاً على إجازة صاحب الحق، فاستيفاء الحقوق وإثباتها، غير الإبراء عنها، إن شاء صاحب الحق أمضاه، وإن شاء أبطله، لأن صاحب الحق أقدر على معرفة مصالحه من الوكيل– غالباً.

ب. المسألة الثانية: إبراء الفضولي (١٧٤) : **وقد اختلف الفقهاء في ذلك على ثلاثة أقوال**:

- القول الأول: إبراء الفضولي باطل، وهو قول المالكية (١٧٥) وقول عند الحنبلية(١٧٦)، وهو رأي الشافعية في الجديد (١٧٧) ، وقول للإمامية (١٧٨) . واستدلوا بأنَّ كُلُّ مَنْ يملك الحق، يجوز له الإبراء عنه، ومن لم يملكه فتصرفه في مال غيره باطل، فلو خالع والد السفيهة، أو السلطان عنها من مالها، فالطلاق يقع، والخلع مردود عليها، ولو خالع عنها بأن أبرأ زوجها من مهرها، أو دَيْن لها عليه، كان الطلاق الذي وقع بالمال واقعاً عليها، وكان مالها الذي دفعته إليه مردوداً عليها وحقها ثابت، ولا يبرأ الزوج من شيء مما أبرأه منه الأب، والولي غير الأب، لأنه فضولي تصرَّف في مال غيره، فتصرفه باطل (١٧٩) .

▪ القول الثاني: إبراء الفضولي موقوف على إجازة صاحب الحق، إن شاء أمضاه، وإن شاء ردَّه، كالهبة والوصية، وهو قول الحنفية (١٨٠) ، والشافعية في القديم (١٨١) ، والحنبلية (١٨٢) ، وقول للإمامية (١٨٣) . واستدلوا بأنَّ التصرُّف صدر من أهله، مضافاً إلى محله، ولا ضرر في انعقاده، فينعقد موقوفاً، فإذا رأى المصلحة فيه ينفذه، فيكون كأنه هو من أبرأ، وإلا ردَّه، فيكون كالوكيل في الإبراء (١٨٤) . وعن حكيم بن حزام أن رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– بعثه ليشتري له أضحية بدينار، فاشترى أضحية فربح بها دينارا، ثم اشترى مكانه أخرى، فجاء بالأضحية والدينار إلى رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم– فضحى بالشاة وتصدق بالدينار (١٨٥) .

▪ القول الثالث: جواز إبراء الفضولي مطلقاً، ويُلزم صاحب الحق بالإبراء، وهو قول ضعيف للمالكية (١٨٦) .

والذي يترجح لدي هنا القول الأول ببطلان إبراء الفضولي، لأنَّه أحق أن يُتَّبع، فليس لأحد التصرُّف في حقوق غيره بدون إذنه، وإلا لانتفى الرضا والاختيار، وهو أصل انعقاد العقود.

لأنَّ القول الثاني استشهد بحديث ضعيف، وعليه فلا يتوقف إبراء الفضولي على الإجازة.

وأمّا القول الثالث بجواز إبراء الفضولي مطلقا، وإلزام صاحب الحق به، لا يقره شرع، ولا يوافقه عقل.

ويختلف هذا عن إبراء الوكيل، الذي ترجَّح لي بأنه موقوف على إجازة المُوَكِّل، لأنَّ الوكيل مُوَكَّل بأعمال المُوَكِّل، ولكن توَقُّفه هو من باب رُجحان المصلحة، أمَّا الفضولي فلا يملك الحق، وليس له وكالة، فتصرفه في مال غيره باطل.

٣. وجوب الحق أو وجوب سبب الاستحقاق في الإبراء: فلا يقع الإبراء صحيحاً إلا بعد وجوب الحق المراد الإبراء منه، وذلك لاعتبار الإبراء عند الفقهاء عما وجب في الذمة، وعليه فما لم يجب في الذمة فالإبراء منه لغو (١٨٧) . وقد اختلفوا في الإبراء من الحق قبل وجوبه؛ ولكن سببه موجود، **على قولين**:

أ. القول الأول: لا يصح الإبراء قبل وجوب الحق، وإن وُجِد سببه، وهو قول جمهور الفقهاء من الحنفية (١٨٨) ، والشافعية (١٨٩) ، والحنبلية (١٩٠) . واستدلوا بقول النبي صلى

الله عليه وسلم: « لا نَذْرَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لا يَمْلِكُ وَلا عِتْقَ لَهُ فِيمَا لا يَمْلِكُ وَلا طَلاقَ لَهُ فِيمَا لا يَمْلِكُ « [١٩١] . والإبراء في معناهما [١٩٢] .

ومن أمثلة الحنفية على ذلك: لو أنَّ الزوجة أبرأت زوجها عن النفقة، في حال قيام النكاح، لا يصح الإبراء، وتجب النفقة؛ لأن النفقة في النكاح تجب شيئاً فشيئاً على حسب حدوث الزمان يوماً فيوماً، فكان الإبراء عنها إبراء قبل الوجوب، فلم يصح – قبل فرضها من القاضي، مع أن سبب الوجوب موجود وهو عقد الزوجية [١٩٣] .

ومن أمثلة الشافعية: لا يصح إبراء المفوضة عن مهرها قبل تقديرها وقبل الدخول؛ لأنه إبراء عما لم يجب [١٩٤] ، مع أن سبب وجوبه موجود وهو عقد النكاح أيضاً.

وقد استثنى الشافعية صورة واحدة يجوز فيها الإبراء قبل وجوبه، وهي إذا حفر شخص بئراً، في ملك غيره، بلا إذن، وأبرأه المالك ورضي باستبقائها بعد الحفر، برئ من ضمان ما يقع فيها، كما لو أذن له ابتداء [١٩٥] .

ب. القول الثاني: إن وُجد سبب الحق فالإبراء صحيح، وهو قول المالكية [١٩٦] ، وقول للشافعية [١٩٧] ، فلو أبرأت الزوجة زوجها عن المهر قبل فرضه – تقديره– صح لجريان سبب الوجوب، وهو العقد [١٩٨] .

وقول الجمهور هو الراجح عندي، فلا يصح الإبراء قبل وجوب الحق، وإن وُجِد سببه، للحديث الذي استشهدوا به، والأدلة الداعمة له في عدم جواز تصرف الإنسان فيما لا يملك، ومنها:

- قال رسول **الله**– صلى **الله** عليه وسلم: «لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ الْعَبْدُ» [١٩٩] .
- وقال– صلى **الله** عليه وسلم: «لا طَلاقَ إِلا فِيمَا تَمْلِكُ، وَلا عِتْقَ إِلا فِيمَا تَمْلِكُ، وَلا بَيْعَ إِلا فِيمَا تَمْلِكُ» [٢٠٠] .
- وقال– صلى **الله** عليه وسلم: «... لا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ» [٢٠١] ، وفي معناه، ولا تُبْرِئ عما لم يجب في الذمة.

خاتمة:

استناداً إلى ما تقدَّم بيانه فيما يتعلَّق بحقيقة الإبراء، وأنواعه، وشروط صحته، **خلص الباحث إلى النتائج الآتية**:

١. يُقصد بالإبراء: «تنازل صاحب الحق عنه إلا لمانع»؛ والإبراء وإن كان أشبه بالإسقاط، إلا أنه حقيقة فيه معنى التمليك.

٢. اختلف الفقهاء في حكم الإبراء عن ذات العين، والراجح جوازه في المثليات، لسهولة ضبطها بالوصف

٣. اختلف الفقهاء في تقييد وتعليق الإبراء بالشرط، والراجح جوازه، لقوة استدلال القائلين بهذا.

٤. الراجح بأنَّ إبراء الوكيل موقوف على إجازة المُوَكِّل، وإنْ كان مأذوناً بذلك.

٥. اختلف الفقهاء في حكم إبراء الفضولي، والراجح أنَّه باطل، فليس لأحد التصرف في حقوق غيره دون إذنه.

٦. الراجح عدم صحة الإبراء قبل وجوب الحق؛ وإن وُجِد سببه، لقوة دليل القائلين بذلك.

الهوامش:

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٠.

٢. سورة النساء، الآية ٩٢.

٣. النيسابوري، صحيح مسلم، (٤/ ٢٣٠١) ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر.

٤. الزبيدي، تاج العروس، (١/ ١٤٥) ، مادة (بَرَأ) . والسعدي، الأفعال، (١/ ٩٩) . وابن منظور، لسان العرب، (١/ ٣١) .

٥. الأزهري، تهذيب اللغة (١٥/ ١٩٣) ، مادة (الراء والباء) . والسعدي، الأفعال، (١/ ٩٩)، مادة (بأرت) . وابن منظور، لسان العرب، (١/ ٣١) ، مادة (برأ) . الزمخشري، أساس البلاغة، (١/ ٣٤) . والزبيدي، تاج العروس، (١/ ١٤٩) . والرازي، مختار الصحاح، (١/ ١٨) ، مادة (برأ) .

٦. سورة الحديد، جزء من آية ٢٢.

٧. ابن عطية، المحرر الوجيز، (٥/ ٢٦٨) .

٨. سورة التوبة، الآية ١.

٩. الجصاص، أحكام القرآن، (٤/ ٢٦٤) .

١٠. سورة الزخرف: الآية ٢٦.

١١. السعدي، تيسير الكريم الرحمن، (١/ ٧٦٤) .

١٢. البخاري، الجامع الصحيح، (٢/ ٧٧٧) ، باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها.

١٣. السجستاني، سنن أبي داود، (١/ ٥٢) ، باب الاستبراء من البول، رقم الحديث: (٢٠) ، وقال الألباني في تذييله على الكتاب: حديث صحيح.

١٤. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (٣/ ٢٠١) .

١٥. الحموي، غمز عيون البصائر، (٣/ ١٧) .

١٦. الكرابيسي، الفروق (٢/ ١٠٦) .

١٧. حيدر، درر الحكام، (٤/ ٦٧) .

١٨. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٨/ ١٠٧) . وشيخي زاده، مجمع الأنهر، (٣/ ٥٠٨) .

١٩. السرخسي، المبسوط، (٢٤/ ٦٥) . والكاساني، بدائع الصنائع، (٧/ ١٨٩) . والميرغيناني، (٣/ ٢٣٠) . وشيخي زاده، مجمع الأنهر، (٣/ ٥٠٨) . وابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ٤٣).

٢٠. السرخسي، المبسوط، (١٧/ ٣٢) . والسمرقندي، تحفة الفقهاء، (٢/ ١٩) . وابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٦٦) .

٢١. الدردير، الشرح الكبير، (٣/ ٣٧٨) . وابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٤/ ٩٩) .

٢٢. القرافي، الذخيرة، (١١/ ٤٢) . والحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) .

٢٣. الأنصاري، أسنى المطالب، (٢/ ١٥٦) . والخطيب الشربيني، مغني المحتاج، (٢/ ١٢٩) . والرملي، نهاية المحتاج، (٤/ ٢٥٦) . والجمل، فتوحات الوهاب (حاشية الجمل) ، (٣/ ٢٩٧) . والشرواني، حواشي الشرواني، (٥/ ٦٩) .

٢٤. الزركشي، المنثور، (١/ ٨١) .

٢٥. ابن قدامة، المغني، (٧/ ١٩٧) .

٢٦. الحِلّي، مختلف الشيعة، (٦/ ٥) .

٢٧. ابن العلامة، إيضاح الفوائد، (٤/ ٦٢١) .

٢٨. الجبعي، الروضة البهية، (٣/ ٤٧٥) .

٢٩. الحِلّي، شرائع الإسلام، (٣/ ٨١) .

٣٠. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ١٧٥) . والقرافي، الذخيرة، (١٠/ ٣٩٤) . والرملي، نهاية المحتاج، (٧/ ٤٤٣) . وابن قدامة، المغني، (٥/ ٣٨٠) .

٣١. سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

٣٢. ابن منظور، لسان العرب، (١١/ ٦٥٧) .

٣٣. مجلة الأحكام العدلية، (١/ ٢٩٨) .

٣٤. السرخسي، المبسوط، (١٨/ ١٦٥) . والمرغيناني، الهداية، (٣/ ١٨١) . والزيلعي، تبيين الحقائق، (٥/ ٧) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ٢٦٧) . وابن عابدين، العقود الدرية، (٢/ ٤٦) . والحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) . الدردير، الشرح الكبير، (٣/ ٤١١) .

٣٥. السرخسي، المبسوط، (١٨/ ١٦٥) . والزيلعي، تبيين الحقائق، (٥/ ٧) . والحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) .

٣٦. البغدادي، مجمع الضمانات، (٢/ ٩٢٧) . والحموي، غمز عيون البصائر، (٢/ ٣٤٤) . وابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ٦٢٤) . البجيرمي، (٣/ ٥) . وابن قدامة، المغني، (٤/ ٣٦٢) .

٣٧. السرخسي، المبسوط، (١٨/ ١٦٥) . وابن عابدين، العقود الدرية، (٢/ ٤٦) . والدردير، الشرح الكبير، (٣/ ٤١١) . وابن الصلاح، فتاوى ابن الصلاح، (٢/ ٥١٢) . والبهوتي، شرح منتهى الإرادات، (٢/ ٦٤٩) .

٣٨. الشافعي، الأم، (٦/ ١٩٤) .

٣٩. مجلة الأحكام العدلية، (١/ ٢٩٨) .

٤٠. السرخسي، المبسوط، (١٨/ ١٦٥) . والزيلعي، تبيين الحقائق، (٥/ ٧) . وابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ٦٢٤) . والحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) .

٤١. حيدر، درر الحكام، (٤/ ١١) .

٤٢. البابرتي، العناية، (٨/ ٤١٢) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ٢٦١) . وابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٢٣٠) .

٤٣. ابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٥٠١) . القرافي، الفروق (١/ ٢٦٥) . والنووي، روضة الطالبين، (٧/ ٤٣٧) . والأنصاري، شرح البهجة، (٣/ ١٣٢) . وابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣/ ٧١) .

٤٤. السرخسي، المبسوط، (١١/ ١٠٧) .

٤٥. القرافي، الذخيرة، (١١/ ٤٢) .

٤٦. البجيرمي، حاشية البجيرمي، (٣/ ٣٠) .

٤٧. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣/ ١٠٥) .

٤٨. الكاساني، بدائع الصنائع، (٥/ ٢٠٣) . والقرافي، الذخيرة، (١١/ ٤٢) . وابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٣/ ٤١١) . والشرواني، حواشي الشرواني، (٥/ ٦٩) .

٤٩. الحموي، غمز عيون البصائر، (٣/ ٣٥٤) . وابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٢٢٣) .

٥٠. الحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) . وعليش، منح الجليل، (٦/ ٤٧٠) .

٥١. الشوكاني، السيل الجرار، (٤/ ٢٦٢) . ابن المرتضى، البحر الزخار (٥/ ١٣٤) .

٥٢. ابن طي الفقعاني، الدر المنضود، (١/ ٢٠٢) .

٥٣. كافي الحاكم: للحاكم الشهيد جمع كلام محمد بن الحسن في كتاب أسماه الكافي. يُنظر، ابن نُجيم، البحر الرائق، (١/ ٧٩) . ولم أعثر على هذا الكتاب، مع اشتهاره في كتب الحنفية.

٥٤. ابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٢٢٣) .

٥٥. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ٢٦١) . وابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ٦٣٢) .

٥٦. ابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ٢٣٦) .

٥٧. الحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) .

٥٨. الشوكاني، السيل الجرار، (٤/ ٢٦١) .

٥٩. مناط الحكم: «ما أضاف الشرع الحكم إليه وناطه به ونصبه علامة عليه». يُنظر، الغزالي، المستصفى، (١/ ٢٨١) .

٦٠. الشوكاني، السيل الجرار، (٤/ ٢٦١) .

٦١. الحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٢٣٢) .

٦٢. البلخي، الفتاوى الهندية، (٤/ ٢٠٤) .

٦٣. ابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٣/ ٤١١) .

٦٤. الجمل، حاشية الجمل، (٤/ ٢٩٨) . والمرداوي، الإنصاف، (٧/ ١٣٠) .

٦٥. حيدر، درر الحكام، (٤/ ١١) .

٦٦. ابن الهُمام، فتح القدير، (٢/ ٧٥) . والحصكفي، الدر المختار، (٥/ ١٦١) . والشيرازي، المهذب (١/ ٣٠٣) . والألوسي، روح المعاني، (٧/ ٢٥) .

٦٧. البخاري، صحيح البخاري، (١/ ٧٨١) ، باب السَّلم في وزن معلوم، رقم الحديث (٢١٢٥) .

٦٨. المرداوي، الإنصاف، (٥/ ٨٤) .

٦٩. الكاساني، بدائع الصنائع، (٥/ ١٨٢) .

٧٠. الشيرازي، المهذب، (١/ ٤٠٦) . والبجيرمي، حاشية البجيرمي، (٢/ ١٨٦) .

٧١. ابن رشد، بداية المجتهد، (٢/ ١٥٤) . والشيرازي، المهذب، (١/ ٣٠٣) . وابن مفلح، المبدع، (٤/ ٢٠٥) .

٧٢. الحصكفي، الدر المختار، (٤/ ٥٨٥) .

٧٣. البخاري، كشف الأسرار، (٤/ ٣٣٦) . القرافي، الفروق، (٣/ ٣٨٢) .

٧٤. الكاساني، بدائع الصنائع، (٥/ ١٩) . والبلخي، الفتاوى الهندية، (٥/ ١٨٢) . ابن قدامة، المغني، (٥/ ٣٨٤) .

٧٥. الخيار: هو حقُّ العاقد في فسخ العقد أو إمضائه لظهور مسوِّغ شرعي أو بمقتضى اتِّفَاق عَقَدِيٍّ. يُنظر، وزارة الأوقاف الكويتية، الموسوعة الفقهية، (٢٠/ ٤١) .

٧٦. السمرقندي، تحفة الفقهاء، (٢/ ١٠٣) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ٧٣) .

٧٧. الكاساني، بدائع الصنائع، (٧/ ١٥١) . الغزالي، الوسيط، (٣/ ٤٠٥) .

٧٨. الأرش: «اسم للمال الواجب على ما دون النفس»، يُنظر، المجددي، قواعد الفقه، (١/ ١٦٨) .

٧٩. الجصاص، أحكام القرآن، (٢/ ٢٠٤) . القرافي، الذخيرة، (١٢/ ١٠٩) . والشيرازي، المهذب، (١/ ٣٤٩) . النووي، روضة الطالبين، (٩/ ٢٤٣) . وابن قدامة، المغني، (٥/ ٣٨٤) .

٨٠. مجلة الأحكام العدلية، (١/ ٢٩٨) . والمجددي،قواعد الفقه، (١/ ١٥٧) .

٨١. ابن الهُمام، فتح القدير، (٦/ ٣٩٨) . وعليش، فتح العلي المالك، (١/ ٢٧٤) . وابن قدامة، المغني، (٧/ ١٩٦) . ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣/ ٥٧) . وابن المطرز، المُغْرَب (١/ ٢٢١) ..

٨٢. السرخسي، المبسوط، (١٢/ ٨٤) . وابن الهُمام، فتح القدير، (٦/ ٣٩٨) . وعليش، فتح العلي المالك، (١/ ٣٣٥) . وابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٢/ ٢٤٣) .

٨٣. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ١٣١) . والحطاب، مواهب الجليل، (٤/ ٥٤٨) . والشيرازي، المهذب، (١/ ٣٤١) . وابن قدامة، المغني، (٢/ ٣٤٩) . والبهوتي، الروض المرُبْع، (٢/ ١٩٦) .

٨٤. ابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ١٥٦) .

٨٥. الكاساني، بدائع الصنائع، (٦/ ١١) . وابن عابدين، رد المحتار، (٥/ ١٥٦) . والشافعي، الأم، (٨/ ٧٣) . والمرداوي، الإنصاف، (٥/ ٢٠٧) . والإسنوي، الكوكب الدري، (١/ ٣٥٦) .

٨٦. السرخسي، المبسوط، (٢١/ ٧٣) . والشيرازي، المهذب، (١/ ٣٠٥) . والشرواني، حواشي الشرواني، (٥/ ١٩٢) . وابن مفلح، المبدع، (٤/ ٢٧٩) .

٨٧. القرطبي، الاستذكار، (٦/ ٤٩٠) .

٨٨. المرغناني، الهداية، (٣/ ١٩٨) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ٢٦٠) . والبلخي، الفتاوى الهندية، (٤/ ٣٣٥) .

٨٩. ابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٣/ ٣١٤) .

٩٠. الرملي، نهاية المحتاج، (٤/ ٣٨٦) .

٩١. ابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٣) .

٩٢. المرتضى، الانتصار، (١/ ٤٤٥).

٩٣. أخرجه الدارقطني، سنن الدارقطني، (٣/ ٤٦)، وقال في إسناده مسلم بن خالد وهو سيء الحفظ ضعيف.

٩٤. ابن كثير، البداية والنهاية، (٤/ ٧٥).

٩٥. ابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٣).

٩٦. الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، (٨/ ٧٢)، ولم أجد تخريجاً لهذا الأثر.

٩٧. ابن قدامة، روضة الناظر، (٢/ ١٦٥). والآمدي، الإحكام، (٤/ ٢٠١).

٩٨. ابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٣).

٩٩. الرملي، نهاية المحتاج، (٤/ ٣٨٦). والمرتضى، الانتصار، (١/ ٤٤٥).

١٠٠. الأصبحي، المدونة الكبرى، (٩/ ١٣٠).

١٠١. السرخسي، المبسوط، (١٣/ ١٢٦).

١٠٢. الصاوي، بلغة السالك، (٣/ ٢٥٩).

١٠٣. النووي، روضة الطالبين، (٤/ ١٩٦). وقليوبي، حاشية قليوبي، (٤/ ٣٧٠).

١٠٤. ابن قدامة، المغني، (٧/ ٢١).

١٠٥. البيهقي، سنن البيهقي، (٢/ ٢٨)، وجاء في فتاوى السبكي، (١/ ٣٤٠) سنده ضعيف.

١٠٦. الأصبحي، الموطأ، (٢/ ٦٧٣).

١٠٧. ابن القيم، إعلام الموقعين، (٣/ ٣٥٩).

١٠٨. الزركشي، البحر المحيط، (٤/ ٣٢٤). وأمير بادشاه، تيسير التحرير، (٢/ ١٧٢).

١٠٩. الشيباني، الجامع الصغير، (١/ ٤١٩). والكاساني، بدائع الصنائع، (٦/ ٤٥). والميرغناني، الهداية، (٣/ ١٩٨). والزيلعي، تبيين الحقائق، (٥/ ٤٣). والحصكفي، الدر المختار، (٥– ٦٤٠).

١١٠. هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري القاضي الفقيه صاحب أبي حنيفة، وكان شيخا متقنا، ومات أبو يوسف سنة ١٨٢هـ. يُنظر، الجرجاني، تاريخ جرجان، (١/ ٤٨٧).

١١١. الشيباني، الجامع الصغير، (١/ ٤١٩) . والكاساني، بدائع الصنائع، (٦/ ٤٥) . والميرغناني، الهداية، (٣/ ١٩٨) . والزيلعي، تبيين الحقائق، (٥/ ٤٣) . والحصكفي، الدر المختار، (٥/ ٦٤٠) .

١١٢. البخاري، صحيح البخاري، (٢/ ٧٩٤) ، باب أجر السمسرة، رقم الحديث: (٢١٥٤) .

١١٣. الطبراني، المعجم الكبير، (٢/ ٨٦) ، رقم الحديث: (١٣٨٧) ، وهو حديث حسن، يُنظر، البيروتي، أسنى المطالب، (١/ ٣٢٤) .

١١٤. التفتازاني، شرح المقاصد، (٢/ ١١٣) .

١١٥. ابن نُجيم: البحر الرائق (٧/ ٢٦٠) مرجع سابق.

١١٦. قليوبي، حاشية قليوبي، (٤/ ٣٧٠) . والرملي، نهاية المحتاج، (٦/ ٤٠١) .

١١٧. ابن مفلح، المبدع، (٥/ ٣٧٦) .

١١٨. ابن المرتضى، البحر الزخار، (٦/ ٩٨) .

١١٩. الحكيم، مستمسك العروة، (١٤/ ٥٣٥) .

١٢٠. ابن قدامة، الكافي، (٢/ ١٢٧) .

١٢١. الخطيب الشربيني، الإقناع، (٢/ ٣٠٦) .

١٢٢. الفاضل الهندي، كشف اللثام، (٨/ ٢١٣) . وزين الدِّين، كلمة التقوى، (٦/ ٢٤٩) .

١٢٣. المرغناني، الهداية، (٣/ ١٩٩) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ٢٦٠) . والرملي، نهاية المحتاج، (٦/ ٤٠١) . وابن مفلح، المبدع، (٥/ ٣٧٦) .

١٢٤. الرحيباني، مطالب أولي النهى، (٣/ ٣٣٥) . والسبكي، فتاوى السبكي، (١/ ٣٤١) .

١٢٥. ابن مفلح، المبدع، (٥/ ٣٦٧) .

١٢٦. ابن الصلاح، فتاوى ابن الصلاح، (٢/ ٤٤٢) .

١٢٧. ابن الهُمام، فتح القدير، (٧/ ١٩٧) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ١٩٩) .

١٢٨. الخرشي، شرح مختصر خليل، (٦/ ٣٥) .

١٢٩. ابن مفلح، الفروع، (٤/ ١٤٥) .

١٣٠. الطباطبائي، تكملة العروة الوثقى، (٢/ ١٤) .

١٣١. ابن القيِّم، أحكام أهل الذمة، (٢/ ٧٥٣) .

١٣٢. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣/ ٧٠) . والسبكي، فتاوى السبكي، (١/ ٣٤١) .

١٣٣. ابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٨) .

١٣٤. البخاري، صحيح البخاري، (٢/ ٣٠٨) ، باب: من تكفل عن ميت ديْناً فليس له أن يرجع، رقم الحديث، (٢١٧٤) .

١٣٥. ابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٨) .

١٣٦. المصدر نفسه، (٢/ ١٨) .

١٣٧. المصدر نفسه ، (٢/ ١٨) .

١٣٨. السبكي، فتاوى السبكي، (١/ ٣٤١) . وابن القيم، إغاثة اللهفان، (٢/ ١٧) .

١٣٩. سورة النحل: جزء من آية ٩٠.

١٤٠. الشافعي، أحكام القرآن (٢/ ٦٦) .

١٤١. النيسابوري، صحيح مسلم، (٣/ ١١٧٢) ، باب من باع نخلاً عليها ثمر، رقم الحديث: (١٥٤٣) .

١٤٢. ابن القيِّم، إعلام الموقعين، (٣/ ٣٨٨) .

١٤٣. الترمذي، سنن الترمذي، (٣/ ٦٣٤) ، باب ما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلح بين الناس، رقم الحديث: (١٣٥٢) ، والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني: والذي قال: حديث صحيح.

١٤٤. البخاري، صحيح البخاري، (٥/ ١٩٧٨) ، باب الشروط في النكاح.

١٤٥. العيني، عمدة القاري، (١٣/ ٢٩٨) .

١٤٦. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ١٩٧) . والدمياطي: إعانة الطالبين، (٣/ ١٥٢) . والمرداوي، الإنصاف، (٧/ ١٢٩) . والشوكاني، السيل الجرار، (٤/ ٢٦٢) .

١٤٧. ابن عابدين، العقود الدرية، (٢/ ٥٢) . منلا خسرو، درر الحكام شرح غرر الأحكام، (٢/ ٢٢٦) . والقرافي، الذخيرة، (٨/ ٩٤) . والأنصاري، أسنى المطالب، (٢/ ٢٦١) . وابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣٣/ ١٩٧) .

١٤٨. الكاساني، بدائع الصنائع، (٦/ ٢١٠) . والقرافي، الفروق، (٣/ ٤٦٨) . والرملي، نهاية المحتاج، (٢/ ٨٤) . وابن قدامة، المغني، (٤/ ٥٤) .

١٤٩. النيسابوري، صحيح مسلم، (٣/ ١٢٠٩) ، باب الصرف وبيع الذهب بالورِق نقداً، رقم الحديث (١٥٨٦) . ومعنى هاء وهاء: أن يقول خذ ويقول صاحبه مثله. يُنظر، السيوطي، الديباج على مسلم، (٤/ ١٨٢) .

١٥٠. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ٢١٠) .

١٥١. سورة الطلاق: جزء من آية ١.

١٥٢. الكاساني، بدائع الصنائع، (٣/ ١٥٢) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٤/ ٢١٧) . وشيخي زاده، مجمع الأنهر، (٢/ ١٩٠) . والنفراوي، الفواكه الدواني، (٢/ ٦٤) . والخطيب الشربيني، مغني المحتاج، (٣/ ٢٦٥) . والشرواني، حواشي الشرواني، (٨/ ٢٥٩) . وابن مفلح، المبدع، (٨/ ١٤٤) . وابن حزم: الإحكام، (٨/ ٥٠٠) .

١٥٣. الترمذي، سنن الترمذي، (٣/ ٤٨٤) ، باب ما جاء في المطلقة ثلاثاً لا سكنى لها ولا نفقة، رقم الحديث (١١٨٠) ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في تذييله على الكتاب.

١٥٤. النيسابوري، صحيح مسلم (٢/ ١١١٤) ، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم الحديث (١٤٨٠) .

١٥٥. الكاساني، بدائع الصنائع، (٤/ ٢٦) . والعبدري، التاج والإكليل، (٣/ ٥١٦) . والدمياطي، إعانة الطالبين، (٢/ ١٧٨) . والبهوتي، كشاف القناع، (٤/ ٣٠٥) .

١٥٦. الرملي، نهاية المحتاج، (٢/ ٢٤٠) .

١٥٧. الرحيباني، مطالب أولي النهى، (٤/ ٣٩٣) .

١٥٨. البجيرمي، حاشية البجيرمي، (٣/ ١٣٨) .

١٥٩. السرخسي، المبسوط، (٢١/ ٢٩) . والكاساني، بدائع الصنائع، (٤/ ٢٦) . وابن عابدين، رد المحتار، (٨/ ٢١٩) . والحطاب، مواهب الجليل، (٦/ ٥٢) . والشافعي، الأم، (٣/ ١٨٦) . وابن قدامة، المغني، (٨/ ٢٧٨) .

١٦٠. الزيلعي، تبيين الحقائق، (٤/ ٢٧٤) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ١٨٢) .

١٦١. القرافي، الفروق، (٢/ ٢٣٣) .

١٦٢. الشيرازي، المهذب، (١/ ٣٤٩) .

١٦٣. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٣٠/ ٥٤) . والبهوتي، دقائق أولي النهى، (٢/ ١٨٨) . والرحيباني، مطالب أولي النُّهى، (٣/ ٤٤٢) .

١٦٤. الحِلّي، تذكرة الفقهاء، (٢/ ١٢٠) .

١٦٥. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٧/ ١٨٢) . والقرافي، الفروق، (٢/ ٢٣٣) . والشيرازي، المهذب، (١/ ٣٤٩) . والبهوتي، دقائق أولي النُّهى، (٢/ ١٨٨) . والرحيباني، مطالب أولي النُّهى، (٣/ ٤٤٢) .

١٦٦. الحموي، غمز عيون البصائر، (٤/ ٢٧٣) . وابن عابدين، رد المحتار، (٧/ ٢٧٠) .

١٦٧. الدمياطي، إعانة الطالبين، (٣/ ٨٦) .

١٦٨. ابن حزم، المحلى، (٨/ ٢٤٥) .

١٦٩. الشوكاني، السيل الجرار، (٤/ ٢٢٤) .

١٧٠. القمّي، جامع الخلاف والوفاق، (١/ ٣٣٠) .

١٧١. ابن عابدين، رد المحتار، (٧/ ٢٧٠) .

١٧٢. ابن حزم، المحلى، (٨/ ٢٤٥) .

١٧٣. الحلّي، نهج الحق وكشف الصدق، (١/ ٤٩٦) .

١٧٤. الفضولي هو من يتصرف بحق الغير دون إذن شرعي. يُنظر مجلة الأحكام العدلية، (١/ ٣٠) .

١٧٥. ابن عرفة، حاشية الدسوقي، (٤/ ٩٨) . والصاوي، بلغة السالك، (٤/ ٣٨) .

١٧٦. ابن عبد الهادي، تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، (٣/ ٤١) .

١٧٧. النووي، روضة الطالبين، (٣/ ٣٥٣) .

١٧٨. الخميني، تحرير الوسيلة، (١/ ٥٦٣) .

١٧٩. الشافعي، الأم، (١/ ١٩٩) .

١٨٠. ابن نُجيم، البحر الرائق، (٦/ ١٦٤) .

١٨١. النووي، المجموع، (٢/ ٢٤٧) .

١٨٢. ابن قدامة، الكافي، (٣/ ٤) . والكرمي، دليل الطالب، (١/ ١٠٦) .

١٨٣. الخميني، البيع، (٢/ ١٨) .

١٨٤. الغزنوي، الغرة المنيفة، (١/ ٨٧) . والميرغناني، الهداية، (١/ ٢٠٣) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٣/ ١٤٨) .

١٨٥. الترمذي، سنن الترمذي، (٣/ ٥٥٨) ، رقم الحديث (١٢٥٧) ، وهو حديث ضعيف كما قال الألباني في تذييله على الكتاب.

١٨٦. الحطاب، مواهب الجليل، (٥/ ٨١) .

١٨٧. ابن الهمام، فتح القدير، (٤/ ٣٩٥) . والقرافي، الفروق (١/ ١٢٨) . الزركشي، شرح الزركشي، (٣/ ٣١٧) . وابن قدامة، المغني، (٤/ ٢٨٤) .

١٨٨. الكاساني، بدائع الصنائع، (٣/ ١٥٢) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٤/ ٢٠٣) .

١٨٩. الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، (٣/ ٢٣١) .

١٩٠. ابن قدامة، الكافي، (٢/ ١٣٦) .

١٩١. الترمذي، سنن الترمذي، (٣/ ٤٦٨) ، باب ما جاء لا طلاق قبل النكاح، رقم الحديث (١١٨١) ، وهو حديث حسن صحيح كما قال الألباني في تذييله على الكتاب.

١٩٢. ابن مفلح، الفروع، (٤/ ١٤٥) . والبهوتي، كشاف القناع، (٤/ ٣٠٥) .

١٩٣. الكاساني، بدائع الصنائع، (٣/ ١٥٢) . وابن الهمام، فتح القدير، (٤/ ٣٩٥) . وابن نُجيم، البحر الرائق، (٤/ ٢٠٣) .

١٩٤. الخطيب الشربيني، مغني المحتاج، (٣/ ٢٣١) .

١٩٥. السيوطي، الأشباه والنظائر، (١/ ٤٦٢) .

١٩٦. عليش، منح الجليل، (٣/ ٤٦٦) .

١٩٧. الغزالي، الوسيط، (٥/ ٢٤٣) .

١٩٨. القرافي، الذخيرة، (٤/ ٣٦٩) . الغزالي، الوسيط، (٥/ ٢٤٣) .

١٩٩. النيسابوري، صحيح مسلم، (٢/ ١٢٦٢) ، باب لا وفاء لنذر في معصية **الله** ولا فيما لا يملك العبد.

٢٠٠. السجستاني، سنن أبي داود، (١/ ٦٦٥) ، باب في الطلاق قبل النكاح، رقم الحديث (٢١٩٠) ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في تذييله على الكتاب.

٢٠١. الترمذي، سنن الترمذي، (٣/ ٥٣٤) ، باب ما جاء في كراهية بيع ما ليس عندك، رقم الحديث (١٢٣٢) ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في تذييله على الكتاب.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م) .

٣. الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، تحقيق د. محمد حسن عواد، (دار عمار– عمان – الأردن، ط١، ١٤٠٥هـ) .

٤. الأصبحي، مالك بن أنس، المدونة الكبرى، (دار صادر – بيروت، د، ط، د، ت) .

٥. الأصبحي، مالك بن أنس، موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء التراث العربي – مصر، د، ط، د، ت) .

٦. الألوسي، شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، د، ط، د، ت) .

٧. الآمدي، علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، (دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ) .

٨. أمير يادشاه، محمد أمين، تيسير التحرير، (دار النشر: دار الفكر – بيروت، د، ط، د، ت).

٩. الأنصاري، زكريا بن محمد، الغرر البهية شرح البهجة الوردية، (المطبعة الميمنية – القاهرة، د، ط، د، ت) .

١٠. الأنصاري، زكريا بن محمد، ت٩٢٦هـ، أسنى المطالب في شرح روض الطالب، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د، ط، د، ت) .

١١. البابرتي، محمد بن محمد بن محمود، العناية شرح الهداية، (دار الفكر – بيروت، د، ط، د، ت) .

١٢. البجيرمي، سليمان بن عمر بن محمد، ت١٢٢١هـ، حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب (التجريد لنفع العبيد) ، (ديار بكر، تركيا، المكتبة الإسلامية، د، ط، د، ت) .

١٣. البخاري: علاء الدين عبد العزيز بن أحمد، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، تحقيق، عبد الله محمود محمد عمر، (دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م) ..

١٤. البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، (بيروت، دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م) .

١٥. البغدادي، أبو محمد بن غانم، مجمع الضمانات في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تحقيق أ.د محمد أحمد سراح، و أ.د علي جمعة محمد، (دار الكتاب الإسلامي– القاهرة، د، ط، د، ت) .

١٦. البلخي، نظام الدّين، ت١٠٣٦هـ، الفتاوى الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، (بيروت، دار الفكر، د، ط، ١٤١١هـ– ١٩٩١م) .

١٧. البهوتي، منصور بن يونس، ت١٠٥١هـ، كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، (بيروت، دار الفكر، د، ط، ١٤٠٢هـ) .

١٨. البهوتي، منصور بن يونس، ت١٠٥١هـ، الروض المرُبْع شرح زاد المستقنع، (الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، د، ط، ١٣٩٠هـ) .

١٩. البهوتي، منصور بن يونس، ت١٠٥١هـ، دقائق أولي النهى لشرح المنتهى، (بيروت، عالم الكتب، ط٢، د، ت) .

٢٠. البيروتي، محمد بن درويش، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، تحقيق عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٩٩٧م) .

٢١. البيهقي، أحمد بن الحسين، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، (مكتبة دار الباز– مكة المكرمة، د، ط، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م) .

٢٢. الترمذي، محمد بن عيسى، ت٢٧٩هـ، سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د، ط، د، ت) .

٢٣. التفتازاني، سعد الدين مسعود، شرح المقاصد في علم الكلام، (دار المعارف النعمانية – باكستان، ط١، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م) .

٢٤. ابن تيمية، أحمد عبد الحليم ، ت٧٢٨هـ، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، (القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ط٢، د، ت) .

٢٥. الجبعي، زين الدين بن علي، الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، (دار العالم الإسلامي – بيروت، د، ط، د، ت) .

٢٦. الجرجاني، حمزة بن يوسف، تاريخ جرجان، تحقيق د. محمد عبد المعيد خان، (عالم الكتب – بيروت، ط٣، ١٤٠١هـ– ١٩٨١م) .

٢٧. الجصاص، أحمد بن علي الرازي، ت٣٧٠هـ، أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د، ط، ١٤٠٥هـ) .

٢٨. الجمل، سليمان بن منصور، ت١٢٠٤هـ، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (حاشية الجمل) ، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .

٢٩. ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، ت٤٥٦هـ، الإحكام في أصول الأحكام، (القاهرة، دار الحديث، ط١، د، ت) .
٣٠. الحصكفي، محمد علاء الدين بن علي، الدر المختار شرح تنوير الأبصار، (دار الفكر– بيروت، ط٢، ١٣٨٦هـ) .
٣١. الحطاب، محمد بن عبد الرحمن، ت٩٥٤هـ، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، (بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ) .
٣٢. الحكيم، محسن، مستمسك العروة، (مكتبة المرعشي النجفي– قم – إيران، ط١، ١٤٠٤هـ).
٣٣. الحِلِّي، الحسن بن يوسف، ت٧٢٦هـ، تذكرة الفقهاء، (قم، المكتبة المرتضوية، د، ط، د، ت).
٣٤. الحِلّي، الحسن بن يوسف، مختلف الشيعة، تحقيق لجنة التحقيق في مؤسسة النشر الإسلامي، (مؤسسة النشر الإسلامي – قم، ط١، ١٤١٥هـ) .
٣٥. الحلّي، الحسن بن يوسف، نهج الحق وكشف الصدق، تحقيق السيد رضا الصدر، والشيخ عين الله الحسيني الأرموي، (دار الهجرة – قم، ط١، ١٤٢١هـ) .
٣٦. الحِلّي، جعفر بن الحسن الهذلي، شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، (مؤسسة مطبوعاتي إسماعليان – قم، د، ط، د، ت) .
٣٧. الحموي، أحمد بن محمد، ت١٠٩٨هـ، غمز عيون البصائر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م) .
٣٨. حيدر، علي، ت١٢٥٤هـ، درر الحكام شرح مجلة الأحكام، تحقيق وتعريب المحامي فهمي الحسيني، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩١م) .
٣٩. الخرشي، محمد بن عبد الله، ت١١٠٢هـ ، شرح مختصر خليل، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .
٤٠. الخطيب الشربيني، محمد، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، تحقيق مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، (دار الفكر – بيروت، د، ط، ١٤١٥هـ) .
٤١. الخطيب الشربيني، محمد، ت٩٧٧هـ، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .
٤٢. الخميني، مصطفى، ت١٤٠٩هـ، تحرير الوسيلة، (قم، دار الكتب العلمية اسماعيليان، د، ط، د، ت) .
٤٣. الخميني، مصطفى، ت١٤٠٩هـ، البيع، (قم، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، ط١، ١٤١٨هـ) .

٤٤. الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم يماني المدني، (دار المعرفة – بيروت، د،ط، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦) .

٤٥. الدردير، أبو البركات أحمد، ت١٢٠١هـ، الشرح الكبير، تحقيق محمد عليش، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .

٤٦. الدسوقي، محمد عرفة، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، تحقيق محمد عليش، (دار الفكر– بيروت، د، ط، د، ت) .

٤٧. الدمياطي، أبو بكر، ت١٣١٠هـ، إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .

٤٨. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، (مكتبة لبنان – بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .

٤٩. الرحيباني، مصطفى بن سعد، ت١٢٤٣هـ، مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، (دمشق، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٦١م) .

٥٠. ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (دار الفكر – بيروت، د، ط، د، ت) .

٥١. الرملي، شمس الدين محمد، ت١٠٠٤هـ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، (بيروت، دار الفكر، د، ط، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م) .

٥٢. الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، (دار الهداية– بيروت، د، ط، د، ت) .

٥٣. الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق محمد تامر، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م) .

٥٤. الزركشي، محمد بن بهادر، ت٧٩٤هـ، المنثور في القواعد، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، (الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط٢، ١٤٠٥هـ) .

٥٥. الزركشي، محمد بن بهادر، ت٧٩٤هـ، شرح الزركشي على مختصر الخرقي، قدم له ووضع حواشيه عبد المنعم خليل إبراهيم، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م) .

٥٦. الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، (دار الفكر –بيروت، د، ط، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م) .

٥٧. الزيلعي، عثمان بن علي، ت٧٤٣هـ، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د، ط، ١٣١٣هـ) .

٥٨. السبكي، تقي الدين علي بن عبد الكافي، فتاوى السبكي، (دار المعرفة – بيروت، د، ط، د، ت).

٥٩. السجستاني، أبو داود سليمان، سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .

٦٠. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، ت٤٨٣هـ، المبسوط، (بيروت، دار المعرفة، د، ط، ١٤٠٦هـ) .

٦١. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق ابن عثيمين، (مؤسسة الرسالة – بيروت، د، ط، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م) .

٦٢. السعدي، علي بن جعفر، الأفعال، (عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م) .

٦٣. السمرقندي، علاء الدين، ت٥٣٩هـ، تحفة الفقهاء، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٤م) .

٦٤. السيوطي، عبد الرحمن، الأشباه والنظائر، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ).

٦٥. السيوطي، عبد الرحمن، ت٩١١هـ، الديباج على مسلم، تحقيق أبو إسحاق الحويني الأثري، (الخُبَر، دار ابن عفان، د، ط، ١٤١٦هـ– ١٩٩٦م) .

٦٦. الشافعي، محمد بن ادريس، ت٢٠٤هـ، أحكام القرآن، تحقيق، عبد الغني عبد الخالق، (دار الكتب العلمية – بيروت، د، ط، ١٤٠٠هـ) .

٦٧. الشافعي، محمد بن ادريس، ت٢٠٤هـ، الأم، (بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٣هـ) .

٦٨. الشرواني، عبد الحميد، ت١٣٠١هـ، حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج، (بيروت، دار الفكر، د، ط، د، ت) .

٦٩. الشوكاني، محمد بن علي، ت١٢٥٥هـ، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، تحقيق محمود إبراهيم زايد، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ) .

٧٠. الشيباني، محمد بن الحسن، (ت١٨٩هـ) ، الجامع الصغير وشرحه النافع الكبير، (بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٦هـ) .

٧١. الشيرازي، إبراهيم بن علي، ت٤٧٦هـ، المهذب في فقه الإمام الشافعي، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٩م) .

٧٢. الصاوي، أحمد، بلغة السالك لأقرب المسالك، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م) .

٧٣. الصاوي، أحمد، ت١٢٤١هـ، بلغة السالك لأقرب المسالك، ضَبَطَهُ وصَحَّحَهُ محمد عبد السلام شاهين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م) .

٧٤. ابن الصلاح، عثمان، فتاوى ابن الصلاح، تحقيق موفق عبد الله عبد القادر، (مكتبة العلوم والحكم ، عالم الكتب – بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ) .

٧٥. الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام، المصنف، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، (المكتب الإسلامي – بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ) .

٧٦. الطباطبائي، محمد كاظم، تكملة العروة الوثقى، تحقيق محمد حسين الطباطبائي، (المطبعة الحيدرية – طهران، ط١، ١٣٧٨هـ) .

٧٧. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، (مكتبة الزهراء – الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م) .

٧٨. ابن طي الفقعاني، علي بن محمد بن علي، الدر المنضود، تحقيق محمد بركت، (مكتبة إمام العصر العلمية – شيراز، ط١، ١٤١٨هـ) .

٧٩. ابن عابدين، محمد أمين، العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ، (دار المعرفة – بيروت، د، ط، د، ت) .

٨٠. ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، (بيروت، دار الفكر، طبعه جديدة مُنَقَّحَة مُصَحَّحَة ، ١٤٢١هـ– ٢٠٠٠م) .

٨١. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله بن محمد، ت ٤٦٣هـ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، (بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ) .

٨٢. ابن عبد الهادي، شمس الدين محمد بن أحمد، ت٧٤٤هـ، تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، تحقيق أيمن صالح شعبان، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م) .

٨٣. العبدري، محمد بن يوسف، ت٨٩٧هـ، التاج والإكليل لمختصر خليل، (بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ) .

٨٤. ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٣هـ– ١٩٩٣م) .

٨٥. ابن العلامة، فخر الدين، إيضاح الفوائد، تحقيق وتعليق حسين الموسوي الكرماني، وعلي پناه الإشتهاردي، وعبد الرحيم البروجردي، (المطبعة العلمية – قم، ط١، ١٣٨٧هـ) .

٨٦. عليش، محمد بن أحمد، منح الجليل شرح على مختصر سيد خليل، (دار الفكر– بيروت، (د،ط) ، ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م) .

٨٧. عليش، محمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، دار المعرفة – بيروت، (د، ط) ، (د،ت) .

٨٨. العيني، محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (دار إحياء التراث العربي– بيروت، د، ط، د،ت) .

٨٩. الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى في علم الأصول، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، (دار الكتب العلمية– بيروت، ط١، ١٤١٣هـ) .

٩٠. الغزالي، محمد بن محمد، الوسيط في المذهب، تحقيق أحمد محمود إبراهيم ومحمد تامر، (دار السلام– القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ) .

٩١. الغزنوي، عمر، ت٣٧٧هـ، الغرة المنيفة في تحقيق بعض مسائل الإمام أبي حنيفة، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري، (بيروت، مكتبة الإمام أبي حنيفة، ط٢، ١٩٨٨م).

٩٢. الفاضل الهندي، محمد بن الحسن، كشف اللثام عن قواعد الأحكام، (مؤسسة النشر الإسلامي – قم، د، ط، د، ت) .

٩٣. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، ت٦٢٠هـ، الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط٥، ١٩٨٨م) .

٩٤. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، ت٦٢٠هـ، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ) .

٩٥. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد، روضة الناظر وجنة المناظر، تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن السعيد، (جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض، ط٢، ١٣٩٩هـ) .

٩٦. القرافي، أحمد بن إدريس، ت٦٨٤هـ، الذخيرة، تحقيق محمد حجي، (دار الغرب– بيروت، ط١، ١٩٩٤م) .

٩٧. القرافي، أحمد بن إدريس، ت٦٨٤هـ، الفروق، تحقيق خليل المنصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م) .

٩٨. القرشي، عبد القادر بن محمد، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، (دار مير محمد كتب خانه – كراتشي، ط١، د، ت) .

٩٩. القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، (دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ٢٠٠٠م)

١٠٠. قليوبي، أحمد بن أحمد بن سلامة، ت١٠٦٩هـ، حاشية قليوبي على شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م) .

١٠١. القمّي، علي بن محمد، ت ٧٧٨هـ، جامع الخلاف والوفاق، تحقيق حسين البيرجندي، (قم، مطبعة ياسدار إسلام، ط١، د، ت) .

١٠٢. ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ت٧٥١هـ، أحكام أهل الذمة، تحقيق يوسف أحمد البكري– وشاكر توفيق العاروري، (رمادي للنشر– دار ابن حزم– الدمام – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م) .

١٠٣. ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ت٧٥١هـ، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (دار الجيل – بيروت، د، ط، ١٩٧٣م) .

١٠٤. ابن القيِّم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ت٧٥١هـ، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق محمد حامد الفقي، (دار المعرفة – بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ– ١٩٧٥م).

١٠٥. الكاساني، علاء الدين، ت٥٨٧هـ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٨٢م) .

١٠٦. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، (مكتبة المعارف – بيروت، د، ط، د، ت) .

١٠٧. الكرابيسي، أسعد، الفروق، تحقيق د. محمد طموم، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية– الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ.

١٠٨. الكرمي، مرعي بن يوسف، دليل الطالب على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل، (المكتب الإسلامي– بيروت، ط٢، ١٣٨٩هـ) .

١٠٩. الكليبولي، عبد الرحمن بن محمد، المدعو بشيخي زاده، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، خرج آياته وأحاديثه خليل عمران المنصور، (دار الكتب العلمية – لبنان– بيروت، ط١، ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م) .

١١٠. المجددي، محمد عميم الإحسان، ت١٤٠٧هـ، قواعد الفقه، (كراتشي، دار الصدف، ط١، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٦م) .

١١١. مجلة الأحكام العدلية، تحقيق نجيب هواويني، (كراتشي، كارخانه تجارت كتب، د، ط، د، ت) .

١١٢. ابن المرتضى، أحمد بن يحيى بن المرتضى الزيدي، ت٨٤٠هـ، البحر الزخار، (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي ، د، ط، د، ت) .

١١٣. ابن المرتضى، علي، الانتصار، (مؤسسة النشر الإسلامي – قم، ط١، ١٤١٥هـ) .

١١٤. المرداوي، علي بن سليمان، ت٨٥٥هـ، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد حامد الفقي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د، ط، د، ت) .

١١٥. ابن المطرز، ناصر الدين بن عبد السيد بن علي، المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، (مكتبة أسامة بن زيد – حلب، ط١، ١٩٧٩م).

١١٦. ابن مفلح، إبراهيم بن محمد، ت٨٨٤هـ، الفروع، تحقيق أبو الزهراء حازم القاضي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ) .

١١٧. ابن مفلح، إبراهيم بن محمد، ت٨٨٤هـ، المبدع في شرح المقنع، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٠هـ) .

١١٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (دار صادر – بيروت، ط١، د، ت) .

١١٩. منلا خسرو، محمد بن فرموزا، درر الحكام شرح غرر الأحكام، (دار إحياء الكتب العربية – بيروت، د، ط، د، ت) .

١٢٠. الميرغيناني، علي بن أبي بكر، ت٥٩٣هـ، الهداية شرح بداية المبتدي، (عمَّان، المكتبة الإسلامية، د، ط، د، ت) .

١٢١. ابن نُجيم، زين الدين بن إبراهيم، ت٩٧٠هـ، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، (بيروت، دار المعرفة ، ط٢، د، ت) .

١٢٢. النفراوي، أحمد بن غنيم، ت١٢٠٧هـ، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، (بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٤١٥هـ– ١٩٩٤م) .

١٢٣. النووي، يحيى بن شرف، ت٦٧٦هـ، المجموع شرح المهذب، (بيروت، دار الفكر، د، ط، ١٩٩٧م) .

١٢٤. النووي، يحيى بن شرف، ت٦٧٦هـ، روضة الطالبين وعمدة المفتين، (بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ) .

١٢٥. النووي، يحيى بن شرف، ت٦٧٦هـ، صحيح مسلم بشرح النووي، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ) .

١٢٦. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، ت٢٦١هـ، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٩٧٨م) .

١٢٧. ابن الهُمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد، ت٦٨١هـ، فتح القدير شرح الهداية، (بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٧م) .

١٢٨. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الموسوعة الفقهية الكويتية، (دار السلاسل – الكويت ، ط٢، ١٤٢٧هـ) .

التنوعات النطقية السامية للأصوات اللغوية المقلقلة

د. حسين مصطفى غوانمة*

د. محمود مبارك عبد الله عبيدات**

---

* أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الإسراء/ عمان/ الأردن.

** أستاذ مساعد/ قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة العلوم الاسلامية العالمية.

ملخص:

يقدم هذا البحث في محاوره عرضًا للأصوات اللغوية المقلقلة لا في العربية وحسب، وإنّما يمتد العرض للحديث عنها ساميًّا، علّ المثاقفة فيه تبرز شيئًا من البحث حولها، لاسيما في التحولات النطقية لهذه المجموعة من الأصوات، وفي الأشكال الصوتية المنطوق بها، فنحن بحاجة إلى دراسات سامية عن أصواتنا اللغوية، تهدف إلى تحديد محاور هذا البحث،من حيث مخارجها، وصفاتها، وتقلباتها. والعلة في ذلك تباين آراء علماء اللغة، قدماء ومحدثين، في وصف هذه الأصوات، فمن الطبيعي عندئذ أن يقف هذا البحث على هذا الاختلاف؛ ليصل إلى نقاط التلاقي وأسباب الاختلاف في تحديد ماهية هذه الأصوات، فكان النظر فيها ساميا ليتم تحديد ملامح الالتقاء والاختلاف في هيئة هذه الأصوات كدليل راسم لتنوعاتها النطقية.

Abstract:

The research deals with linguistic sounds not only in the Arabic language but also extends to cover Semitic languages as well. Hopefully, the discussion on this will highlight important issues pertaining to the topic especially the vocalization changes affecting this group of sounds and spoken sound forms. What we need are Semitic studies of the linguistic sounds aiming at identifying the aspects of this research in terms of sounds exits, qualities and changes affecting them. The research proposes that the reason of this is due to differences among linguists of all times in terms of describing these sounds. It is imperative for this research to pause a little at such difference to reach at the end a meeting point and identify reasons behind such differences.

المدخل:

في هذا البحث إطلالة على أصوات الباء، والقاف، والجيم، والدال، والطاء في الدرس السامي، لا يحسن أن تدفع بنكران. وهي الموسومة بتسمية: (التنوعات النطقية الساميّة للأصوات اللغوية المقلقلة) .

وقد خلص البحث إلى أن أصوات (قطب جد) في اللغات السامية أسلوب عمل مشروع، رغم صعوبة تأطيرها في السامية. فإذا لم يكن هناك لغة سامية واحدة تخلو من عدد من أصوات الحلق والإطباق. والمقصود هنا بوجود أصوات الحلق والإطباق كونها في اللغات السامية تكون فونيمات متميزة، فإنّه ليس هناك لغة سامية تخلو من أصوات لغات أخرى.

ومما يعوق البحث على وجه الخصوص أنّ نصوص اللغات السامية التي تحت أيدينا– كما عبر عن ذلك نولدكة في كتابه اللغات السامية– لا تعبر تعبيرًا كافيًا عن أصوات تلك اللغات. وعليه فليس ثمة مشكل في الطرح الذي يفسر أصوات القلقلة، وإنّما المشكل في شح النصوص التي تفسّر هذه الأصوات، وتصفها في اللغات السامية.

والحقيقة أننا لا نقدم قراءة منتهية للأصوات الخمس في درسها السامي، ولا في قضاياها، بقدر ما نقدمه من قراءة مثيرة كانت أو بدائية حولها. فالمشكل في الطرح طريقة التحديد، والسهل في العرض ما عُرف. إذ القطعيّة في محدودية المقدم حول الدرس السامي، المحدَّد لمجال الدرس هنا أيًّا كان فيه أو عنه، والبدائية في خوض غمار هذا الموضوع كشفاً عن ساميته. فالقراءة إذن لا نهائية لتلك الأصوات، أو هي بالأحرى قراءة أولى.

فالموضوع يستدعي العرض، و الطريقة تنبىء عن ذلك، وفي ذلك هدف للكشف عنه، إثارة للمختصص في السامية البحث فيه، إذ الموضوع يُغنى بالطرح وبالمعاينة، ونحن هنا نقدم طرحًا لا معاينة، إذ هي مجال اختصاص اللغوي الصوتي السامي.

والبحث يعرض المفاهيم، حول القضايا الآتية، وهي: مخرج الأصوات وصفاتها، ووجودها في اللغات السامية، وقلقلتها.

مخرج الباء وصفاته:

يتفق علماء اللغة، قدماء ومحدثون، على تحديد مخرج صوت الباء، فقد حدد سيبويه [١] ، وابن جني [٢] ، وابن يعيش [٣] مخرج الباء ما بين الشفتين، واتفق معهم المحدثون، أمثال: إبراهيم أنيس [٤] ، وكمال بشر [٥] .

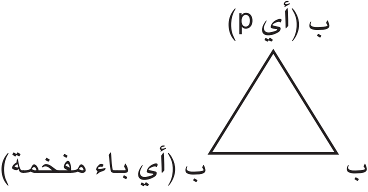
يخرج صوت الباء عند النطق به من الشفتين، حيث يقف الهواء الصادر من الرئتين وقوفًا تامًا عند الشفتين، إذ تنطبق هاتان الشفتان انطباقًا تامًا كاملًا، ويضغط الهواء مدة من الزمن، ثم تنفرج الشفتان،فيندفع الهواء فجأة من الفم، محدثًا صوتًا انفجاريًا (٦) .

وينطق صوت الباء بضم الشفتين، ورفع الطبق، ليغلق ما بين الحلق و التجويف الأنفي مع ذبذبة الأوتار الصوتية، فهو صوت شفوي انفجاري مجهور (٧) .

وليس للباء نظير مهموس في اللغة العربية، ومن هنا نلاحظ خطأ كثير من العرب في نطق صوت الباء المهموس، الموجود في الإنجليزية (p) (٨) .

الباء في السامية:

اللغة السامية تحتوي في ما يبدو على الثالوث الآتي، المتركب من حروف شديدة:



أما العربية القديمة، فقد تهدم فيها نظام تلك الأصوات، وذلك بأن اضمحلت الباء المفخمة (المشكوك بوجودها في الحقيقة) ، بأن صار الصوت المهموس ب (p) صوتًا رخوًا شفويًا أسنانيًا هو الفاء (٩) . وبذلك يرى هنري فليش أنّ الفاء الشفوية تتمثل في الباء النَّفسية القديمة (p) (١٠) .

وهذا التحول الذي يصيب الصوت الشفوي الشديد المهموس (ب) إلى الصوت الرخو المهموس (ف) ، يرى بروكلمان أنه يقع في السامية الجنوبية (العربية والحبشية). أما السامية الشمالية (العبرية و الآرامية) ، فيرى أن"هذه الرخاوة لا تصيبها، وفي الصوت المقابل ب v <، إلا عن طريق تأثير الأصوات الصامتة بالحركات (١١) .

وقد ذهب إسماعيل عمايرة مؤكدًا أنّ العربية تخلو من النظير لصوت الباء حين قال: «إنّ العربية تخلو أصلا من حرفي (v) وهو الشكل اللين للباء، و (p) وهو الشكل القاسي للفاء، ويذهب علماء الساميات إلى أنّ (p) صوت سامي أصيل، ويقدرون أنه كان من أصوات السامية الأم، وليس غريبًا أن يكون قد انقلب في كل أوضاعه في العربية إلى فاء، إذ أمر انقلابه إلى فاء ظاهرة معروفة في اللغات السامية وغيرها» (١٢) . فالشكلان (v) و (p) هما النطقان الآخران لصوت الباء، وليس لهما نظير في العربية.

وعلى الرغم من هذا الاختلاف في الشكل المنطوق لصوت الباء، فإنّ بروكلمان يستنتج من موازنة اللغات السامية بعضها ببعض، أنها اشتركت في الأصل يومًا ما في أصوات منها: صوتان شديدان يتكونان بإغلاق الشفتين (شفوي) أحدهما مهموس ذو نطق هائي والثاني مجهور (١٣) .

وقد أصابت التغيرات التاريخية الأصوات، ومن ذلك تطور الباء المهموسة (p) في اللغة السامية الأم، إلى (فاء) في اللغات السامية الجنوبية، وهي العربية و الحبشية، وبقي الأصل كما هو في اللغات السامية الشمالية، وهي العبرية والآرامية و الأكادية (١٤) .

يبدو أنّ هذا التعدد يقع من مبدأ الانتقال من (ب) إلى (v) إلى (p) ، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن هذا التعدد يقع في التدرج النطقي لهذه الأشكال في الجهر ترتيبًا، ولعل هذا التحوّل الذي يصيب صوت الباء مرده إلى وجود (v) و (p) في لغات غير اللغة السامية التي تنطق (ب) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ التعدد النطقي للباء أمر طبيعي، إذ ليست الفروق بين الباء و بين شكليها عميقة، بل العكس ربما سهولة النطق بهما تجعل التعدد أمرًا ممكنًا إذا ما قلنا بأنّ اللسان السامي ينحرف قليلًا عن أصله من فرد إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، وهذا التعدد نرده إلى هذه الناحية (باب الانحراف عن الأصل) .

مخرج القاف و صفاته:

تباينت آراء علماء اللغة، قدماء و محدثين، في وصف صوت القاف؛ فبينما يذكر اللغويون القدماء ومنهم سيبويه (١٥) ، وابن جني (١٦) ، وابن يعيش (١٧) أنّ صوت القاف صوت انفجاري مجهور يخرج من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، يذهب علماء اللغة المحدثون، ومنهم جان كانتينو (١٨) ، وبرجشتراسر (١٩) ، وكمال بشر (٢٠) ، ورمضان عبد التواب (٢١) إلى أنّ صوت القاف صوت لهوي انفجاري مهموس، ينطق برفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأدنى الحلق و اللهاة مع عدم السماح للهواء بالمرور من الأنف، وبعد ضغط الهواء مدة من الزمن يطلق سراح مجرى الهواء بأن يخفض أقصى اللسان، فجأة يندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًا، ولا يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به، كما يظهر في نطق قراء القرآن الكريم (٢٢) .

ومن وصف علماء اللغة، قدماء ومحدثين، لصوت القاف يظهر أنّ الاختلاف بينهما يقع في تحديد مخرج القاف، وصفة الهمس والجهر به. **ويرى كمال بشر (٢٣) وعبد القادر عبد الجليل (٢٤) أنّ هذا الاختلاف يرجع إلى واحد من اثنين:**

- الأول: لعل علماء العربية أخطأوا في وصف صوت القاف.

- الثاني: وهو ما تشير الدلائل إلى رجحانه، وهو أن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا المعاصرة؛ إذ ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف، ذلك الصوت الذي يمكن تسميته بالجاف (g) ، أو ما يشبه الكاف الفارسية،وهو ذلك الصوت الذي نسمعه في بعض لهجات الصعيد و ريف الوجه البحري، وهو مايشبه الجيم القاهرية.

وقد أيّد كانتينو [٢٥] ومصطفى حركات [٢٦] الاحتمال الثاني، وهو أنّ القاف كانت تنطق مجهورة، كالجيم القاهرية؛ وذلك لشيوع هذا النطق على ألسنة كثير من الناطقين بالعربية اليوم. يقول كانتينو: « وبما أنّ قسمًا كبيرًا من الألسن الدارجة بالعربية ينطق بقاف مجهورة، أمكننا الاعتقاد على سبيل الاحتمال و الترجيح، بأنّ القاف كان بالفعل حرفًا مجهورًا في العربية القديمة، ويمكن أنّ يكون نطقه مهموسًا في العربية الفصحى اليوم، ناتجًا عن كونه أصبح مهموسًا في اللهجات الحضرية المدنية؛ لأنّ أغلبية المثقفين اليوم هم من أصل مدني».

فمن الطبيعي أن ننحّي الاحتمال الأوّل،إذ ليس علماؤنا الأُوَل بتلك السذاجة حتى يقدموا لنا وصفًا خاطئًا لصوت القاف، وهم أصحاب الريادة في علوم اللغة كلها، لكن ترجيح الاحتمال الثاني أولى؛ لأنه على عناية بالغة بلسان علمائنا الأوَل وفكرهم، فمن السهولة أن يقع التطور التاريخي لصوت القاف من قاف قديمة مجهورة (g) وما زالت آثار نطقها الحقيقي موجودة في اليمن إلى صوت القاف المهموسة التي ننطقها اليوم.

القاف في السامية:

يعود سبب الخلاف بين القدماء والمحدثين إلى أن للقاف ألوفونين أو صورتين صوتيتين في العربية، إحداهما تمثل النطق المجهور، وهوالصوت الذي كان يشكل فونيم القاف في اللهجات النجدية، ومازلنا نسميه في اليمن حتى في تفصحهم، وهذا الصوت هو الذي وصفه القدماء. وأمّا الألوفون الثاني،فهو المهموس الذي استقرت العربية الفصحى على استعماله دون الجهر [٢٧] .

وقد استنتج بروكلمان من موازنة اللغات السامية أنّ صوت القاف صوت مهموس، ذو نطق مهموز، شديد،يتكون عند الطبق [٢٨] . وهو يرى أنّ سبب تغير نطق القاف في اللغة السامية راجع إلى نطقه من أناس ذوي لغات أخرى، فهو يقول: «وقد عانت اللغة السامية في بابل عندما تكلمها أناس ذوو لغات أخرى، من التغييرات التي لايمكن تجنبها في مثل هذه الأحوال، فتحوّل الصوت الطبقي المهموس (ق) في البابلية على الأقل إلى الصوت الغاري المجهور» (ج) [٢٩] .

فالتغير الذي يصيب الأصوات بات واضحًا في عصرنا. فالتحوّل للصوت الطبقي الشديد المهموس (ق) إلى صوت مجهوروقع في بعض لهجات سوريا، كما تحوّل في بعض لهجات البدو كذلك إلى صوت مغور، وفي مصروفلسطين سقط غالبًا، ولم يبق مكانه إلا همزة محققة [٣٠] .

وفي جهر القاف وهمسه يرى محمد القماطي أنّه صوت شديد مهموس منفتح، ويرى أنّ السبب الذي دعا علماءنا القدماء أن يصفوه بأنّه مجهور هو المبالغة في تفخيمه و قلقلته، بقوله: «ويصنف علماؤنا السابقون القاف بأنها حرف مجهور، ولعل المبالغة في تفخيمها وقلقلتها يجعلانها تكتسب شيئًا من ذلك» [٣١] .

ويقف هنري فليش موقف الجهر من هذا الصوت بقوله: «ولقد كانت القاف مجهورة، حافظ على جهرها أهل البداوة جميعًا، وكان ذلك من خصائصهم مهما اختلف مخرجها لديهم » [٣٢] . ويرى كانتينو أنّ القاف كان في الأول حرفًا مجهورًا في قسم من أقسام العربية على الأقل [٣٣] .

أمّا القاف في مقارنة اللغات السامية، فيدل على أنّه صوت شديد مهموس، ففي العبرية ķōl وفي الآرامية ķālā وفي الحبشية ķāl بمعنى صوت في الجميع، وهو ما يقابل في العربية (قَوْل) وفي الآشورية ķūl u بمعنى صراخ [٣٤] . ويبقى هذا الصوت موجودًا في اللغات السامية كلها على الرغم من تغيير نطقه [٣٥] .

وقد فسّر الطيب البكوش ظاهرة جهر القاف وهمسها، بأنّه قد يكون في النطق القديم شبيهًا بالقاف (وهي تقريبًا قاف البدو أو جيم مصر) ، فنحن نلاحظ أنّ البدو – وهم أكثر قربًا من النطق القديم– يستعملون القاف حيث يستعمل أهل المدن والحواضر القاف [٣٦].

فتشارك النطق لصوت القاف بين الجيم المصرية والنطق الحضري لها، مرده إلى تحقق النطق، إذ لا غرابة في نطق الصورتين في اللغات السامية،لاسيما إذا عرفنا أنّ النطق للصوت يتغير بمتغيرات المكان والزمان والشخوص، إضافة إلى أنّ هذا التنوع ليس صعبًا، فليس فيهما تغير كبير. في حين أنهما يقعان بطريقة واحدة تزيد إحداهما عن الأخرى في الشدّة.

مخرج الجيم وصفاته:

يتفق علماء اللغة، قدماء ومحدثون، على تحديد مخرج صوت الجيم، فقد حدّد سيبويه[٣٧] وابن جني [٣٨] مخرج الجيم من وسط اللسان، مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى واتفق معه المحدثون، أمثال: إبراهيم أنيس، [٣٩] وكمال بشر، [٤٠] وهنري فليش، [٤١]

ورمضان عبدالتواب [٤٢] . إلّا أنهم يختلفون في شدته ورخاوته، فالقدماء [٤٣] يرون أنه شديد. أمّا المحدثون [٤٤] ، فيرون بأنّه غير ذلك.

ويتكون صوت الجيم باندفاع الهواء إلى الحنجرة، فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج، وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء [٤٥] . ويصف علماء اللغة [٤٦] صوت الجيم بأنّه صوت غاري (وسط الحنك) ، مركب (انفجاري، احتكاكي) ، مجهور، مرقق.

الجيم في السامية:

يُعتقد أنّ الصورة اللفظية المفترضة للجيم في السامية الأم هي صوت الجيم الخالية من التعطيش– (g) ولعل صوت الجيم (ğ) كما ننطقه في العربية الفصحى و معظم اللهجات العربية المعاصرة من الأصوات المميزة للغة العربية ولهجاتها – ومما يؤكد ذلك خلو جميع اللغات السامية التي نعرفها – ما عدا العربية ولهجاتها – من صوت الجيم المعطشة أو المركبة، ففي العبرية نجد كلمة (جمل) فيها تنطق على هيئة gāmal وفي السريانية gaml ā وفي الجعزية الإثيوبية gamal، في حين هو في العربية ğamal. ونطق هذا الحرف الأصلي كان (gīm) كما هو الآن في مصر، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقية [٤٧] ، وهو الصوت الذي يشبه الكاف.

ويفسر رمضان عبد التواب ظاهرة التعطيش بأنّ أصوات أقصى الحنك تميل إلى ما يناظرها من الأصوات الأمامية حين تليها في النطق حركة أمامية كالكسرة؛ لأنّ الكسرة تجتذبها إلى الأمام قليلًا، فتنقلب إلى نظائرها من أصوات أقصى الحنك، وتغلب أن تكون من النوع المزدوج،أي الجامع بين الشدة والرخاوة [٤٨] . وهو ما يطلق عليه (قانون الأصوات الحنكية) أو مصطلح التغوير عند ملريوباي [٤٩] . غير أنّ ذلك لم يحدث في البداية في كل جيم، وإنّما كان يقتصر على الجيم المكسورة، ثم عمم القياس في كل جيم طردًا للباب على وتيرة واحدة [٥٠] .

والصفاوية واحدة من اللغات السامية التي درسها يحيى عبابنة إلّا أنّه لا يجزم بالحكم على الشكل الصوتي لنطق الصفاويين لصوت الجيم، وإنما يميل إلى الاعتقاد بأنّهم نطقوها كالعربية الفصحى [٥١] .

وقد مثّل كانتينو الجيم بالقاف (g) الشديدة الحنكية في السامية مع شيء من تحوير النطق، بتقديم مخرجها إلى أدنى الحنك [٥٢]. واستنتج بروكلمان من مقارنة اللغات السامية بعضها ببعض أنّ صوت الجيم صوت شديد، يتكون عند سقف الحنك الصلب (غاري) مجهور[٥٣] .

مخرج الدال وصفاته:

يتفق علماء اللغة،قدماء ومحدثون، على تحديد مخرج صوت الدال، فقد حدد سيبويه [٥٤] وابن جني [٥٥] مخرج الدال مما بين طرف السان واصول الثنايا، واتفق معهم المحدثون، أمثال: إبراهيم أنيس [٥٦] وكمال بشر [٥٧] .

ويتكون باندفاع الهواء مارًا بالحنجرة، فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يأخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت، فينحبس هناك فترة قصيرة لالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكمًا، فإذا انفصل هذا الالتقاء سمع صوت انفجاري نسميه بالدال، فهو – إذن– صوت أسناني لثوي، انفجاري،مجهور، شديد [٥٨] .

الدال في السامية:

الدال صوت موجود في كل اللغات التي نعرفها، والتغيرات التي تطرأ عليه تغيرات تركيبية كما في العبرية و السريانية سببها وجود هذا الصوت الانفجاري مسبوقًا بحركة قصيرة أو طويلة، كما حدث في كلمة (עך) التي تلفظ (<ad) والأصل (<ad) بالدل، وهو صوت ظاهر في اللهجة الصفوية،وهو يمثل فاء الجذر وعينه ولامه [٥٩] . فالدال لم يحدث عليه أي تغير مطلقًا، يؤكد ذلك رمضان عبد التواب بقوله: «يتضح أنّ الدال والطاء والصاد لم يصبها تغيرمطلقًا في أي لغة من اللغات السامية» [٦٠] .

ويؤكد نولدكه ذلك بإشارته إلى أنّ صوت الدال في اللهجات الآرامية صوت أسناني بسيط مشابه للصوت العربي، ويفسر ذلك بأنّ اللغات الساميه – بعد انقسامها إلى قسمين؛ شمالي وجنوبي – احتفظت بهذا الصوت كما في العربية [٦١] .

ويستنتج بروكلمان من مقارنة اللغات السامية بأنّ صوت الدال صوت شديد أسناني مجهور، يتكون بوضع طرف اللسان عند حافة الأسنان العليا [٦٢] .

مخرج الطاء وصفاته:

يتفق علماء اللغة؛ قدماء ومحدثين، على تحديد مخرج صوت الطاء،فقد ذهب سيبويه [٦٣] وابن جني [٦٤] بأنّه من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، واتفق معهم المحدثون، أمثال: إبراهيم أنيس [٦٥] وكمال بشر [٦٦] وبرجشتراسر [٦٧] .

أما الاختلاف، فقد وقع في جهر الطاء وهمسه، فوصفه علماء اللغة القدماء [٦٨] بالجهر، في حين وصفه علماء اللغة المحدثون [٦٩] بالهمس. ويفسر كمال بشر [٧٠] وصف القدماء للطاء بأنه مجهور بتفسيرات ثلاث، أولها: أنّ العلماء القدماء أخطأوا التقدير، أي:

تقدير وضع الأوتار الصوتية حال النطق بالصوت. وثانيها: تطور في نطق الطاء، فلعلّهم كانوا ينطقونه بما يشبه نطق الضاد الحالية. وثالثها: أنّهم كانوا يصفون صوتًا يشبه صوت الطاء الذي نسمعه في بعض لهجات الصعيد، وهو صوت طاء مشربة بالتهمين.

والظاهر أنّ الطاء التي تجري على ألسنتنا اليوم طاء حديثة لم تعرفها العربية من قبل، وهي مهموسة كما يقول المحدثون، جرى على نطق الطاء القديمة تطور بفعل التاريخ.

ويتكون صوت الطاء بأن يتخذ الهواء مجراه في الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء اللسان مع الحنك الأعلى، ويتخذ اللسان شكلًا مقعرًا منطبقًا يرجع إلى الوراء قليلًا، فهو صوت شديد مهموس الآن (٧١) .

الطاء في السامية:

لا تخلو أي لغة سامية من عدد من أصوات الحلق والإطباق، وهي في اللغات السامية تكون وحدات صوتية متميزة، وأكثر أصوات الإطباق ثباتاً في اللغات السامية: الصاد والقاف والطاء، فهذه الأصوات الثلاثة موجودة في كل اللغات السامية القديمة (٧٢) .

ويبدو أنّ وجود الطاء في جلّ اللغات السامية يستدعي الركون إلى ثبات الطريقة التي يأتي عليها هذا الصوت، والهيئة التي يخرج بها، ويؤكد ذلك حازم كمال الدين بقوله: عندما ننظر في الأصوات الصامتة في اللغة العربية وأخواتها الساميات، نلاحظ اتفاق اللغات السامية في بعض الأصوات، منها: الدال والطاء والقاف (٧٣) .

قلقلة أصوات (قطب جد):

يتكون الصوت الشديد (الانفجاري) من حبس وإطلاق، وصوت يتبع الإطلاق، فالحبس يتم باتصال عضوين، ينتج عنه وقف المجرى الهوائي وقفًا تامًا. والإطلاق يتم بانفصال العضوين انفصالًا سريعًا يحدث عنه انفجار الهواء، ويلاحظ أنّ اندفاع الهواء يستمر زمنًا محسوسًا بعد انفراج العضوين، ولذلك لا يتأتى نطق الصوت الشديد، النطق الكامل من غير أن يتبع بصوت آخر مستقل عنه (٧٤) .

وقد لاحظ سيبويه هذه الخاصية في الأصوات عند الوقف عليها، وذلك حيث قال: «واعلم أنّ من الحروف حروفًا مشربة ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت، ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة... وذلك القاف والجيم والطاء والدال والباء، والدليل على ذلك أنّك تقول: الحذِقْ، فلا تستطيع أن تقف إلّا مع الصويت لشدة ضغط الحرف، وبعض العرب أشد صوتًا، كأنهم الذين يرومون الحركة» (٧٥) .

فالقلقلة تعني: «تحويل أعضاء النطق من مخرج النطق بصوت لغوي إما إلى مخرج صوت آخر، أو إلى حال الإستراحة بكيفية تؤدي إلى فتح الإغلاق أو إزالة التضييق» (٧٦) .

فاتباع الأصوات بصوت أو بحركة خفيفة عندما تكون ساكنة، مرجعه إلى التحقيق الكامل لخواص هذه الأصوات، أي تحقيق الأنفجار والجهر، ويفسر ذلك كمال بشر بأنّ نطق هذه الأصوات نطقًا كاملًا واضحًا حالة السكون يستدعي جهدًا كبيرًا؛ لأنّ شدتها تعني أنّ الهواء عند نطقها محبوس حبسًا تامًا، وأنّ جهرها يعني عدم جريان النفس معها، لذا وجب اتباع هذه الأصوات بصويت؛ لتنقلها من السكون إلى شبه تحريك حتى يتحقق نطقها كاملاً (٧٧) .

ويبدو أنّ تسمية هذه الظاهرة بالقلقلة مرتبط بالمعنى اللغوي ارتباطًا وثيقًا، إذ يقال: قلقل الشيء قلقله إذا حركه (٧٨) . مع احتمال أن يكون أصل التسمية من دلالة الكلمة على شدة الصوت، كما يراها ابن الحاجب بقوله: « من قولهم: قلقله إذا حرّكه» (٧٩) .

ولا تضفي القلقلة على الأصوات المقلقلة خصوصية لازمة لها ذات تأثير في المعنى وتوجيه له، مما تقتضيه وظيفة الوحدة الصوتية المميزة (٨٠) .

وأخيرًا، يكشف التسطيح اللغوي السابق لأصوات القلقلة في الدرس السامي اختلاف علماء اللغة،قدماء ومحدثين، في تحديد بعض مخارج الأصوات وصفاتها، الأمر الذي يستدعي الوقوف عند قلقلتها. فقد اتفق علماء اللغة، قدماء ومحدثون، على جهر صوتي الباء والدال، في حين اختلفوا في جهر االقاف والطاء والجيم، فبينما يشير القدماء إلى جهر هذه الأصوات، يرى المحدثون أنها مهموسة. عندئذٍ تكون القلقلة خاصة بصوتي الباء والدال فقط من وجهة نظر المحدثين، وتكون فيها جميعها في نظر القدماء. فالصفة الانفجارية سبب في حدوث القلقلة، وقد فسّر إسماعيل عمايرة (٨١) عدم حدوث القلقلة في بنية الأصوات الانفجارية الأخرى؛ الهمزة والكاف والتاء و الضاد، فكفانا مؤونة بحثها هنا.

ويبدو أنّ هذا الخلاف يعود إلى البعد الزمني بين فئتي العلماء، فالمحدثون يجدون تنوعات نطقية لهذه الأصوات، وتباينًا بينها وبين وصف القدماء لها، الأمر الذي استدعى مثل هذا الخلاف، من جهة أخرى ربما لا تسعف الكتابة القدماء؛ ليصفوا تلك الاصوات، لذا– ربما – جانبت الدقة وصفهم لها مئة بالمئة. وعليه يمكن القول: إنّ القطع في تحديد المنطوق الأصلي (الأول) والوصف له من القدماء ثم المحدثين من الصعوبة بمكان، إذ المحدِّد لهذا الأمر في الحقيقة هو السماع، وهو أمر يستحيل الآن.

هذا التعدد النطقي لهذه الأصوات يجعل احتمالية تعالق اللغات السامية بعضها ببعض، أو يجعل وجود لغة أم لتلك اللغات وبقية اللغات أفرع لها أمرًا ليس ببعيد. لكن

الصعوبة في معرفة تلك اللغة الأقدم ساميًا بناءً على هذا التعدد النطقي. وإبداء الرأي هو القائم في ظل هذا التشابك في الأفكار القاطعة بالأمر. ولعل الانتباه إلى هذا التشابه وتلك الصلات بين اللغات السامية يشكل جانبًا من المعرفة اللغوية للغويين العرب، فلو كان ذلك هدف البحث لكفى، لكن الحقيقة أنّ مثل هذا البحث يقربنا من الوصول إلى حقيقة العلاقات بين فروع اللغات السامية، في ما هو يقربنا بالتفسير الوصول إلى النطوقات الأولى لتلك الأصوات.

كما أنّ التسطيح يكشف عن ندرة الدراسات الصوتية في اللغات السامية، بآية ما قدمناه في البحث من نصوص علمائنا توضح أنّها موجودة في العربية والسامية ومتأكدة جدًا. والمثاقفة حولها إنما هي مثاقفة تخصيصية جدًا بين ذوي البصائر في اللغة، أو من هم مقاربون لهم في السامية.

وكذا ينتهي ما أردنا عرضه، فنحن لا نريد فيه قطع القول، وإنّما نقتصر على ما نظفر به بالبسط والطريقة والنهج حول موضوع: التنوعات النطقية السامية للأصوات اللغوية المقلقلة.

الخاتمة:

أصوات (قطب جد) ظاهرة صوتية، يلجأ إليها المشرّع الصوتي في دراسة ما يسمى (القلقلة) ، فهي عمل مشروع في وحدتها؛ لاتصالها في كثير من شمائلها، إلّا أنّ طرحها ساميًا مازال فتيًّا. ولا يقل لفت النظر إلى قضية ما عن البحث عميقًا فيها، فأحايين كثيرة يبقى الموضوع غائبًا عن البحث رغم الوقوف عنده مرارًا، لذا كان هذا البحث في هذا المجال مصرّعًا لمفاهيم تلك الأصوات المعنية فيه، من اتفاق واختلاف، قديمًا أو حديثًا، **ومبرزاً قضايا مهمة منها**:

١. اتفاق علماء اللغة، قدماء ومحدثين، في تحديد مخارج بعض هذه الأصوات واختلافهم في بعضها.

٢. وصف هذه الأصوات في النطق العربي والسامي قد يصل بنا إلى الأصل المشترك.

٣. أصابت التغييرات التاريخية هذه الأصوات فولّدت التنوع النطقي لها.

٤. اتفاق اللغات السامية في بعض الأصوات كالدال والطاء والقاف.

٥. لا تضفي القلقلة على هذه الأصوات خصوصية مرتبطة بالمعنى.

٦. القلقلة خاصة بصوتي الباء والدال فقط من وجهة نظر المحدثين.

الهوامش:

1. ينظر، سيبويه: الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢، ٤/ ٤٣٣.
2. ينظر، ابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٩٥٤، ١/ ٥٣.
3. ينظر، ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب الحديث، بيروت، ١٠/ ١٢٤.
4. ينظر، إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٢، ص٤٥.
5. ينظر،كمال بشر، علم اللغة العام(الصوتيات) ، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥، ص١٠١.
6. ينظر، السابق،ص١٠١.
7. ينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٢، ص٤٢.
8. ينظر، كمال بشر، الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٠١.
9. جان كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة: صالح القرمادي، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٦٦،ص٤٢.
10. هنري فليش، العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص٣٨.
11. كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، السعودية، ١٩٧٧، ص٥١.
12. إسماعيل عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، دار وائل، عمان، ط٢، ٢٠٠٣، ص١٩٥.
13. بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٣٩.
14. ينظر، رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص١٧.
15. ينظر، سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٣.
16. ينظر، ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٥٢.
17. ينظر، ابن يعيش، شرح المفصل، ١٠/ ١٢٩.
18. ينظر، كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص١٠٧.

١٩. ينظر، برجشتراسر، التطور النحوي، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٣، ص١٢،١٥.

٢٠. ينظر، كمال بشر، علم اللغة العام، ص١٠٩.

٢١. ينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص٥٤،٧٨.

٢٢. ينظر، كمال بشر، علم اللغة العام،ص١١٠، ورمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة،ص٥٤.

٢٣. ينظر، كمال بشر، علم اللغة العام، ص١١٠.

٢٤. ينظر، عبد القادرعبد الجليل، الأصوات اللغوية، دار صفاء، عمان، ط١، ١٩٩٨، ص١٨٠.

٢٥. كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص١٠٧.

٢٦. ينظر، مصطفى حركات، الصوتيات والفنولوجيا، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٢٠.

٢٧. يحيى عبابنة، النظام اللغوي للهجة الصفاوية في ضوء الفصحى واللغات السامية، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٧، ص١٣٥.

٢٨. بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٣٩.

٢٩. السابق، ص١٦.

٣٠. السابق، ص٤٨.

٣١. محمد القماطي، الأصوات ووظائفها، ص٦٥

٣٢. هنري فليش، العربية الفصحى، ص٣٨.

٣٣. كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص٣٥.

٣٤. ينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص٢٢٢، والتطور اللغوي، ص٢٠.

٣٥. ينظر، محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، مكتبة غريب، القاهرة،ص١٤١، وينظر، حازم كمال الدين، دراسة في علم الأصوات، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤٦.

٣٦. الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ط٣، ١٩٩٢، ص٤٢.

٣٧. سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣١.

٣٨. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٥٢.
٣٩. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٧٧.
٤٠. كمال بشر، الأصوات العربية، ص٩١.
٤١. هنري فليش، العربية الفصحى، ص٣٨.
٤٢. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص٢٢١.
٤٣. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٦٩.
٤٤. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٧٨.
٤٥. السابق، ص٧٧.
٤٦. ينظر، كمال بشر، علم اللغة العام، ص٩٠، وعبد القادرعبد الجليل، الأصوات اللغوية،ص٧٦.
٤٧. ينظر، أنوليتمان، بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، كجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، م ١٠، ج١، ١٩٤٨، ص١– ٢، وينظر، برتيل مالبرج، علم الأصوات، تعريب: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٤، ص١١٣.
٤٨. رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص٩٢.
٤٩. ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧، ص١٤٤.
٥٠. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص٢٢١. والتطور اللغوي، ص٩٢.
٥١. يحيى عبابنة، النظام اللغوي للهجة الصفاوية، ص٦٨.
٥٢. كانتينو، دروس في علم أصوات العربية، ص٨٨.
٥٣. بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٣٩.
٥٤. سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٣.
٥٥. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٥٣.
٥٦. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٤٨.
٥٧. كمال بشر، علم اللغة العام، ص١٠٢.
٥٨. ينظر، إبراهيم أنيس، الاصوات اللغوية،ص٤٨. وكمال بشر، الاصوات العربية، ص١٠٢.
٥٩. ينظر، يحيى عبابنة، النظام اللغوي للهجة الصفاوية، ص٨٤.

٦٠. ينظر، رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص٢١٧.

٦١. ينظر، نولدكه، اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص٣٠.

٦٢. ينظر، بروكلمان، فقه اللغات السامية، ص٣٩.

٦٣. سيبويه، الكتاب، ٤/ ٤٣٣.

٦٤. ابن جني، سر صناعة الإعراب، ١/ ٥٣.

٦٥. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٦١.

٦٦. كمال بشر، الأصوات العربية، ص١٠٢.

٦٧. برجشتراسر، التطور النحوي، ص١٢.

٦٨. ينظر، سيبويه، الكتاب،٤/ ٤٣٤. وابن جني، سر صناعة الإعراب،١/ ٦٨.

٦٩. ينظر، إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية،ص٦٣. وكمال بشر، الأصوات العربية،ص١٠٢. وبرجشتراسر، التطور النحوي، ص١٦.

٧٠. ينظر، كمال بشر، الأصوات العربية، ص١٠٣.

٧١. ينظر إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص٦٢.

٧٢. محمود فهمي حجازي، علم اللغة العام، ص١٤١.

٧٣. حازم كمال الدين، دراسة في علم الأصوات،ص٤٦، وينظر في هذا المعنى،رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة،ص٢١٧.

٧٤. ينظر، محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢، ص١٦٦،١٧١.

٧٥. سيبويه، الكتاب، ٤/ ١٧٤.

٧٦. محمد القماطي، الأصوات ووظائفها، منشورات جامعة الفاتح،١٩٨٦، ص٥٩.

٧٧. كمال بشر، الأصوات العربية، ص١١٦.

٧٨. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة(قلل) .

٧٩. ابن الحاجب، الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق: موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، الكتاب الخمسون، ٢/ ٢٨٨.

٨٠. ينظر، محمد القماطي، الأصوات ووظائفها، ص٦٠.

٨١. ينظر، إسماعيل عمايرة، بحوث قي الاستشراق واللغة، ص٢١١.

المصادر والمراجع:

١. ابن جني، أبو الفتح، سر صناعة الإعراب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٥٤.

٢. ابن الحاجب، أبو عمرو، الإيضاح في شرح المفصل، تحقيق: موسى بناي العليلي، مطبعة العاني، بغداد، الكتاب الخمسون.

٣. ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

٤. ابن يعيش، أبو البقاء، شرح المفصل، عالم الكتب الحديث، بيروت.

٥. أنوليتمان، بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة.

٦. أنيس، إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٢.

٧. برجشتراسر، التطور النحوي، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٣ .

٨. بروكلمان، كارل، فقه اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، السعودية، ١٩٧٧.

٩. بشر، كمال،

* الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٧.

* علم اللغة العام(الصوتيات) ، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥.

١٠. البكوش، الطيب، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، ط٣، ١٩٩٢.

١١. حجازي، محمود فهمي، علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، مكتبة غريب، القاهرة.

١٢. حركات، مصطفى، الصوتيات والفنولوجيا، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

١٣. السعران،محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢.

١٤. سيبويه،عمر بن قنبر،الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢.

١٥. عبابنة، يحيى، النظام اللغوي للهجة الصفاوية في ضوء الفصحى واللغات السامية، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٧.

١٦. عبد التواب، رمضان،

* التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٩٨٢،١.

١٧. عبد الجليل، عبد القادر، الأصوات اللغوية، دار صفاء، عمان، ط١، ١٩٩٨.

١٨. عمايرة، إسماعيل، بحوث في الاستشراق واللغة، دار وائل، عمان، ط٢، ٢٠٠٣.

١٩. فليش، هنري، العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، دار المشرق، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.

٢٠. القماطي، محمد منصف، الأصوات ووظائفها، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٨٦.

٢١. كانتينو، جان، دروس في علم أصوات العربية، ترجمة: صالح القرمادي، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٦٦.

٢٢. كمال الدين، حازم، دراسة في علم الأصوات، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٩.

٢٣. ماريوباي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٨٧.

٢٤. مالبرج، برتيل، علم الأصوات، تعريب: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٤

٢٥. نولدكه، تيودور، اللغات السامية، تخطيط عام، ترجمة: رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣.

أسماء مدينة القدس ودلالاتها
في لسان العرب

د. عبد الرؤوف خريوش*

* أستاذ مشارك في علوم اللغة العربية (الصوتيات)/ منطقة نابلس التعليمية/ جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

يتحدث هذا البحث عن أسماء مدينة القدس ومعانيها في لسان العرب، فللقدس مسميات عدة، سُميت بها من قبل ملك، أو أمة، أو قبيلة، أو ماثور ديني. هذه الأسماء منها ما ورد في لسان العربي، ومنها ما ورد في مصادر اخرى، وقد وردت القدس في اللسان باسماء عدة حملت أكثر من معنى، مصدره بذلك القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وأشعار العرب، والأقوال المأثورة، والمعاجم التي اعتمدها صاحب اللسان، وقد تطورت هذه الأسماء مع الزمن؛ لتتصل اليوم إلى الاسم الأكثر شهرة وتداولاً، وهو اسم (القدس).

فهي، أي القدس مدينة السلام، ومسرى الرسول الكريم، وأرض الأنبياء، قامت على أرضها حضارات للأمم قديمة تركت بصمات واضحة تجلت بأسماء مدينة القدس، فكل أمة أو حضارة أطلقت على القدس اسما معينا لملك لها، أو لواد، أو لباب، أو لشارع أو لجبل.

ولأهمية القدس في ظل الصراع القائم بين حضارة القوة، وقوة الحضارة، ولمكانتها عند الباحثين، والعلماء قديما وحديثا، فقد ذكرت بأسماء مختلفة في لسان العرب، وظَّفها صاحب اللسان كشواهد على مدينة القدس ومعانيها.

Abstract:

This research deals with the different names of Jerusalem City with reference to Lesan Al Arab. Jerusalem city, in fact, has several names and of them were given to the city by kings, nations, tribes and others have religious connotations. These names were mentioned in Lesan Al Arab and the rest were mentioned in other sources. The names of Jerusalem in Lesan Al Arab, have different meaning s. the source of these names is the Holy Quran, Al Hadith, the poetry and the saying of the Arabs. and the Dictionaries Adopted by the tongue. These names developed in time and scholars and thinkers kept on amending the name till they agreed upon the most famous and well known name, Jerusalem

Jerusalem occupies a very important place in history because it is the city of peace, the land of prophets and the place where Prophet Mohammad flew to from Mecca. Moreover, its importance also lies from the fact that it is considered as the land of civilizations which left their marks upon the city and its culture giving Jerusalem different names. Due to the importance of the city in the of the conflict between the civilization of force and the force of civilization as well as the cities importance for the researchers of the past and the present , the city was given a number of different names in Lesan Al Arab.

أهدف البحث:

هدفت هذه الدراسة إلى التعرف إلى أسماء مدينة القدس في لسان العرب، كذلك التعرف إلى المواضع التي وُظفت كشواهد على مسمياتها ومعانيها. كما هدفت إلى التوصل إلى أكثر الأسماء تداولا وشهرة للمدينة.

أما المنهج الذي اتبعه الباحث فهو الوصفي، ليقف على الشواهد التي تدلل على المعاني من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأبيات شعرية، وأقوال ماثورة، كما عمد الباحث إلى تخريج معظم الشواهد من مظانها، فصاحب اللسان كان لا يعبأ بتخريج الحديث من مصدره، ولا الآية من سورتها، ولا التعريف بأسماء العلماء الذين استشهد بآرائهم، فشكل ذلك عبئا على الباحث، فقام بتخريج كل الشواهد وردها إلى مظانِّها، ومعرِّفا بأسماء العلماء الذين وردت أسماؤهم في شواهده.

كما عمد الباحث إلى الأسماء التي وردت في مصادر عربية أخرى، وقارنها بما هو موجود في اللسان، وقصرها عليه، ثم بحث عن هذه المسميات للمدينة، في اللسان فتتبع ما يدلل عليها من اسم لجبل، أو واد، أو اسم ملك، أو معنى حملته من قول ماثور. وهذا يتطلب من الباحث العودة إلى بعض المصادر التي تدلل على المعنى وتدعِّمه؛ ليصل إلى أكثر السماء تداولا وشهرة؛ وليضحض مقولة (نتينياهو) بعدم ذدرها في القرآن.

أما النسخة التي اعتمدها الباحث للسان العرب، فهي نسخة بيروت: دار صادر، لسنة ٢٠٠٠، والمحققة وفق الترتيب الذي تسير عليه المعاجم الحديثة؛ وهو اعتماد الحرف الأول من الكلمة، أي إذا أردنا أن نخرِّج مادة (قدس)، فأننا نخرِّجها من باب القاف وليس من باب السين

مقدمة البحث:

تعدُّ مدينةُ القدسِ قلبَ الأمتين العربيةِ والإسلاميةِ النابض، فهي ساكنةٌ في سويداء كلِ مؤمنٍ موحدٍ بالله تعالى من مختلفِ الأديان، وما يُميزُها أنَّها كانت قبلةً للحجيج، فهي مدينةُ الأديانِ الثلاثة، مساحة قلبها كيلو متر مربع واحد، تشكل للمسلمين مسرى محمد (صلى الله عليهِ وسلم)، ومدينةَ رسول السلام المسيح، عليه الصلاة والسلام، منها تبدأُ الحربُ، ومنها يبدأُ السلام، وهي لمكانتها أكبرُ من أنْ تُختصرَ بكلماتٍ أو أسطرٍ صماء لقارئٍ ينظرها بقلبه، فهي شامخةٌ بشموخ المتعبدين بمساجدها ومعابدها وكنائسها.

ولعل الدافعَ وراء كتابة هذا البحث جملةٌ استفزت الباحث، قالها رئيس وزراء العدو (إسرائيل) (نتنياهو) (١٢- ٥- ٢٠١٠) في احتفالهم بنكبتنا، وهي: « أنَّ القدسَ غيرُ مذكورة في القران الكريم، نافيا الرباط المقدس للعرب والمسلمين في القدس، وأضاف قائلاً: إنَّ هناك رابطاً وشائجيا بين اليهود والقدس، فهي العاصمة الوحيدة لليهود، وهي التي ذكرت في التوراة عشرات المرات، لكنَّها لم تذكر في القرآن ولو مرة واحدة"

وكمواطن يعيش بأكناف بيت المقدس، ومن أهلها الصابرين الحالمين بأنْ يوسمَ جبينه ببلاط صحنها المقدس، قبل أن يطويه الثرى، ويطوي حُلمَ آلاف المؤمنين المحرومين من الاقتراب منها، شعر الباحثُ بثقل هذه الغطرسة على نفسه، وتساءل: إذا كانت القدس لم تذكر مباشرة باسمها في القرآن الكريم، فهل هذا يقاسُ على كتب العربية؟ وكون لسان العرب من أهم كتب العربية، جمع الباحثُ همته باحثاً ومقلباً بين صفحاته، عن شواهد تدلل على أسمائها ومدلولاتها في التاريخ، لعله يجدُ حجةً ودليلاً لغويا يدللُ على الوشائج القوية بينها كمدينة الضياء وبين العرب والمسلمين، ترفعُ من معنويات الأمة، أمام غطرسة لم يشهد لها التاريخ مثيلا. فالقدسُ هي حلم كل مسلمٍ وعربي، وهي نبضُ العشق في صدورهم جميعا، إنَّها مدينة الميلاد والمسرى

واليوم تشكلُ القدسُ، مدينةَ الأنبياء، ومدينة البشر والمتطهرين أجمعين، يأتون إليها من كل أصقاع الدنيا، تصديقا لقوله تعالى « يَا قَوْم ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ **اللهُ** لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ) [المائدة: ٢١]، وقد حثَّ صلى **الله** عليه وسلم على إتيانه والصلاة فيه « ففي حديثِ ميمونة بنت الحارث (ت ٥١هـ) رضي **الله** عنها – وهي مولاة النبي– صلى **الله** عليه وسلم– أن الرسول حثٌ على إتيان بيت المقدس ومسجدها الأقصى وإكرامه بالصلاة فيه، أو بإرسال الزيت للإسراج في قناديله وإضاءته. " قالت: يا رسول **الله** أفتنا في بيت المقدس، فقال: "ائتوه فصلّوا فيه؛ فإن لم تأتوه وتصلّوا فيه، فابعثوا بزيت يسرج في قناديله" وفي رواية أخرى: " يَا نَبِيَّ **اللَّه** أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ: أَرْضُ الْمَنْشَرِ وَالْمَحْشَرِ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاةً فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، قَالَتْ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يُطِقْ أَنْ يَتَحَمَّلَ إِلَيْهِ، أَوْ يَأْتِيَهُ، قَالَ: فَلْيُهْدِ إِلَيْهِ زَيْتًا يُسْرَجُ فِيهِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَهْدَى لَهُ كَانَ كَمَنْ صَلَّى فِيهِ.» (١)

ورغم ذلك فقد ضاقت القدس على أصحابها وساكنيها، فلم يعد بإمكانهم الدخول إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة فيه؛ فأمسى مواطنُها غريباً عنها. فكيف ذكرت القدس في لسان العرب، وما مسمياتها ومدلولاتها؟ و قبل البدء لا بدَّ من التعريف بمدينة القدس جغرافيا وسكانيا.

موقع مدينة القدس الجغرافي:

تقع القدس في قلب فلسطين، وعلى خط طول (٣٥) شرقي خط غرينتش، وعلى خط عرض (٣١) شمالا، وترتفع (٨٥٠) مترا عن سطح البحر . وبنيت المدينة على تلال: الظهور المطلة على قرية سلوان، وكانت تعرف بتل (أوفل) ، الذي سُكن منذ العصر الحجري، وعلى تل الصخرة، وهو التل الذي بُني عليه الحرمُ القدسيُ الشريف، وهو أعلى تلال مدينة القدس، وجبل (صهيون) المطل على قرية سلوان، وتل (زيتا)، الممتد من باب الزاهرة إلى باب العامود، وتل (أكرا)، بالقرب من كنيسة القيامة .

والمدينة موقع حصين، محوط بالأودية، شرقاً، وغرباً، وجنوباً، ، كما توجد برك وآبار، منها: بركة سلوان، وبئر أيوب، والبركة الحمراء، .

سكانها الأوائل:

سكنت منطقة جبال القدس على مر العصور أممٌ وقبائلُ مختلفة؛ ففي **العصر الحجري القديم** الممتد من (١٥٠٠٠٠ – ١٢٠٠٠ق.م) سكن المنطقة إنسانُ (الكرمة) نسبة إلى إنسان فلسطين، ويُنسب إلى الإنسانِ العاقل المنسوب إلى جنسي (النياندرنال)، و (الكرومانيون). وفي **العصر الحجري الوسيط** الممتد من سنة ١٢٠٠٠ – ٧٠٠٠ ق.م بدأ إنسان فلسطين بالتحول التدريجي فعرفَ زراعةَ القمح والشعير، وهي تُعرف بالحضارة النطوفية .

أما في **العصر الحجري الحديث** الممتد من سنة (٧٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق.م)، فقد بدأت السلالاتُ الساميةُ بالظهور، وتميزت بالبناءِ الفخاري، والمعابدَ الدينية والإشاراتِ الكتابية، وُعرفت هذه الحضارة بالحضارة الطاحونيةَ [١٠].

أما في **العصر الحجري النحاسي**، الممتد من سنة (٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ق.م)، فقد عرف الإنسانُ الفلسطينيُ النحاسَ، وتميز بأنَّه إنسانُ البحر الأبيض المتوسط، ثم هبطت عليهم أجناسٌ بشريةٌ من مرتفعات آسيا، فاختلطت بهم، وأقامت معهم حضارتها [١١].

وفي **العصر البرونزي قديمه ووسطه وحديثه**، والممتد من سنة (٣٠٠٠ – ١٢٠٠ق.م)، سكنت فلسطين القبائلُ الكنعانية: الآموريون، واليبوسيون (الذين بنوا مدينة القدس)، والعناقيون، والفينيقيون، والحوثيون، والفرزيون، والعمالقة، وأسسوا مُدن: أريحا، والخليل، ومجدو، ونابلس، والسبع وغيرها؛ كما سكنتها الأمم:، الهكسوس، والأنباط، والأراميون، والحوريون والقبائل البلستينية، والعبرانيون؛ ثم عقبهم الرومان، والأشوريون، والفارسيون، [١٢].

أسماء مدينه القدس:

للقدس أسماء كثيرة، وضعتها الأمم الماضية، وسمتها بأسماء لها لتدلل على حضارتها، وهذه المسمياتُ المُختلف في عددها باختلاف المصادر، تؤكد على علو المدينة ومكانتها بين الأمم، **ومن هذه الأسماء**: مدينة السلام، ويبوس، وإيلياء، و بيت المقدس، و أورى سلم، وصهيون، والقدس، والقدس الشريف، وأيفن، وكيلة، وشهر شلايم، وأنتوفيا، ومدينة الأنهار، وأريانة، ونور مستك، وأيليا كابتلونيا، ومدينة الوديان، وجبستي، وراشاليم، ونور السلام، واوقل، ونور الغسق، ويورسلمايا، وميلو، ويارة، ويهوستك، وأكرا، وغيرها كثير، وقد ذكر العسقلاني أنَّ للقدسِ أسماء عدَّة تقرب من العشرين اسما [١٣]، منها ما ذكره صاحب اللسان، ومنها ما لم يذكره، وسيحاول الباحث هنا أن يطابق بين الأسماء التي ذكرها صاحب اللسان، وكتب التاريخ، ليصل إلى أكثر الأسماء أهمية للمدينة.

شواهد مدينة القدس في اللسان ودلالتها:

ذكر صاحب اللسان أسماء عديدة لمدينة القدس، استشهد بها في معجمه، منها ما دلَّ عليها بأسمائها، ومنها ما دل عليها بأسماء جبالها وسهولها ووديانها وأبوابها، جُلها تتطابق مع الأسماء المتداولة على ألسنة بني البشر، من عرب وعجم، ومسلمين ويهود ونصارى، **ومن أهم الشواهد التي تدلل على أسمائها التي أوردها صاحب اللسان في معجمه مرتبة ترتيبا هجائيا**:

♦ **أور سالم** (**مدينة السلام**) وهو أقدمُ اسم للمدينة المقدسة عرفه البشر، وقد وضعه لها أقدم من سكنها من العرب، وهم الكنعانيونً، ونسبوه إلى: (سالم أو شالم)، وهو إله السلام عندهم، وكلمة (أور) سومرية ومعناها (مدينة). وقد ذكرها الأكاديون باسم (أور سالم). وفي نقش مصري قديم، يرجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ورد اسمها (أو شاميم Aushamem)، وفي التوراة وردت بلفظ (شالم)، وتلفظ بالعبرية (يروشالايم). وذكرها اليونانيون، واللاتينيون باسم (هيروسوليما Hierosolyma)، وكل هذه التحريفات للاسم جاءت من الاسم الأول الكنعاني العربي (أورسالم، أورشالم) [١٤]

وفي اللسان وردت (أور سالم) تحت مادة (أور): الأُوارُ: بالضم تعني الحر الشديد، وقد ورد عن علي، كرم **الله** وجهه، (ت ٤٠ هـ) قوله: " فإنَّ طاعة **الله** حرز من أوار نيران موقدة " [١٥]. وورد عن الكسائي (علي بن حمزة ت ١٩٢هـ) قوله: ألأُوار مقلوب أصله أَلْوُآر، ثم خففت الهمزة فأُبدلت في اللفظ (واواً) فصارت (وواراً)، فلما التقت في أول الكلمة واوان، وأُجري غير اللازم مجرى اللازم، أبدلت الأولى همزة فصارت (أُواراً)، والجمع (أُورٌ). ويقال أيضا يوم ذو أُوار، أي ذو سموم وحر شديد [١٦]

وجاءت اللفظة لتدل على مسميات عدة لبيت المقدس، كما دلل عليها صاحب اللسان باسم موضعين في القدس، هما (آرة) و (أُوارة) مستشهدا ببيت من الشعر، لم يَذكر صاحبه[١٧]:

عَـداويــةٌ هـيـهات منـك مَحلُّها
إذا ما هي احتلت بقدس وأرت

ويروى: بقدس أُوارة. عداوية: منسوبة إلى (عدي) على غير قياس [١٨]. وفي حديث عطاء: أبشري (أُوري شَلَّمَ) براكب الحمار، يريد سيدنا عيسى عليه السلام، وتكملته، ويأتيك بعده راكب البعير، يريد سيدنا محمد صلى **الله** عليه وسلم، وعنى بقوله (شَلَّمَ) بيت **الله** المقدس [١٩]. وقال الأعشى (ميمون بن قيس بن جندل، أبو بصير، ت ٧ق.هـ، ٦٢٨م):

وقد طُفتُ للمالِ آفاقَهُ: عُمان فَحِمصَ فأُورى شَلَم

يريد مدينة (شلم) أي القدس، والمشهور (أُورى شَلَّم) بالتشديد، فخففه الشاعر هنا للضرورة، وهو اسم بيت المقدس. وجاء في الكتاب « وإن سميت رجلا ببَقَّم و شَلَّم (وهو بيت المقدس) لم تصرفه [٢٠]

ومن شواهد اللسان للاسم روايته بالسين المهملة، « ورواه بعضُهم بالسين المهملة وكسر اللام كأنَّه عرَّبه، وقال (الكلام منسوب لشاهد صاحب اللسان): معناه بالعبرانية (بيت السلام). وروي عن كعب « أنَّ الجنَّةَ في السماءِ السابعةِ بميزان بيت المقدس والصخرة، ولو وقع حجر منها، وقع على الصخرة؛ ولذلك دُعيت (أُورشَلَّم)، ودعيت الجنة دار السلام.»[٢١]، وقوله هنا بميزان؛ أي أنَّ السماء السابعة تكون عمودية على درجة (٩٠) مع بيت المقدس. وقد بين ذلك سابقاً الحديث الشريف الذي حدد مركزية بيت المقدس، ففي حديث مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ): «صخرة بيت المقدس وسط الدنيا»، وفي رواية أخرى، أنَّ النبي أجاب عن سؤال عبد **الله** بن سلام عن سبب تسمية المسجد الأقصى، فقال: [لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئاً ولا ينقص] [٢٢].

وارتفاع موقع الصخرة عن الأرض، ما هو إلاّ ارتفاع مادي يرمز لرفعتها الروحية، واقترابها الرمزي إلى السماء، فيروى عن الكلبي (هشام بن محمد بن السائب ت ٢٠٤هـ) أن الصخرة «هي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، وروي عن علي بن أبي طالب، وعن ابن عباس وحذيفة: "إن المكان القريب إلى السماء هو صخرة بيت المقدس" [٢٣].

♦ **إيليا**: يألو ألواً و أُلُوًّا و أُليّا و إليّا (بالقصر)، وأَلَّىّ يؤلي تألية و وأْتلى ، وتعني أقصرَ وأبطأ، كقوله تعالى ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ آل عمران: ١١٨. وبنفس المعنى وردت

اللفظةُ في الحديث الشريف، في حديث زواج علي كرم **الله** وجه من فاطة الزهراء (ت١١هـ) رضي **الله** عنهما « قال النبي صلى **الله** عليه وسلم لفاطمة «ما يبكيك فما أَلَوتُك ونفسي، وقد اصبت لك خير أهلي» أي ما قصرت في أمرك [٢٤]، والروايات عن ابن عباس. وباللفظ نفسه نهى الرسول عن تسمية بيت المقدس باسم إيلياء، ودعا إلى تسميته باسمه [٢٥]. وقال الجعدي (قيس بن عبد**الله** بن عُدس بن ربيعة ت ٥٠هـ):

وأشمط عُريانٍ يُشدُّ كِتافه يُلامُ
على جَهدِ القتال وما ائتلى

ومن معانيها: العود، فقد مرَّ أعرابي على النبي ـ صلى **الله** عليه وسلم ـ وهو يدفن فقال «

ألا جعلتم رسول الله في سفط
من الألُوةِ، أحوى مُلبَسا ذَهَبا

وبالموضع نفسه استشهد صاحب اللسان ببيت حسان بن ثابت (ت ٥٤هـ):

ألا دفنتم رسول الله في سفط
من الألوة والكافور منضود [٢٦]

وإليّا من أسماء مدينة القدس، وردت في كتب التاريخ، وأول من أطلقه الآمبرطور الرومان ي (هدريان) سنة (١٣٥م) و (إليّا) اسم جد عائلة الامبرطور، أو اسم عائلته، وبقيَ هذا الاسمُ شائعاً حتى الفتح الإسلامي؛ حيث ذُكرَ في العهدة العمرية التي كتبها الخليفة الراشد عمر بن الخطاب لأهل القدس. [٢٧]

وفي اللسان وردت (إليّاءُ)، وهي مدينةُ بيت المقدس، و (إليّا) اسم رجل، والمِئلاة بالهمز على وزن المِعلاة: وتعني الخرقة التي تمسكها المرأة عند النوح، والجمع (المآلي). وفي حديث عمر بن العاص (ت ٤٣ هـ): إني و**الله** ما تبطئني الإماء، ولا حكلتني البغايا في غبرات (المآلي). [٢٨]

كما ذكر صاحب اللسان أنَّ (إيلياء) وردت في مادة (أيل)، و (أيل) تعني اسما من أسماء **الله** الحسنى قال الكلبي: وقولهم جبرائيل وميكائيل وشراحبيل وإسرافيل وأشباهها، إنما تنسب إلى الربوبية؛ لأنَّ (إيلا) لغة في (إل) ؛ وهو **الله** عز وجل كقولهم: عبد **الله**، وتيم **الله**؛ فجبر، عبد مضاف إلى (إيل)، وقال منصور (أبو منصور مسلم بن علي ابن السيحي الموصلي ت ٣٩٠هـ): جائز أن يكون (إيل) أعرب فقيل (إل). أما (إيلياء) فعنى بها تحت هذه المادة مدينة بيت المقدس، وقال: ومنهم من يَقصر الياء فيقول (إلياء)، وكأنهما روميان؛

واستشهد على اسم (إلياء) بقول الفرزدق (همام بن غالب ت ١١٤هـ) [٢٩]:

وبيتان بيت الله نحن ولاته
وبيت بأعلى إيلياءَ مشرف

وفي الحديث: أن عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) رضي الله عنه أَهَلَّ بحَجَّةٍ من (إيلياء) ؛ هي بالمد والتخفيف اسم مدينة بيت المقدس، وقد تشدد الياء الثانية وتقصر الكلمة، وهو معرَّب، و (أيلة) قريةٌ عربيةٌ، ورد ذكرها في الحديث، وهي بفتح الهمزة، وسكون الياء، البلدُ المعروف فيما بين مصر والشام. كما استشهد صاحب اللسان بهذا الاسم ليدلل به على اسم جبل، قال الشماخ (معقل بن ضرار بن سنان بن أمامه ت ٣٠ هـ):

تَرَبَّع أكناف القنان فصارة
فأَيَّل فالماوان، فهو زهوم

وهذا بناء نادر كيف وزنته لأنَّه (فَعَّلٌ) أو (فَيْعَل) أو (فَعْيَل) فالأول لم يجيء منه ُإلاَّ بَقَّم، وشَلَّم (دلالة على اسم مدينة القدس). [٣٠]

♦ **بيت السلام**، وعنى بها بيت المقْدس، وقد أورد لكلمة (البيت) معانيَ كثيرة منها: بيت الشعر، والمبنى، وبيت الصوف، أو الشَعَر، أو القصب، والمسجد، وبيت الشرف تقال لأشراف العرب كقولهم (بيت تميم)، و (عيال الرجل)، والمرأة، والتدبر كقولهم: «هذا أمرٌ دُبرَ بليل»، والمبيت (النوم)، والإتيان في الليل، وفي اللسان وردت أيضا تحت مادة (أور) معرّبة عن اللفظ العبري (اورى شَلّم) [٣١].

♦ **بيت المقدس**: وهي من المدن القديمة التي ورد ذكرها في النقوش والآثار قبل الميلاد، وقد سكنتها أقوامٌ عديدةٌ مثل العرب اليبوسيين، واليهود وغيرهم. وبعد الميلاد، ازدادت أهميةُ بيت المقدس الإدارية وتوسعت حدودها تدريجيا. فهي تمتد للغور شرقا، وتعد حدودا للغور الممتد ما بين بيت المقدس ودمشق. وعلى يد الرومان بدأت فيها تحولات عمرانية كبيرة؛ فظهرت فيها الحماماتُ، والشوارعُ، والساحاتُ، والأسواقُ، كما أعيد بناءُ بعضِ أسوارها القديمة، وفي الفترة نفسها تعرضت للتدمير على يد الإمبراطور الروماني (تطيس) سنة (٧٠ق. م) [٣٢].

ومعنى بيت المقْدس بسكون القاف، وبفتحها مع التشديد (المقُدَّس). وقد جاء ذكره في حديث الإسراء والمعراج الذي رواه مسلم « أُتيتُ بالْبُرَاق وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَويلٌ فَوْقَ الْحِمَار وَدُونَ الْبَغْل يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفه قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدس قَالَ فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَة الَّتِي يَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ قَالَ ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيه رَكْعَتَيْنِ... ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ..) [٣٣]. وقد ذكره النووي في شرح مسلم: « أما بيت المقدس، ففيه

لغتان مشهورتان غاية الشهرة: إحداهما بفتح الميم وإسكان القاف وكسر الدال المخففة (المَقدس) والثانية: بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة (المُقدَّس). وقال الواحدي (علي بن أحمد النيسابوري ت ٤٦٨هـ): أما مَن شدد فمعناه المُطَهّر؛ وأما من خففه فقال أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ): لا يخلو، إما أن يكون مصدرا، أو مكانا؛ فإن كان مصدرا كان كقوله تعالى ﴿إليه مرجعكم﴾ يونس: ٤ ونحوه من المصادر؛ وإن كان مكانا، فمعناه بيت المكان الذي جُعل فيه الطهارة، أو مكان بيت الطهارة، وتطهيره تعني: إخلاءه من الأصنام وإبعاده عنها. وقال الزجاج (أبو إسحاق ت ٣١١هـ): «البيت المقدس المُطهر. وبيت المقدس المكان الذي يُطهَّر فيه من الذنوب» (٣٤)

ولم تُذكر مباشرة في القرآن الكريم، إنما وردت بأسماء أخرى منها: المسجد الأقصى كقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ الإسراء: ١. وفي الحديث الشريف ورد بيتَ المقدس صراحةً باللفظ نفسه، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إنَّ مَكَّةَ بلدٌ عظَّمه اللهُ وعظَّمَ حرمته، وحفَّها بالملائكة قبلَ أن يخلقَ شيئا من الأرض يَومَئذ كُلها بألفِ عام، ووصَلَها بالمَدينة، ووصلَ المدينةَ ببيتِ المقدس » (٣٥)، وفي الحديث المشهور: « لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين، على الحقِ لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالهم حتى يأتيَهم أمرُ اللهِ عن وجل، وهم كذلك: قالوا يا رسول الله: وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس (٣٦)، وفي غيره، قوله صلى الله عليه وسلم « أهل بيت المقدس جيران الله عز وجل، وحق على الله أن لا يعذب جيرانه» (٣٧).

ورُوي عن علي بن أبي طالب أنه قال: سمعت رسول الله يقول: «سيد البقاع بيت المقدس، وسيد الصخور، صخرة بيت المقدس؛ لأنها من صخور الجنة "، فضلاً عن رواية عمر بن الخطاب "أن الحرم محرم في السموات السبع بمقداره في الأرض، وأن بيت المقدس مقدّس في السموات السبع بمقداره في الأرض» (٣٨).

وفي اللسان ورد ذكرها في أجزاء مختلفة منه، وتحت بنى لغوية، تدلل على أسمائها، أو أسماء جبالها، أو أسماء الأمم التي سكنتها، أو لتظهر معنى لغويا معينا يستشهد به، **ومن هذه الألفاظ التي ذُكر اللفظ في أبنيتها اللغوية:**

- **أزْل**: الأزْل تعني الضيق والشدة، ومن معانيها أيضا: الحبس، وشدة الزمان، فقد ورد عن عليّ كرم الله وجه أنَّه قال» إلا بعد أزْل وبلا»: و قال الكميت (ابن زيد الأسدي ت١٢٦هـ):

رأيتُ الكِرام به واثقين
أن لا يُعيموا، ولا يُؤزلوا

أي أصبح القوم آزلين في شدة [٣٩]. وفي هذا المعنى ورد لفظ بيت المقدس؛ ليدلل به على حال الناس فيه، فجاء فيه « الأزل: الشِدَّة والضيق، كأنه أراد من شدّة يأسكم وقنوطكم. وفي حديث الدجال: أنَّه يَحْصُر الناسَ في بيت المَقْدِس فيؤزَلُون أزلا، أي يقحطون ويضيق عليهم «. [٤٠]

- **ألا**: انظر اللسان مادة (ألا)، ورقم (٢) أعلاه، اسم أيلياء.

- **أور**: انظر رقم (١) أعلاه، اسم أور سالم، مادة (أور)، ج ١، ص ١٩١، ومادة (شلم)، ج٨، ص ١٢٥

- **أيل**: وردت بمعنى بيت المقدس « وإيلياء مدينة بيت المقدس « أنظر رقم (٢) اسم (ايليا)، ومادة (أيل) ج١، ص ٢١٢

- **إيلياء**: انظر رقم (٢) اسم إيليّاء، مادة (ألا) ج١، ص ١٤١– ١٤٤.

- **بذر**: وهو أول ما يخرج من الزرع والبقل والنبات، ومنه بذَّرَ ماله، والبذير من الناس من لا يستطيع أن يمسك سره. وفي اللسان أورد اللفظة شاهدا على الفعل مضعف العين: وبذَّرَ اسم موضع، وقيل: ماء معروف، قال كثير عزة (كثير بن عبد الرحمن بن الأسود ت ١٠٧هـ):

سقى الله أَمواهـا عَـرَفْتُ مكانـها
جُـربـا وَمَلكوما وبَــذَّرَ والـغَمْرا

وهذه كلها آبار بمكة؛ وقال ابن بري (ت ٧٣١هـ): هذه كُلُها أسماءُ مياه بدليل إبدالها من قوله أمواها، ودعا بالسقيا للأمواه، وهو يريد أهلها النازلين بها اتساعا ومجازا. ولم يجيء من الأسماء على (فَعَّلَ) إلاَّ بذَّرَ، وعثَّر اسم موضع، وخضَّمُ اسم العنبر بن تميم، وشلَّمُ اسم بيت المقدس، وهو عبراني» [٤١]

- **بقم**: **البُقامة**: وهي الصوفة يغزل لُبُّها ويبقى سائرها. وفي التهذيب: روى سلمة عن الفراء

(أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧هـ) البُقامة ما تطاير من قوس الندَّاف من الصوف. وهو أيضا: شجر يصبغ به، وهو دخيل معرب، وقد ورد اسم بيت المقدس في هذا الباب كشاهد على الفعل المضعف العين، فورد في اللسان على لسان الجوهري (إسماعيل بن حمَّاد ت ٣٩٦هـ) قوله: قلت لأبي علي الفَسَويّ (ت ٣٧٧هـ) أعربي هو؟ فقال: مُعرب، قال: وليس في كلامهم اسم على (فَعَّلَ) إلاَّ خمسة: خضم بن عمرو بن تميم وبالفعل سُمي، وبَقَّم لهذا الصبغ، وشَلَّم موضع الشام، وقيل هو بيت المقدس، وهما أعجميان [٤٢].

- **بيت**: وله معان كثيرة منها بيت الرجل داره، وبيته قصره، ومنه قول جبريل، عليه السلام، بشِّر خديجة ببيت من قصب؛ أراد بشرها بقصر من لؤلؤة مُجوفة، أو بقصر من زمردة [٤٣]

ومن معاني كلمة بيت كما جاء في اللسان، بيوت الله «وقد أورده صاحب اللسان كشاهد على بيوت الله، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿في بُيوتٍ أذنَ اللهُ أنْ ترفعَ ويُذكرَ فيها اسمه﴾ النور: ٣٦. وقصد به أيضا البيت الله الحرام. وقد سمى الله الكعبة: البيت الحرام. وقال ابن سيدة (ت ٤٥٨هـ): وبيت الله تعالى الكعبة، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٦، وقال الزجاج: أراد المساجد، قال: وقال الحسن يعني به بيت المقدس، قال أبو الحسن، وجمعه تفخيما وتعظيما. [٤٤]

- **بيت المكياش**: وهي من أسماء بيت المقدس، وتعني الهيكل المزعوم، وتلفظ بالعبرية (همقداش) أي بيت المقدس، أو (هخال) وتعني البيت الكبير في بعض اللغات السامية كالأكادية، والكنعانية. [٤٥]. ولم يذكر صاحب اللسان لها أصلا، ولم يرد لها معنى غير قوله « ذكر ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن أحمد ت ٣٧٠هـ) عدة أسماء لبيت المقدس، منها: شلَّمُ، وشَلم، وشَلِم، وأوري شَلِم، وأنشد بيت الأعشى:

وقـد طُـفـتُ لـلـمـال آفـاقـه
عُـمـان فحمص فـأوري شَلَم

ويقال أيضا: إيلياء، وبيت المقدس، وبيت المكياش، ودار الضرب، وصلمون [٤٦]. وربما أراد صاحب اللسان بذلك أن معناها مرتبطٌ بـ» أكياش: وتعني جُبّة أسناد، وثوب أفواف، قال: الأكياش من برود اليمن.. [٤٧].

- **التين**: هو الذي يؤكل، وفي المحكم: «والتين شجر البَلَس، وقيل هو البَلَس نفسه، واحدته (تينة) ؛ قال أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ): أجناسه كثيرة: برية، وريفية، وسهلية، وجبلية، وهو كثير بأرض العرب». ويكمل قوله: « وقوله عزَّ وجَّل ﴿التينِ والزيتونِ﴾ التين: ١؛ قيل: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس «؛ وقال الفراء: التين والزيتون جبلان في بلاد الشام، أحدهما: الذي كلم الله تعالى عنده موسى عليه السلام، وقيل الزيتون جبل بالشأم. وقال عبد الله ابن عباس (ت ٦٨هـ): هوتينكم هذا وزيتونكم هذا. ويقال للشجرة نفسها ولثمرتها: زيتونة، والجمع: الزيتون، وللدهن الذي يستخرج منه: زيت. وقال أبو حنيفة: الزيتون من العِضاه [٤٨].

ومما يؤكد أن التين والزيتون جبلان في الشأم، جبل الزيتون المطل على مدينة القدس وهو من جبالها المعروفة عبر التاريخ. يرتفع عن سطح البحر (٨٢٦م)، ويقع شرقي البلدة

المقدسة.ويسمى جبل الطور أيضا، ويعتقد أن المسيح قد صعد إلى السماء منه. (٤٩)

وفلسطين تشتهر بالزيتون، وهو شجر يعرفه أهلها حسب ما جاء في اللسان: قال الأصمعي (ت ٢١٦هـ): حدثني عبد الملك بن صالح بن علي، قال: تبقى الزيتونة ثلاثة آلاف سنة. ويكمل قوله: «وكل زيتونة بفلسطين من غرس أمم قبل الروم، يقال لهم اليونانيون « (٥٠)

- **جلل**: ومن معانيها العظيم، يقال الله الجليل سبحانه ذو الجلال والإكرام، وجلَّ جلاله، وجلال الله: عظمته، يقول لبيد بن ربيعة ت (٤١ هـ):

غَـيرَ أن لا تَكْذِبنْها في التقى
وأجــزِهــا بــالــبر لله الأجــل

يعني الأعظم. والجليل من صفات الله تقدس اسمه.

والشاهد كما ورد في اللسان عن بيت المقدس، هو استخدام لفظة (المَجَلة) كأحد مشتاق (جلل) والمَجَلَّة صحيفة يكتب فيها. وعن ابن سيده يقول صاحب اللسان: والمجلة الصحيفة فيها الحكمة؛ كذلك روى بيت النابغة (الذبياني ت ١٨ ق.هـ) بالجيم:

مَجَلَّتُهم ذات الإلــه، ودينهم
قويم فما يرجون غير العواقب

يريد الصحيفة لأنهم كانوا نصارى، فعنى الإنجيل، ومن روى مَحَلَّتهم أراد الأرض المقدسة وناحية الشام وبيت المقدس، وهناك كانوا بنو جفنة؛ وقال الجوهري (ت ٣٩٦هـ): معناه أنهم يحُجُّون فيحلون مواضع مقدسة. (٥١). وجفنة: اسم قرية تقع إلى الشمال من رام الله، بالقرب من (بير زيت)، سكنها بنو جفنة قديما، وسميت على اسمهم، ومعظم سكانها من المسيحيين.

- **حجج**: وهو القصد، قال تعالى ﴿ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ آل عمران: ٩٧. ويقال حجَّ إلينا فلان، أي قَدِم، قال المخبل السعدي (ت ١١هـ):

وأشـهدُ من عوف حلولا كثيرة
يَحُجُّون سِبَّ الزبرقان المُزعفرا

ومن معانيه كما ورد في اللسان الذهاب، وهو الشاهد على ذكر بيت المقدس في هذا الباب، وقال سيبويه (ت ١٨٠هـ) حجَّه يَحُجُّه حِجّا، كما قالوا: ذكره ذكرا. وقوله: أنشد ثعلب (ت٢٩١هـ):

يــوم تــرى مُرضـعـة خَلوجا
وكل أنثى حملت خلوجــا

وكـل صـاح ثـملا مؤوجـا
ويستخفُّ الحـرمَ المحجوجـا

فسره فقال: يستخف الناس الذهاب إلى هذه المدينة؛ لأنَّ الأرض دُحيت من مكة، فيقول: يذهب الناس إليها لأن يحشروا منها، ويقال: إنَّما يذهبون إلى بيت المقدس. (٥٢)

- **خَمْر**: ومن الشواهد على مسميات بيت المقدس لفظة (خَمْر)، وتعني ما خالطه الداء، وتعني أيضا ما أسكر من عصير العنب لأنَّها خامرت العقل، والتخمير: تغطية الوجهة. والعرب تسمي العنب خمراً، وهي حسب ما رواه عن أبي حنيفة لغة يمانية، وقال في قوله تعالى ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يوسف: ٣٦ إنَّ الخمر هو العنب، وأراه سماها باسم ما في الإمكان أن تؤول إليه، فكأنَّه قال: إنّي أرانِّي أعصر عنباً، قال الراعي النمري (عبيد بن حصين ت٩٧هـ):

يُـنـازعُـنـي بـهـا نُـدمـان صدق
شِـواءَ الـطَّير والعنب الحَقِينا

يريد الخمر (٥٣)

وهذا اللفظ حسب ما جاء في اللسان اسم جبل بيت المقدس، ورد بتحريك الضم (والخَمَرُ)، وهو الشاهد في هذا اللفظ؛ ويعني ما واراك من الشجر والجبال ونحوها، يقال توارى الصيدُ عني في خمر الوادي، وخمره ما واراه في جَرف، أو حبل من حبال الرمل، أو غيره، ومنه قولهم: دخل فلان في خُمار الناس، أي فيما يواريه، ويستره منهم. وفي حديث سهيل بن حنيف الأنصاري (ت ٣٨هـ): انطلقت أنا وفلان نلتمس الخمر، وهو بالتحريك: كل ما سترك من شجرة، أو بناء، أو غيره؛ ومنه حديث أبي قتادة الأنصاري السلمي (ت ٤٠هـ) (٥٤) فابغنا مكاناً خمراً، أي ساتراً بتكاثف شجره، ومنه حديث الدجال: حتى تنتهوا إلى جبل الخَمَر؛ قال ابن الأثير: هكذا يروى يعني الشجر الملتف، وفسر في الحديث أنَّه جبلُ بيتِ المقدسِ لكثرة شجره، ومنه حديث سلمان: أنَّه كتب إلى أبي الدرداء: يا أخي، إن بَعُدت الدارَ من الدار فإنَّ الروح من الروح قريب، وطير السماء على أرفه خمر الأرض، يقع الأرفه الأخصب، يريد أنَّ وطنَّه أرفق به وأرفه له، فلا يفارقه، وكان أبو الدرداء كتب إليه يدعوه إلى الأرض المقدسة (٥٥)

- **شبرق**: الشبرق يعني الثوب الممزق، ومن مشتقاته: مُشبرق، وشبراق، وشُبارق، وشباريق، وقد شبرقه وشبراقا، وعن كراع (أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين الهُنَائِي الدوسي، ت ٣١٦هـ)، كما يروي صاحب اللسان: مزَّقه، قال امرؤ القيس (ت ٥٤٠ م، ٨٥ق.هـ):

فأدركنه يأخذن بالسّاق والنَّسا
كما شبرق الوِلْدانُ ثوب المقَدَّس

والمقدس كما عناه الشاعر: هو الراهب ينزل من صومعته إلى بيت المقدس فيمزق الصبيان ثيابه تبركا به. (٥٦)

- **شلم**: انظر (أور سالم) وبيت المكياش.

- **صبح**: الصُّبح أول النهار، أصبح القوم، أي دخلوا في الصباح، ومنه أيضا الإصباح، والمصباح وهو السراج: وهو قُرطُه الذي تراه في القنديل وغيره، والقراط لغة من لغات العرب.

ويقال المِصبح: المِسرجة، واستصبح به: استسرج، وفي الحديث: فأصبحي سِراجك أي أصلحيها. وفي حديث يحيى بن زكريا عليهما السلامـ (٥٧): كان يَخدُم بيت المقدس نهارا ويصبح فيه ليلا ن أيّ يسرج السراج. (٥٨).

- **صخر**: وهي الحجر العظيم الصلب، وقوله عز وجل ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء: ٤٧ قال الزجاج: قيل في صخرة أي الصخرة التي تحت الأَرض، فالله عز وجل لطيف باستخراجها، خبير بمكانها. وفي الحديث: الصخرة من الجنة (٥٩)، والصَّخَرَة: كالصَّخْرة، والجمع (صَخْرٌ، وصَخَر وصخور) (٦٠)

وفي القدس اليوم قبة الصخرة المشرفة، وهي مكان باتت تعرف به القدس، وهي الرمز المعتمد لكثير من المؤسسات الوطنية الفلسطينية، فقبة الصخرة أصبحت رمزا ليس للقدس فقط، بل لعدالة القضية الفلسطينية، ويصنع لها المسلمون مجسمات للتعبير عن تمسكهم بها، ولبعدها الروحي في وجدانهم.

- **صها**: (صهيون)، و صها صهوة كل شيء أعلاه، ومنه جاء معنى جبل صهيون، المكان المرتفع، « وصهيون: هي الروم، وقيل هي بيت المقدس، وانشد الشاعر (٦١):

وإن أَجْلَبَتْ صِهْيونُ يوما عليكما
فإنَّ رحى الحرب الدلوك رَحاكما

وأراد الشاعر أهل صهيون، أي إن أجلبت الروم، واجتمعت فأنتم لها (٦٢)

- **فلسط، وفلسطين**: وردت في اللسان باللفظين معا، وتلفظ أيضا: فِلَسْطُون. تقول: مررنا بفلسطين، وهذه فلسطون. وتنسب حسب قول أبي منصور (الثعالبي ت ٤٢٩هـ): « وإذا نسبوا إلى فلسطين، قالوا فلسطي؛ قال الشاعر: تقله فلسطيا إذا ذُقتَ طعمه، (٦٣)

وقال ابن هرمة (إبراهيم بن علي بن سَلَمة بن عامر ت ١٧٦هـ):

كأس فلسطيَّةٌ معتَّقةٌ
شُجَّت بماءٍ من مُزنة السبل

وهي اسم موضع، اسمه كورة بالشام. وحسب قول ابن الأثير (ت ٦٣٩هـ): فلسطين بكسر الفاء وفتح اللام، الكورة المعروفة فيما بين الأردن وديار مصر، وأم بلادها بيت المقدس، صانها الله تعالى [٦٤]. وفي التهذيب كما يروي صاحب اللسان: نونها زائدة [٦٥]

وفلسطين كما ذكرها صاحب اللسان نقلا عن الجوهري في ترجمة (طين)، قال ابن بري (ت ٥٦٦هـ): حقها أن تذكر في فصل الفاء من باب الطاء لقولهم فلسطون. وهذا القول ينطبق على لفظ فلسطين. [٦٦]. وقد ورد لفظ فلسطين في أكثر من خمس عشر مادة في اللسان، منها: (ابن، و جند، و ربع، و وصفن، و فلسط، و فلسطن، وفلسطين، و وقدس، وقنسر، ولدد، و مصر، و نصب، و ي، و يبر، و يبن)

- **قرب**: القرب نقيض البعد، واستدل على هذا المعنى بآيات قرآنية عدة منها: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ سبأ: ٥١، أي اخذوا من تحت أقدامهم؛ وقوله تعالى أيضا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ الشورى: ١٧ أما شاهده على دلالة المعنى على بيت المقدس فهو قوله تعالى ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ق: ٤١ أي ينادي بالحشر من مكان قريب، وهي الصخرة التي في بيت المقدس، ويقال إنَّها في وسط الأرض؛ قال سيبويه: إنَّ قربك زيداً، ولا تقل إنَّ بعدك زيداً؛ لأن القرب اشد تمكُّنا في الظرف من البعد [٦٧]

- **القرا**: وسط الظهر، والقرو: من الأرض الذي لا يكاد يقطعه شي. ومن معانيها أيضا القرية، وهو ما قصده صاحب اللسان في معاني بيت المقدس وشاهده بذلك قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ سبأ: ١٨ وهو مستند بذلك إلى تفسير الزجاج الذي قال: القرى المبارك فيها بيت المقدس، وقيل الشام، وكان بين سبأ و الشام قرى متصلة فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ إلى الشام إلى زاد، وهذا عطف على قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ سبأ: ١٥ [٦٨].

- **كبر**: ومنها الكبير صفة الله تعالى: العظيم الجليل، وأيضا المتكبر الذي تكبَّر على ظلم عباده. ومن معاني اللفظ الاستكبار وشاهده بذلك قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الصافات: ٣٥ وهو الكِبر الذي عناه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله» إنَّ من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر لم يدخل الجنة» [٦٩].

ومن معانيها عظمة الشيء وشدته وغلظه، وهو ما عناه صاحب اللسان ليدلل على ذكر بيت المقدس في هذا الباب، والشاهد في ذلك قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ﴾ البقرة: ١٤٣ وعنى هنا إنَّ اتّباع قبلة بيت المقدس إلا فعلة كبيرة، والمعنى أنها كبيرة على غير المخلصين، وأما من أن أخلص فليست بكبيرة عليه. [٧٠]

- **هجد**: هجد يهجد هُجودا، وأهجد: نام، ويقال: هجد القوم هُجُودا: ناموا، والهاجد: النائم، والمصلي بالليل، وشاهده قول مرة بن شيبان (ت ٨٩ ق.هـ):

ألا هَلَكَ امرؤٌ قامت عليه
بجنب عُنَيْزَة البَقَرُ الهُجُودُ

وقال الحطيئة (جرول بن مالك ت٤٥هـ):

فحياك ود ما هداك لفتية
وخُوص بأعلى ذي طُوالة هُجَّد

ويقال للعابد مُتَحَنِّثٌ لإلقائه الحنث عن نفسه، وفي ارتباط هذه اللفظة ببيت المقدس حديث يحيى بن زكريا عليهما السلام: فنظر إلى متهجدي بيت المقدس، أي المصلين بالليل، وهو هنا يقصد صفة المصلين المتهجدين في بيت المقدس. (٧١)

- **وزغ**: **الوَزَغ**: دويّبة الأرض، وتعني أيضا: سوامٌّ ابرص، والجمع: وَزَغٌ، وأوزاغ، و وُزغان، وشاهده في ذلك قول ابن الأعرابي (أبو عبد **الله** محمد بن زياد ت **٢٣١هـ**):

فلما تجاذبنا تفرقع ظهره كما
تنقض الوزغان زُرقاً عيونها

وفي الحديث: أنَّه أمر بقتل الأوزاغ، وفي حديث عائشة رضي **الله** عنها: لما احترق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه (٧٢). وهذا الحديث أورده صاحب اللسان ليدلل به على حريق بيت المقدس (٧٣)

- **ولي**: ومنه اولي: اسم من أسماء **الله** الحسنى، وهو الناصر، وقيل المتولي لأمور العالم. ومن معانيه أيضا الولاية: أي النصرة. ومنه الولاية: الإمارة، والوالي: هو مالك الأشياء جميعها المتصرف بها. ومنه المولى: وهو الولي في الدين، وشاهده قوله تعالى ﴿ذلك بأنَّ **الله** مولى الذين امنوا﴾ محمد: ١١. والموالي ورثة الرجال، وأبناء العم، وغير ذلك.

والمعنى الذي أورده صاحب اللسان لدلالة على بيت المقدس، هو الإقبال والعدول أو الانصراف والنحول، فتولية الإقبال قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ البقرة: ١٤٤ أي وجه وجهك نحوه وتلقاه. وأما الانصراف فهو التحول، كقول ذي الرمة (ت ١١٧هـ):

إذا حوَّل الظِّلُ العشي رأيته
حنيفا وفي قرن الضحى يتنصرُ

وفي ذات المعنى ورد قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ البقرة: ١٤٢ أراد قول اليهود ما عدلهم، يعني قبلة بيت المقدس، وبيت المقدس عند المسلمين القبلة الأولى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين (٧٤).

♦ **قدس**: وقد ورد لفظ (قدس) تحت مسمى بيت المقدس، ولكن آثر الباحث على إفراد اسم مستقل لها لشهرتها اليوم في أنحاء المعمور، فما من شخص يعيش على هذه الأرض إلاّ ويعرف مدينة القدس، فهي مهمة عند جميع أصحاب الديانات السماوية، **وقد افرد لها صاحب اللسان إضافة لذكرها تحت مسمى بيت المقدس، عدة مسميات وردت تحت مواد مختلفة، ومنها**:

- **حظر**: ومن معانيه الحَظَرُ وهو خلاف الإباحة، والمحظور المحرم، وحظر الشيء يحظره، أي يمنعه. والحظر أيضا الحظيرةَ، وهي جرين التمر، ومنه الحظيرةُ، ما أحاط بالشيء، وهي مصنوعة من القصب والخشب، وروي عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «لا حمى في الآراك «[٧٥] أراد الأرض التي فيها الزرع المحاط عليها كالحظيرة. وقال المرَّار بن منقذ العدوي:

فــإنَّ لـنـا حـظـائـرَ ناعمات
عـطـاء الله رب الـعـالمـيـنـا

أراد النخل. وهي في الأصل الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الغنم والإبل؛ ليقيها البرد والريح. ومن معاني (الحَظِر) الشوك والشجر. ومنه الرطب. و بمعنى الحظيرة والمنع جاء المعنى ليدلل على القدس، فهي أي حظيرة القدس: الجنة [٧٦]. ويدلل على المعنيين: الحظيرة والمنع قوله صلى الله عليه وسلم «لا يلج حظيرة القدس مُدمِنُ خَمرٍ، وفي رواية أخرى لا يلج حائط القدس « [٧٧] ؛ أي لا يرد حظيرة القدس الجنة [٧٨].

- **رجحن**: وذكرت القدس تحت هذا اللفظ كمكان للنساء المرجحات أي السمينات المتأرجحات بالمشي والسير، والتمايل على الجانبين، ومنه قول علي كرم الله وجه « في حجرات القدس مُرجحنِّين، أي من أرجحن الشيء من ثقله وتحرك. [٧٩]

- **قدس**: وهي التقديس: تنزيه الله عز وجل، وفي التهذيب: القُدس تنزيه الله تعالى، وهو المتَقَدَّس القُدُّوس المُقَدَّس. ويقال القدوس: فعول من القدس، وهو الطهارة، وكان سيبويه يقول: سَبُّوح و قَدُّوس بفتح أولهما، وفي الكتاب وردت بالضم [٨٠]. وقال اللحياني (ت ١٠٨هـ): المجمع عليه في سُبُّوح و قُدُّوس الضم، قال وإن فتحتهما جاز، قال: ولا أدري كيف ذلك؛ وفي رأي ثعلب: كل اسم على فَعُّول فهو مفتوح الأول، مثل سَفُود، وكَلُوب [٨١]

ومن معاني هذا اللفظ المكان المرتفع الذي يصلح للزراعة. وأما قَدَس فموضع بالشام من فتوح شرحبيل بن حسنة (ت ١٨هـ). ولفظ القُدُس (كما يلفظ اليوم) بضم الدال وسكونها اسم مصدر ومنه قيل للجنة: حظيرة القُدس. هي أيضا البركة، والأرض المقدسة؛ أي الشام، وبيت المقدس، وينسب إلى ساكنيه مقدسي قياسا على مَجلسي، و مُقَدَّسي كما ذهب سيبويه،

وهو يخفَّف ويثَّقل [٨٢]، قال امرؤ القيس:

فأدركنه يأخذن بالساق والنسَّا
كما شبرق الوِلدانُ ثوب المُقدَّسي

والهاء في أدركنه ضمير يعود على الثور الوحشي، والنون ضمير الكلاب، أي أدركت الكلاب الثور فأخذت بساقه ونساه وشبرقت جلده كما شبرق وِلدان النصارى ثوب الراهب المقدسي نسبة إلى بيت المقدس؛ فقَطَّعوا ثيابه تبركا بها. ويقال للراهب مُقدَّس. وكما روى صاحب اللسان عن الفراء (ت ٢٠٧هـ) أنَّه قال: القدس هي الأرض المقدسة الطاهرة، وهي دمشق وفلسطين، وبعض الأردن وبموضع آخر الأردن، ويقال: أرض مقدسة، أي مباركة، وهذا قول قتادة، وإليه ذهب ابن الأعرابي (ت ٣٤٠هـ) ؛ وقال الحجاج (ت٩٥هـ):

قد علم القُدُّوس، ومولى القُدْس
أنَّ أبا العباس أولى نفـــــس
بمعدان المُلك القديم الكِـــرْسِ

أراد أنَّه أحق نفس بالخلافة [٨٣].

ولفظ القَدَس بالتحريك يعني السَّطل بلغة أهل الحجاز لأنَّه يتطهر فيه؛ ومن هذا المعنى ورد معنى بيت المَقْدِس الذي يعني البيت المُطَهَّر، أي المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب. ويشتق منه (القُدُّوس) أي الطاهر وهي صفة لله تعالى كما جاء في كتابه العزيز ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الحشر: ٢٣ [٨٤]. ومن معاني اللفظ روح القدس (جبريل) عليه السلام، وفي الحديث الشريف» أنَّ روح القدس بثَّ في روعي» [٨٥]، يعني جبريل؛ لأنَّه خُلق من طهارة، وقال عز وجل في صفة عيسى عليه السلام ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ البقرة: ٨٧ يعني جبريل ومعناه روح الطهارة، وهذا المعنى ينطبق على الأرض المقدسة (بيت المقدس) كقول الشاعر:

لا نوم حتى تهبطي أرض العُدس
وتشربي من خير ماء بِقُدس

أراد الأرض المقدسة. وفي الحديث الشريف « لا قُدست أمة لا يُؤخذ لضعيفها من قويها، وفي رواية شديدها» [٨٦]، أي لا طُهرت. ومن مشتقات اللفظ: القادس ويعني البيت الحرام؛ والسفينة العظيمة، وقيل هي صنف من المراكب، وقيل لوح من الواحها؛ يقول الهذلي (ت ٢٧هـ):

تَحَــدرَ دمـع العين منها فخلته
كـنـظـم قُـداس سِـلـكـه متقطع

فقد شبه تَحدُر دمعه بنظم القداس. وقادس أيضا: اسم بلد بخرَسان؛ والقادسية: من بلاد العرب، قيل إنَّما سميت بذلك لأنَّها نزل بها قوم من أهل قادس من أهل خرسان، ويقال: إنّ القادسية دعا لها إبراهيم عليه السلام بالقُدْس، وأنْ تكونَ مَحَلَّة الحاجِّ، وقيل القادسية قرية بين الكوفة وعذيب. وقيل القُدْس اسم جبل بنجد، ومنه قول أبو ذؤيب:

فإنَّك حقاً أيَّ نظرة عاشقٍ

نظرتَ وقُدْس دونها و وقيرُ

وقُدْس أُوارة: جبل أيضا. وجبل قرب المدينة المنورة اسمه (قريس) (٨٧). ومنها القَدَّاس: وهي حصاة توضع في الماء قدرا لري الإبل. ومنها القُدَاس: الحجر الذي يُنصب على مصب الماء (٨٨).

من خلال ما سبق يتبين لنا أن أسماء مدينة القدس ودلالاتها في لسان العرب كثيرة، حاول الباحث أن يقف على معظمها، فلفظ بيت المقدس ذكرت في أكثر من موضع تحت مواد كثيرة، وهذا ينطبق على مادة فلسطين.

كما أن ابن منظور في ذكره لأسماء مدينة القدس كان يعتمد إلى ذكر أي لفظ وإن تكرر، وتحت أي باب، فبيتُ المقدس مثلا، ذكرت تحت مواد كثيرة، توحي إلى بيت المقدس، منها لفظ (القدس) ولمنع التكرار افرد الباحث عنوانا خاصا لاسم القدس، نظرا لورود الاسم تحت أكثر من مادة، لم يشملها لفظ بيت المقدس، فقد جاء لفظ القدس في مواضع منها: رجحن، و حظر؛ كما أورد له صاحب اللسان أكثر من مادة منها: القدس، وقدس، وقَدَس، كلها تدل على أسماءِ مواضعَ، وجبالِ، وأماكنَ.

ومن الملاحظ أيضا، أن اسم بيت المقدس هو أكثر الأسماء شهرة لمدينة القدس، فقد وردت كل الأسماء والمسميات لمدينة القدس تحت هذا الاسم، وقد حاول الباحث تقسيم الأسماء حسب حجم ورودها تحت أسماء عدة؛ لشهرة هذه الأسماء في الوقت الحالي، ولإظهار المسميات المختلفة لها.

ومما يلاحظ أيضا عدم ذكر اسم المسجد الأقصى في اللسان؛ ليدلل على مدينة القدس، حتى وهو يستشهد بأية الإسراء والمعراج، فاكتفى بذكر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ الإسراء: ١ ليدلل على السير بالليل (٨٩)، كما أنَّه لم يأتِ على ذكر المسجد الأقصى، وهو يتحدث عن المعراج باللفظ الصريح، والمواد اللغوية التي ذكرت فيها، وهي (وكز، و برق، وعدل، و غمم). وإن كان قد ذُكر صراحة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ولم يأت على ذكر فتح بيت المقدس مباشرة.

كما لم يذكر أسماء معروفة تاريخيا للقدس مثل (يبوس). كما لم يذكر أسبابا وشواهد تدلل على مسميات ذكرها في كتابه مثل: دار الضَّرب، وبيت المِكياش، وصلمون [٩٠].

ومما زاد صعوبة هذا البحث أنه أعتمد على الجمع من المعاجم التي اعتمدها دون تحقيق، فهو لم يخرِّج الأحاديث النبوية، ولم يتحقق من صحتها، فكان يكتفي بذكر الحديث دون إسناده، وأيضا كان يكتفي بذكر بيت الشعر دون ذكر صاحبه، أو اسمه كاملا، أو عصره، وكذلك فعل بالنسبة لرواة الحديث. وهذا شكلا عبئا كبيرا على الباحث؛ لأنَّه حاول ما أمكنه ذلك تخريج الأحاديث من مظانِّها، والتعريف بأسماء الأعلام الذين ورد ذكرهم بالبحث

الهوامش:

١. أخرجه الإمام أبو داوود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) في سننه كتابه، ج١،كتاب الصلاة باب السرج في المساجد، رقم (٤٥٧)، ص ١٢٥.

٢. مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ص ١٣.

٣. المرجع نفسه؛ وينظر محمود العابدي، قدسنا، ص ٩.

٤. محمد حسين محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة، ص٢٢.

٥. محاسنة وآخرون، ص ٢٤؛ والدباغ، ج ٣، ص ١٨، و٦٨.

٦. الدباغ، ج٣، ص ١٤.

٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٥، ص ١٩٦، مادة (بيت المقدس). ؛ وينظر الدباغ،ج٣، ص ١٨،١٩؛ وينظر محمد محاسنة وآخرون، ص ٢٦.

٨. فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين،، ج١، ص ١٠.

٩. ألبرايت: أثار فلسطين، ص ٦١.

١٠. فيليب حتي، تاريخ سوريا، ج١، ص ٢١ – ٢٣؛ وانظر حسين حمادة، آثار فلسطين بين حرب الهيكل التوراتية اليهودية، ووثائق الاستكشافات الأثرية العلمية، ص٩٨؛ وينظر محمد محاسنة وآخرون، ص ٣١.

١١. محمد محاسنة وآخرون، ص ٣١.

١٢. فيليب حتي، تاريخ سوريا، ج١، ص ٨٧– ٢٣٧؛ وينظر، إبراهيم الشريقي، أرض كنعان، ص ٤٢ وما بعدها؛ وينظر، ابن الأثير (علي بن أبي الكرم)، الكامل في التاريخ، ج١، ص ٨١ وما بعدها؛ وينظر ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، ص٢٤.

١٣. العسقلاني (الحافظ أحمد بن حجر ت ٨٥٢هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٣، ص ٦٤؛ وينظر، آمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، ص ٧٥٧– ٧٥٨،

١٤. محمد حسن شرّاب، بيت المقدس، المسجد الأقصى، ص ٣٣؛ وينظر، مصطفى الدباغ، ج٩، قسم ٢، ص ٢٢– ٢٣،٢٤؛ وينظر فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج١،ص ٨٩؛ وينظر، ظفر الإسلام خان، ص٢٩.

١٥. اللسان ج١، ص ١٩١، مادة (أور).

١٦. اللسان مادة (أُور)، ج١، ص ١٩١.

١٧. لم ينسب البيت إلى صاحبه، ولكن صاحب معجم البلدان نسبه لأبي زيد، ومنهم من نسبه لزهير، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٣٢.

١٨. اللسان: مادة أُور، ج ١، ص١٩١.

١٩. ابن الجوزي، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور،، ص ١٩، واللسان، ج١، ص١٩١

٢٠. اللسان، مادة أور، ج١، ص ١٩١؛ وينظر، سيبويه، ج ٣، ص ٢٠٨.

٢١. اللسان: مادة أُور، ج ١، ص١٩١؛ وينظر الأنس الجليل، ج١، ص ٣٥٣

٢٢. شهاب الدين أبو محمود بن تميم المقدسي. مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص ٢٤٢؛ وينظر الأنس الجليل ج١، ص، ٣٥٣،٣٤٧ ؛ وينظر، ابن الجوزي، فضائل القدس، ص ١٤١؛ وينظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٤، ص ١٥٩.

٢٣. السيوطي، إتحاف الأخص بفضائل المسجد الأقصى، ص ٩٣، وينظر مثير الغرام، ص ٢٤٢؛ وينظر ابن الجوزي، ص ١٣٩؛ وينظر الأنس الجليل، ج١، ص ٣٤٧

٢٤. الهندي (ت ٩٧٥هـ) كنز العمال،، ج١١، ص ٦٠٦، رقم الحديث (٣٢٩٢٨). واللسان، ج١، ص ١٤١

٢٥. معجم البلدان، ج٥، ص ١٩٤، بيت المقدس.

٢٦. اللسان، ج١، ص ١٤٢– ١٤٣، مادة (ألا).

٢٧. محمد حسن شرّاب، بيت المقدس المسجد الأقصى، ص ٣٤؛ وانظر الطبري، الرسل والملوك ج٣، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ص ٩٠٩ – ٩١٠.

٢٨. اللسان، ج١، ص ١٤٤ مادة (ألا).

٢٩. اللسان: ج١، ص ٢١٢، مادة (أيل).

٣٠. اللسان: ج١، ص ٢١٢، مادة (أيل).

٣١. اللسان: ج٢، ص ١٨٦مادة (بيت)..

٣٢. محمد الحافظ النقر، تاريخ بيت المقدس، ص ١١.

٣٣. لتخريج الحديث ينظر صحيح البخاري، رقم الحديث (٣٨٨٧)، ص ٨٠٨؛ وينظر مختصر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم (٧٦) برواية أنس، ص ٢٦.»

٣٤. محمد حسن شرّاب ص ٣٤– ٣٥.

٣٥. المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص ١٣٢؛ وينظر، ابن الجوزي، فضائل القدس، ص ٧٢ – ٧٣.

٣٦. صحيح مسلم، شرح النووي، ج١٣، ص ٦٨؛ وينظر سنن الترمذي، ح٢، ص ٢٣٩، رقم ١٧٨٢، و ١٧٨٣

٣٧. ابن الجوزي، فضائل القدس، الباب التاسع، ص٩٥، والباب التاسع عشر، ص ١٣٠؛ وينظر طبقات ابن سعد، ج٥، ص ٣٩٥– ٣٩٦.

٣٨. الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج١، ص ٣٥٣، ٣٥٧؛ وينظر السيوطي، إتحاف الأخص، ص ١٣٢؛ وينظر ابن الجوزي، ص ١٤١.

٣٩. اللسان: مادة أزل، ج ١، ص ٩٩– ١٠٠.

٤٠. اللسان: مادة أزل، ج١، ص٩٩– ١٠٠.

٤١. اللسان: مادة بذر، ج ٢، ص ٤٤.

٤٢. اللسان مادة بقم، ج٢،ص ١٢٨.

٤٣. اللسان مادة بيت، ج٢، ص ١٨٥ – ١٨٦.

٤٤. اللسان: مادة بيت، ج٢، ص ١٨٦)

٤٥. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود، ج٤،ص ١٥٩.

٤٦. اللسان: مادة شلم، ج٨، ص ١٢٦.

٤٧. اللسان: مادة كيش، ج ١٣، ص ١٤٢– ١٤٣.

٤٨. اللسان مادة تين، ج ٢، ص ٢٥٢؛ ومادة زيت، ج٧، ص ٨٥.

٤٩. محمد حسن شرّاب، بيت المقدس، ص ٤٣.

٥٠. اللسان: مادة زيت، ج٧، ص ٨٥.

٥١. اللسان، مادة (جلل/ ج٣، ١٨٤.

٥٢. اللسان: مادة حجج، ج ٤، ص ٣٧.

٥٣. اللسان، مادة (خمر) ج٥، ص ١٥٢.

٥٤. اختلف في سنة وفاته ما بين ٤٠هـ، و٥٤هـ.

٥٥. اللسان، مادة (خمر) ج٥، ص ١٥٣؛ وانظر ابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ت٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث، تحقيق محمود الطناحي وزميله، ج ٢، ص ٧٧.

٥٦. اللسان، مادة شبرق، جز٨، ص ١٣.

٥٧. اُختلف في سنة وفاته ت ١١ م، ٢٨م، ٣٠ م.

٥٨. اللسان: مادة (صبح)، ج ٨، ص ١٩٢.

٥٩. اللسان، مادة (صخر) ج٨، ص ٢٠٦.

٦٠. اللسان مادة (صخر) ج ٨، ص ٢٠٦.

٦١. البيت منسوب لأعشى قيس، الديوان ص ١٥٥.

٦٢. اللسان مادة (صها) ج٨، ص ٣٠٠؛ وينظر: معجم البلدان، ٣/ ٤٩٥– ٤٩٦.

٦٣. شطر البيت مأخوذ من معلقة أعشى قيس وتتمته «على ربذاتِ النَّيّ حمشٍ لثاتها»

٦٤. اللسان، مادة فلسط، ج١١، ص ٢١٨.

٦٥. اللسان، مادة فلسط، ج١١، ص ٢١٨.

٦٦. اللسان، مادة فلسط، ج١١، ص ٢١٨.

٦٧. اللسان، مادة قرب ج١٢، ص ٥٢، ولفظ (إنَّ قربك زيدا) لم نعثر عليه في كتاب سيبويه.

٦٨. اللسان، مادة قرا، ج١٢، ص ٩٣.

٦٩. مختصر صحيح مسلم، [كتاب الإيمان]، رقم الحديث (٥٢)، ص ٢٠.

٧٠. اللسان/ ج١٣، ص١٢.

٧١. اللسان، مادة (هجد)، ج١٥، ص ٢٢.

٧٢. اللسان مادة (وزغ)، ج ١٥، ص ٢٠٤؛ وينظر سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مجلد٢، كتاب الصبر، الباب الثاني عشر، رقم الحديث (٣٢٣١) ص ١٠٧٦؛ وينظر صحيح البخاري، ص ٢٧٧، رقم الحديث (١٨٣١).

٧٣. اللسان، مادة وزغ، ج١٥، ص٢٠٤.

٧٤. اللسان، مادة ولي، ج١٥،ص٢٨٥.

٧٥. اللسان، مادة حظر، ج٤، ص ١٥٨؛ وينظر سنن أبي داود، تحقيق الألباني، ج٢، كتاب الخراج والإمارة والفيء ص ٥٩٣،رقم (٣٠٦٦ أو ٢٦٣٥) ؛ وينظر سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، ج٣، رقم (١٣٨٥) ص ٩٠

٧٦. اللسان، مادة حظر، ج٤، ص ١٥٨

٧٧. اللسان، مادة حظر، ج٤، ص ١٥٨؛ ولتخريج الحديث ينظر المنذري (زكي الدين) الترغيب والترهيب، تحقيق سعيد اللحام، ج٣، رقم (٣٦٠٢) ص ٢٠٢.

٧٨. اللسان، مادة حظر، ج٤، ص ١٥٨

٧٩. اللسان، مادة رجحن، ج ٦، ص١٠٣.

٨٠. الكتاب، ج١، ٣٢٧.

٨١. اللسان، مادة قدس، ج١٢،ص ٤٠

٨٢. الكتاب، ج ٣، ٣٣٥.

٨٣. اللسان، مادة قدس، ج ١٢، ص ٤٠.

٨٤. اللسان، مادة (قدس) ج١٢، ص ٤٠.

٨٥. اللسان، مادة (قدس) ج١٢، ص ٤٠. ونص الحديث وتخريجه، ينظر ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٦، ص ٣٠٣؛ وينظر تاج العروس للزبيدي، بيروت: دار صادر، ١٩٦٦، م٤، ص ٢١٣.

٨٦. اللسان، مادة (قدس) ج١٢، ص ٤٠. ونص الحديث وتخريجه، ينظر، سنن ابن ماجة،ج٢، تحقيق الألباني، رقم الحديث (٢٤٢٦) ؛ وينظر المنذري، الترغيب والترهيب، ج٢، رقم الحديث (٢٨٢٦)، ص ٣٨٩.

٨٧. اللسان، مادة (قدس) ج١٢، ص ٤٠.

٨٨. اللسان، مادة قدس، ج١٢، ص ٤٠.

٨٩. اللسان، مادة سرى، ج ٧، ص ١٧٩.

٩٠. اللسان، مادة شلم، ج ٨،ص ١٢٦.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم الشريقي، أورشليم أرض كنعان، عمّان: شركة الشرق الأوسط للطباعة والنشر، ١٩٨٥.

٢. ابن الأثير (علي بن أبي الكرم ت ٦٣٩هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ودار بيروت، ١٩٦٥.

٣. ابن الأثير (مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ت٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث، تحقيق محمود الطناحي وزميله، بيروت: دار إحياء التراث العربي، والقاهرة: المكتبة الإسلامية، ١٩٦٣.

٤. ابن الجوزي، (أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري ت ٥٩٧هـ)، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩.

٥. ابن السبكي، (تقي الدين علي بن عبد الكافي ت ٧٥٦هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ط٢، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو القاهرة: دار هجر، ١٤١٣هـ. ونسخة دار المعرفة بيروت، (د.ت)

٦. ابن سعد (محمد بن سعد ت ٢٣٠هـ)، طبقات ابن سعد، برلين وليدن: ١٩٠٤.

٧. ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة الربعي القزويني ت ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥.

٨. ابن منظور، (أبو الفضل جمال الدين ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري الرُّوَيفعي الإفريقي ت ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت: دار صادر: ٢٠٠٠.

٩. أبو داود السجستاني (ت٢٧٥هـ) سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة: ١٩٣٥. ونسخة، الرياض: مكتبة التربية العربي لدول الخليج،، تحقيق الألباني، ١٩٨٩.

١٠. أمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، عمّان: دار أسامة، ٢٠٠٣.

١١. ألبرايت، أثار فلسطين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد عبد القادر، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧١.

١٢. البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المنصورة: مكتبة الإيمان، ٢٠٠٣.

١٣. الترمذي، (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي ٢٧٩هـ) سنن الترمذي، تحقيق محمد ناصر الألباني، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٨. ونسخة بيروت: دار الفكر ١٩٩٤، تحقيق أحمد شاكر.

١٤. حسين حمادة، آثار فلسطين بين حرب الهيكل التوراتية اليهودية، ووثائق الاستكشافات الأثرية العلمية، دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٣.

١٥. الحنبلي (مجير الدين ت ٩٢٧هـ) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان أبو تبانة، الخليل: مكتبة دنديس ١٩٩٩.

١٦. الزبيدي، (مرتضى ت١٢٠٥هـ)، تاج العروس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٦.

١٧. سيبويه (أبو بشر عثمان بن قنبر ت ١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق، عبد السلام هارون، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

١٨. السيوطي (جلال الدين ت ٩١١هـ) إتحاف الأخص بفضائل المسجد الأقصى؛ تحقيق أحمد رمضان أحمد. القاهرة: ١٩٨٢.

١٩. شهاب الدين أبو محمود بن تميم المقدسي، (ت ٧٩٥ أو ٧٦٥ هـ) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام. تحقيق أحمد الخطيبي. بيروت: دار الجيل، ١٩٩٤.

٢٠. الطبري، (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ت٩٢٣هـ)، الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣

٢١. ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم، بيروت: دار النفائس، ١٩٧٢.

٢٢. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٤، بيروت: دار الشروق، ١٩٩٩.

٢٣. العسقلاني (الحافظ أحمد بن حجر ت ٨٥٢هـ) فتح الباري بشرح صحيح البخاري تنظيم وفهرست محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار المعرفة، ١٩٥٩

٢٤. علاء الدين المتقي الهندي (ت ٩٧٥هـ) كنز العمال، تحقيق الشيخ بكري حياني وزميله، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩

٢٥. فيليب حتي (ت ١٣٩٩هـ)، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، ج١، بيروت: دار الثقافة ١٩٥٠

٢٦. محمد الحافظ النقر، تاريخ بيت المقدس، عمّان: دار البشائر، ودار الرازي، ٢٠٠٣.

٢٧. محمد حسن شرّاب، بيت المقدس، المسجد الأقصى: المدينة النبوية (المنورة): ١٩٩٤.

٢٨. حسين محاسنة وآخرون، تاريخ مدينة القدس، عمان: دار حنين،٢٠٠٢.

٢٩. محمود العابدي، قدسنا، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢.

٣٠. مسلم، (بن الحجاج النيسابوري ت٢٦١هـ)، شرح النووي، القاهرة و بيروت: المطبعة المصرية ومكتبتها، ١٩٣٠

٣١. مصطفى الدباغ (ت ١٩٨٩م)، بلادنا فلسطين، ط٤، بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٨.

٣٢. المنذري (زكي الدين أبو محمد الدمشقي ت ٦٥٦هـ)، الترغيب والترهيب، تحقيق سعيد اللحام، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠٠.

- مختصر صحيح مسلم، تحقيق محمد ناصر الألباني، أسيوط: منشورات لجنة إحياء السنة، ١٣٨٩هـ

٣٣. ياقوت الحموي (ت٦٢٢هـ)، معجم البلدان، تحقيق، فريد عبد العزيز الجندي، م٥، بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت) .

الثابت والمتغير في السياسة الخارجية الأمريكية في عهد الرئيس جورج بوش وانعكاساتهما المتوقعة على سياسة باراك أوباما

د. رائد محمد حسن نعيرات*

أ. قصي أحمد حامد**

* أستاذ مساعد في العلوم السياسية/ كلية الاقتصاد والعلوم الادارية/ جامعة النجاح الوطنية.

**ماجستير تخطيط وتنمية سياسية/ منسق العلاقات الخارجية/ دائرة العلاقات العامة/ جامعة القدس المفتوحة/ رام الله.

ملخص:

تحتل دراسة السياسة الأمريكية في حقبة الرئيس باراك أوباما أهمية عظمى لدى المنشغلين بالقضية الفلسطينية، وذلك لطبيعة الجدل الدائر حول التغيير الذي روّج له الرئيس الأمريكي في حملته الانتخابية وخطاباته السياسية، والتي زعمت أن البوصلة تتجه نحو تغيير في السياسة الأمريكية تجاه العالم العربي والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص. لذا أتت هذه الدراسة لتستكشف مدى التغيير الذي يمكن أن تحدثه إدارة أوباما، وطبيعة العقبات التي قد تقف أمامها، والعوامل الدافعة لإحداثه.

وقد خرجت الدراسة بجملة من الاستنتاجات أبرزها: أن التغيير في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية سيأخذ منحى البحث في الجزئيات وليس الكليات، إذ سوف تركز على إدارة الصراع بصورة مغايرة لما كانت عليه في عهد الرئيس جورج بوش، دون العمل على إيجاد حلول للصراع. كما أنها ستعمل على إظهار رغبتها في انتهاج سياسات محايدة عبر البحث عن نقاط للضغط على إسرائيل، وعلى سبيل المثال الاستيطان، إلا أن ذلك لا يعني أنها جاهزة للضغط عليها في القضايا الجوهرية الأخرى.

وأوصت الدراسة الإدارة الأمريكية بتقديم رؤية متكاملة لحل الصراع العربي الإسرائيلي يكفل إرجاع الحقوق الفلسطينية العادلة، والعمل على إيجاد الآليات والوسائل لتحويل هذه الرؤية إلى واقع ملموس.

Abstract:

The study tackles the expected policy of President Barack Obama toward the Palestinian cause since he announced his desire to head his compass toward changing the U.S. policy toward the Arab world and the Palestinian issue particularly. Therefore, this study comes to explore the extent of change that may occur by Obama's administration, and the nature of obstacles that may stand in front of it.

The study concludes that the expected change in U.S. policy towards the Palestinian issue will trend toward focusing on specific issues and avoiding tackling the whole issue as one unit, and it will focus on managing the conflict differently than it used to under President George W. Bush, without looking for final solutions to the conflict. On the other hand it will demonstrate its willingness to adopt a neutral policy by searching for points of pressure on Israel, the settlements for instance, but that does not reflect its willingness to practice serious pressure on Israel regarding the other substantive issues.

Finally, the study recommends adopting an integrated peace vision by Obama's administration, which could solve the Arab- Israeli conflict, in addition to ensuring the Palestinian rights, and finding out effective mechanisms and means to transform it into reality.

مقدمة:

تحتل دراسة السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية أهمية مبالغاً بها، وقد تعاظمت هذه الأهمية مع وصول الرئيس الأمريكي باراك أوباما إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية أولا، ولازدياد جدلية طبيعة الدور الأمريكي، وبالذات بعد محطتي الانتخابات التشريعية الفلسطينية والموقف الأمريكي منها والانقسام الفلسطيني والجدل الدائر فلسطينيا حول الدور الأمريكي في صناعته وتكريسه أو القدرة الأمريكية على إنهائه. إلا أن كل هذه التفاصيل لم تلغ حقيقة التصور العام من أن أي حل سياسي للقضية الفلسطينية يتطلب دوراً ضاغطاً وتغييراً حقيقياً في السياسة الأمريكية، وهذا ما يعول عليه في المرحلة القادمة من حقبة الإدارة الأمريكية الجديدة.

لذا تأتي هذه الدراسة لتجيب عن تساؤل مركزي ورئيسي: ما حدود التغيير في السياسة الأمريكية لدى باراك أوباما؟ وما العوامل الدافعة لذلك، والعوامل التي تحد من إحداث هذا التغيير؟

وتكمن أهمية الدراسة في السعي إلى تقصي الملامح المتوقعة للسياسة الأميركية في عهد الرئيس المنتخب باراك أوباما إزاء الملف الفلسطيني. وتحاول تبصّر السمات الأساسية التي يمكن أن يتركها الموروث السياسي لحقبة الرئيس جورج بوش الابن على الخطوات المستقبلية لإدارة أوباما تجاه التعامل مع هذا الملف، وإلى أي مدى يمكن أن تتشابه استراتيجيات إدارته أو تختلف عن إدارة بوش في ظل المعطيات المتعلقة بمرتكزات السياسة الأمريكية العامة تجاه القضية الفلسطينية، واختلاف وسائل الحزب الديمقراطي لمعالجة هذه الملف عن الحزب الجمهوري وتيار المحافظين الجدد.

وقد اعتمد الباحثان على المنهج الوصفي التحليلي أساساً لدراسة مكونات التوجهات السياسية الأمريكية لإدارة الرئيس باراك أوباما وتحليلها، واستندا إلى العديد من الاقترابات كالمنهج السلوكي في تحليل السلوك السياسي لإدارته وتأثيره على السياسة الأمريكية بمجملها، والمنهج الاستقرائي لاستشراف الاتجاهات المستقبلية للسياسة الخارجية الأمريكية، وتحليلها سواء من حيث العوامل الدافعة لها أم العقبات التي قد تواجهها.

من الضروري قبل أن نخوض في تحليل السياسة المتوقعة لإدارة أوباما تجاه القضية الفلسطينية، أن نوضح العناصر المؤثرة في رسم السياسات المستقبلية لأي إدارة الأمريكية، وكيف تتأثر قراراتها تجاه القضية الفلسطينية. هناك ثلاثة مكونات أساسية تؤدي أدواراً مهمة في صياغة ماهية السياسة الخارجية الأمريكية، أولا: التحالف المؤسسي

بين المؤسسة العسكرية والاقتصادية، والتي تضع على رأس أولوياتها استمرار الهيمنة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية وتعزيز هيبتها ونفوذها في العالم من جهة، وهو ما يفسر لنا كثيراً من القرارات التي تتخذها الإدارات الأمريكية على صعيد التوسع العسكري. ومن جهة أخرى يشكل تعاظم الرغبة في استمرار دعم بقاء إسرائيل وأمنها وديمومته، أحد أهم ثوابتها السياسية والاستراتيجية بعيدة المدى. أما ثانيا، فهو الجهاز البيروقراطي الضخم الذي يؤدي دوراً في التحكم في آليات تنفيذ القرارات الصادرة عن مؤسسات صنع القرار. وثالثا المؤسسة السياسية الممثلة بالرئيس الأمريكي والكونغرس ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي [١] . تخضع سياسات المؤسسات الثلاث فيما يخص العلاقة الأمريكية الإسرائيلية لمؤثرات داخلية، ومصدرها جماعات الضغط المختلفة وأبرزها اللوبي اليهودي، وأخرى خارجية تمثلها القيمة الاستراتيجية التي تشكلها إسرائيل بالنسبة للمصالح الأمريكية، وتنعكس نتائجها على العديد من القرارات المتعلقة بإسرائيل والقضية الفلسطينية.

لم تكن الظروف التي رافقت تولي الرئيس جورج بوش الابن لمنصبه في الإدارة الأمريكية عادية، فتداعيات أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، لم تلق بظلالها على البرنامج السياسي لإدارته فحسب، بل على عقليتها السياسية. فهذا الاستهلال سمح- وبشكل واضح- لأفكار تيار المحافظين الجدد وأطروحاته، التي تميل أكثر إلى التوسع العسكري الأمريكي في العالم، إلى جانب دعمها الواسع للمصالح الإسرائيلية، أن تأخذ حيزا ذا أهمية في بلورة السياسات الخارجية الأمريكية ورسمها، وتطوير استراتيجياتها تجاه المنطقة. ويشكل هؤلاء قوة فكرية واقتصادية وإعلامية، ذات نفوذ مؤثر في مراكز صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة، وتسيطر أفكارهم على كثير من مراكز البحث المؤثرة في السياسات الأمريكية، والتوجهات السياسية لأعضاء الكونغرس، واتجاهات الرأي العام الأمريكي بما يدعم فكرهم، ويروج لأجندتهم السياسية. وأتيح لهم تبوّء العديد من المراكز المؤثرة في الإدارة الأمريكية، كوصول عدد منهم إلى مناصب بارزة، وبخاصة في وزارة الدفاع مثل بول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع، ودوغلاس فايث وكيل وزارة الدفاع، وريتشارد بيرل عضو المجلس الاستشاري لوزير الدفاع رامسفلد [٢] .

نتيجة لهذه المتغيرات، وتغلغل نفوذ المحافظين الجدد في أروقة الإدارة الأمريكية، تصاعدت النبرة العسكرية للإدارة الأمريكية كاستراتيجية للتعامل مع الواقع الجديد، وأعادت صياغة سياساتها واستراتيجياتها ووسائلها تجاه الشرق الأوسط، لحماية الأمن القومي الأمريكي. ومنذ أن زاد هذا التغلغل، زاد تدخلهم في التحكم بتفاصيل الصراع العربي- الإسرائيلي، وجعل السياسة الأمريكية تسير في خدمة المصالح الإسرائيلية على

حساب المصالح العربية، لما يتمتع به المحافظون الجدد من نفوذ سياسي قوي، فكثير منهم كتاب وسياسيون نافذون، ومفكرون استراتيجيون، ومحاربون قدامى، تميل أفكارهم إلى أفكار اليمين المسيحي المتطرف، وتحمل ميولاً صهيونية مغلفة بعداء شديد للعرب والمسلمين. وهم زيادة على ذلك، وثيقو الصلة بإسرائيل، وحليف متعصب لها. فساهمت أفكارهم ومراكزهم بشكل جوهري في تحديد مسار النهج السياسي الذي اعتمدته إدارة جورج بوش الابن فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي بشكل عام، وسعت باستمرار لإقناع الإدارة الأمريكية والكونجرس بهذه الفلسفة، وعملت على بلورة سياسة تجيز استعمال قوة أمريكا العسكرية للوصول إلى هذه الأهداف [٣] .

وهنا يمكن القول إن المحافظين الجدد ساهموا بشكل فاعل في توجيه البرنامج السياسي لإدارة بوش نحو الاهتمام بتبني مشروع استراتيجي يتضمن التوسع العسكري إلى ابعد حد ممكن في الشرق الأوسط، وتوظيف قيم أخلاقية تقوم على نشر الديمقراطية لخدمة أهدافها التوسعية، والهيمنة كقطب أوحد على السياسة الدولية. وقد فتحت أبوابه من خلال إعلانها الحرب على ما يسمى «الإرهاب»، حيث أصبح موضوع التحول الديمقراطي في الدول العربية والإسلامية، وإعادة تشكيل النظم السياسية، مكوناً رئيسياً من مكوناتها، وهو ما يمثل بحد ذاته تحولاً جوهرياً في تلك السياسة، التي ظلت إلى حد بعيد توازن بصورة تقليدية ما بين صيانة مصالحها الحيوية وضمان استقرار النظم الصديقة من ناحية، وبين مطلب الديمقراطية وحقوق الإنسان من ناحية أخرى [٤] .

على صعيد الملف الفلسطيني- الإسرائيلي، تسلمت الإدارة الأمريكية هذا الملف من سابقتها مدججاً بجملة من التعقيدات، أهمها، زخم انتفاضة الأقصى وتصاعد صبغتها العسكرية، وتراخي تداعياتها على الرأي العام العالمي. المأزق الذي بات يكتنف مسار السلام الفلسطيني- الإسرائيلي، ومعضلة تجسير الفجوة بين مواقف الطرفين. وأخيراً، غياب ثقة طرفي الصراع بعضهما ببعض، وبخاصة الطرف الإسرائيلي الذي شكك بقدرة القيادة الفلسطينية (ياسر عرفات) على صنع السلام. ولذلك، وفي خضم التحولات التي طرأت على السياسة الأمريكية، كان لابد من التوجه نحو صيغة جديدة للتعامل مع الوضع القائم.

في البداية، كانت رغبة إدارة بوش واضحة في أن سياستها سوف ترتكز على التخلص من الموروث السياسي لإدارة كلينتون، والتنصل من أفكاره ومقترحاته التي قدمها في نهاية عهده، والخاصة بحل النزاع، والتمسك بممارسة دور محدود، لا يتجاوز «إدارة الأزمة» وعدم إقحام نفسها في الصراع الدائر، والبحث عن حلول لأزمة تزداد تعقيدا [٥] .

وهو ما روج له في حملته الانتخابية في الفترة الرئاسية الأولى، وتحدث كثيراً عن رغبته في عدم الانهماك في شأن الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي من خلال الالتزام بسياسة (Hands- off) ، وهو ما يفسر استبعاده لمنصب «مبعوث السلام للشرق الأوسط» [٦] .

ارتبط هذا الأمر بإدراك إدارة بوش تعقيدات الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي، و «عبثية» السلوك الذي انتهجته إدارة كلينتون في التعامل مع هذه المسألة. وأنها اندفعت بعيدا وراء النهج الدبلوماسي التوفيقي بين طرفي الصراع. ومن الواضح أن إدارة بوش استخلصت عبراً من دراسة ملف المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، أهمها استحالة التوصل إلى اتفاق في عهد شارون وعرفات، حتى لو كرست وقتها وجهدها للمفاوضات. فقد رأت أن الساحتين لم تنضجا بعد للحل، واستئناف المفاوضات على هذا المسار يعد مسألة شائكة، واستنزافا للوقت والجهد. فهي تعرف أن عرفات لن يتنازل في مسألتي القدس واللاجئين، وشارون لا يملك مشروعا سياسيا يصلح لاستئناف المفاوضات والتوصل إلى اتفاق مع الفلسطينيين، ويُعرف عنه معارضته لما قدم في كامب ديفيد الثانية. ففلسطينيا كانت ترى أن القيادة الحالية، وخصوصا ياسر عرفات، لم تعد مؤهلة لقيادة الطرف الفلسطيني في المفاوضات نتيجة للعقلية السياسية التي تنتهجها، ومحاولتها توظيف العمل العسكري لتقوية الموقف السياسي [٧] . وإسرائيليا، استخلصت من قراءتها للخارطة الحزبية المكونة للحكومة الإسرائيلية القائمة، أنها قادرة على إجهاض عملية السلام في بدايتها. وهو ما جعلها تدرك جيدا أن استئناف المفاوضات يتطلب تصادما مباشراً مع شارون وحكومته، وأنها في هذا الوقت ليست مضطرة لممارسة ضغوط جدية عليه، والدخول في صدام معه[٨].

إلى حد بعيد بقيت إدارة بوش تدور في الرحى نفسه، من حيث عدم التدخل في الصراع وطرح مبادرات سياسية للحل، والمحافظة على علاقة هادئة مع إسرائيل وعدم التصادم معها. فكانت تشعر أن الضغط على إسرائيل سوف يضعها في مواجهة ضغوط الكونغرس ووسائل الإعلام، وهو ما رأت أنها يجب أن تبقى في حل منه. ولذلك تميزت حقبته الرئاسية بعدم وضع القضية الفلسطينية ضمن أولوياتها، والابتعاد عن طرح مبادرات جدية لحل الصراع. والاعتقاد الذي ساد رأى أن الولايات المتحدة ليست على عجل من أمرها لطرح مبادرة أمريكية، وأن ذلك سوف يكون ممكناً بعد الانتصار على صدام حسين في العراق وليس قبله، حيث سوف يكون الوضع مواتياً لطرح التصورات، وفرض الشروط [٩] ، ولاسيما أنها فضلت ترك المواجهة الإسرائيلية الفلسطينية تأخذ مداها في الشارع دون تدخل منها، وكان التقدير أن القوة العسكرية الإسرائيلية قادرة على إخضاع الطرف الفلسطيني، وتطويعه، وخلق بيئة سياسية جديدة متناغمة مع النهج العام للإدارة الأمريكية [١٠] .

إن من أبرز ما يمكن أن يشار إليه من ركائز اعتمدتها الإدارة الأمريكية في التعاطي مع القضية الفلسطينية هو الدفع نحو إطار جديد من التعامل يهدف إلى إعادة صياغة العلاقة مع السلطة الفلسطينية، وتهيئة الوضع الفلسطيني لقبول تصوراتها بخصوص قضايا الأمن والحل النهائي، من خلال تغيير الواقع السياسي والثقافي الفلسطيني، وخلق بيئة سياسية جديدة في المجتمع الفلسطيني متناغمة مع النهج العام للإدارة الأمريكية. فالولايات المتحدة لم تعد ترى جدوى في إبقاء علاقتها مع القيادة الفلسطينية قائمة على النحو ذاته منذ أوسلو، ولاسيما أن من كان تعوّل عليه المساعدة في تنفيذ تصوراتها لم يعد مؤهلا لذلك، وأن الجيل الذي نشأ في مرحلة أوسلو هو الذي قاد الانتفاضة الفلسطينية الثانية (١١) . وقد أثار الكونجرس الأمريكي ذلك بالحديث عن وظيفة السلطة الفلسطينية بالمقارنة مع الصيغة التي نشأت عليها، والدور الذي تؤديه أجهزتها الأمنية في تهديد أمن إسرائيل. واتجه نحو سحب الاعتراف السياسي بالقيادة الفلسطينية وبالأخص ياسر عرفات، ورأى أن الاستمرار في التعامل معها بعقيدتها وأسلوبها وتوجهاتها السياسية، لا يمكن أن يخدم الاستراتيجية الأمريكية الجديدة القائمة على توسيع تحالفاتها في الشرق الأوسط، وتعجيل إنهاء الصراعات التي تؤثر على مصالحها في المنطقة (١٢) . ولعل هذا كان له دور كبير في تبني الولايات المتحدة وجهة النظر الإسرائيلية فيما يتعلق بعدم أهلية القيادة الفلسطينية لصنع السلام، واعتبار منظمات المقاومة الفلسطينية وجهاً فلسطينياً «للإرهاب» الذي لا يهدد إسرائيل فحسب، بل إنه متصل بالشبكات «الإرهابية» الأخرى في العالم (١٣) . وقد مهد لذلك لأن يصبح التعامل الأمريكي مع السلطة الفلسطينية منضوياً تحت إطار الحملة الدولية على الإرهاب.

ولذلك ركزت الإدارة الأمريكية على السير ضمن سياسية الخطوة– خطوة، والتي تشمل أمرين، الأول: عدم التورط بتقديم مقترحات محددة للحل، والاقتصار على تقديم إطار عام لذلك مثله رؤية الرئيس بوش. والثاني: الترويج البطيء للحل ضمن قاعدة السلام المشروط الذي يعتمد على تغيير الواقع السياسي الفلسطيني، وإعادة صياغة البنية السياسية والثقافية والأمنية الفلسطينية كمقدمة لبدء المفاوضات. وهو ما يبقيها بعيدة عن الضغط على إسرائيل، ولا يحملها مسؤولية التعجيل في دفع عملية السلام، ويلقي بذلك على الفلسطينيين (١٤) .

نجحت إسرائيل في استغلال متغيرات ما بعد ١١ أيلول لتحقيق مطلبين أساسيين، الأول زيادة الدعم الأمريكي لها في المجالات المختلفة عسكريا واقتصاديا وسياسيا، والثاني دفعها إلى التخلي عن ممارسة دور الوسيط Mediator بين طرفي الصراع، وهو ما نجحت في تحقيقه بدعم كبير من تيار المحافظين الجدد، والذي مهد لزيادة التقارب

والتوافق- أكثر من أي وقت مضى- بين السياسات الأمريكية والإسرائيلية، فيما يخص القضية الفلسطينية، وتحولها إلى أخرى تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية، ومواقفها، وتصوراتها للتعامل مع المسألة الفلسطينية [١٥].

حملت هذه المرحلة وعداً أطلقه بوش لرئيس الوزراء الإسرائيلي أرئيل شارون، يتضمن ضمانات لإسرائيل تعطيها الحق في التحكم في تفاصيل معالجة القضية الفلسطينية، وان لا تمارس الولايات المتحدة ضغوطا عليها في أي اتجاه كان [١٦]. من الصعب إهمال هذا الأمر لما يحويه من أهمية تتعلق بما سوف يتركه الرئيس بوش لخلفه، كون ذلك يعيد صياغة الدور الأمريكي تجاه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. بمعنى أن إدارة بوش جعلت الإطار الحاكم للدبلوماسية الأمريكية يقتصر على الالتزام فقط بدور «المسهّل» Facilitator للمفاوضات، وعدم ممارسة أي دور في الصراع من حيث طرح مبادرات للحل، أو تقريب وجهات نظر ومواقف الطرفين، وان تبقى الضامن Guarantor لإسرائيل بالتصدي لأية ضغوط يمكن أن تمارسها أطراف عربية أو دولية عليها، أو أي محاولات من قبلها للتدخل في الصراع وطرح مبادرات للحل. وبالتالي فإن درجة التزام الولايات المتحدة لن تكون بالقدر الذي يؤثر من الناحية العملية على الطرف الإسرائيلي، بحيث يترك الطرف الفلسطيني في مواجهة طرف إسرائيلي مسلح بكل أدوات الضغط السياسي، والاقتصادي، والعسكري، والإعلامي، فيما يفتقد الطرف الفلسطيني لذلك.

منذ أن تغيرت موازين القوى في الساحة الفلسطينية (أي بعد الانتخابات التشريعية وفوز حركة حماس بها وتشكيلها للحكومة الفلسطينية) بما لا يخدم السياسة الأمريكية، حرصت الإدارة الأمريكية على العمل في اتجاهين: الأول يهدف إلى الانتقال بالوضع الفلسطيني من أزمة إلى أخرى، للتخلص من التحول في مراكز القوى، من خلال فرض حصار وقيود على الحكومتين اللتين شاركت فيهما حركة حماس. فيما ارتكزت توجهاتها السياسية على تشديد التباعد والانقسام الداخلي الفلسطيني وتصعيد المواجهة بين حماس وفتح ما يمكّن من إلغاء نتائج انتخابات ٢٠٠٦ وإعادة رسم الخارطة السياسية الفلسطينية على نحو جديد يدعم رؤيتها وسياستها في المنطقة [١٧]. وثانيا: تحويل ملف المفاوضات إلى ملف هامشي وتوظيف الاهتمام الشكلي به لإضفاء صفة شرعية على ترتيبات جديدة بالمنطقة، والتفرغ لملفات أخرى تتعلق بالعراق وإيران وسوريا. فقد كان ملحوظا تسابق الإدارة الأمريكية مع الزمن لفرض حل ما للقضية الفلسطينية كي لا يبقى هذا الملف جامدا دون حراك، والإبقاء على عملية التفاوض والتقارب الفلسطيني الإسرائيلي مستمراً بصورة دائمة، ولا يتأثرا بمدى جدية أو إمكانية إنجاز أي اتفاق، ليوحي باستمرار الجهود الأمريكية لتطبيق خارطة الطريق [١٨].

تضعنا هذه القراءة أمام استنتاج رئيس هو: أن الإدارة الأمريكية عمدت إلى تجاهل بحث حل القضية الفلسطينية حتى السنة الأخيرة من عمرها، وارتكزت في معاملة الملف الفلسطيني بوصفه جزءاً من الحملة الدولية على الإرهاب، وليس باعتباره ملفاً جوهرياً يساهم حله في إرساء الهدوء في الشرق الأوسط بشكل كبير. وهو ما دفعها لتجنب الخوض في الصراع من زاوية تقريب وجهات النظر نحو الحل، بل الميل الشديد نحو التخلي عن دورها الوسيط في ذلك، وجعل دورها وسياساتها تركز على تمهيد الطريق أمام إسرائيل لتغيير مفاهيم وأسس حل الصراع، وفرض صيغ جديدة للحل، وتغيير المنطلقات الحاكمة لعملية السلام والحل النهائي من خلال إعطائها هامشاً واسعاً من الحرية وفق استراتيجية فرض الحقائق على الأرض تتجاوز من خلالها مرجعية قرارات الأمم المتحدة، أو حتى المبادرة العربية. وتعبر هذه الاستراتيجية عن رغبة واضحة لدى الإدارة الأمريكية بعدم تقديم مبادرة جدية لحل الصراع، والضغط على إسرائيل لإبداء مرونة أكبر في القضايا الحساسة في عملية التسوية، وركزت جهودها على العمل بإطار مواز لتهيئة الوضع الفلسطيني على صعيد القيادة السياسية والأمنية لقبول هذا الحل، وتغيير المنطلقات والأسس الفلسطينية لعملية التفاوض وإيصال مطالبهم إلى السقف الذي يمكن أن تقبل به إسرائيل فيما يخص قضايا اللاجئين والقدس والمستوطنات.

هناك أربعة متغيرات أساسية ميزت الموروث السياسي لإدارة بوش فيما يخص القضية الفلسطينية:

- **أولها: فيما يتعلق بالتعهدات التي قدمتها الإدارة الأمريكية للحكومة الإسرائيلية في نيسان عام ٢٠٠٤ ضمن رسالة الضمانات،** التي تؤكد التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل كدولة يهودية، وأن يكون ذلك أساسا ملزما لأي توجه أمريكي نحو حل الصراع، وهو ما يرد نصاً في رسالة الضمانات «[**بأنّ] الولايات المتّحدة ملتزمة كل الالتزام بأمن إسرائيل ورفاهيتها كدولة يهودية**» [١٩].

يحمل هذا الموروث أبعاداً مهمة على صعيد الأسس التي سوف ترتكز عليها توجهات السياسة الخارجية الأمريكية في التعامل مع الملف الفلسطيني. فهي من ناحية تضع محددات أساسية تحكم رؤيتها للحل، والتي تتضمن الحل على أساس أن إسرائيل دولة للشعب اليهودي، وفلسطين دولة للشعب الفلسطيني. ما يعني أن نقطة انطلاق المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية، والخطوط العريضة لأي اتفاق بينهما سوف ترتكز على مبدأ الاعتراف بيهودية الدولة. وبذلك تجعل من أي سياسة أو رؤية أمريكية تتجاهل الإصرار الإسرائيلي على ذلك، خطأً أحمر في أي تسوية سياسية مع العرب والفلسطينيين.

ومن ناحية أخرى فان ذلك ينعكس على الرؤية الأمريكية لشكل الدولة الفلسطينية المستقبلية في ظل الضمانات التي قدمتها لإسرائيل بالتعامل مع الحقائق على أرض الواقع كمنطلق أساسي في أي تسوية مع الفلسطينيين. هذا الأمر يجعل الولايات المتحدة تتمسك من حيث المبدأ بأن أي اتّفاق حول الوضع الدائم يجب أن يعكس هذه الحقائق، وبخاصة فيما يتعلق بقضية القدس، وبقائها عاصمة موحدة لإسرائيل، وقضيتي الاستيطان واللاجئين. والذي بدوره سوف ينعكس على طبيعة الدور الأمريكي فيما يتعلق بتغيير الرؤى والقرارات المحددة لحل الصراع، لتأخذ في الحسبان عدم المس بوحدة القدس، والمستوطنات الكبرى، وبقاء حق العودة متاحاً في حدود الدولة الفلسطينية القادمة، وأن أي حل لهذه القضية مستقبلاً يجب أن يكون في الدولة الفلسطينية وليس في الدولة اليهودية [٢٠].

- وثانيها: **فيما يتعلق بالإسهام الفعلي للولايات المتحدة في تحديد السياسات العامة للسلطة الفلسطينية**، والإشراف المباشر على تطبيقها. فقد قامت سياسة الإدارة الأمريكية على تحديد دقيق ومباشر للالتزامات السلطة الفلسطينية وبخاصة فيما يتعلق بالسياق الأمني، والتحكم في تفاصيل إجراءاتها وسياساتها من خلال خطط حملت عناوين الإصلاح الأمني والسياسي، أعدها واشرف على تنفيذها كبار الجنرالات الأمريكيين كالجنرال كيت دايتون، وليام أبرامز. وقد سجل ذلك تطوراً في الدور الأمريكي، من وضع الشروط والالتزامات إلى التدخل المباشر في إعادة صياغة التركيبة السياسية والإدارية للسلطة الفلسطينية ووضع الخطوات العملية لأدائها وإجراءاتها، والتأثير فيها على نحو يدعم توجهها لإحداث تغييرات جوهرية في النظام السياسي الفلسطيني، والذي أصبح فاعلاً في تحديد شكل علاقات السلطة مع القوى الفلسطينية الداخلية من جهة، ومع إسرائيل من جهة أخرى [٢١] .

- وثالثها: **وهو ما سوف يترك موروثاً هائلاً أمام إدارة أوباما يتلخص بما يسمى صراع المحاور على الساحة الفلسطينية**، وتمكن القوى الإقليمية من تعزيز وجودها فيها كواحدة من أهم المحاور الاستراتيجية الحساسة على المستوى الإقليمي والدولي، ورغبة الأطراف المختلفة الإمساك بالورقة الفلسطينية كعنصر ضاغط وداعم لمصالحها. فدول الإقليم تمارس دوراً مركزياً ومؤثراً في تفاصيل القضية الفلسطينية، والذي مهد أمامها الطريق لممارسة أدوار حاسمة تتحكم من خلالها بمجريات الأمور فيما يخص العلاقة الفلسطينية– الفلسطينية، والفلسطينية الإسرائيلية، وباتت تتحكم في معظم مفاتيح الصراع، وممارسة أدوار مهمة وحاسمة في كثير من الأحيان في تحديد حالة السلم والحرب على هذا الصعيد، والتأثير على مستقبل أي تسوية بين الجانبين، بحيث أصبح القرار الفلسطيني محكوماً إلى حد ما بهذه العلاقات. وقد تعاظم دورها أيضا في التأثير في علاقات القوة الفلسطينية مع بعضها بعضاً [٢٢] .

- **ورابعها: توحيد جهود المجتمع الدولي لحل القضية الفلسطينية ضمن إطار دولي جديد عرف بـ «اللجنة الرباعية»**. ويؤدي إنشاء اللجنة الرباعية دوراً في إضفاء شرعية دولية، والانطلاق نحو رؤى جديدة لأي حل يمكن أن يتم التوصل إليه، عوضاً عن الارتكاز على المرجعيات الدولية أو العربية وقراراتها في هذا الشأن كمحددات للحل. وهو ما يعني وضع آلية دولية جديدة هدفها تقديم الدعم لهذه الرؤى (٢٣) . وفي ذلك تقويض للدور الدولي أو بالأحرى إضعافه فيما يخص أن تبادر القوى الدولية في طرح تصورات جديدة لحل الصراع تتناقض مع ما طرح في خارطة الطريق، والإبقاء على خارطة الطريق المحدد الأساسي للعمل الدولي.

مفهوم التغيير عند باراك أوباما:

إن التغيير الذي يطمح إليه باراك أوباما فيما يتعلق بعلاقة بلاده مع دول الشرق الأوسط يجسدها رغبته في إخماد العنف المتزايد بالمنطقة، ومعالجة النفور المتنامي من قبل المسلمين والعرب تجاه الولايات المتحدة، والذي يلقي بتداعياته السلبية على المصالح الأمريكية في المنطقة (٢٤) . فهو يعتقد أن سياسات إدارة بوش قد أضرت بهذه المصالح، وزادت التهديدات لأمن إسرائيل. لذلك يحاول من خلال نهج التغيير الذي يروج له إظهار التمايز عن إدارة سلفه، ولاسيما قيما يتعلق بمعالجة ملفات الشرق الأوسط. (٢٥) .

تنطلق استراتيجية أوباما للتغيير من منظور أن الولايات المتحدة والعالمين العربي والإسلامي تجمعهما مصالح مشتركة، وان على الولايات المتحدة إعادة النظر في العلاقة الأمريكية- الإسلامية من منظور مختلف يرتكز على تحقيق هذه المصالح، وتحقيق آمال الناس وأحلامهم بغض النظر عن عقائدهم. لذلك فان أوباما يرى ضرورة إصلاح العلاقة الأمريكية الإسلامية، ورأب الصدع الذي خلفته سياسات الإدارة السابقة (٢٦) . من هنا يرى أوباما أن التغيير يجب أن ينطلق من إعادة النظر في العلاقة الأمريكية مع دول العالم العربي والإسلامي، والتفرقة بين الإسلام والإرهاب، وأن الولايات المتحدة ليست في حرب مفتوحة مع العالم الإسلامي، بل إنها في مواجهة فقط مع منظمات تتخذ من الإسلام ستارا لتبرير هجومها على المصالح الأمريكية، وأن الولايات المتحدة تتعامل مع مناطق النزاع كل على حدة، وليس ضمن سياسة شاملة تربط الإسلام بالإرهاب. وهنا يرى أوباما أن مهمته هي إيصال حقيقة أن للولايات المتحدة مصلحة في خير العالم الإسلامي، وتغيير نظرة العالم الإسلامي عن الأمريكيين، وأن أميركا ليست عدواً للمسلمين، بل تربطهم مصالح مشتركة، وأن اللغة التي سوف تستخدمها إدارته ستكون لغة تتسم بالاحترام فيشير إلى ذلك بقوله: «**إذا نظرنا إلى المنطقة ككل، وبعثنا برسالة إلى العالم العربي والعالم**

الإسلامي بأننا مستعدون لبدء شراكة جديدة قائمة على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة، فعندئذ، على ما أعتقد، نستطيع أن نحقق تقدماً فعلياً... ومهمتي الآن هي إيصال حقيقة أن للولايات المتحدة مصلحة في خير العالم الإسلامي، وأن اللغة التي نستخدمها ستكون لغة تتسم بالاحترام» [٢٧] .

لذلك فان نجاح الولايات المتحدة في تعزيز علاقتها بالعالم الإسلامي على أسس من الاحترام والمصالح المشتركة، بعيداً عن سياسة الاستعلاء والقوة، سوف يسحب الحجج من الحركات الإسلامية التي تروج إلى مواجهتها لحرب أمريكية على الإسلام. وما يتضح من نهج التغيير الذي ينشده أوباما هو محاولته الاقتراب أكثر من العالم الإسلامي وكسر الحاجز الذي وضعه سلفه، والتمييز بين منظمات على غرار القاعدة، وبين أناس قد يختلفون مع السياسات الأمريكية وأفعالها.

ولعل هذا التوجه يثير فروقا بين إدارته للسياسة الخارجية الأمريكية عن سلفه جورج بوش من حيث التخلي عن مفهوم الضربة الاستباقية في السياسة الخارجية الأمريكية، والتخلي عن سياسة «من ليس معنا فهو ضدنا» وعسكرة المجتمع الدولي. بينما أوباما يميل للدعوة للحوار والدبلوماسية، وإبداء الاستعداد للإصغاء، وبناء الجسور مع العالم الإسلامي وتفهم قضايا الشعوب العربية والإسلامية، والظهور بوجه أكثر إنسانية وأكثر شعبية فيما يخص سياسات إدارته.

ملامح التغيير في سياسة أوباما تجاه القضية الفلسطينية:

إن وجهة النظر المعلنة لباراك أوباما حول حل الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي متطابقة إلى حد كبير مع ما طرحه الرئيس بوش في رؤيته وما جاء في خارطة الطريق. فهو يؤيد مبدأ قيام دولتين كأساس لحل الصراع، ومساندة التوصل إلى حل النزاع عن طريق المفاوضات [٢٨] . كما لا تختلف وجهة نظره عن سلفه فيما يخص ثوابت السياسة الأمريكية وأولياتها تجاه العلاقة مع إسرائيل، والتي تستند إلى الدعم المطلق لبقائها وأمنها، واحتفاظها بتفوق نوعي على دول المنطقة في المهارات والقدرات العسكرية، وتقديم الدعم لها في إبقاء القدس عاصمة موحدة وخاضعة لسيادتها [٢٩] .

ولذلك فانه ينطلق في تعامله مع الملف الفلسطيني من أمور أساسية ثلاثة:

- **أولها**: تفادي الوقوع في أخطاء الإدارات السابقة، وتأجيل البت في حل الصراع إلى نهاية الولاية الرئاسية على غرار بيل كلينتون وجورج بوش الابن. فطالما انتقد الأخير الذي انشغل بالحرب على العراق ولم يركز بشكل كاف على عملية السلام. ولذلك

يعتقد باراك أوباما أن التغيير يجب أن يبدأ أولاً بالمشاركة الفورية والمباشرة في دفع عملية التفاوض إلى الأمام، وتقديم الدعم اللازم للطرفين الفلسطيني والإسرائيلي لتذليل العقبات التي ستواجههما، وتوفير الظروف الملائمة عربياً ودولياً لتأمين فرص نجاح هذه المفاوضات (٣٠) . وعليه بدأت وعوده الانتخابية تأخذ طريقها إلى التنفيذ بتعيين جورج ميتشل كشخصية لها مكانتها، وذات سمعة واسعة في حل الصراعات، كمبعوث للسلام في الشرق الأوسط، وهو المعروف بخبرته ونجاحه في إحلال السلام في ايرلندا، والمتمتع بالتصميم والصبر ونوع من التوازن، ويحظى بقبول إلى حد كبير من طرفي الصراع (٣١) .

خلافا لما كان عليه الحال في عهد إدارة بوش، لا ينظر باراك أوباما إلى المفاوضات أنها غاية، وإنما وسيلة يجب أن لا تستمر إلى ما لا نهاية. فهو يسعى إلى تحريك المفاوضات وإيجاد حل جزئي في هذا البند أو ذاك، ويعتقد أن تحقيق أي تقدم ملموس يمكن أن يعد انجازا(٣٢) . ولكن يحرص أوباما على تجاوز خطأ بوش بوضع أهداف لا يمكن بلوغها كالحديث عن دولة فلسطينية نهاية ٢٠٠٨، أو طرح مبادرات للحل، أو حتى تحديد إطار زمني لقيام الدولة الفلسطينية، فهو يتحدث عن إمكانية قيام دولة فلسطينية ولكن لا يتحدث عن قدرة إدارته على تحقيق ذلك، أو إمكانية أن يتحقق ذلك في فترته الرئاسية، وهو ما يدلل على رغبته في اتباع دبلوماسية إدارة الأزمة، وان هناك سقفاً للتغيير الذي يتحدث عنه (٣٣) .

وعلى الرغم من أن باراك أوباما يتخذ أساليب جديدة في التعامل مع الصراع، فإنه لا يختلف عما درجت عليه السياسة الأمريكية في تجنبها الضغط على إسرائيل، ويفضل أن يترك للفلسطينيين والإسرائيليين اتخاذ القرارات دون أن يكون هناك دور أمريكي ضاغط على إسرائيل. يوحي ذلك بالتزام أوباما بمضمون رسالة الضمانات التي وجهتها إدارة بوش لحكومة شارون، والتي في نهاية المطاف، سوف تضمن لإسرائيل أن تؤخذ الحقائق على الأرض في عين الاعتبار في أي تسوية مع الفلسطينيين، وان لا تمارس الولايات المتحدة ضغوطاً عكس ذلك عليها.

- **وثانيها**: هو اعتقاد أوباما أن حل الصراع مصلحة أمريكية قبل أن يكون مصلحة إسرائيلية، وأن إقامة دولة فلسطينية سوف يخدم الأمن القومي الأميركي، وليست مجرد مصلحة فلسطينية أو عربية أو إسرائيلية. يدرك أوباما أنه لن يكون بمقدور الولايات المتحدة أن تحقق أهدافها في الشرق الأوسط ما لم تتعامل مباشرة مع الصراع العربي الإسرائيلي، وان تسعى جدياً لحل الصراع الفلسطيني– الإسرائيلي (٣٤) . لذلك بدأ يرى ضرورة النظر في المطالب العربية، وإعادة الاعتبار لمبادرة السلام التي طرحتها الدول العربية، واعتبارها إحدى ركائز عملية السلام، في الوقت الذي لم تحظ بالاهتمام الكاف من قبل إدارة بوش(٣٥)

. يعد ذلك خطوة كبيرة في نظرة الولايات المتحدة إلى كيفية معالجة الصراع ولاسيما أن إدارة أوباما تنظر إلى عملية السلام من منظور شامل وواسع، ولا يقتصر على الصراع الفلسطيني الإسرائيلي فحسب. فهي تدرك حاجة إسرائيل لحماية أمنها، وفي المقابل ترى أهمية الأخذ في الاعتبار مطالب العرب، ورغبتهم في إنهاء الاحتلال لأراضيهم، وقيام دولة فلسطينية، وان حلحلة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي يعد مدخلاً أساسياً ومهماً لحلحة قضايا المنطقة المختلفة [٣٦] . من هذا المنطلق يأتي تركيز أوباما على عملية السلام الفلسطينية–الإسرائيلية ضمن اهتمامه العام بتغليب الدبلوماسية كأداة للسياسة الأميركية في الشرق الأوسط. فهو يرى أن الإستراتيجيات المختلفة التي اتبعتها إدارة بوش فشلت في إدراك مدى أهمية التسوية السلمية للصراع كأداة لتخفيض وتيرة الإرهاب، وحماية المصالح الأمريكية.

يقودنا ذلك إلى التفكير في العقلية التي ينتهجها أوباما في نظرته لحل الصراع العربي الإسرائيلي– وهنا يكمن جوهر التغيير– ، أن أوباما يريد أن يتعامل مع ملفات المنطقة جميعها بشكل مترابط، وكرزمة واحدة تستند على إعطاء المبادرة العربية قيمة أكبر، لإدراكه صعوبة التفكير من منطلق النزاع الفلسطيني الإسرائيلي فقط دون التفكير من منطلق ما يجري في سورية ولبنان [٣٧] . فهو يعتقد أن الإدارة الأمريكية يمكن أن تجني تقدماً في عملية السلام إذا ما بعثت برسالة إلى العالم العربي بأن الولايات المتحدة مستعدة لبدء شراكة جديدة قائمة على الاحترام المتبادل والمصالح المشتركة. يجسد ذلك اختلافاً في كيفية إدارة باراك أوباما للسياسة الخارجية عن ما درجت عليه إدارة جورج بوش الابن، من حيث التعامل مع الصراع بصورة جزئية دون النظر إلى الترابطات والتعقيدات الإقليمية، والأدوار التي تؤديها القوى الإقليمية في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، إلى جانب جعل الدور العربي دوراً شكلياً قُصد منه خدمة سياسات أخرى تتعلق بالعراق وإيران ولبنان.

- **أما الثالث**: هو بدء مرحلة جديدة من البرجماتية والتواصل مع جميع الأطراف، ويتوقع من خلال هذا الأسلوب أن تبتعد الإدارة الأمريكية إلى حد ما عن أسلوب التعامل الفوقي الذي مارسته إدارة الرئيس بوش، وأن تبدأ بالاستماع دون أن تبدأ بالإملاء كما درجت عليه سياسة بوش، وهو ما يعتبره أحد المهمّات الأساسية الملقاة على عاتق جورج ميتشل [٣٨] . يؤشر ذلك إلى محاولة أوباما التظاهر بأن عهده يشكل قطيعة عن سلفه، وفتح صفحة جديدة في إطار من دبلوماسية عالية ورفيعة المستوى. لكن ذلك لا يؤشر إلى أن الإدارة الأمريكية سوف تفتح حواراً مباشرا مع حماس، إلا انه من المرجح أن تتخذ خطوات نحو الحوار مع الدول التي تعدُّ داعمة أساسية لها كإيران وسوريا، والتي يمكن

أن تؤثر في سياساتها حيث يقول أوباما: «أنا أعتقد جازما أنه يستحيل علينا أن نفكر من منطلق النزاع الفلسطيني الإسرائيلي فقط ولا نفكر من منطلق ما يجري في سورية وإيران ولبنان وأفغانستان وباكستان. فهذه الأمور كلها متداخلة..[و] أعتقد بأنه من المهم لنا أن نبدي استعداداً للتحدث إلى إيران، للتعبير بكثير الوضوح عن أين تكمن خلافاتنا وللتعبير عن أن هناك مجالات ممكنة لإحراز تقدم فيها» (٣٩) . وهنا يدرك باراك أوباما حجم الموروث الذي تركه الرئيس بوش فيما يخص مساهمة سياساته في تغلغل القوى الإقليمية في الساحة الفلسطينية، وكيف تطور ذلك إلى صراع للمحاور فيها، وأصبحت تؤدي دورا مهما في التأثير في نجاح أو فشل أي تسوية يمكن أن يصل إليها طرفا الصراع. ولذلك فان استراتيجية التغيير التي يعتمدها ترى ضرورة فتح أبواب الحوار مع أنظمة مثل سوريا وإيران، والعمل على احتوائها، على أمل أن يؤدي ذلك إلى احتواء حماس ودفعها نحو تغيير سياساتها.

عقبات تواجه التغيير:

تقف أمام باراك أوباما مجموعة من العقبات التي يمكن أن تحول دون تحقيق ما يطمح إليه من تغيير. فصحيح أن إدارته أبدت حرصها على القيام بدور نشط في القضية الفلسطينية، إلا أن هناك جملة من العقبات التي تحول دون الانغماس مباشرة، وبشكل فعّال في عملية تسوية جادة وذات مصداقية، ما يضع عبئا مضاعفا على الإدارة الأمريكية، **وتتمثل هذه العقبات بـ:**

- **أولا- العقبة الذاتية:**

وتتمثل في السياسة التي اتبعتها إدارة جورج بوش الابن في التعاطي مع الوضع الفلسطيني، وافتقاد سياساته للمصداقية بفعل إسرافه في سلوك منطق المعايير المزدوجة التي مالت كفتها لصالح إسرائيل. في المقابل ركزت على إثارة الأزمات في الداخل الفلسطيني وتكريس الانقسام، ودعم أطراف فلسطينية على حساب تهميش أخرى، والانقلاب بشكل واضح على أجندة نشر الديمقراطية، من خلال إجهاض مسيرة التحول الديمقراطي الفلسطيني (٤٠) .

كما أن السياسة الأمريكية في عهد بوش الابن اعتمدت على شراء الوقت لصالح إسرائيل لفرض وقائع جديدة لتغيير معالم التفاوض وأسسه حول حل الدولتين. وبالتالي سوف تكون خارطة الطريق- والتي لم يشر أوباما إلى رغبته في التخلي عنها- أحد مواريث الحقبة السابقة. وما هي إلا وسيلة جاءت لوضع ضغوط على الفلسطينيين في سبيل التجاوب

إلى ابعد مدى ممكن مع مطامح إسرائيل في أمنها. وكانت ذاتها إحدى المعوّقات التي وضعت في رحى التقدم نحو حل الصراع، كونها لم تأت بقصد التأسيس لعملية سلام فاعلة، بل ركزت بشكل أساسي على خدمة الأمن الإسرائيلي وتجاهل المطالب الفلسطينية، وتضمنها لخطوات يصعب تحقيقها على المدى القريب. يؤشر ذلك إلى عبثية بناء أوباما سياسته للتعاطي مع الصراع على جهود إدارة بوش. إذ يأتي بالاعتقاد أن خارطة الطريق كموروث تركته إدارة بوش لن يخدم رغبة أوباما في إحداث تقدم على المسار الفلسطيني الإسرائيلي، وسوف يعود بهذه المسألة إلى حيث بدأت، وهي النظر في الرغبة الأمنية الإسرائيلية دون تحقيق أي تقدم على مستوى الرغبة الفلسطينية في الدولة [٤١] . لذلك يتطلب الأمر إعادة تقويم خارطة الطريق، والأخذ بالاعتبار التوازن في الواجبات تجاه عملية السلام، وهو ما سوف يطرح أمامه خيار العودة إلى مقترحات كلينتون كأساس للحل. فقد يكون من المجدي للإدارة الأمريكية أن تضغط في اتجاه العودة لما طرحة كلينتون من أفكار، كون ذلك لم يكن مرفوضاً إسرائيلياً، وفي مقابل ذلك يلتقي مع جوهر ما جاء في المبادرة العربية للسلام التي يرغب أوباما في أخذها في عين الاعتبار وعدم تجاهلها.

♦ ثانيا- إسرائيل والعقلية السياسية الجديدة:

كما يبدو من خلال ما تطرحه الحكومة الإسرائيلية من برنامج سياسي يحمل خطوطاً حمراء ذات صلة بالقضايا المرتبطة بحل الصراع، أنها تتمسك بمواقف على نقيض تام مع فكرة حل الدولتين. فالحكومة الإسرائيلية تتكون من حزب الليكود وتوليفة من الأحزاب الدينية اليمينية مثل شاس وإسرائيل بيتنا، وهي أحزاب لا تقبل التوصل إلى تسوية مع الفلسطينيين تتضمن أي تنازلات فيما يتعلق بالمستوطنات أو القدس أو اللاجئين. ذلك لأن برنامجها السياسي يختزل مستقبل حل الصراع في «السلام الاقتصادي»، وهو مشروع يرتكز على تحسين البنية الاقتصادية للفلسطينيين بشكل أساسي، ويقيد الجهود الدبلوماسية في حدود التدابير «المسكنة» مثل إزالة نقاط التفتيش، وتعزيز قوات الأمن في الضفة الغربية. ويتعارض هذا الأمر مع رؤية إدارة أوباما بشأن حل الدولتين، لاعتقادها أن «السلام الاقتصادي» لن يحقق السلام، وان الحل يجب أن يكون سياسياً أولا، وان يؤمن المصالح الحيوية للشعبين [٤٢] .

لا تدخل المفاوضات مع الفلسطينيين ضمن أولويات الحكومة الإسرائيلية، فهي تضع أولوية معالجة «الملف الإيراني» على رأس الهرم، وإن كانت لا ترهن التقدم في الملف الفلسطيني بالتقدم الأميركي في الملف الإيراني. يدرك نتنياهو أهمية عدم التصادم مع الإدارة الأمريكية، ولاسيما أن ذلك قد يؤدي إلى تراجع في حجم الدعم السياسي والاقتصادي

لها، لذلك، وكإجراء لتجنب التصادم معها، فمن المتوقع أن لا يمانع نتنياهو استئناف المفاوضات مع الفلسطينيين حول حل الدولتين، ولكن سوف يعمل على تسيير عجلتها ببطء، ووضع معايير «تعجيزية» لمخرجاتها (٤٣) . فهو يتخذ سياسة ترفض الاعتراف بدولة للفلسطينيين ما لم يعترفوا بإسرائيل دولة يهودية، وأن هذا المطلب «أساسي» في أي مفاوضات للتسوية النهائية، لكنه ليس شرطاً مسبقاً لإجراء المفاوضات، بل شرط مسبق للتقدم نحو تسوية دائمة. إلى جانب تحفظات حكومته على شكل سيادة الكيان الفلسطيني المستقبلي. وهنا يريد نتنياهو من خلال طرح مطلب اعتراف الفلسطينيين بيهودية إسرائيل أن يشكل «ثقلاً موازياً» لمطلب الفلسطينيين باعتراف إسرائيل بالحقوق الفلسطينية (٤٤) .

ينبئ عدم التناغم في التوجهات الاستراتيجية لإدارة أوباما مع توجهات الحكومة الإسرائيلية بإمكانية تصادمهما، فحكومة نتنياهو تسعى إلى تهميش الملف الفلسطيني وتحويله إلى مسألة ثانوية، والتركيز على تنمية علاقاتها مع مصر والأردن، وبلورة حلف عربي– إسرائيلي– أميركي– دولي لمواجهة إيران (٤٥) ، وإدارة أوباما تسعى إلى دور نشط في الصراع العربي– الإسرائيلي وحوار مع إيران. وهو ما سوف يلقي بظلاله السلبية على مقدرة الإدارة الأمريكية على تحقيق رغبتها بيسر (٤٦) .

♦ ثالثا– عقبة حماس:

تشكل حماس قوة لا يستهان بتأثيرها، فهي تفرض سيطرتها على قطاع غزة، وتقيم موقعاً سياسياً لا مفر من التعامل معه للتوصل إلى صيغة حل سلمي. وقد بات وجودها وتأثيرها حقيقة سياسية لا يمكن الالتفاف عليها. فمع تزايد قوة حماس، يشكل هذا الواقع عقبة أساسية أمام الإدارة الأمريكية للتقدم في سياسة التغيير تجاه التعاطي مع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والتقدم نحو أي مشروع للسلام في المنطقة (٤٧) .

من الواضح أن أوباما يرى أن سياسات إدارة جورج بوش تجاه التعامل مع مخرجات الممارسة الديمقراطية الفلسطينية هي التي أتاحت لإيران وحماس تقوية نفوذهما، وأنه لابد من الأخذ في الحسبان قدرة «أطراف الممانعة» على إفشال أي مشروع أمريكي، وإعاقة أي تقدم نحو عملية السلام. صحيح أن الانفتاح الأمريكي على الحوار لا يعني أن إدارة أوباما مقبلة على تجاوز الخطوط الحمراء فيما يخص قبول الحديث إلى حماس، إلا انه لابد من إيجاد مقاربة ما معها، كقوة لا يمكن تجاهل نفوذها المتصاعد إقليمياً ومحلياً، ومدى قدرتها على التأثير في الصراع. هذه المقاربة يجب أن تستند إلى أن سياسة تجاهل هذه القوة، أو تهميش دورها في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، سوف تعيد إلى الأذهان

السياسة ذاتها التي اتبعتها إدارة الرئيس بوش والتي أثبتت قصر نظرها في التعامل مع حماس. «ولهذا أوصى تقدير استراتيجي أمريكي الرئيس أوباما، بضرورة تبني طريقة جديدة للتعامل مع حماس، والتأثير عليها لتغيير رؤيتها وسلوكها، بحيث يجري تشجيع أطراف قريبة من الاعتدال داخل حماس للدخول في حوار مع الأمريكيين؛ ما سيسهم في تخفيف حدّة النزاع الفلسطيني الداخلي، وبالتالي يبعد حماس عن إيران وحزب الله [٤٨].»

♦ رابعا- التفويض الذي يملكه الرئيس أبو مازن لقيادة المفاوضات وتوقيع الاتفاقات:

يبدو جليا أن الانقسام السياسي والجغرافي الفلسطيني يشكل أزمة بنيوية سياسية تقوض من قدرة الرئيس أبو مازن على إدارة المفاوضات مع إسرائيل. لكنه يبقى العنوان المعتدل الذي ترغب إدارة أوباما التعامل معه. وبما انه يُفترض بالمفاوضات أن تشمل غزّة والضفة الغربية كـ«وحدة إقليمية واحدة»- حسب الإصرار الفلسطيني- ، فان ذلك يطرح قضية سلطة الرئيس أبي مازن على قطاع غزة، ومدى قدرته على اخذ المصادقة على الاتفاق، وضمان احترام حركة حماس له. فإذا بقيت غزّة والضفة الغربية كيانين منفصلَين، فمن شأن أي اتفاق مع أبي مازن أن يشمل الضفة الغربية فقط، نظراً لغياب سلطة الرئيس أبي مازن وحركة فتح على القرار السياسي في غزة [٤٩] . ولذلك فإن ضعف الحالة الفلسطينية سياسياً واقتصادياً، واستمرار حالة الانقسام، سيلقيان بظلالهما على مدى نجاح سياسة التغيير التي تنتهجها إدارة أوباما.

♦ خامسا- الدور المؤثر لجماعات الضغط في السياسة الخارجية الأمريكية:

فمعروف أن اللوبي الصهيوني، وشركات النفط والأسلحة في الولايات المتحدة، تشكل مصدر قوة ونفوذ لإسرائيل داخل مراكز صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة، لامتلاكها أدوات فاعلة، من مال وإعلام ونفوذ ممثليهم في الكونغرس الأمريكي، تستطيع أن ترسم السياسة الخارجية لأي إدارة أمريكية فيما يتعلق بالشرق الأوسط، باتجاه يخدم مصالح إسرائيل من جهة، ومصالحها الاقتصادية وتوسيع نفوذها وسيطرتها على مواطن النفط فيه، وزيادة مبيعاتها من الأسلحة من جهة أخرى. ويشكل ذلك عقبة أخرى أمام رغبة إدارة أوباما في إحداث اختراق في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي من خلال التدخل الدقيق في السياسات الأمريكية بما يساهم بشكل واضح في عرقلة أي توجه أمريكي نحو طرح أي حل يتعارض مع مصالح إسرائيل وتحفظاتها، أو حتى الضغط عليها لتليين موقفها من قضايا الصراع الجوهرية [٥٠] .

النتائج والتوصيات:

إن دراسة التوجهات الأمريكية وطبيعة التغيرات التي ستقودها إدارة أوباما تجاه القضية الفلسطينية خلال المرحلة المقبلة تقود إلى أن هناك تغيراً حقيقياً جرى في طبيعة التوجهات الأمريكية سواء من الناحية الاستراتيجية أو من جهة التعامل مع تفاصيل السياسة العامة الفلسطينية، وهذا التغيير يتمثل في أسلوب إدارة الصراع، **ويبدو ذلك من خلال**:

- **أولا: تركيز إدارة أوباما على ما يسمى بـ «Soft Power» في السياسة الخارجية الأمريكية**، بدل التركيز على لغة القوة، وهذه الاستراتيجية تأتي مشفوعة بفتح جسور التعاون مع العالم العربي والإسلامي بدل التصادم الذي كان نهج السياسة الأمريكية في حقبة الرئيس جورج بوش الابن.
- **ثانيا: إيلاء إدارة أوباما أهمية قصوى للقضية الفلسطينية، وإيجاد حل جذري**، فعلى الرغم من أن أوباما وإدارته لم يلزم الولايات المتحدة بخطة مفصله ومحددة زمنياً، فإن هذا لم يمنع أوباما من أن يجعل القضية الفلسطينية تحتل سلم أولوياته، في مختلف جولاته الخارجية، كما إن تعيينه منسقاً للسلام في الشرق الأوسط، وبصورة أسرع مما توقعها المراقبون، يوحي بان إدارة أوباما تولي هذا الملف أهمية كبرى.
- **ثالثا: على صعيد العلاقات الداخلية الفلسطينية**، واضح أن إدارة أوباما تواجه تحديات عدة في سبيل صناعة التغيير ولكن على الرغم من ذلك هناك تغيرات وبالذات فيما يخص حركة حماس وموضوعة حكومة الوحدة الوطنية، فقد أرسل باراك أوباما مجموعة من الرسائل التطمينية التي تشير إلى تغيير في الموقف الأمريكي تجاه حركة حماس كونها حركة تمتلك شرعية الفوز بالانتخابات، وكونها تؤثر في القضية الفلسطينية، إلا انه أوضح أن عليها التزامات يجب أن تقوم بها.
- **رابعا: تبدو العقبة الرئيسة التي تواجه إدارة أوباما في إمكانية إجراء تغيير في السياسية الإسرائيلية الحالية** في ظل قيادة اليمين المتطرف، ولكن على الرغم من ذلك من الأهمية بمكان إدراك أن هناك خلافات في وجهات النظر، ولكنها لا ترقى إلى التصادم الفعلي في العلاقات الثنائية بين البلدين.
- **خامسا: إن توقع طبيعة التوجهات الأمريكية القادمة تقود إلى أن إدارة أوباما ستركز على محاولة جسر الهوة** فيما يخص العلاقة مع حماس وحكومة الوحدة الوطنية أولا، وكذلك التركيز على رفض سياسة الاستيطان فيما يخص العلاقة مع الجانب الإسرائيلي، وعلى الرغم من أن هذا الرفض لن يفضي إلى إجراءات أمريكية تحمل موقفاً

حاسماً تجاه إسرائيل من حيث الضغط عليها لوقف التوسع الاستيطاني، فإنها سوف تحاول أن تجد مقاربة ما بين الطرفين على نحو تساهم في استئناف المفوضات. وهي من ناحية أخرى سوف تحاول الابتعاد عن معالجة الملف بكامله، وإيجاد حل شامل للصراع الفلسطيني– الإسرائيلي.

التوصيات:

على الصعيد الفلسطيني والعربي:

♦ **أولا**: يجب استغلال الحالة التغييرية التي تعيشها السياسة الأمريكية، وتقوية عناصر القوة التي تمكن الفعل السياسي الفلسطيني والعربي من إحداث تغيير جدي في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية.

♦ **ثانيا**: التوجه إلى الإدارة الأمريكية بخيار الحلول الكاملة، وليس الانشغال بالجزئيات التي من شانها أن تمنح الطرف الأمريكي فرصة الاكتفاء بإدارة الصراع، بدل الضغط على الإسرائيليين، وإيجاد حلول لقضايا الصراع تحقق العدالة للشعب الفلسطيني.

♦ **ثالثا**: عدم الرضوخ للمرجعية الواقعية التي باتت تتصرف إدارة أوباما على أساسها، وإنما التركيز على أن أي رؤية أمريكية يجب أن تستند إلى إنهاء الاحتلال وإقامة الدولة.

♦ **رابعا**: إن المتتبع لسياسة باراك أوباما يستطيع أن يصف الإدارة الحالية بأنها إدارة مثالية واقعية في الوقت نفسه، فهي تؤمن وتفهم القضايا، ولكنها محكومة بقوى الضغط الواقعي وبالتالي فان ما هو مطلوب اليوم فلسطينياً وعربياً هو استنهاض عناصر القوة لدى الجانب الفلسطيني والعربي، وأول هذه العناصر إنجاز الوحدة الوطنية الفلسطينية.

على الصعيد الأمريكي:

♦ **أولا**: إن ما هو مطلوب من الإدارة الأمريكية اليوم هو التوجه السياسي وليس الأمني للقضية الفلسطينية، كما ساد في الحقبة السابقة.

♦ **ثانيا**: مطلوب من باراك أوباما تقديم رؤية عملية، والعمل على إيجاد آليات تفعيل لها وليس الاكتفاء بالخطوط العريضة النظرية.

♦ **ثالثا**: على الولايات المتحدة الأمريكية أن لا تقف في وجه الوحدة الوطنية الفلسطينية لان ذلك سيعوق عملية التقدم الديمقراطي في النظام السياسي الفلسطيني، وكذلك فان عدم الدفع بالوحدة الفلسطينية إلى الأمام لن يكون بمقدوره أن يدفع أي مشاريع حل سياسي في المنطقة

الهوامش:

1. ناجي صادق شراب، الانتخابات الرئاسية: الثابت والمتغير في السياسة الأميركية
http:// www.amin.org/ look/ amin/ articles/ 67.htm
2. Zaborowski, Marcin. Bush's legacy and American's next foreign policy, Institute for security studies, European Union, Paris, (September 2008) , Page: 36- 38
3. علي عبد العال، المحافظون الجدد: منظّرون لخراب العالم، العرب اون لاين، ٢/ ١٠/ ٢٠٠٧
http:// www.alarab.co.uk/ Previouspages/ Alarab%20Daily/ 2007/ 10/ 02- 10/ p06.pdf
4. Zaborowski, Marcin. op.cit P: 36- 38
5. ممدوح نوفل، الانتفاضة– انفجار عملية السلام، (عمان: دار الأهلية للطباعة والنشر، ٢٠٠٢) .
6. Zaborowski, Marcin. op.cit, Page: 26
7. قصي أحمد حامد، الولايات المتحدة والتحول الديمقراطي في فلسطين، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ط ١، ٢٠٠٩م) ، ص ١٢١– ١٢٣
8. ممدوح نوفل، مرجع سابق.
9. غراهام فولر، حقيقة خطة بوش للسلام
http:// www.aljazeera.net/ NR/ exeres/ E32D1BFF- 0E21- 46A1- 96D6- 461F2E7FD2F6.htm
10. عاطف الغمري، في شرم الشيخ.. ماذا يريد بوش وماذا يريد العرب؟
http:// aljazeera.net/ NR/ exeres/ 8F7171BA- BDCE- 4BC6- A96E- B0A1B4132E12.htm
11. قصي أحمد حامد، مرجع سابق، ص: ١١٧– ١١٨
12. Congressional record. March 19, 2002
13. قصي أحمد حامد، مرجع سابق، ص: ٥٨– ٥٩
14. زهير المخ، الإدارة الأميركية الجديدة ملامح الحل المؤجل، رؤية: مجلة شهرية بحثية متخصصة، تصدر عن الهيئة العامة للاستعلامات، السلطة الفلسطينية.
http:// www.sis.gov.ps/ arabic/ roya/ archiv.htm

١٥. مقابلة مع نصير عاروري، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة ماساسوشيتس الأميركية، أجريت بتاريخ ٧/ ١٢/ ٢٠٠٧

١٦. برنامج بالمرصاد، الولاية الثانية لبوش والملف الفلسطيني، قناة العربية، ٦/ ١١/ ٢٠٠٤، http:// www.alarabiya.net/ save_print.php?print=1&cont_id=7733

١٧. رفيق عبد السلام، قراءة في مواقف القوى الغربية من تطورات الأحداث في غزة»، مركز الجزيرة للدراسات، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٧

http:// www1.aljazeera.net/ acs/ documents/ pdf/ ahdath_ghaza_mawqifd-oualgharbia.pdf

١٨. أسامة الغزالي حرب، مؤتمر فاشل آخر للسلام، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧٠، أكتوبر ٢٠٠٧، ص ٦

١٩. انظر/ ي نص رسائل التطمينات المتبادلة بين الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء الإسرائيلي ارييل شارون، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية، ١٤ نيسان ٢٠٠٤

http:// www.altawasul.com/ MFAAR/ important+documents/ peace+process/ exchange+of+letters+sharon+bush.htm

٢٠. المرجع السابق، وللمزيد انظر/ ي خطابي الرئيس بوش في قمة العقبة في ٤ حزيران ٢٠٠٣، ومؤتمر انابوليس في ٢٧ تشرين ثان ٢٠٠٧

http:// www.jmcc.org/ documents/ docs.html

٢١. رائد نعيرات، مستقبل العلاقة الفلسطينية الإسرائيلية من منظور فلسطيني، مجلة الوحدة، تصدر عن المركز الفلسطيني للديمقراطية والدراسات والأبحاث، العدد صفر، شتاء/ ربيع ٢٠٠٨، ص ١٨. وللمزيد، انظر/ ي نصوص خطتي الجنرال دايتون، ووليم ابرامز لإصلاح السلطة الفلسطينية من الرابط التالي

http:// conflictsforum.org/ 2007/ elliot- abrams- uncivil- war/

٢٢. مروان شحادة، أمريكا وإيران: رهانات القوة والهيمنة على الشرق الأوسط، مجلة العصر، ٨/ ٢/ ٢٠٠٧

http:// www.alasr.ws/ index.cfm?method=home.con&contentID=8681

٢٣. انظر نص رسائل الضمانات التي بعثها الرئيس الأمريكي جورج بوش لرئيس الوزراء الإسرائيلي ارييل شارون في ١٤ نيسان ٢٠٠٤، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية

http://www.altawasul.com/MFAAR/disengagement/exchange+of+letters+sharon+bush.htm

٢٤. Interview with Nadia Hijab, a Senior Fellow at the Institute for Palestine (Studies/ Washington, February 9. 2009

٢٥. تقرير واشنطن، حكومة يمينية إسرائيلية تصطدم بإدارة أوباما، العدد ١٩٧، ١٤ فبراير ٢٠٠٩، http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1196

٢٦. الياس حرفوش، حول واقعية إدارة باراك أوباما وحدودها، مركز كارنيجي للسلام الدولي

http:// www.carnegie- mec.org/ arabic/ FeatureDetails.aspx?ID=953

٢٧. مقابلة مع الرئيس باراك أوباما، قناة العربية، ٢٧ كانون ثان ٢٠٠٩

٢٨. Interview with Joseph Farah, Editor and Chief Executive Officer, World-NetDaily, February 12. 2009.

٢٩. تقرير واشنطن، سياسات واحدة لأوباما وماكين حول الشرق الأوسط، عدد ١٧٩، ١١ أكتوبر ٢٠٠٨

http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1085&pagenum=1

٣٠. Cordesman, Anthony H., The Obama Administration and US strategy: the first 100 days, (April 12, 2009) , issued by: Center for Strategic and International Studies (CSIS) , page:

٣١. مقابلة مع الرئيس باراك أوباما، قناة العربية، ٢٧ كانون ثان ٢٠٠٩

٣٢. علي الجرباوي، محاذير التفاؤل المبكر بإدارة أوباما، نشرة فلسطين اليوم، تصدر عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، العدد ١٤٢٥، ٥ أيار ٢٠٠٩.

٣٣. مقابلة مع الرئيس باراك أوباما، قناة العربية، ٢٧ كانون ثان ٢٠٠٩

٣٤. Interview with Nadia Hijab, a Senior Fellow at the Institute for Palestine Studies/ Washington, February 9. 2009

٣٥. Kerry, John. Restoring Leadership in the Middle East: A Regional Approach to Peace, The brooking institution, March 4, 2009 http:// www.brookings.edu/ ~/ media/ Files/ events/ 2009/ 0304_leadership/ 20090304_kerry.pdf

٣٦. خالد عبد الحميد، كيف ترتب أولويات الإدارة الأمريكية الجديدة؟ تقرير واشنطن، العدد ١٨٩، ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٨،

http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1147&pagenum=1

٣٧. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مستقبل العلاقة بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو وانعكاساتها على المسار الفلسطيني، تقدير استراتيجي رقم (١١) – أيار/ مايو ٢٠٠٩.

٣٨. Interview with Marina Ottaway, specialized in democracy and post- conflict reconstruction issues, Carnegie endowment. February 5, 2009

٣٩. مقابلة مع الرئيس باراك أوباما، قناة العربية، ٢٧ كانون ثان ٢٠٠٩

٤٠. مصطفى الخلفي، إدارة أوباما والحركات الإسلامية: هل من أمل من صفحة جديدة؟ معهد كارنيجي للسلام الدولي،

http:// www.carnegie- mec.org/ arabic/ FeatureDetails.aspx?ID=953

٤١. رنا الصباغ، حول أولوية القضية الفلسطينية، معهد كارنيجي للسلام الدولي،

http:// www.carnegie- mec.org/ arabic/ FeatureDetails.aspx?ID=953

٤٢. تقرير واشنطن، حزب الليكود ومعضلة حل الدولتين، عدد ٢٠٠ مارس ٢٠٠٩

٤٣. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مستقبل العلاقة بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو وانعكاساتها على المسار الفلسطيني، مرجع سابق

٤٤. أسعد تلحمي، صحيفة الحياة، ٢٤ نيسان ٢٠٠٩

٤٥. هاني المصري، دون تعليق حول حكومة نتنياهو، وكالة معا، ٢٨/ ٠٤/ ٢٠٠٩

٤٦. علي الجرباوي، محاذير التفاؤل المبكر بإدارة أوباما، مرجع سابق

٤٧. غيدي غرينشتاين، أفكار وتوصيات للإدارة الأمريكية الجديدة، معهد ريوت لسياسات العلاقة مع الفلسطينيين– تل أبيب،١٧ كانون الثاني ٢٠٠٩ ترجمة: مركز دراسات وتحليل المعلومات الصحفية

٤٨. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مستقبل العلاقة بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو وانعكاساتها على المسار الفلسطيني، مرجع سابق

٤٩. غيدي غرينشتاين، أفكار وتوصيات للإدارة الأمريكية الجديدة، مرجع سابق

٥٠. علي حسين باكير، اللوبي الإسرائيلي وسياسة أمريكا الخارجية: دراسة تثير استياء الصهاينة، مجلة العصر

http:// www.alasr.ws/ index.cfm?method=home.con&contentID=7635

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

أ- الكتب:

١. أسامة الغزالي حرب، مؤتمر فاشل آخر للسلام، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧٠، أكتوبر ٢٠٠٧

٢. أسعد تلحمي، صحيفة الحياة، ٢٤ نيسان ٢٠٠٩

٣. برنامج بالمرصاد، الولاية الثانية لبوش والملف الفلسطيني، قناة العربية، ٦/ ١١/ ٢٠٠٤، http:// www.alarabiya.net/ save_print.php?print=1&cont_id=7733

٤. تقرير واشنطن، حزب الليكود ومعضلة حل الدولتين، عدد ٢٠٠ مارس ٢٠٠٩

٥. تقرير واشنطن، حكومة يمينية إسرائيلية تصطدم بإدارة أوباما، العدد ١٩٧، ١٤ فبراير ٢٠٠٩ http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1196

٦. تقرير واشنطن، سياسات واحدة لأوباما وماكين حول الشرق الأوسط، عدد ١٧٩، ١١ أكتوبر ٢٠٠٨، http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1085&pagenum=1

٧. خالد عبد الحميد، كيف ترتب أولويات الإدارة الأمريكية الجديدة؟ تقرير واشنطن، العدد ١٨٩، ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٨،

http:// www.taqrir.org/ showarticle.cfm?id=1147&pagenum=1

٨. رائد نعيرات، مستقبل العلاقة الفلسطينية الإسرائيلية من منظور فلسطيني، مجلة الوحدة، تصدر عن المركز الفلسطيني للديمقراطية والدراسات والأبحاث، العدد صفر، شتاء/ ربيع ٢٠٠٨.

٩. رفيق عبد السلام، قراءة في مواقف القوى الغربية من تطورات الأحداث في غزة»، مركز الجزيرة للدراسات، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٧، http:// www1.aljazeera.net/ acs/ documents/ pdf/ ahdath_ghaza_mawqifdoualgharbia.pdf

١٠. رنا الصباغ، حول أولوية القضية الفلسطينية، معهد كارنيجي للسلام الدولي،

http:// www.carnegie- mec.org/ arabic/ FeatureDetails.aspx?ID=953

١١. زهير المخ، الإدارة الأميركية الجديدة ملامح الحل المؤجل، رؤية: مجلة شهرية بحثية متخصصة، تصدر عن الهيئة العامة للاستعلامات، السلطة الفلسطينية.

http:// www.sis.gov.ps/ arabic/ roya/ archiv.htm

١٢. عاطف الغمري، في شرم الشيخ.. ماذا يريد بوش وماذا يريد العرب؟

http:// aljazeera.net/ NR/ exeres/ 8F7171BA- BDCE- 4BC6- A96E- B0A1B4132E12.htm

١٣. علي الجرباوي، محاذير التفاؤل المبكر بإدارة أوباما، نشرة فلسطين اليوم، تصدر عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، العدد ١٤٢٥، ٥ أيار ٢٠٠٩.

١٤. غراهام فولر، حقيقة خطة بوش للسلام، http:// www.aljazeera.net/ NR/ exeres/ E32D1BFF- 0E21- 46A1- 96D6- 461F2E7FD2F6.htm

١٥. غيدي غرينشتاين، أفكار وتوصيات للإدارة الأمريكية الجديدة، معهد ريؤت لسياسات العلاقة مع الفلسطينيين– تل أبيب،١٧ كانون الثاني ٢٠٠٩ ترجمة: مركز دراسات وتحليل المعلومات الصحفية

١٦. قصي أحمد حامد، الولايات المتحدة والتحول الديمقراطي في فلسطين، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ط ١، ٢٠٠٩م)

١٧. مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، مستقبل العلاقة بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو وانعكاساتها على المسار الفلسطيني، تقدير استراتيجي رقم (١١) – أيار/ مايو ٢٠٠٩.

١٨. مروان شحادة، أمريكا وإيران: رهانات القوة والهيمنة على الشرق الأوسط، مجلة العصر، ٨/ ٢/ ٢٠٠٧

http:// www.alasr.ws/ index.cfm?method=home.con&contentID=8681

١٩. مصطفى الخلفي، إدارة أوباما والحركات الإسلامية: هل من أمل من صفحة جديدة؟ معهد كارنيجي للسلام الدولي،

٢٠. ممدوح نوفل، الانتفاضة– انفجار عملية السلام، (عمان: دار الأهلية للطباعة والنشر، ٢٠٠٢).

٢١. ناجي صادق شراب، الانتخابات الرئاسية: الثابت والمتغير في السياسة الأميركية http:// www.amin.org/ look/ amin/ articles/ 67.htm

٢٢. هاني المصري، دون تعليق حول حكومة نتنياهو، وكالة معا، ٢٨/ ٠٤/ ٢٠٠٩

٢٣. الياس حرفوش، حول واقعية إدارة باراك أوباما وحدودها، مركز كارنيجي للسلام الدولي http:// www.carnegie- mec.org/ arabic/ FeatureDetails.aspx?ID=953

بـ الوثائق:

١. خطاب الرئيس بوش في قمة العقبة في ٤ حزيران ٢٠٠٣،

http:// www.jmcc.org/ documents/ docs.html

٢. خطاب الرئيس بوش في مؤتمر انابوليس في ٢٧ تشرين ثان ٢٠٠٧

http:// www.jmcc.org/ documents/ docs.html

٣. نص رسائل الضمانات التي بعثها الرئيس الأمريكي جورج بوش لرئيس الوزراء الإسرائيلي اريل شارون في ١٤ نيسان ٢٠٠٤، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية

http://www.altawasul.com/MFAAR/disengagement/exchange+of+letters+sharon+bush.htm

٤. نصوص خطتي الجنرال دايتون، ووليم ابرامز لإصلاح السلطة الفلسطينية من الرابط التالي

http:// conflictsforum.org/ 2007/ elliot- abrams- uncivil- war/

جـ المقابلات:

١. مقابلة مع الرئيس باراك أوباما، قناة العربية، ٢٧ كانون ثان ٢٠٠٩

٢. مقابلة مع نصير عاروري، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة ماساسوشيتس الأميركية، أجريت بتاريخ ٧/ ١٢/ ٢٠٠٧

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. *Congressional record. March 19, 2002*
2. *Cordesman, Anthony H., The Obama Administration and US strategy: the first 100 days, (April 12, 2009), issued by: Center for Strategic and International Studies (CSIS)*
3. *Kerry, John. Restoring Leadership in the Middle East: A Regional Approach to Peace, The brooking institution, (March 4, 2009)*
   http://www.brookings.edu/~/media/Files/events/2009/0304_leadership/20090304_kerry.pdf
4. *Zaborowski, Marcin. Bush's legacy and American's next foreign policy, Institute for security studies, European Union, Paris, (September 2008)*

Interviews:

1. *Interview with Joseph Farah, Editor and Chief Executive Officer, WorldNetDaily, (February 12. 2009) .*
2. *Interview with Marina Ottaway, specialized in democracy and post-conflict reconstruction issues, Carnegie endowment. (February 5, 2009)*
3. *Interview with Nadia Hijab, a Senior Fellow at the Institute for Palestine Studies/ Washington, (February 9. 2009)*

الـديمقراطية
بين الـفكر والـفعل

أ. زهير فريد مبارك*

* محاضر غير متفرغ/ منطقة رام الله التعليمية/ جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

يتناول هذا البحث الديمقراطية كمفهوم حَمَلَ، وما زال، كثيراً من الجدل ما بين الفكر والفعل، وهو ما تطرَّقت إليه في هذه الدراسة عبر ثلاثة محاور رئيسة. المحور الأول، التطرق لمنبت الديمقراطية. المحور الثاني، إحداث مقاربة عامة لمفهوم الديمقراطية من حيث الأسس التي تم الالتقاء حولها من ناحية التعميمات، ونقطة الخلاف حول عدم القدرة على إيجاد تعريف إجرائي للديمقراطية. المحور الثالث، وهو تحت عنوان الديمقراطية في الفكر السياسي، وتطرَّقت في هذا المحور لأبرز أفكار الفلاسفة والمفكرين، لمعرفة الأسس التي قام عليها هؤلاء مع التركيز على القضايا المفصلية التي ظهرت عبر طروحاتهم الفكرية.

لقد اعتمد الباحث على المنهج التحليلي الجنيولوجي الذي رأى أن عملية حصر الديمقراطية بصندوق الاقتراع، وأنها تشكل حالة من تحقيق العدالة، هو أمر بعيد عن الدقة، فمهمة الشعب ليست قاصرة على اختيار من هو الأفضل، وبعدها ينتهي دورهم. بل يحتاج الأمر إلى عقد سياسي– اجتماعي يشكل الضمانة لتحقيق العدل وعدم مصادرة الحرية.

Abstract:

This paper deals with democracy as a concept of argue, and there is, a lot of controversy between thought and action, which has been touched upon by this study through three main axes. Theme I: addressing the root of democracy. Axis II: Making a general approach to the concept of democracy's foundations in terms of convergence that has been around in terms of generalities, and point of contention about the inability to find a procedural definition of democracy. The third axis: the theme of democracy in political thought has been addressed in this axis of the main ideas of philosophers and thinkers, to know the foundations of those with a focus on the issues articulated through narratives that have emerged property.

The researcher adopted the Genealogy approach who believed that the process of identifying the Democratic depend on ballot box, and it's a case of justice is far from precise task of the people is short to make a choice about who is the best and then end their turn. What is needed is a political _ a guarantee of social justice and not to confiscate.

مقدمة:

يتركَّز الحديث في الفكر السياسي خلال مراحل تطوره المستمرة، تاريخياً، حول مشكلاتٍ وقضايا مفصليةٍ ما فتئت تعتري المجتمعات الإنسانية على اختلاف مذاهبها، وهذه المشكلات منها ما هو حقيقي، ويشكل واقعاً ملحاً، ومنها ما هو وهم مختلق ترسم له إيديولوجيات، وتتوهمه عقول، ولعل التمايز في ذلك تابع أصلاً للخصوصية الثقافية لكل مجتمع بعينه، وللظروف التي تعتريه ويتفرد بها مقارنة بغيره من المجتمعات. وفي كل حالة أو مرحلة تستدعي قضايا ومقولات فكرية مناسبة، أو يخيل أنها كذلك من أجل إيجاد الإطار النظري كمقدمة للحلول العملية الممكنة.

وعليه، تشكل مقولة الديمقراطية والمواقف المختلفة التي ترتب عليها في الفكر السياسي واحدة من الأطروحات الفكرية (العلمانية، الليبرالية، الاشتراكية، ...) التي استدعيت لعلاج المعضلات المتشعبة، وأهمها تجذر الاستبداد وتكريسه، وهو الأمر الذي يمثل حالة من الجمود في وجه إمكانية الوصول للمدنية والتحضر المعاصر، لكن الذي حدث على مستوى ذلك الفكر، وبخاصة ما هو حديث ومعاصر من اتجاهاته هو تحول فكرة قبول الديمقراطية أو رفضها إلى مشكلة بحد ذاتها.

أهمية الدراسة وأهدافها:

تأتي هذه الدراسة لاستعراض المواقف والطروحات الفكرية التي تتعلق بالديمقراطية كمقولة حضارية تبلورت في الفكر الأوروبي، وكان لها تجربتها الخاصة في المجتمعات الأوروبية ولكن رغم ذلك ظهرت حالة من الجدل، يدور في بعض الأحيان حتى في أوروبا، حول مدى تطابق الديمقراطية الغربية مع الحرية، وبخاصة عندما تتعارض مع متطلبات النخب السياسية.

ولهذا، نحاول في هذا الإطار البحث عما هو موجود على الأرض، وليس الحديث عما نفترض أنه كائن، وبالتالي، فالأحكام المسبقة بأن الديمقراطية، تشكل أعلى مراتب المثالية كنظام حكم لا يساعد في التأسيس لفكر سياسي قادر على هضم الديمقراطية، كمنظومة فكرية، تؤسس لأرضية قادرة على تقديم الحلول، والمعضلات السائدة، وتحديداً الاستبداد. كما أن الأخذ بمواقف مسبقة بصورة سلبية قد تشكل ردة فكرية، وبخاصة عندما لا تكون مبنية على أساس، بالقدر الذي تمثل فيه مواقف إيديولوجية قد تؤدي إلى تكريس الواقع القائم.

محاور الدراسة:

يدور الحديث في هذه الدراسة حول الديمقراطية كمفهوم حَمَلَ، وما زال، العديد من الالتباس، والتضاد ما بين الفكر والممارسة. من هنا، لا بد من استجلاب المقولات الفكرية التي أسست للديمقراطية كخيار طرح بقوة كحل لنقض الاستبداد، التي قد تشكل أداة من أدوات تعزيزه. ولذا، وجب البحث في هذه الدراسة عبر محاور ثلاثة. أولاً، التطرق لمنبت الديمقراطية حيث ضرورة الحديث جنيولوجيا عن المهاد التاريخي للديمقراطية. ثانياً، إحداث مقاربة عامة لمفهوم الديمقراطية من حيث الأسس التي تم الإلتقاء حولها من ناحية التعميمات، ونقطة الخلاف؛ حول عدم القدرة على إيجاد تعريف إجرائي للديمقراطية. ثالثاً، محاولة سبر غور أفكار الفلاسفة والمفكرين؛ لمعرفة الأسس التي قام عليها هؤلاء مع التركيز على القضايا المفصلية من حيث المواقف العامة من الديمقراطية، ومسوغاتِ كلٍّ منهم. وعليه، فإنه لا بد من التطرق للمنطلقات العقائدية والفكرية، وغيرها من المؤثرات الحضارية التي غلبت على الفلاسفة والمفكرين، وهم ينتجون نصوصهم حول الديمقراطية.

المنهج:

اعتمد الباحث في دراسته على منهج التحليل الجنيولوجي (التنسيبي) ، ومسوِّغ ذلك أن هذا المنهج، الذي يُعنى بالبحث في البدايات التي قد لا تحدد بفترة زمنية محددة بالضرورة، فهو يتتبع ظاهرة تستحق سبر الغور في مرحلة زمنية معينة، ولهذا فإن المنهج التحليلي الجنيولوجي يبحث في تاريخ نشوء الأفكار، متتبعاً المسار التاريخي لنشوء المفاهيم، ومحاولة استكشاف النوازع الأخلاقية والحيوية لها؛ ليؤسس لمفهوم الاتصال التاريخي، وليس الانفصال/ الاغتراب. من هنا، فإن المنهج التحليلي الجنيولوجي يصلح لهذه الدراسة تحديداً من حيث حالة الربط بين المنهج والموضوع الذي هو بحث في الديمقراطية، بعيداً عما هو ميتافيزيقي (ما فوق الطبيعة) ومثالي، كما أن الجينولوجيا ترفض الأصول/ البدايات في صورتها الميتافيزيقية، وبما أننا بحاجة إلى الحس التاريخي لتجنب القائم على أساس مبدأ المطلق؛ فإن هذا المنهج يناسب هذه الدراسة التي سوف تلتقط السائد والمؤَسَس من النصوص التي تم اُلتقطت للمقصَى والمطرود من المشهد السياسي، والفكري ليساعده في الإجابة عن تساؤلات حول منبت ديمقراطية، وتبلورها، وماهيتها، وإمكانية وجودها (الديمقراطية) في مكان دون آخر، والامكان الديمقراطي القابل للتطبيق فعلياً.

تعريف المصطلحات:

سوف ترد في هذه الدراسة مصطلحات تحمل وجهات نظر مختلفة سيتم السعي إلى الوصول إلى تعريفات إجرائية لها، **ومنها**:

◄ **الديمقراطية**: أصلها يوناني تتكون من مقطعين: الأول، Demos ويعني «الشعب» والثاني، Kraten ويعني «حكم»، فالمعنى اللغوي الحرفي لمصطلح ديمقراطية هو «حكم الشعب». ظهر مصطلح الديمقراطية في أثينا حيث كان المقصود بها مشاركة المواطنين في صنع القرار، وهو ما يعرف في الفكر السياسي المعاصر باسم الديمقراطية المباشرة، أما في الوقت الحالي فإن الديمقراطية تستخدم للدلالة على نظم الحكم التي تتمتع بقدر كافٍ من الشعبية، وكذلك على نظم الحكم التمثيلية، ويستخدم أحياناً للإشارة إلى نظم الحكمٌ الجمهورية ونظم الحكم الدستورية.

◄ **الاستبداد**: يترادف مع مفهوم الاستبداد العديد من المفاهيم، مثل: السلطة المطلقة، والاستعباد السلطوي، وهي كلها تحمل شكلاً كلاسيكياً للظاهرة الاستبدادية المطلقة، التي تعني الحكم المطلق والتفرد بالسيادة، ولا تعير أهمية للقوانين السارية، ويكون الحكم فيها مطلقاً، لا حدود له، ولا شرعية تستند إلى ما يسمى «بالحق الإلهي»، بحيث يسوّغ سلطة الحاكم بإرادة سماوية أو دينية، فتنتفي بذلك مسؤوليته أمام أية هيئة أو قانون. فالحاكم يكون أسمى من أن يخضع للقوانين.

◄ **الطغيان**: يعود مصطلح الطغيان للإغريق، وكان يعني الحاكم، ولكنه تطور ليدلَّ به على نظام الحكم الذي يتصف بتركيز السلطة في يد فرد واحد يمتلك سلطات غير محدودة، فهو الحاكم الأمر الناهي على المحكومين، يمارس الحكم بصورة تحكمية قهرية، فلا يعترف بالحرية السياسية أو القانون. وتتقاطع هذه الصورة الأولية إلى حد كبير مع الاستبداد، ولكن يبقى هناك فرق بين الاستبداد والطغيان، فالمستبد قد يعدل أو يحسن إذا لم ينازعه الحكم منازع، بينما الطاغية يحكم دائماً وأبداً بالحديد والنار، ويميل إلى العدوانية والعنف، طباعه دموية، ولا يستنكف عن اللجوء إلى القتل، وقد يورد شعبه موارد التهلكة دون مسوغ.

◄ **الأوليغاركية**: تعني حكم القلة، ولا يقصد به حكم القلة فقط، بل حكم القلة صاحبة الثروة بالتحديد التي تستخدم المنصب السياسي لتحقيق مصالحها الشخصية.

◄ **الليبرالية**: مصطلح مشتق من الكلمة اللاتينية Liber بمعنى حر والليبرالية تنادي بالدفاع عن الحرية الفردية، وهنا يرى روادها أن النزعة الفردية هي الجوهر الميتافيزيقي

والوجودي لليبرالية، ومن هذا الفرض تشتق الالتزامات الليبرالية المألوفة إزاء الحرية والتسامح والحقوق الفردية، ولكنها تحولت من فلسفة تعبر عن الطبقة الوسطى إلى فلسفة مجتمع قومي، مثّلهُ الأعلى رعاية مصالح الطبقات المالكة متماشية مع التغيرات المطردة للنظام الرأسمالي الحديث.

◄ **الديماغوجية**: مصطلح أطلقه أفلاطون على قادة النظام الديمقراطي بعد انتصار الديمقراطية في أثينا، قاصداً بها (الديمقراطية الفاسدة) . أما الاستخدام المعاصر لمصطلح الديماغوجي فيشير إلى من يكون مهتماً بالوصول إلى الحكم أكثر من اهتمامه بالصالح العام.

◄ **الفوضوية**: مصطلح يعني بدون سلطة أو بلا حكومة. والفوضوية ايديولوجية اجتماعية سياسية استلهمت مفاهيمها من الفردية والإرادية من فلسفتي شوبنهاور ونيتشه أي الاعتقاد بأن ارادة الإنسان تؤدي الدور الحاسم في التاريخ.

◄ **المواطنة**: هي انتماء إلى تراب تحدده حدود جغرافية، وكل من ينتمون إلى ذلك التراب، مواطنون يستحقون ما يترتب على هذه المواطنة من الحقوق والواجبات التي تنظم بينهم العلاقات كافة. كما تنظم العلاقة بينهم وبين نظامهم السياسي والاجتماعي، وتخضع هذه العلاقة في معظم الأحيان لمقاييس النفع والضرر. ولهذا تتطلب المواطنة الحقة معرفة الحقوق والواجبات الخاصة بالمواطن الذي يعيش على أرض الوطن.

أولاً- المهد التاريخي للديمقراطية:

نحن هنا لا نسعى للتأريخ لمرحلة ما في بلاد اليونان، بالقدر الذي نسعى فيه لاستقراء ملامح الحكم فيها، لفهم المنطلقات الفكرية التي أسست بناءً على تلك المرحلة، محاولة المقاربة، والتطوير عليها. ذلك أن تطور الديمقراطية في أثينا مَثلَ حالة من الإلهام بالنسبة إلى الفكر السياسي الحديث، ومحاولة استخراج المفاهيم المركزية من تلك المرحلة من حرية ومساواة، ومحاولة مطابقتها مع المفهوم الليبرالي لاحقاً. [١]

على أية حال، لم تكن الوحدة السياسية لدى الإغريق، هي القبيلة بل حكومة المدينة،[٢] حيث شُكلت الحكومات اليونانية من مجموعة من المدن غير المتحدة فيما بينها، اتحاداً سياسياً. ولهذا وقعت تحت الحكم المقدوني، ومن ثم روما، ثم وقعت بعدها تحت الحكم الفارسي الذي أبقى أمور الحكم الذاتي بأيدي أهلها مع فقدانهم الإرادة السياسية الذاتية، وقد ظهر على السطح نماذج للحكم في المدن الإغريقية مثل إسبارطة، وأثينا. [٣]

وأما نظام الحكم في أثينا، فقد اختلف عن غيره من المدن المجاورة لها وبخاصة إسبارطة، حيث وجدت الطبقات المختلفة، مما كان له أثر كبير في المساعدة على التطور السياسي، بالرغم من أنها كانت في البداية كباقي الحكومات الإغريقية «حكومة ملكية وعقب الملكية حكمتها طبقة من السادة هم كبار الملاك، وهؤلاء بعد فترة من الاضطراب السياسي أخلوا الطريق للنظام الديمقراطي». (٤)

تُمثل أثينا (٥) المهد الأول الذي تم طُبق فيه الحكم الديمقراطي على يد (كليستنيس) (٦) الذي عمل على تثبيت الانتقال إلى الديمقراطية في أثينا، والتي منها جاء استعمال مفهوم الديمقراطية، حيث كانت القوانين هي الأساس الذي شيد على أساسه البناء الديمقراطي في أثينا، وإذا كانت القوانين قد وجدت قبل الديمقراطية لأنها نابعة من عادات، ومفاهيم مقدسة صادرة عن الآلهة التي تتمثل فيها النظم الأخلاقية؛ فإنها في زمن الديمقراطية أصبحت مقبولة، لأنها صادرة هذه المرة عن إرادة الشعب داخل الجمعيات العامة الشعبية، «وكأنها عقد يبرم بين الجميع». (٧) لأن القوانين قائمة على الإقناع والاقتناع. بمعنى قوة الحجة الأفضل لا على مجرد العادات والعرف، أو القوة المفرطة. لهذا، زعم الأثينيون أن القانون لم يكن سوى قانون المواطنين، بمعنى أن الجميع أمام القانون متساوون. وكما قال «**بركليس**»: «**نحن ممسكون بزمام القانون**». والحرية هنا، كما مرت وستمر عند الحديث عن الديمقراطية في أثينا، تعني احترام القانون إذا كان «موضوعاً على نحو سليم في إطار الحياة العامة فإن مراعاته حق مشروع». (٨)

هناك حالة من غياب المثالية المتصورة سلفاً للديمقراطية انطلاقاً من أنها حكم الشعب. من هنا، تنبع حالة التشكيك التي يسوقها بعضهم بأن السائد في أثينا كان وجود طبقتي السادة والعبيد، وكانت الديمقراطية فقط ديمقراطية السادة. (٩) وهو ما نظر إليه باستهجان «**جان جاك روسو**» عندما قال: «**في اليونان، كان الشعب يفعل كل ما كان عليه فعله، لقد كان باستمرار متجمعاً في الساحة. وكان يسكن مناخاً لطيفاً، ولم يكن قط جشعاً، وكان العبيد يقومون بأشغاله، أما قضيته الكبرى فكانت حريته ... ماذا؟ ألا تبقى الحرية إلا بمساعدة العبودية؟ ممكن. إن الحدين الأبعدين يلتقيان. وكل ما ليس قط من الطبيعة له مساوئه، والمجتمع المدني أكثر من أي شيء آخر**». (١٠) ولهذا، نجده يحدد موقفه من الوضع الواقع ما بين الحرية والعبودية بقوله: «**إنني أفضل الحرية مع الخطر على السلم مع العبودية**». (١١) وهنا نتساءل، إلى أي مدى عبّرت أثينا عن الحرية في داخل منظومتها الحاكمة الموسومة بالنظام الديمقراطي؟ وعُبّر عنه في أكثر من موقف في أثينا نفسها كتعبير عن تلاقح العدالة والحرية من جهة، والديمقراطية

من جهة أخرى. هذا ما نجده في أحد خطابات «**بركليس**» عند استقبال ضحايا حرب طروادة «**إن سر عظمة الحضارة اليونانية يكمن في طبيعة نظامها الديمقراطي، وأن الديمقراطية ليست تنظيماً للسلطة، بل هي مجموعة من الأخلاقيات التي تلتقي فيها العدالة بالحرية**». [١٢]

على ضوء ما تقدم، نستطيع القول: إن الديمقراطية تمثل تجربة محدودة بالمعنى المتعارف عليه الآن، فلم يكن لكل أفراد المجتمع الحق في المشاركة في صناعة القرار السياسي آنذاك، فالعبيد، والأجانب المقيمون في أثينا لم تشملهم الديمقراطية، وهاتان الطبقتان، كانتا تشكلان أغلبية سكان المدينة فضلاً عن عدم مشاركة النساء. [١٣] فالحياة السياسية محصورة بالعرق، والجنس المحددين، والحالة الاقتصادية للفرد أي ممن يملكون الأراضي، والعقارات، وهذه التجربة الديمقراطية لم تستمر لفترة طويلة، فقد بدأت الديمقراطية بالضعف حين دب الصراع بين الفقراء والأغنياء [١٤] كما هو الحال بالنسبة لثورة العبيد بقيادة «سبارتكوس»، [١٥] ونشوب نزاع بين إسبارطة وأثينا نتيجة الازدهار الاقتصادي والتقدم السياسي حيث تغلبت مدينة إسبارطة [١٦] على أثينا عسكريا عام ٤٠٤ ق.م، في حرب طروادة التي هُزمت فيها أثينا هزيمة نكراء. [١٧]

سقطت أثينا، رمز الديمقراطية وحاميتها، وكان «**بركليس**» قد توقع حدوث ذلك عندما قال: «**إني لأخشى أخطاءنا أكثر مما أخشى تدابير العدو**»، [١٨] وكان على حق، فقد دُثرت التجربة الديمقراطية الاثينية حتى مجيء عصر الأنوار [١٩] الذي سوف نسعى لاحقاً لاستجلاء ملامحه من خلال إحداث مقاربة عامة لربط الديمقراطية التقليدية بمركباتها الليبرالية.

ثانياً- مفهوم الديمقراطية: مقاربة عامة:

عند نشوء مجتمع ما، فإنه يكون بحاجة إلى سلطة تضبطه وتسيّر أموره، فلا مجتمع بلا سلطة. ولهذا، لا يمكن التكون المجتمعي والتماسك إلا بعد حل مسألة السلطة في المجتمع[٢٠] وتأتي ضرورة السلطة من باب أنها، «ظاهرة طبيعية في أي مجتمع سواء كان بدائياً متطوراً أو حضارياً، ففكرة العيش بدون سلطة هي في الحقيقة فكرة خيالية، فكل شيء في الحياة يوحي بوجودها»، [٢١] ولكن حالة التبسيط لضرورة السلطة لا تبدو أمراً صحياً، إذ قادت إلى ربط مفهوم الحق بماهية السلطة، وهنا بدت الدولة بأنها «أقصى تمظهر يمكن لظهور كمونية الحق النسبي أو المطلق». [٢٢]

وهذا الظهور للسلطة بهذا الرداء «الأخلاقي» ليس بريئاً، ذلك أنها ترتكز على مفهوم معياري قبلي هو «الحق»، فالحق هو الحامل المعياري لنزوع قوة السلطة، وهذا يقود إلى أنه عند نزوع السلطة إلى الظهور يولد ذلك الاغتراب الذي يولد العنف، حيث يتم الربط بين الديمومة السلطوية، والاغتراب بما يخبىء من تداعيات. [٢٣]

إن ما سبق يدل على أننا على حافة الغوص في البحث في إشكالية بالغة التعقيد، وهي السلطة. ولكن ما تسعى إليه هذه الدراسة، وفي هذا الجانب تحديداً، هو البحث في أحد إفرازات السلطة، وهي الديمقراطية، فما هي المقاربات الأولية، إذن، التي تم الالتقاء عليها حول هذا المفهوم.

إذا كانت السلطة السياسة تمثل ضرورة لا جدال فيها، مع استثناء الفكر الفوضوي، [٢٤] فإن شرعية السلطة، تمثل مشكلة في ذاتها. [٢٥] ذلك لأن سلطة الحكام شرعية إلا إذا خولت من المحكومين، فهذا يعني أن أعضاء المجتمع هم مصدر السلطة. وهذه هي في الواقع الفكرة الديمقراطية: الشعب هو مصدر السلطة، وهو الذي يمارسها بنفسه، أو ينتخب من ينوب عنه في ممارستها، وإذا كان الأمر كذلك؛ فإن الشرعية الديمقراطية تعني أن سلطة الحكام لا تكون شرعية إلا إذا استمدت من الشعب. [٢٦]

لمفهوم الديمقراطية تاريخ طويل ممتد ذو ارتباط وثيق بشكل الدولة، ومضمونها، والنظريات السياسية. كما أن لمفهوم الديمقراطية معايير متعددة المشارب، والمعايير اختلفت على مدى تطورها، وحسب المجتمعات التي تكرست بها. ولهذا، من الإجحاف القول بأن الديمقراطية الأثينية التي بدأت بذورها في القرن الخامس قبل الميلاد هي نفسها الديمقراطية التي ظهرت في القرون الحديثة، ففي الوقت الذي ارتبط فيه مفهوم الديمقراطية بالحكومة الدستورية، وارتبط نقيضها بالاستبداد، وعلى الرغم من معانيها المختلفة، التي سنأتي عليها لاحقاً، فإنه للمفهوم وقعاً محبباً تحاول الدول، بغض النظر عن طبيعة حكمها، أن تصف نفسها به. [٢٧] ذلك أن الديمقراطية كما يرى بعضهم تستلهم الحرية، والحرية تعني قبل كل شيء حرية الفرد. لذا، انصبت جهود الفكر الإنساني في هذا الاتجاه على تقديم تفسير للسلطة من شأنه أن يحمي الفرد في حريته الجسدية، والفكرية، والدينية ضد التحكم السياسي، فقد كانت المذاهب الديمقراطية منذ بدايتها، وفي تطورها تهدف إلى إقامة حواجز ضد الطغيان. [٢٨] فهل هذا ما كان على أرض الواقع. انطلاقاً من أن الديمقراطية تاريخياً كانت نضالاً، أو معركة من أجل الحرية. [٢٩]

هناك من يرى أن الديمقراطية تعني: «التساوي في الخضوع للقانون»، يأتي هذا من ارتباط الديمقراطية بالحرية [٣٠] في الفكر الأثيني، وذلك انطلاقاً من البداية التي استطاعوا

من خلالها تعاقباً كسب حريتهم المدنية عندما منع «صولون» الإكراه الجسدي، وحريتهم القانونية، بتشريع يحمي الشخصية الجسدية للمواطن، وفي النهاية كسبوا حريتهم السياسية التي تعرف بالنسبة للإغريقي، بأنها الحق بأن لا يخضع المواطن ولا يطيع إلا القانون وحده. وعليه، فإن الديمقراطية هنا كما قلنا سابقاً تعرف «بأنها التساوي في الخضوع للقانون». [٣١]

والديمقراطية حسب «موسوعة علم السياسة»: هي كلمة تتألف من مقطعين الأول، ديموس، وتعني الشعب، والثاني، كراتس، وتعني السلطة، وعلى ما تقدم فإن الديمقراطية هي حكم الشعب لسلطته. كما أنها تحمل أوجهاً كثيرة حيث الديمقراطية الاجتماعية التي تركز على العدالة والمساواة بين الناس. والديمقراطية الشعبية، ورغم ذلك فإنها تحمل مدلولاً سياسياً كان شائع الاستعمال في الأدبيات والفلسفات عبر العصور المختلفة، «وأنها مذهب سياسي محض يقوم على أساس تمكين الشعب من ممارسة السلطة السياسية في الدولة، إما مباشرة كما في الأنظمة السياسية القديمة، حيث كان بامكان الشعب أن يجتمع في الساحات العامة لدولة المدينة ليختار من يمارسون السلطة، أو بشكل غير مباشر كما هو عليه الآن في أغلبية النظم السياسية التي تأخذ بأسلوب تداول السلطة سلمياً، وعن طريق الانتخابات المباشرة، وبالاقتراع العام السري، أو غير المباشر». [٣٢]

في حين يرى جان جاك روسو أنه عندما «يستطيع صاحب السيادة في المقام الأول أن يعهد بأمانة الحكم إلى الشعب كله، أو إلى الجزء الأكبر منه، بحيث يكون هناك من المواطنين الحكام أكثر من المواطنين الأفراد، ويطلق على [هذا] الشكل من الحكومة اسم الديمقراطية». [٣٣] وقد ذهب بعضهم إلى القول: إن الديمقراطية من بين أمور كثيرة أخرى تمثل «مبدأ المساواة في الحقوق والفرص والمعاملة أو ممارسة هذا المبدأ». [٣٤]

وهناك من عمل على تعريف الديمقراطية انطلاقاً من أنها «أسلوب للحياة ونظام يقوم على قناعة كاملة من مواطني المجتمع البشري بقيمة الديمقراطية فكراً وممارسة، وقناعة كاملة بالمبادئ الأساسية من حرية ومساواة وعدالة، وأن السيادة للشعب دون سواه. كما أن هذه المبادئ تستلزم آليات معينة تجسد المبدأ إلى واقع حي متجدد، كتعدد الأحزاب والأفكار، وكل ما من شأنه تحقيق سيادة الشعب ومصلحته العامة». [٣٥] وقد عرّف «المعجم الفلسفي» الديمقراطية على أنها « نظام سياسي تكون فيه السيادة لجميع المواطنين، لا لفرد ولا لطبقة، ويقوم على ثلاثة أسس: الحرية والمساواة والعدل، وهي متكاملة ومتضامنة». [٣٦]

أما «عبد المنعم الحنفي» فيرى في «المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة» أن الديمقراطية تعرف على أنها «نظام اجتماعي فيه الشعب مصدر السلطة يمارسها نواب له، أو ممثلون عنه من خلال التشريعات التي يقرونها، ويحكم بمقتضاها النظام القضائي، ويدير من خلالها موظفون عموميون الجهاز الإداري للدولة، وتنتظم بها العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين أفراد الشعب بعضهم ببعض». [٣٧] هنا حالة التأثر بفكر «جون ستيورات مل» الداعي لحرية الفرد في المجتمع الديمقراطي كما سنرى لاحقاً. وهنا عرف «مل» الديمقراطية بأنها: شكل من أشكال الحكم يمارس فيه الشعب كله أو القسم الأكبر منه سلطة الحكم من خلال نواب ينتخبونهم بأنفسهم بصورة دورية. [٣٨]

على الرغم من تعدد التعريفات لمفهوم الديمقراطية، واختلاف تطبيقاتها العملية على مر العصور فإن الذي يربطها جميعاً، أو الذي يشكل القاسم المشترك الأكبر بينها إنما هي فكرة القوة السياسية ولمن تكون (من يحكم) ، وليس شكل الحكم. هل يكون في أيدي الأغلبية بدلاً من الأقلية أم تكون في يد واحدة فقط، وهو ما رُفض في المنبت نجدة ففي أحد خطابات «بركليس» عندما أطلق وصف الديمقراطية على الحكم الاثيني [٣٩] لأن إدارة الحكم تشجع حكم الكثرة بدلاً من القلة. [٤٠] ولأن الحرية تبقى أداة المبادئ الأساسية للدستور الديمقراطي. [٤١]

الديمقراطية الليبرالية:

لقد تطور مفهوم الديمقراطية في القرن الثامن عشر حيث ظهر بالمعنى الليبرالي [٤٢] الذي يقول إن البشر «أفراد» لهم «حقوق»، [٤٣] كما أنه أصبح يحمل مضامين تعدد الأحزاب، وضمان حرية التعبير، والمشاركة السياسية، وتداول السلطة سلمياً، وتشكل نظرية الفصل بين السلطات [٤٤] مع التركيز على أن يكون التمثيل النيابي أساس الديمقراطية الليبرالية[٤٥] مع العلم أن الديمقراطية لها أشكال عدة هي: الديمقراطية المباشرة، وهي التي كانت سائدة في أثينا، وبعدها تم الخروج بالديمقراطية النيابية، [٤٦] والديمقراطية شبه المباشرة. [٤٧]

وفي هذا السياق ترى «دائرة المعارف البريطانية» «أن الديمقراطية تستخدم بمعانٍ عدة منها «إنها شكل من أشكال الحكم يمارس فيه مجموع المواطنين مباشرة حق اتخاذ القرار السياسي تطبيقاً لحكم الأغلبية، وهو ما يطلق عليه اسم الديمقراطية المباشرة، وهناك الديمقراطية النيابية ..، وهناك شكل آخر من أشكال الديمقراطية، وهو ما يعرف باسم الديمقراطية القانونية» كذلك فإن مفهوم الديمقراطية قد يستخدم أحياناً لوصف أي نظام سياسي اجتماعي دونما اعتبار لما إذا كانت ديمقراطية بالمعاني الثلاثة السابقة أم لا». [٤٨] وهنا، يرى بعضهم أنه يمكن تعريف الديمقراطية الليبرالية [٤٩] أنها «طريقة أو

إجراء لتوزيع السلطة السياسية، ولتحديد شرعيتها، واستعمال هذه السلطة بشكل شرعي، ومتى يتجاوز استعمالك لهذه السلطة بشكلها الشرعي». (٥٠)

تجدر الاشارة إلى أن الديمقراطية الليبرالية لا تمثل وجهاً واحداً مثالياً كما يطرح غالباً، ذلك أنها تحاول تسويق فكرها انطلاقاً من الافتراض الأساسي القائل بحرية الاختيار، ولكن الأمر أخذ بعده الاقتصادي حيث نقلت مفهوم حرية المستهلك من مجال الاقتصاد إلى مجال السياسة، وهنا «تصورت الليبرالية نطاقاً اقتصادياً يقوم على المنافسة، المستهلك فيه هو السيد الذي يختار بين السلع المتنافسة، وفقا لقوانين العرض والطلب، تصورت أيضا نظاماً سياسياً يقوم على حرية الاختيار بين الأحزاب والاتجاهات السياسية، وهكذا كما يوجد السوق الاقتصادي يوجد السوق السياسي، وعلى مستوى التطبيق قامت النظم الديمقراطية الليبرالية على عدة أسس»، (٥١) وهي ترتدي لباس الحرية، والتعدد، والتمثيل النيابي القائم على تعزيز السيادة الشعبية في الوقت الذي تنيب عنها منتخبيها لممارسة الحكم مع الاحتفاظ بحق التدخل المباشر في مظاهر السيادة عبر وسائل عديدة. (٥٢)

على أن بعضهم يرى أن الليبرالية جاءت معبرة عن واقع النظام الرأسمالي الملبي لحاجة الطبقة الرأسمالية الناشئة على أنقاض النظام البائد. (٥٣) وعليه، اُستجلبت العديد من النظريات الحقوقية، والطبيعية، والعقد الاجتماعي، ومبدأ المنفعة. والنقطة الحرجة هنا تمثلت في القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث التقاء انتصار البرجوازية في إنجلترا مع عصر التنوير «مما أدى إلى تكريس المذهب الفردي، والفلسفة الليبرالية، وقد ولدت الليبرالية أولاً ثم (دمقرطت بعد ذلك)»، وهنا أصبحت الإشكالية التي تفرض نفسها لدى «الديمقراطيين الليبراليين» البحث عن آلية للوصول لحالة من التوافق بين التقاليد الليبرالية للقرنين السابع عشر والثامن عشر تلبية للمتطلبات الشعبية بالمساواة. (٥٤)

وعلى الرغم من حالة «التقديس» الليبرالي للديمقراطية (لاحقاً) ، فإنها مفهوماً تنصرف إلى الممارسة المرتبطة بوجود حدود، وضوابط، والتزام من الكافة، بهذه الضوابط دون خروج أو انتهاك. وعليه، فإن عملية إسقاط صفة المطلق على الديمقراطية بما تتضمنه من مبادئ كالحرية، (٥٥) والمساواة، والعدل، هو حديث لا يتسم بالدقة عند الممارسة العملية للديمقراطية. (٥٦) فهناك من يرى أنه يجب أن تتوصل «الديمقراطية الحقيقية» إلى تمثيل، وتعبير عن إرادة الشعب، فالحقيقة هي نظرة خيالية في الواقع.

فالديمقراطية في الممارسة العملية يندر تطبيقها تطبيقاً كاملاً، (٥٧) ذلك أن صراعات المصالح داخل المجتمع هي غالباً مجزأة، ولهذا لا بد من استبدالها بمفهوم عادي، ولنقل مادي للديمقراطية باعتبارها حلبة مفتوحة لمراكز السلطة ممّا يبعد أي فكرة لترابط مباشر

بين الديمقراطية، والمنفعة العامة، وأي نظرة لمبدأ ديمقراطي يخدم كمثال لتحسين مستمر للمؤسسات. كما أن مبدأ التوزيع المتساوي أي النسبي للسلطة في كل القرارات لا يفترض وجود إرادة شعبية، لكنه يرتكز على إمكانية تعريف هدف المنفعة المشتركة، أخذاً بالحسبان بشكل متوازن المصالح المعنية، والتوجيه نحو استقلالية الفرد. (٥٨)

تأسيساً لما سبق، فقد ظهر من يحرص على التمييز بين التعريف بالديمقراطية كفكرة مجردة، وبين الممارسة انطلاقاً من عدم وجود دستور ديمقراطي وحيد، وهو الأمر الذي يطرح نفسه حول مدى إمكانية وجود عامل مشترك بين الدساتير المختلفة للديمقراطية، والسبب في ذلك، أن الأنظمة الحاكمة التي تسمي نفسها ديمقراطية تتبع دساتير كثيرة مختلفة، وحتى في ما بين الدول «الديمقراطية» سنجد أن الدساتير تختلف من وجهات مهمة. (٥٩) وهذا ما انعكس على الصعيد الفكري إلى وجود أكثر من ثلاثمائة تعريف مختلف للديمقراطية تعرضنا سابقاً لبعض منها، وقد عملت الأنظمة السياسية المختلفة على هذا الخلط، فتلك الأنظمة بالرغم من الاختلاف فيما بينها فإنها لا تكاد تتردد في الإعلان عن نفسها أنها ديمقراطية. (٦٠)

التفكيك السابق لمفهوم الديمقراطية يفسر بشكل أولي عدم قدرة مجموعة كبيرة من علماء السياسة والاجتماع في العالم الإجابة عن أسئلة وجهتها إليهم المؤسسة الدولية الثقافية التابعة للأمم المتحدة في عام ١٩٥٠م تتعلق بالديمقراطية، وما يرتبط بها من أمور عدة، فقد خرجوا بخلاصة مفادها أنه « ليس من تحديد شامل متفق عليه لمدلول الديمقراطية والحكم الديمقراطي، بل يكتشف أيضا التناقض بين مفهومات الديمقراطية عندهم إلى حد أن بعضها ينقض بعضها الآخر». (٦١)

وعليه، نستطيع القول: إن المقاربة الديمقراطية شأن أي ظاهرة أو وجود هي حالة تناقضية مع ذاتها، ومع المحيط، فهي حوار من الاستمرار والانقطاع بلغة «هيجل»، وارتباط بالحركة التي تستجلب الجديد من القديم محافظة على إيجابيته فشجرة الحياة خضراء، أما النظرية فرمادية كما قال نيتشه، وهذا ينسحب على معظم الأشياء بما في ذلك الديمقراطية». (٦٢) وما يثبت ذلك تعذر القبول بتعريف واضح متفق عليه للديمقراطية رغم حالة اللهاث وراءها كأكبر المفاهيم ضبابية.

إن وصف الديمقراطية تركز على عدد محدود من المفاهيم بحيث تُقزَّمُ فقط في «حق الجماهير في أن تقوم دورياً بتغيير رأس الدولة التنفيذية»، أو مجرد أن تعبر عن «أهمية المواطن العادي في اختيار ممثلين عنه في المجالس التشريعية والتنفيذية عن طريق انتخابات حرة تشارك فيها غالبية الشعب». (٦٣) الديمقراطية هنا هي مجرد صندوق

اقتراع، فحتى المغلوبون على أمرهم يستطيعون اليوم الانتخاب، ولكن من أجل ماذا ومن؟ لا بد من عدم إغفال تداخل المفاهيم الليبرالية مع مبادئ الديمقراطية التي أخذت وجهات نظر مختلفة، وهو ما سنراه عند بعض الفلاسفة والمفكرين. وخلاف ذلك فإن مجرد ربط الديمقراطية بالاقتراع فقط هو استبداد مبطن بلباس الحرية المسَتبدَة. يأتي ذلك في الوقت الذي تُقدّم فيه طروحات مجردة بأن الديمقراطية هي نظام معين للعلاقات الاجتماعية في ظل مؤسسات سياسية _ اجتماعية تقوم على المشاركة. [٦٤] فهل هذا كفيل بتحقيق العدل وتوفيره، ضمن هذا الإطار المقزم الذي إن لم يكن قابلاً للممارسة فهو، أداة– ولا شك– بيد المستبد.

إذن، كيف نستطيع القول، إن الديمقراطية بمفهومها الحالي، بكل ما تحمل من اشتباكات يمكن أن تمثل فكرة مثالية نبيلة، تتسامى بالإنسانية إلى مراقي العزة والكرامة لأنها تتقمص فكرة الحرية، والمساواة، والعدل الاجتماعي. [٦٥] نحن هنا أمام ديمقراطية لم توجد بعد بتعبير «جان جاك روسو».

وعليه نقول: إن عملية تلقف المفاهيم الليبرالية للديمقراطية وتلاقحها نظريا» لا يعبر عن الحرية إذا ما علمنا أن الليبرالية اليوم، حتى غربياً، يعبر عنها في كثير من الأحيان بأنها ليبرالية متوحشة، [٦٦] يأتي ذلك من تجربة الغرب ذاته، فالسؤال هنا عن الحرية بقدر أكبر من الديمقراطية ما هي إلا محاولة زج الحرية في الديمقراطية في الوقت نفسه تغيب الحرية من المضمون في الحكم.

ثالثاً_ الديمقراطية في الفكر السياسي:

ولنبدأ هنا (**بسقراط ٤٦٩ ق.م – ٣٩٩ ق.م**)، [٦٧] لقد تشرب الاثينيون الديمقراطية وترسخ مبدأ حرية التعبير في الحياة السياسية على مدى قرنين من الزمان قبل وجوده[٦٨]

إن المدينة بالمعنى الإغريقي كانت «مجتمع الأحرار»، وهو ما يميزها عن غيرها من أشكال المجتمع الإنساني الأخرى، فالمدينة تحكم نفسها بنفسها، فالمحكومون هم الحكام، والمناصب الرئيسية تشغل عن طريق الانتخاب، في حين تشغل المناصب الأخرى بالقرعة التي تعطي المواطنين فرصة للمشاركة في حكم مدينتهم.

كانت هذه الأمور تحكم أثينا في حياة «سقراط» وحول هذه الأسس اختلف سقراط، ومن معه حول السياسة السائدة التي يرى فيها صراعاً بين الديمقراطية، والاليغاركية مما أدى إلى اتفاق الطرفين على الحكم بوساطة الطرفين، وبقي الجدل السائد حول توسيع مفهوم المواطنة أو تضييقها. وعليه، فإن الأمر بالنسبة للطرفين يقوم على أن السياسة

هي أس قوام حياة المدينة التي وجدت في الحكم الذاتي، وكانت معارضته لهذا النمط من الحكم لا تعني معاداة الديمقراطية، بل تعني أيضا معاداة السياسة بمعناها الواسع، وهذا هو موقف «سقراط» المتمثل في «أن المجتمع البشري ما هو إلا قطيع من الأغنام يحتاج إلى راعٍ ليقوده، وليس للراعي أن يستشير الرعية بل يصدر الأمر، وعلى الآخرين الطاعة». (٦٩)

في حين يرى (**أفلاطون ٤٢٧ – ٣٤٧ ق. م**) ، أنه من حكم الاوليغاركية يصبح الجميع عبيداً، ويأتي اليوم الذي تنقسم فيه الدولة إلى فئة تتركز في أيديها الثروة، وأكثرية فقيرة تدخل في صراع مع الاوليغاركية يؤدي إلى انتصار الأغلبية الفقيرة واستيلائها على الحكم فتنادي بالمساواة للجميع، وتسمى بحكم الشعب أو الديمقراطية، وهنا يصف هذه الحالة التي يمقتها بقوله: « تظهر الديمقراطية إذا انتصر الفقراء على أعدائهم فيعتقلون بعضهم، وينفون الآخر ويقسمون مع الباقين أمور الحكومة والرئاسة بالتساوي، بل إن الحكام في هذا النوع من الدولة غالباً ما يختارون بالقرعة، ويصرح لكل فرد بحرية الكلام وأن يفعل ما يشاء، ولا تتجه شهوة هذه الحكومة إلى المال وحده كما كان الحال في الاوليغاركية، بل تطلق العنان لكل الشهوات بلا تمييز، ولا تنظيم، وتستعمل القرعة في تقليد الحكم للأفراد إمعاناً في الديمقراطية والفوضى، فكل شرع فيها جائز حسب أهواء الأكثرية، ويبدو النظام جميلاً كالثوب المزركش بكل الألوان لكنها تجيز كل شيء تحت شعار الحرية، وتبيح كل المحرمات». (٧٠)

كما أن الديمقراطية التي تنادي بالمساواة والحرية لها انعكاسها السلبي على المجتمع الذي تقوم فيه الديمقراطية انطلاقاً من أن «المساواة المطلقة التي لا تقوم على أساس من القدرات والمميزات الشخصية، سرعان ما تؤدي إلى الفساد، فهذا النظام الذي ينادي بالحرية المطلقة سينتهي إلى الفوضى، وستنعكس فيه القيم والأخلاق، فيرى الأفراد في التنطع وعدم الاستيحاء جسارة وشجاعة، ولا تستبين المطالب الضرورية من غيرها، ويقل أو ينعدم احترام الناس للقانون، ويختفي كل نظام في المجتمع». (٧١)

فالديمقراطية بنظر «أفلاطون» تمثل حكم المغالطين السوفسطائيين الذين يعملون على دراسة سلوك الشعب بدل تعليمه، كما يقومون بصياغة شهواته في صورة قيم أخلاقية، يأتي ذلك انطلاقاً من أن سياسة «هؤلاء الغوغائيين الديماغوجيين ليست إلا تسجيلاً للواقع وانعكاساً لأهواء الجمهور». (٧٢)

المعادلة السابقة عند «أفلاطون» تؤدي إلى تدهور الحكم الديمقراطي الذي يؤدي بدوره إلى نشأة نظام الطغاة ذلك لأن التطرف في الحرية لا يمكن أن يؤدي إلا إلى التطرف في العبودية سواء من الفرد أم الدولة. من هنا، «تنشأ الحكومة الاستبدادية بطريقة طبيعية

من الحكومة الديمقراطية، أي أن الحرية المتطرفة تولد أشراراً، وأوضع أنواع الطغيان».(٧٣)

تجدر الاشارة إلى أن «أفلاطون» لا يحبذ الديمقراطية في الدولة التي رسمها في الجمهورية، بل إنه مؤيد «للاستبداد المفرط». فهو يعتبر الحكم ممثلاً للألوهية والدولة التي يراها هي طاغية، ولكن حسبما يرى «طغيان صالح». على أية حال فإن الدولة المثالية التي رسمها هي «دولة قوية كلية يحكمها فيلسوف ليس في الحقيقة سوى طاغية، لأنه ذو سلطان غير محدود». (٧٤)

ولكن لماذا يعادي «أفلاطون» الديمقراطية؟ يعود ذلك إلى رؤيته المتمثلة في أنه من الديمقراطية يولد الطغيان، ومن الواضح أنه يقصد «الطغيان الطالح» الذي يرفضه أفلاطون، ويعود ذلك إلى أنه «مثلما تولد الديمقراطية من الاوليغارشية والاوليغارشية من التموقراطية، ويجري هذا كله وفقا لجبرية صارمة، ولمسار داخلي محض». (٧٥) وبشكل أوضح هو يرى أن المستبد «ابن حقيقي للديمقراطي»، (٧٦) وهو لا يفرق بينهما، ولا يفرق في موقفه تجاه الاثنين.

نحن هنا أمام موقف «أفلاطون» الصريح من النظام الديمقراطي الذي ينم عن عدم ثقته به، ذلك أنه اعتبره أحد نظم الحكم الفاسدة، وجعله يحتل المكانة قبل الأخيرة في دورته لأشكال الحكومات الفاسدة، بل جعل الطغيان –وهو أكثر أشكال الحكم فساداً– يتولد عنه مباشرة وكنتيجة لمثالبه المتعددة. (٧٧)

المسوِّغ السابق لدى «أفلاطون» هو أولاً، غياب العدالة في الوقت نفسه الذي تظهر فيه حالة المزاوجة بينهما، وقد رأى أن الديمقراطية التي يتمسك بها الناس انطلاقاً من أنها تعني (حكم الشعب لنفسه بنفسه) هي مقولة مظللة ذلك أن القوانين في ظل الديمقراطية إنما هي تعبير عن مصلحة أصحاب السلطة في النظام فلا يخرج معنى العدالة من كونها حديث عن مقياس لمدى تحقيق مصلحة الأقوى كما هو الحال في نظم الاستبداد. (٧٨) ثانياً، بدايات وظروف الديمقراطية وظهورها القائمة على ملء قلوب القائمين عليها بالحقد والكراهية ضد الأغنياء. وعليه، تظهر الديمقراطية على أنقاض ما سبقها إما بحد السيف، أو عن طريق الخوف الذي يدفع الأغنياء إلى الانسحاب طواعية من الميدان. (٧٩)

للخروج من المأزق الذي قدمه أفلاطون عمل (أرسطو ٣٤٨ق.م _ ٣٢١ق.م) ، جاهداً لإيجاد تعريف لماهية الحكم الصالح، فبحث في أنواع الحكم المختلفة وأسباب الاختلاف فيما بينها، وقد عرف نظام الحكم «بأنه تنظيم (Texis) لأعلى مهمات المدينة، وهذه المهمات إما فرداً فتكون ملكية. ويمكن المفاضلة بين أنواع الحكم على أساس البحث عن الغاية التي يتجه إليها نظام الحكم، هل هو لفائدة المجموع أو لفائدة الحاكم فإن كان لفائدة المجموع

فهو حكم صالح، أما إن كان لفائدة الحاكم فهو فاسد». [٨٠] وهكذا، فإن عملية المفاضلة عند أرسطو تقوم على أساس تفضيل حكم على حكم انطلاقاً من فلسفته العضوية التي ترى أن صالح الكل ينبغي أن يتقدم على صالح الأجزاء، ولكن هذا لا يعني القبول بالمبدأ الديمقراطي لاعتقاده «أن الديمقراطية دائماً تنحدر إلى نوع من أنواع الديكتاتورية إما الجماعية أو الفردية». [٨١]

مما سبق، يتضح أن «أرسطو» عمل على تصنيف أشكال الحكم، ففي حين تسمى الحكومات الصالحة ملكية أو ارستقراطية أو «بوليتيا» (الديمقراطية المعتدلة) ، أما الفاسدة فهي الطغيان والاوليغاركية والديماغوجية (الديمقراطية الفاسدة) ، ولا يختار «أرسطو» حكماً معيناً ليكون أصلح هذه الحكومات، لأن لكل منها حسناته وسيئاته، وكل منها يصلح لظروف معينة. ولكي يكون «أرسطو» بعيداً عن المواقف الضبابية، فقد رأى أن أفضل أشكال الحكم هو حكم الأكثرية الصالحة، لأن رأي الأكثرية خير من رأي الأقلية، والفساد يصيب الفرد أسرع مما يصيب الكثرة لذلك «انتهى إلى دستور وسط بين الأرستقراطية والديمقراطية هو الذي يسمى بالبوليتيا [الديمقراطية المعتدلة]». [٨٢] ومسوِّغ ذلك عنده أن هذا النوع من الحكم أنه يولي الحكم للطبقة المتوسطة؛ فيتفادى حكم الأغنياء والفقراء على حد سواء، وهذا الأمر يكسب الدولة «الفضيلة» وهي بدورها «وسط بين رذيلتين». [٨٣] كما أن لأرسطو إيماناً نسبياً بقيمة الأكثرية «فالجمهور، مع أنه يمكن أن لا يتكون من أناس طيبين [افرادياً]، فإنه، مع ذلك، يمكن له، مجتمعاً، أن يملك تفوقاً جماعياً». [٨٤]

يهدف بحث «أرسطو» في الديمقراطية المعتدلة للوصول لمرحلة الاكتفاء بوجود الحكم الصالح القادر على حماية الفقير من الاضطهاد والغني من المصادرة. وعليه، فقد كان «أرسطو» على قناعة أن الطبقة الوسطى قادرة على الحكم على نحو أفضل في سبيل مصالح الجميع.

عند دعوة «أرسطو» لإقامة النظام المختلط الجامع، ركز على محاور عدة أهمها المحور القانوني الذي ذهب إلى ضرورة وجود قانون أعلى يتم تسيّر الجماعة على أساسه، وضمان ذلك وجود الدستور الضامن للفكرة العاقلة في المجتمع المتجسد فيه. ولهذا، فإن مصدر السيادة للقانون، وليس للحاكم، ذلك أن الحاكم بالضرورة واقع في الانحراف، أما القانون فيبقى الحقيقة الوحيدة المجردة عن ذلك، ولو بصورة منقوصة، فهو لم ينزه القانون عن الخطأ والفساد بشكل كامل، ولكنه يبقى الضمانة الوحيدة للوصول إلى الأقل فساداً. [٨٥]

ولكن ما سبق، لم يجعل «أرسطو» يقدس هذا النوع من الحكم الذي أسس له بنفسه إلى ما لا نهاية، بل وضع المحاذير التي تفسده حيث يرى أن الديمقراطية المعتدلة قد تفسد إذا

تركزت الثروة في يد مجموعة قليلة من الأغنياء الذين يرفضون اشتراك غيرهم معهم في الحكم، أو عندما تميل إلى الطرف الآخر، وهو الديمقراطية المتطرفة. (٨٦) كما أن أسوأ أنواع الديمقراطية هي الديمقراطية التي يتولى القيادة فيها كل من «هب ودب»، وتصبح فيها إرادة العامة فوق القانون عندها نصبح أمام استبداد ديمقراطي بدل أن يكون فردياً يصبح جماعياً بشكل من الأشكال السلطوية ذات البعد القمعي. ولهذا فإنه يرى أن اعتبار الناس سواسية أمر مبالغ فيه، ولا ينبغي أن يعد صحيحاً «إذ من المحال أن نسوي بين العالم وبين الجاهل، بين الخلاق المبدع وبين الكسول، بين الشجاع وبين الجبان، [بين]من يسعَى إلى خدمة الجميع وبين من لا يراعي إلا مصلحته الخاصة». (٨٧)

بينما (**سبينوزا ١٦٣٢ – ١٦٧٧م**) ، فيرى من خلال مطولته رسالة في اللاهوت والسياسة، (٨٨) أنه يمكن وجود مجتمع إنساني دون أدنى تعارض مع حق الفرد الطبيعي والمدني في الحكم، وذلك من خلال احترام كل عقد احتراماً كاملاً «هذا الشرط هو أنه يجب على كل فرد أن يفوض إلى المجتمع كل ما له من السلطة المطلقة في إعطاء الأوامر التي يتعين على كل فرد أن يعطيها إما بمحض اختياره، وإما خوفاً من العقاب الشديد، ويسمى نظام المجتمع الذي يتحقق على هذا النحو بالديمقراطية». (٨٩)

هنا يرى «سبينوزا» في أخذ هذا المنحى مسوّغاً لتشكيل مقومات الدولة حتى لو لم تكن ذات تكامل في صلاحيتها ما دامت تمثل «العقل والمجتمع»، فهو يرى أن أفضل مجتمع هو أقربها إلى الطبيعة، وبما أن هدف المجتمع تحقيق الحرية، فإن تحقيقها يجب أن يتم بالطرق الطبيعية، وأن الدولة يجب أن تكون قوية وممثلة للقوة، وإن أساءت استعمال سلطتها. (٩٠) كما أنه لا يوجد من استطاع الاستمرار في الحكم إلى ما لا نهاية عن طريق العنف، ولهذا فإن تناقض القرارات المضطربة في نظام الحكم الديمقراطي تحديداً، وذلك حسب وجهة نظر «سبينوزا»، يعود إلى سببين: «أولهما، أنه يكاد يكون من المستحيل أن يتفق أغلبية الناس داخل مجتمع كبير على أمر ممتنع، وثانيهما، أن الغاية التي ترمي إليها الديمقراطية والمبدأ الذي تقوم عليه هو تخليص الناس من سيطرة الشهوة العمياء والإبقاء عليهم بقدر الإمكان في حدود العقل بحيث يعيشون في وئام وسلام، فإذا خضع هذا الأساس انهار البناء كله، فعلى عاتق الحاكم وحده تقع مهمة المحافظة على هذا المبدأ، وعلى الرعايا تنفيذ أوامره، وألا يعترفون بقانون إلا ما نسبه الحاكم». (٩١) مستدركاً استجلاب العبودية المقنعة فيما طرح يرى ضرورة السير على خط فاصل دقيق ما بين الحرية والعبودية، ذلك أن الدولة تراعي مصلحة الشعب كله، ولهذا فإن طاعة الحاكم لا تعدُّ عبودية «فأكثر الدول حرية تلك التي تعتمد قوانينها على العقل السليم ففي مثل هذه الدولة يستطيع كل فرد، إذا أراد، أن يكون حراً أن يعيش بمحض اختياره وفقاً للعقل». (٩٢)

إن تمسك «سبينوزا» بالمنطلقات الطبيعية يأتي نتيجة رفضه للفكرة اللاهوتية، ومدى ارتباطها بالدولة. يظهر ذلك من خلال نظرته إلى الإشكاليات التي تسود في الدولة، وذلك من خلال ربط المشكلة الدينية والمشكلة السياسية على أساس أنهما وجهان لمشكلة واحدة. واستناداً إلى ذلك يركز «سبينوزا» في فكره على أن «المهمة هي طرد الخوف والبغضاء ورد العقل إلى الأرض». (٩٣)

ومن خلال الجدل بين الدين والسياسة، فإنه يقف بوجه سيطرة الكنيسة إلى جانب الحكام ويعطيهم سلطات واسعة جداً، ولكن هذا ليس موقفه النهائي فهو واقع بين الاختيار بين سيطرة الملوك والكنيسة، مفضلاً الأولى، ولكن هذا لا يعني قبوله للحكم الملكي، يظهر ذلك من خلال قوله عن الملكية «يلمس المرء كم هو مضر بالشعب الذي لم يعتد قط على السلطة الملكية، والذي يملك دستوراً أن يحكم حكماً ملكياً». (٩٤) ولكن بما أن الأمر يدور حول المفاضلة، فإنه رغم انتقاده للحكم الملكي فإنه يرى أنه الأفضل كأمر واقع، وفي الوقت نفسه يرى في الحكم الديمقراطي «الأقرب إلى الحالة الطبيعية» التي انطلق منها في البداية. (٩٥)

والسؤال هنا، في ما يتعلق «بسبينوزا» هل هو ملكي أو ديمقراطي؟ يبدو أنه كان يسعى إلى الوصول للحكم الديمقراطي، ولكنه في الوقت نفسه، كان أمام خيارات المرحلة القائمة في عصره، وبالتالي عمل على اختيار النمط الملكي في الحكم مع وقوف جلي ضد الدين في الحكم، وهذا الأمر تجسد في وقوفه ضد الكنيسة وبما تحمل من أفكار. «سبينوزا» هنا يمهد للتأطير لملامح العلمانية التي اجتاحت أوروبا مؤسساً لمرحلة تقوم على إقصاء الكنيسة/ الدين، وتعزيز مبدأ فصل الدين عن السياسة/ الدولة.

الديمقراطية تُعَرفْ بدقة، والحديث «لسبينوزا»، «هي اتحاد الناس في جماعة لها حق مطلق على كل ما في قدرتها، وتترتب على ذلك النتيجة القائلة أن الحاكم لا يلتزم بأي قانون، ويجب على الجميع في كل شيء، لأنهم قد فوضوا له بموجب عقد صريح أو ضمني كل قدرة كانت لديهم على المحافظة على أنفسهم أي حقهم الطبيعي»، (٩٦) وفي الاتجاه ذاته، الديمقراطية تمثل النظام الأقل بعداً عن الحرية والمساواة الطبيعيتين، لأن كل فرد ينقل حقه الطبيعي لأغلبية المجتمع الذي يشكل في حد ذاته جزءاً منه، إن الجميع يبقون إذن متساوين كما كانوا سابقاً في الحالة الطبيعية. (٩٧)

إن نظرية الديمقراطية كما بلورها «سبينوزا» نابعة من منطلق تطورها الأساس من خلال إجراء عملية التقاء بين السلطة والحرية. (٩٨) من ناحية كون الديمقراطية بوصفها الحالة الأصلية للعلاقات بين الناس (٩٩) ، فالديمقراطية كأحد أشكال الحكم المفضلة لدى

«سبينوزا» نابع من قوة الكل وإرادتهم مجتمعين تحل من خلال الاتحاد الاجتماعي محل قوة كل فرد وشهيته. ويعود هذا الأمر إلى أن النظام الديمقراطي لا يفوض أي فرد حقه الطبيعي إلى فرد آخر بحيث لا يستشار بعد ذلك في شيء، بل يفوضه إلى الغالبية العظمى من المجتمع الذي يؤلف هو ذاته جزءاً منه، وفيه يتساوى الأفراد كما كان الحال من قبل في الحالة الطبيعية. (١٠٠)

وعليه، لقد عبُنيت فلسفة «سبينوزا» على مبدأ القبول بالنظام الديمقراطي لأنها تعبر عن رغبته وهدفه «وهو بيان أهمية الحرية في الدولة». (١٠١) لأن المفاضلة بين أنظمة الحكم خاضعة لمقدار إعادة البحث عن شروط الحرية في كل نمط من أنماط الدولة. (١٠٢)

أما (**جون ستيورات مل ١٨٠٦ - ١٨٧٣**) ، فقد قدم مقاربة بين السلطة والحرية المدنية، والاجتماعية حيث حالة المواءمة القائمة على أن طبيعة السلطة تمارس من قبل المجتمع شرعاً على أن يمارسها في حق الفرد وحدود هذه السلطة. (١٠٣) كما أن الغاية اليتيمة التي تتيح للناس التعرض بصفة فردية أو جماعية لحرية الفرد هي حماية أنفسهم منه، «فإن الغاية الوحيدة التي تبرر ممارسة السلطة على أي عضو من أعضاء أي مجتمع متمدن ضد رغبته هي منع الفرد من الأضرار بغيره». (١٠٤)

يطرح «مل» مبادئ تمثل صميم موطن الحرية الإنسانية، وهي تشمل: «المجال الداخلي للوعي وهذا يقتضي حرية العقيدة في أوسع معنى لها، وحرية الفكر والشعور، وحرية الرأي، والميول في جميع الموضوعات، عملية أو علمية، مادية أو أدبية، دينية، أو دنيوية». (١٠٥) يأتي ذلك انطلاقاً من أن أي مجتمع لا يمكن أن ينعم بالحرية دون أن يكفل مجموع الحريات العامة من التجمع المشروط، وحتى حرية الأذواق والمشارب ...الخ على أن لا تنال الآخرين بضرر، حتى لو اختلفوا في الاعتقاد، بأن هذه الحرية تتصف بالسخف أو الخطأ ما دامت لا تضيرهم.

وعليه، فالحرية تعني في جوهرها إطلاق العنان للناس ليحققوا خيرهم بالطريقة التي يرونها، طالما لا يحاولون حرمان الآخرين من مصالحهم، أو لا يعوقون جهودهم لتحقيق تلك المصالح، فكل فرد يعدّ أصلح رقيب على ثروته الخاصة لتحقيق تلك المصالح، سواء أكانت هذه الثروة جسمانية، أم فكرية، أم روحية، وتستفيد الإنسانية من ترك الأفراد أحراراً يعيشون في الدنيا على اختيارهم، وحسب مشيئتهم، أكثر مما تستفيد من إرغام كل فرد على أن يعيش وفقاً لما يراه غيره. (١٠٦)

يؤسس «مل» للحديث عن الليبرالية (١٠٧) التي مهد لمزاوجتها بالديمقراطية لاحقاً، عند حديثه عن الأنظمة الديمقراطية حيث يرى أن القائمين على السلطة جاءوا كوكلاء عن

الشعب تمثل إرادتهم فترة حكمهم، وللشعب حق عزلهم متى شاءوا، وغياب الاستبداد يتطلب توحيد إرادة الحاكم بإرادة المحكومين، لكن هذه الحالة المثالية غير واردة على أرض الواقع، فالحقيقة أن السلطة لا تمثل الإرادة العامة، وإنما تمثل إرادة الأكثرية. (١٠٨) وهنا قد تتعرض الأقلية للاستبداد، ولهذا لا بد من توافر الحرية للفرد كعامل متجسد في بنيان الحرية التي تطرح وتمهد للديمقراطية، إن توفرت فيها شروط الحرية المطروحة.

تجدر الإشارة هنا، إلى أن وضع السلطة في يد الشعب غير كاف في رأي «مل» لحماية حريات الأفراد، ولهذا، فهو يقدم نقداً لوضع السلطة بيد الشعب لأنه يرى فارقاً كبيراً بين الحكام والمحكومين، فالحكام يمثلون الأغلبية فقط وليس الشعب كله، والحكومة تمثل الرأي العام للأغلبية التي تطغى على حقوق الأقلية. من هذا المنطلق يرفض «مل» الربط بين إرادة الشعب، وإرادة الأغلبية لما قد يحدث من تجاوزات ضد مصالح الفرد أو الأقلية. هنا الفكرة الأفلاطونية عند «مل»، ولكن مع فارق المسوّغ، فهو يرى أن الشعب قد يميل إلى قهر فصيل منه، وبالتالي فهناك حاجة للاحتياط ضد هذا الميل، وبالقدر نفسه الاحتياط ضد أي إساءة لاستخدام السلطة. (١٠٩)

إضافة إلى ما سبق، فإن «مل» يرفض تدخل السلطة تحت ذرائع مختلفة من باب أنه أفضل للفرد لو تقيد بمتطلبات السلطة، وأن ذلك سيوفر السعادة. وعليه، فالفرد مسؤول عن سلوكه أمام المجتمع هو ما يمس الآخرين، أما تأثر صاحب السلوك نفسه فهو حر، وله حرية مطلقة لا حدود لها، فللفرد سيطرة كاملة على نفسه، وعلى بدنه وعقله. (١١٠) وهنا، حذر «مل» من الانتقاص من حرية الفرد، أو ممارسة وصاية أبوية عليه بوساطة الحكومة، ولهذا يرى «أن مشكلة الحرية تطرح بإلحاح داخل الدولة الديمقراطية ... بقدر ما تزداد الحكومة ديمقراطية بقدر ما ينقص ضمان الحرية الفردية». (١١١)

إن «مل» لا يحبذ سيطرة الدولة على صلاحيات موسعة إلى جانب رفضه لما يسمى بالمجتمع الديمقراطي لانعكاس ذلك بالضرورة على حرية الفرد، وبالتالي وقوعه في الاستبداد الذي ينعكس بصورة سلبية، فقد خلص إلى أن الاستبداد يمثل حالة من الجمود، (١١٢) ولهذا حذر مما يمكن أن يوصف بالحرية في الوقت الذي يلبس الاستبداد في ظل حالة سيطرة الحكومة الديمقراطية الشعبية بالصورة التي قدمها.

وهذا الأمر مثّل مدخلاً لفكر «مل» القائم في أحد جوانبه على الاقتصاد الليبرالي. الذي ربطه بالديمقراطية النيابية التي تمثل تتويجاً سياسياً متطوراً عما سبقه من أنظمة لا تعني بالضرورة المساواة بين الناخبين، بل قدم نظام التمثيل النسبي مع إعطاء وزن انتخابي أكبر للكفاءات، وقد ذهب إلى الاقتراح بأن يضع العمال على وجه التحديد ليصفهم

بالجماهير الجاهلة، وطالب بحرمانهم من حق الانتخاب. وهذا تناقض واضح بين المناداة بالديمقراطية، مع عدم إيمانه بأهم أعمدة الديمقراطية، ولو نظرياً على الأقل، وهو المساواة. ولهذا، وضع شرطاً يتمثل في أنه «من غير اللائق بتاتاً أن يسمح لأي فرد بالاشتراك في الانتخابات ما لم يكن قادراً على الكتابة والقراءة والإلمام بمبادئ الرياضيات»، [١١٣] وهو ما لم يكن متاحاً حينها في أوروبا.

هكذا كان الأمر في نظر الأخر المستلهم عندما قال أحدهم معبراً عن الديمقراطية المبتغاة في الولايات المتحدة كأنموذج: «عندما أذكر العامة أقصد إشراك القسم العاقل منها. أما الجهلة والأجلاف فغير مؤهلين لإصدار أحكام على أساليب الحكم قدر عجزهم عن إدارة دفته». [١١٤] كما نظر للشعب على أنه «وحش هائل» يجب ترويضه، هكذا كان الأمر وما زال، بمعنى أن ديمومة الديمقراطية مرتبط بمقدار خدمة السادة.

وحين يرى «روسو» إن أية ديمقراطية تعطي لنفسها ممثلين هي ديمقراطية اقتربت من نهايتها، وهو الأمر الذي يرفضه (مونتسكيو ١٨٩ _ ١٧٥٥م) ، فإنه يرى بأن كل ديمقراطية بلا ممثلين هي استبداد شعبي سيتجسد لاحقاً «ذلك لأنه يُكّوِن عن الشعب فكرة خاصة جداً تؤكدها هذه الديمقراطيات القديمة، حيث كانت حرية «الرجال الأحرار تشغل مقدمة المسرح تاركة في الظل مختلف الحرفيين والعبيد»، ولهذا لا يحبذ «مونتسكيو» أن تتمثل السلطة بـ «حثالة الشعب». دور الشعب وبهذه المواصفات فإن دور الشعب هو اختيار ممثليه لنفسه ليس إلا، لأن الشعب الدوني إن جاز التعبير عاجز عن التفكير والتقييم. اذن، كيف يستطيع الشعب الحكم بما أنه يمثل غياب العقل تماما؟ [١١٥]

لا تمثل الديمقراطية حالة مثالية عند «مونتسكيو»، ويبني رأيه هذا على فهمه لتاريخ الديمقراطية التي كانت سائدة قديماً، فعند قيام الطبقات التي تمثل تجزئة الشعب، وانعكاس هذا الأمر على دور الناس، وحرمان بعضهم من الانتخاب، حيث يصبح الانتخاب من حق السادة وأن «الإمكانات والثروات هي التي كانت تقترع أكثر مما كان الأشخاص يقترعون». والاقتراع العام حسب الفهم الروماني، ولها ضمن المواصفات السابقة، يمثل «قانون أساسي للديمقراطية»، وفي الوقت نفسه، ما الاقتراع إلا «ميزة أسياد الأرستقراطية للسبب نفسه، وهو أنهم بذاتهم يشكلون عظماءهم الخاصين، ومن دون شك، فإن الوسيلة الأكثر تأكيداً لتأمين استمرار قابلية «طبيعية» جداً هي في إنتاجها بالضبط». [١١٦]

يتقاطع «مونتسكيو» في النظرة العامة للشعب بالمفهوم السلبي الدوني مع «جون ستيورات مل»، وهما يلتقيان إلى حد كبير حول فكرة التمثيل النيابي، ولكن مع حدة أقل عند «مونتسكيو» من «مل». الخشية التي تلاحق «مونتسكيو» هي من سقوط النفوذ

السياسي بين يدي «حثالة الشعب» هذا شرط مسبق عنده في ظل التغيرات الحاضرة في زمنه، عندما لم تعد الديمقراطية تمت إلى الحاضر بصيغة التجربة التي تورثه إياها مع صبغها بلا إنسانية الفضيلة الغائبة. (١١٧)

ما الموقف السابق من الديمقراطية مع توضيح المحاذير تجاهها إلا لتقديم «فكر جديد» لمفهوم الحكم، وآلياته. يأتي ذلك من خلال ما قدمه من معالجة لفصل السلطات، وإن لم يكن «مونتسكيو» أول القائلين بها فهو جهد في تمحيص آراء من سبقوه، ثم عمل على صياغتها صياغة جيدة، وقدمها تقديماً دقيقاً إلى حدّ ارتبط فيه مبدأ فصل السلطات بإسمه. (١١٨)

جاء الطرح «**المونتسكيو**» عندما كان همُّ المنادين بالجمهورية في بريطانيا ينصب على الخروج من سلبية تركيز السلطة؛ ذلك أن النظام الجمهوري الديمقراطي لم يكن واضح المعالم، فهو يبحث عن «مثالية أثينا» مع إيجاد مخارج لحالة الخوف كما قلت سابقاً، من تركز السلطة. ولهذا، أُنشئت الحكومة المختلطة بين الشعب والأرستقراطية والعمل على إيجاد نظام يستطيع نوعاً ما التغلب على النزعة التي يجب تجنبها، والتي تنطلق باتجاه هيمنة القلة أو هيمنة حاكم مستبد، ولكن بسبب صعوبة الحلول لمشكلة تكوين حكومة مختلطة لجمهورية ديمقراطية، فإن الديمقراطيين على الرغم من أنه لا يتوافر لديهم الوضوح الكامل حول ذلك تم استبدال الفكرة السابقة بنمط للحكم بصورة مبتكرة، والتي أبرزها «مونتسكيو»، وهي التي تقوم على الفصل الدستوري والمؤسساتي (مبدأ فصل السلطات) إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وقد جاء ذلك انطلاقاً من أنه عند تركز السلطات الثلاث في مركز واحد فذلك يمثل جوهر الطغيان بذاته. ولهذا، يجب وضعها في مؤسسات منفصلة كل منها تقوم بوظيفة مراقبة السلطتين الآخيرتين. (١١٩)

يبرهن «**مونتسكيو**» **على الأمر السابق بقوله**: «إن الحرية السياسية لا يمكن ضمانها إلا في الحكومات المعتدلة، وفي الحكومات المعتدله لا تتحقق الحرية السياسية إلا عند عدم إساءة استعمال الحق، وقد أثبتت التجارب أن كل إنسان يتمتع بسلطة يسئ استعمالها بتماديه في استخدامها حتى يجد حدوداً توقفه عن التمادي في الإساءة. إن الفضيلة نفسها بحاجة إلى حدود، وللوصول إلى نقطة عدم إساءة استخدام السلطة يجب أن يقوم النظام على أساس أن السلطة تحد السلطة (Power Arrest Power) ، ولا قيمة للقوانين والقواعد الدستورية إن لم تكن السلطات في أيدي هيئات مستقلة (١٢٠) تحرص كل منها على استعمالها لتحقيق الصالح العام، وليس للصالح الشخصي». (١٢١)

وأما (**ديفيد هيوم ١٧١١- ١٧٧٦**) ، (١٢٢) فقد قدم عبر طرحه «في العقد الابتدائي» وصول الحاكم للحكم إما من خلال الاغتصاب أو الغزو «دون أن يدعي مجرد ادعاء بأنها تستند إلى موافقة عادلة من الشعب، أو إلى خضوع ذلك الشعب خضوعاً اختاره بإرادته»

هذا مبتدأ تشكل الحالة الابتدائية السلطوية كما يراها «هيوم»، وما يأتي على أساس هذا المنطلق لا يشكل علامة فارقة على واقع المحكومين. إذن، ما يمكن وصفه بالحالة الديمقراطية القائمة على تعزيز اغتصاب السلطة لا يعني شيئاً إيجابياً بالضرورة، وبهذا المعنى يقول «هيوم»: وحيث لا تعترض القوة مجرى الحوادث، ويجرى انتخاب، فما حقيقة هذا الانتخاب الذي يهللون له؟ إنه إما التقاء نفر قليل من عظماء الرجال يقضون في الأمر نيابة عن المجموع، ولا يسمحون بصوت يعارض، أو أن يكون غضبة جمهور يضلله رئيس عصابة قد لا يكون معروفاً لأثنى عشر شخصاً من بين ذلك الجمهور كله... أفتكون هذه الانتخابات المهوشة –ومع ذلك فقلما تحدث– من قوة السلطة بحيث تكون الأساس الشرعي الوحيد لكل حكومة ولكل ولاء؟». (١٢٣)

لم يكتفِ «هيوم» بحالة التشريح لمفهوم الحكم وتداخل الاستبداد بالانتخابات كضمانة لاستمراره لكنه نظر باستهجان إلى «السهولة التي يجري فيها حكم الكثرة من قبل القلة» الخضوع الضمني الذي يسلم به المحكومون «مصيرهم لحكامهم»، وهذا دفعه إلى الدهشة والعجب، لأن «القوة تكون دائماً إلى جانب المحكوم». لو أدرك الناس ذلك لانتفضوا وأطاحوا بحكامهم. كما أن «هيوم» خرج باستنتاج مفاده أن الحكومة قائمة على «التحكم بالرأي»، وهو مبدأ عام «ينسحب على أشد الحكومات استبداداً وغالبية الحكومات العسكرية، وكذلك على أكثرها حرية وشعبية». وهنا يرى أن الواقع قائم على أنه كلما كانت الحكومة أكثر «حرية وشعبية» كان من الضروري الاعتماد على رقابة الرأي والسيطرة عليه لضمان الخضوع للحكام. (١٢٤)

يرفض «هيوم» نظرية «لوك» القائمة على «الموافقة الضمنية» كحالة توافقية في الحكم، فهو يرى أن معظم الناس مجبرون على العيش في البلاد التي ولدوا فيها، وهم إذ يدينون بالطاعة لحكوماتهم فإنهم يقومون بذلك بسبب «المنفعة» التي توفرها الحكومة لهم، وهنا يقول «هيوم»: «إن المجتمعات لا تستطيع أن توجد بدون حكومات، ولذلك فالطاعة واجبة، ولكن إذا لم تعد الحكومة نافعة، أي غدت طغياناً لا يطاق، فعندئذ يسقط واجب الطاعة عن المواطن. وتكون الحكومة صالحة أو طالحة تناسباً مع فائدتها للجماعة». (١٢٥)

ولكن هل يمكن تحديد ما طرحه «هيوم» على أرض الواقع؟ هنا يرى (الكسيي ده توكفيل ١٨٠٥– ١٨٥٩) صعوبة تحديد أوجه الاستبداد في الديمقراطية الحديثة، وذلك بسبب تواريها غالباً خلف مقولات العدالة والتحرر وخلف شعارات إلغاء مراكز التسلط التي تطبع الحقب الارستقراطية الغابرة. إن حالة تشكل الاستبداد الجديد من وجهة نظر «توكفيل» في رحم الديمقراطية الحديثة، يتم من خلال تمدد قدرات الدولة الخفية إلى تفاصيل الحياة الفردية، ولهذا نرى أن الدولة باسم المساواة والديمقراطية تصادر

ارادة المواطنين وتهجنهم؛ فتغيب الحرية باسم منبع الحرية (الديمقراطية) . وعليه، نرى أن بذور الاستبداد توجد في ثنايا النظام الديقراطي نفسه، وعليه، لا حدود فاصلة بين النظام الديمقراطي، وأنظمة الاستبداد السابقة. [١٢٦]

الخاتمة- ملاحظات نقدية:

مثلت الديمقراطية وما تزال السؤال الأكثر بحثاً في الماهية حتى الآن، وهو ما لم يتم حسمه بشكل قاطع اعتبارات عدة. لكن في هذا السياق خرج الباحث ببعض التقاطعات حول مفهوم الديمقراطية، ولكن ليس بالتعامل بصورة مطلقة، بقدر ما هي حالة من التلاقي في ظروف معينة، وعبر حقب مختلفة.

عند الحديث عن منبت الديمقراطية المهاد الأول لها في بلاد الإغريق، فإن الحالة هنا لا يبدو عليها صفة المثالية، كما يظن بعضهم، بقدر ما كانت حالة انقلابية على واقع سائد عُبر عنه من خلال حكم الطبقة الأرستقراطية، وهو ما أدى إلى التنازل المظهري لإيجاد مخرج من المأزق الذي كان يلُفَهم، ولكن مع بقاء (الأرستقراطيين) في الحكم بصورة أو بأخرى، فإن مفهوم الشعب المعبر عنه بصورة دونية يظهر بوضوح عند بعض المفكرين. كما أن حق الانتخاب لم يكن من حق غير الأحرار، أو بمعنى أدق، لم يكن إلا من حق الأسياد فلا مكان للعبيد في الاقتراع أو المشاركة السياسية، ولا مكان للنساء ولا أحد يقترع أو يحكم إلا السادة. نحن هنا أمام حكم أرستقراطي بصبغة ديمقراطية، وهو ما كان يبحث عنه أرسطو، وإن بصورة مختلفة نوعاً ما.

بهزيمة أثينا لم تنتهي الديمقراطية لقد انتهت التجربة الديمقراطية باعتزال «صولون» وبشعور «بركليس» بالإحباط. لكن أعلن عن شهادة الوفاة للديمقراطية المباشرة التقليدية بهزيمة أثينا، وبالصراعات مع المدن الأخرى، وبالثورة من قبل العبيد، ظني هنا أنه لا يمكن الحديث عن مجتمع مثالي ضمن هذا الواقع التراجيدي المعبر عنه بالنهايات الجنائزية.

عبر الحقب المختلفة لم يظهر أن عبّر أحد الفلاسفة بالقبول التام والمطلق بالديمقراطية للمحاذير التي ساقوها، كما رأينا، هذا عند الحديث عن الفلاسفة التقليديين، وهو كذلك حال معظم الفلاسفة في العصور اللاحقة. وقد ظهر من فاضل بين الديمقراطية كحالة طبيعية يمكن التعامل معها للخروج من الاستبداد في الغرب كما هو الحال عند «سبينوزا». ولكن حتى المؤطرين لليبرالية الغربية- كما هو الأمر عند «مل» أو «لوك» وغيرهم- ، فإنهم كانوا يبحثون عن شكل جديد للحكم لم يكن سائداً من قبل، ولكن الليبرالية بصفتها المجردة كانت بحاجة لوعاء أو لنقل لإطار أشمل تطعم بها الأفكار الليبرالية الناشئة بها. وهنا، أحييت الديمقراطية من سباتها وألبست النزعة الفردية مع الحرية (مع ما تحمل من إشكالية) والمساواة والعدل، وكل ما في هذا العالم من أوصاف مثالية. ما التزاوج الليبرالي

الديمقراطي إلا حالة من البحث للخروج من المأزق وغطاء لتحقيق المنفعة حسب طرح «مل»، وهنا تلقف النظام الرأسمالي المفاهيم السياسية حيث دمجت بالواقع الاقتصادي لتحقق مشروعه عبر ما أصبح يعرف بالديمقراطية الليبرالية، فهي في ظاهرها تعبر عن المدينة الفاضلة في جوهرها، وحش يبحث عن فريسة. ما الديمقراطية إلا أداة للشرعية، وليست الديمقراطية الشرعية بذاتها، هذا ما تبحث عنه أنظمة الحكم. ولهذا، حتى الأنظمة الشمولية تاريخياً كانت تقدم نفسها على أنها ديمقراطية. وعليه، ما التعريف للديمقراطية إلا حالة من الافتراض الفعلي لكونها على أرض الواقع، وإذا تم الافتراض الجدلي بإمكانية التطبيق، فهل الديمقراطية نظام اجتماعي أو سياسي؟ وهل تحقق الحرية والمساواة والعدل؟ وهل مجرد الخضوع للقوانين يحقق الديمقراطية؟ أوليست معظم الأنظمة الاستبدادية تفرض نفسها باسم القانون؟ لو أن الإيجاب صفة الرد لما ظهر من يتحدث اليوم في الغرب عن ما بعد الليبرالية. (١٢٧)

بقي أن نقول: في هذا الإطار إن عملية حصر الديمقراطية بصندوق الاقتراع، وأنها تشكل حالة من تحقيق العدالة هو أمر بعيد عن الدقة فمهمة الشعب ليست مختصرة باختيار من هو الأفضل من «السادة»، وبعدها ينتهي دورهم. ولهذا لن «يتحقق التحول الديمقراطي عن طريق صندوق الاقتراع إذا لم يقترن بتحول عقلي في صندوق جمجمة الرأس: رأس النخب، كما رأس الجماهير» تمهيداً للتأسيس لعقد سياسي – اجتماعي يشكل الضمانة لتحقيق العدل، وعدم مصادرة الحرية.

تشكل الديمقراطية حالة من تعدد المفاهيم المتضادة وهذا أمر واقع ظهر من المقاربة السابقة، ولكن ليس بسبب التناقض لمجرد كونه كذلك فعلياً فقط، بل لأن حالة البحث المثلى عن ماهية الديمقراطية، وعن الأفضلية لما سوف تكون عليه، هو الذي أحدث حالة من الإرباك حيناً، والجدل في أغلب الأحيان حول ماهية الديمقراطية. ولهذا، يمكن القول: إن الديمقراطية اليوم هي الإطار المتلاقح مع الأفكار الليبرالية التي تطرح تعدد الأحزاب، التي قد تكون هي ذاتها أحزاب مستبدة، ضامنة لتحقيق القانون، والحرية، والعدل، والمساواة مع تحقيق أوسع مشاركة سياسية، ولكنها عاجزة عن المقاومة عند ظهور نظام مستبد يوظف الديمقراطية لخدمة نظامه، وهو ما ينعكس على نظم الحكم مقدماً بعمق حالة الجدل بين الديمقراطية والاستبداد، ذلك أن معظم بقاع المعمورة توسم بأنها مستبدة، وفي الوقت نفسه، تمارس الحالة المظهرية للديمقراطية، وهي أحقية الجميع في الانتخاب، فهل تَجُب الديمقراطية الاستبداد لمجرد تحقيق هذا الشرط من الديمقراطية؟ أم أن الأمر يتجه نحو تغلغل الاستبداد في ثنايا النظام الديمقراطي، كما طرح «توكفيل» الذي رأى هذا التماهي بين التوجهين في أكثر المناطق التي تقدم نفسها على أنها «ديمقراطية»، وهو ما نجده يتعارض مع هذا الطرح على أرض الواقع.

الهوامش:

١. ديفيد هيلد: نماذج الديمقراطية، ترجمة فاضل جتكر، ط١ بغداد- بيروت، معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦، ص٣١ .

٢. جان جاك شوفالييه: تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة المدينة، ترجمة محمد عرب صاصيلا، ط٣، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٥، ص ١٥.

٣. محمد عويضة: الفلسفة السياسية، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، ص ٣_٤.

٤. المرجع السابق، ص ٦.

٥. راجع ثيودور جيانا كوليس: اليونان .. شعبها وأرضها، ترجمة محمد أمين رستم، ط١، القاهرة نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣، ص ١٣٥ _ ١٦٧.

٦. انظر روبرت أ. دال: الديمقراطية ونقادها، ترجمة أحمد أمين الجمل، ط١، القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ٢٠٠٠، ص ٢٩.

٧. عمر عبد الحي: الفكر السياسي في العصور القديمة، ط١، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ص ٦٢.

٨. ديفيد هيلد: مرجع سابق، ص ٣٦ .

٩. سعيد زيداني: مقدمة في الديمقراطية، ط٢، القدس، المركز الفلسطيني لتعميم المعلومات البديلة، ١٩٩٣، ص١٠.

١٠. جان جاك شوفالييه: مرجع سابق، ص ٨١ نقلاً عن جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي.

١١. جان جاك روسو: في العقد الاجتماعي، ذوقان قرقوط، ط١، بيروت، دار القلم، ١٩٧، ص ١٢٠.

١٢. عبد المعطي محمد عساف: مقدمة إلى علم السياسة، ط٢، عمان، دار مجدلاوي، ١٩٨٧، ص ٨١.

١٣. اسماعيل صبري عبد الله: «الديمقراطية داخل الاحزاب الوطنية وفيما بينها»، مجلة المستقبل العربي، عدد ٦٤، ١٩٨٤، ص ١٥٧ _ ١٥٨.

١٤. احمد جمال: دراسات في الفلسفة السياسية، ط١، الأردن، دار الكندي للنشر، [د.ت]، ص٢٤٢.

١٥. سعيد زيداني [وآخرون]: مرجع سابق، بحث عادل سماره، ص ١١.

١٦. انظر ثيودور جيانا كوليس: مرجع سابق، ص ١٥٧ _ ١٥٨.

١٧. عارف عادل مرشد: «الديمقراطية، مفهومها، نشأتها، مقوماتها»، المجلة الثقافية، عدد ٧٠، ٢٠٠٧، ص ٩١.

١٨. ثيودور جيانا كوليس: مرجع سابق، ١٥٨.

١٩. انظر عبد الإله بلقزيز: العنف والديمقراطية، ط٢، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠، ص ٦٣؛ وحسن ظاظا: التطور التاريخي للديمقراطية، ط١ دمشق: دار الرؤية، ٢٠٠٧، ص ٧٥.

٢٠. محمد زيعور: تطور الفكر السلطوي (العلمانية، الإسلام، الماركسية) ، ط١، بيروت، رشاد برس، ٢٠٠٣، ص ٥١.

٢١. المرجع السابق، ص ١٥.

٢٢. المرجع السابق، ص ١٤.

٢٣. المرجع السابق، ص ١٤.

٢٤. راجع هنري أرفون: الفوضوية، ترجمة هنري زغيب، ط١، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٣.

٢٥. منذر الشاوي: الدولة الديمقراطية في الفلسفة السياسية والقانونية، ط١، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠٠٠، ص١٧.

٢٦. المرجع السابق، ص ٢٠.

٢٧. أحمد جمال: مرجع سابق، ص ٢٣٧.

٢٨. منذر الشاوي: مرجع سابق، ص ٤١.

٢٩. المرجع السابق، ص ٣٦.

٣٠. زكريا إبراهيم: مشكلة الحرية، ط١، القاهرة، مكتبة مصر، [د.ت]، ص) ١٨؛ وللإطلاع على رؤية اليونان للحرية انظر محمود مراد: الحرية في الفلسفة اليونانية، ط١، مصر_ الإسكندرية، دار الوفاء للنشر، ٢٠٠٠.

٣١. جان توشار: مرجع سابق، ص ٣٧ .

٣٢. ناظم عبد الواحد الجاسور: موسوعة علم السياسة، ط١، عمان، دار مجدلاوي، ٢٠٠٤،ص١٩٧ .

٣٣. جان جاك روسو: مرجع سابق، ص ١١٦.

٣٤. انظر نعوم تشومسكي [واخرون]: العولمة والإرهاب «حرب امريكا على العالم»، ترجمة حمزة المزيني، ط ١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣، بحث تيم وايز: تعريف الديمقراطية، ص ٢٠٣ .

٣٥. جمال علي زهران: الأصول الديمقراطية والإصلاح السياسي، ط١، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥، ص ٣٩.

٣٦. _ _: المعجم الفلسفي، ط١، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٩، ص ٨٦.

٣٧. عبد المنعم الحنفي: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠، ص٣٥٧.

٣٨. جمال علي زهران: مرجع سابق، ص ٣٥.

٣٩. أ . دال: مرجع سابق، ص ١٧.

٤٠. أحمد جمال: مرجع سابق، ٢٣٨.

٤١. ديفيد هيلد: مرجع سابق، ص ٣٧.

٤٢. سعد الدين إبراهيم (وآخرون) : أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، بحث علي الدين هلال: مفاهيم الديمقراطية في الفكر السياسي الحديث، ص ٣٨ _ ٣٩، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

٤٣. ديفيد هيلد: مرجع سابق، ص٣١ _ ٣٢ .

٤٤. محمد سليم غزوي: مرجع سابق، ص ٥٥ _٦٦.

٤٥. فايز الربيع: الديمقراطية بين التأصيل الفكري والمقاربة السياسية، ط١، عمان، دار الحامد للنشر، ٢٠٠٤، ص ٣٢.

٤٦. عبد المعطي محمد عساف: مرجع سابق، ص ٨٣.

٤٧. ناظمم الجاسور: مرجع سابق، ص ١٩٨.

٤٨. محمد سليم غزوي: مرجع سابق، ص ٩ نقلا عن
Encyclopedia Britannica, V7. U.S.A. 1973.P215 _224

٤٩. ديفيد هيلد: مرجع سابق، ص ١٣٦ _١٣٧.

٥٠. سعيد زيداني [وآخرون]: مرجع سابق، ص ٥، تجدر الإشارة هنا إلى أن زيداني تراجع عن تحديد تعريف للديمقراطية الليبرالية في موضع اخر حيث يقول: «لست بحاجة هنا

[عند بداية حديثة عن الديمقراطية الليبرالية] إلى إعطاء تعريف للديمقراطية الليبرالية، ولست متأكداً أن هناك تعريفاً واحداً يمكن الالتقاء حوله أو الاتفاق عليه. الديمقراطية الليبرالية كنظام حكم للحكم تعرف من خلال بعض سماتها الأساسية». انظر علي خليفة الكوري[وآخرون]: المسألة الديمقراطية في الوطن العربي، بحث سعيد زيداني: إطلالة على الديمقراطية الليبرالية، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ص ٦٣.

٥١. فايز الربيع: مرجع سابق، ص ٣٢ _ ٣٣، قارن صلاح الدين الدومة: آصرة للقضايا الدولية المعاصرة، ط١، الخرطوم، مطبعة جي تاون، ٢٠٠٧ ص ١٨ .

٥٢. فايز الربيع: مرجع سابق، ص ٣٣.

٥٣. ديفيد هيلد: مرجع سابق، ص٢٢٧.

٥٤. سعد الدين إبراهيم [واخرون]: مرجع سابق، بحث علي الدين هلال: مفاهيم الديمقراطية، ص ٣٩.

٥٥. منذر الشاوي: مرجع سابق، ص١٤١ _ ١٤٦.

٥٦. رفيق عبد السلام: في العلمانية والدين والديمقراطية «والمفاهيم والسياقات»، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨، ص ١٥٣.

٥٧. ـــــ: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص ٨٦.

٥٨. مارك فلورباييه: الرأسمالية أم الديمقراطية خيار القرن الواحد والعشرين، ترجمة عاطف المولى، ط١، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٧، ص ٥٠ _ ٥١.

٥٩. روبرت أ. دال: مرجع سابق، ص ٣٨.

٦٠. عارف عادل مرشد: مرجع سابق، ص ٩٠.

٦١. أحمد الفقرة: الديمقراطية بين الوهم والحقيقة، ط١،[د.م]، نور للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص ١٧.

٦٢. احمد قطامش: «سؤال الديمقراطية: مقاربة»، مجلة كنعان، العدد ١١٤، ٢٠٠٣، ص ٢.

٦٣. راجع حيدر إبراهيم علي[وآخرون]: الديمقراطية في السودان البعد التاريخي والوضع الراهن وآفاق المستقبل، ط١، القاهرة، مركز الدراسات السودانية، ١٩٩٣، ص ١٨.

٦٤. سعد الدين إبراهيم [وآخرون]: مرجع سابق، بحث بسام الطيبي: البناء الاقتصادي الاجتماعي للديمقراطية، ص ٧٣.

٦٥. حسن ظاظا: مرجع سابق، ص ٩ .

٦٦. تكون الليبرالية متوحشة بقدر ما تنظر إلى الحرية الفردية في الحياة الاجتماعية من منظور شريعة الغاب انطلاقاً من الفكرة القائلة بأن الإنسان ذئب على الإنسان، حسب تعبير توماس هوبز، ولهذا يخشى كثير من المفكرين من الاتجاه الذي تسعى اليه الليبرالية الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية أن تسير فيه، وأن يؤدي هذا إلى نوع من الليبرالية المتوحشة، لأنه بتقليص تدخل الدولة وتضييق نطاق المجال العام يحيل الأفراد على قانون السوق والتغالب الذي يقسم الناس بقساوة إلى أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء. ومن هنا، تنبع الأهمية البالغة لطرح مبدأ التضامن من داخل الليبرالية رداً على تفسير الليبرالية المتوحشة التي لا يرى فيها سوى الأنانية، والتفاوت، والمال، والاستهلاك. أنظر ناصيف نصار: باب الحرية ابثاق الوجود بالفعل، ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٣، ص٢٢٢ _ ٢٢٣.

٦٧. برتراند رسل: حكمة الغرب «عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الإجتماعي السياسي»، ترجمة فؤاد زكريا، ج١، ط٢، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، ٢٠٠٩، ص ٩٩.

٦٨. أي . اف. ستون: محاكمة سقراط، ترجمة نسيم مجلي، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢، ص ٧.

٦٩. المرجع السابق، ص ٨.

٧٠. محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي «الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون»، ط٥، ج١، الإسكندرية_ مصر، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٣، ص ٢٦٢.

٧١. المرجع السابق، ص ٢٦٣.

٧٢. جان توشار: مرجع سابق، ص ٥١ .

٧٣. محمد عويضة: مرجع سابق، ص ٢٠.

٧٤. دولة خضر خنافر: في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية، ط١، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥، ص ٣٨.

٧٥. المرجع السابق: ص٣٩.

٧٦. أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز، ط١، [د.م]، دار الكاتب العربي، [د.ت]، ص٣٤١.

٧٧. ـــــ: موسوعة العلوم السياسية، ط١، الكويت، [د.ن]، ١٩٩٣/ ١٩٩٤، ص ٣٨٩ .

٧٨. محمد علي أبو ريان: مرجع سابق، ص ٢٥٢.

٧٩. المرجع السابق، ص ٢٦٣.

٨٠. محمد عويضة: مرجع سابق، ص ٨٤ .

٨١. عارف عادل مرشد: مرجع سابق، ص ٩١.

٨٢. جلين تيندر: الفكر السياسي «الأسئلة الأبدية»، ترجمة محمد غنيم، ط١، القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ١٩٩٣، ص ١٤٦.

٨٣. محمد عويضة: مرجع سابق، ص ٨٥.

٨٤. عبد المعطي محمد عساف: مرجع سابق، ص ٨٠؛ قارن جان توشار: مرجع سابق، ص ٦٦.

٨٥. عبد المعطي عساف: مرجع سابق، ص ٨٠ .

٨٦. محمد عويضة: مرجع سابق، ٨٥ .

٨٧. المرجع السابق، ص ١٠٣.

٨٨. انظر سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، ط١، مصر، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

٨٩. المرجع السابق، ص٣٨٢.

٩٠. فاضل الأنصاري: قصة الاستبداد أنظمة الغلبة في تاريخ المنطقة العربية، ط١،سوريا،وزارة الثقافة، ٢٠٠٤،ص ١٤.

٩١. سبينوزا: مرجع سابق، ص ٣٨٣ _ ٣٨٤ .

٩٢. المرجع السابق، ص ٣٨٤ .

٩٣. جان توشار: مرجع سابق، ص ٥٢١ .

٩٤. المرجع السابق، ٥٢٢ .

٩٥. المرجع السابق، ص ٥٢٣ .

٩٦. سبينوزا: مرجع سابق، ص ٣٨٢ _ ٣٨٣ .

٩٧. جان جاك شوفالييه: مرجع سابق، ص ٣٦٣؛ قارن سبينوزا: مرجع سابق، ص ٣٨٢ .

٩٨. جان جاك شوفالييه: المرجع السابق، ص ٣٦٤ .

٩٩. بيار مورو: إسبينوزا والإسبينوزية، ترجمة جورج كتوره، ط١، بيروت، دار الكتاب المتحدة، ٢٠٠٨، ص ١٠٤.

١٠٠. سبينوزا: مرجع سابق، ص ٣٨٥ .

١٠١. المرجع السابق، ص٣٨٥.

١٠٢. المرجع السابق، ص ١٠٥

١٠٣. جون ستيورات مل: عن الحرية، ترجمة عبد الكريم أحمد، ط١، مصر، جمعية الرعاية المتكاملة، ٢٠٠٠، ص ٥٧.

١٠٤. المرجع السابق، ص ٧٢ .

١٠٥. المرجع السابق، ص ٧٦.

١٠٦. المرجع السابق، ص ٧٧ _ ٧٨ .

١٠٧. انظر جون ستيورات مل: أسس الليبرالية السياسية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

١٠٨. جون ستيورات مل: عن الحرية، مرجع سابق، من مقدمة حسين فوزي النجار، ص٢٤ _ ٢٥ .

١٠٩. ـــــ: موسوعة العلوم السياسية، مرجع سابق، ص ٣٧٠ _ ٣٧١.

١١٠. إمام عبد الفتاح إمام: الطاغية، ط٣، القاهرة، مكتبة مدبولي،١٩٩٧، ص ٣٢١ .

١١١. عبد الله العروي: مفهوم الحرية، ط٥، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣، ص ٤٣ نقلا عن جون ستيورات مل: عن الحرية، ص ٦٢.

١١٢. المرجع السابق، ص ٤٥.

١١٣. ـــ: موسوعة العلوم السياسية، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

١١٤. نعوم تشومسكي: الربح فوق الشعب «الليبرالية الجديدة والنظام العولمي»، ترجمة مازن الحسيني، ط١، رام الله- فلسطين، دار التنوير للترجمة والطباعة والنشر، ٢٠٠٠، ص ٦٠ .

١١٥. لوي ألتوسير: مونتسكيو السياسة والتاريخ، ترجمة نادر ذكرى، ط١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٦، ص٦٢ .

١١٦. المرجع سابق، ص ٦٣ .

١١٧. المرجع سابق، ٦٣ .

١١٨. صلاح الدين الدومة: آصرة للقضايا الدولية المعاصرة، ط١، الخرطوم، مطبعة جي تاون،٢٠٠٧، ص٥١ .

١١٩. روبرت أ. دال: مرجع سابق، ص ٥٣ .

١٢٠. لوي ألتوسير: مرجع سابق، ص ٩٢ _ ٩٣.

١٢١. صلاح الدين الدومة: مرجع سابق، ص ٥٢.

١٢٢. هيوم فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي يعتبر مؤسس المذهب الظاهري في الفلسفة، يعد من أبرز فلاسفة عصرة الذين مارسوا تأثيراً على الفكر السياسي من أهم مؤلفاته ديفيد هيوم: مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٨.

١٢٣. زكي نجيب محمود: ديفيد هيوم، ط١، مصر: دار المعارف، [د.ت]، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

١٢٤. نعوم تشومسكي: الربح فوق الشعب، مرجع سابق، ص ٥٧ _ ٥٨ .

١٢٥. رونالد ستر ومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ١٦٠١ – ١٩٧٧م، ترجمة أحمد الشيباني، ط٣، القاهرة، دار القارئ العربي، ١٩٩٤، ص ٢٢٤ _ ٢٢٥.

١٢٦. رفيق عبد السلام: مرجع سابق، ص ١٥٢ _ ١٥٤.

١٢٧. راجع جون جراي: ما بعد الليبرالية، ترجمة أحمد محمود، ط١،القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥؛ وبيار كالام: تفتت الديمقراطية من أجل ثورة في الحاكمية، ترجمة شوقي الدويهي، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٤؛ وجان ماري جوينو: نهاية الديمقراطية، ترجمة ليلى غانم، ط١، بيروت، دار الأزمنة الحديثة، ١٩٩٨.

المصادر والمراجع:

أولاً- المعاجم والموسوعات:

١. الجاسور، ناظم عبد الواحد: موسوعة علم السياسة، ط١، عمان، دار مجدلاوي، ٢٠٠٤.

٢. الحنفي، عبد المنعم: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠.

٣. ـــــ: المعجم الفلسفي، ط١، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٩.

٤. ـــــ: موسوعة العلوم السياسية، ط١، الكويت، [د.ن]، ١٩٩٣/ ١٩٩٤.

ثانياً- الكتب:

١. إبراهيم، زكريا: مشكلة الحرية، ط١، القاهرة، مكتبة مصر، [د.ت].

٢. إبراهيم، سعد الدين (وآخرون) : أزمة الديمقراطية في الوطن العربي، ط٢، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧.

٣. أبو ريان، محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي «الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون»، ط٥، ج١، الإسكندرية– مصر، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٣.

٤. أرفون، هنري: الفوضوية، ترجمة هنري زغيب، ط١، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٣.

٥. أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز، ط١، [د.م]، دار الكاتب العربي، [د.ت].

٦. ألتوسير، لوي: مونتسكيو السياسة والتاريخ، ترجمة نادر ذكرى، ط١، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٦.

٧. إمام، إمام عبد الفتاح: الطاغية، ط٣، القاهرة، مكتبة مدبولي،١٩٩٧.

٨. الأنصاري، فاضل: قصة الاستبداد أنظمة الغلبة في تاريخ المنطقة العربية، ط١، سوريا، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤ .

٩. بالروين، محمد: فلسفة السياسة عند بعض الفلاسفة اليونانيين والإسلاميين وفلاسفة عصر النهضة، ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ٢٠٠٦.

١٠. بلقزيز، عبد الإله: العنف والديمقراطية، ط٢، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠.

١١. تيندر، جلين: الفكر السياسي «الأسئلة الأبدية»، ترجمة محمد مصطفى غنيم، ط١، القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ١٩٩٣.

١٢. توشار، جان: تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة ناجي الدراوشة، ط١ سوريا، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٨٤.

١٣. تشومسكي، نعوم [واخرون]: العولمة والإرهاب «حرب امريكا على العالم»، ترجمة حمزة المزيني، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣.

١٤. تشومسكي، نعوم: الربح فوق الشعب «الليبرالية الجديدة والنظام العولمي»، ترجمة مازن الحسيني، ط١، رام الله_ فلسطين، دار التنوير للترجمة والطباعة والنشر، ٢٠٠٠ .

١٥. جراي، جون: ما بعد الليبرالية، ترجمة أحمد محمود، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥.

١٦. جمال، احمد: دراسات في الفلسفة السياسية، ط١، الأردن، دار الكندي للنشر، [د.ت].

١٧. جوينو، جان ماري: نهاية الديمقراطية، ترجمة ليلى غانم، ط١ بيروت، دار الأزمنة الحديثة، ١٩٩٨.

١٨. خنافر، دولة خضر: في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية، ط١، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥.

١٩. دال، روبرت أ.: الديمقراطية ونقادها، ترجمة احمد أمين الجمل، ط١، القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، ٢٠٠٠.

٢٠. الدومة، صلاح الدين عبد الرحمن: آصرة للقضايا الدولية المعاصرة، ط١، الخرطوم، مطبعة جي تاون، ٢٠٠٧.

٢١. الربيع، فايز: الديمقراطية بين التأصيل الفكري والمقاربة السياسية، ط١، عمان، دار الحامد للنشر، ٢٠٠٤.

٢٢. رسل، برتراند: حكمة الغرب «عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الإجتماعي السياسي»، ترجمة فؤاد زكريا، ج١، ط٢، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، ٢٠٠٩.

٢٣. روبنسن، تشارلز الكسندر (الابن) : أثينا في عهد بركليس، ترجمة أنيس فريحة، ط١، بيروت ـ نيويورك، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

٢٤. روسو، جان جاك: في العقد الاجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط، ط١، بيروت، دار القلم، ١٩٧٣.

٢٥. زهران، جمال علي: الأصول الديمقراطية والإصلاح السياسي، ط١، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.

٢٦. زيداني، سعيد [وآخرون]: مقدمة في الديمقراطية، ط٢، القدس، المركز الفلسطيني لتعميم المعلومات البديلة، ١٩٩٣.

٢٧. زيعور، محمد: تطور الفكر السلطوي (العلمانية ـ الإسلام ـ الماركسية) ، ط١، بيروت، رشاد برس، ٢٠٠٣.

٢٨. سبينوزا، باروخ: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، ط١، مصر، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

٢٩. ستون، أي . اف: محاكمة سقراط، ترجمة نسيم مجلي، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٢.

٣٠. الشاوي، منذر: الدولة الديمقراطية في الفلسفة السياسية والقانونية، ط١، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠٠٠.

٣١. شوفالييه، جان جاك: تاريخ الفكر السياسي من المدينة الدولة إلى الدولة المدينة، ترجمة محمد عرب صاصيلا، ط٣، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٥.

٣٢. ظاظا، حسن: التطور التاريخي للديمقراطية، ط١ دمشق، دار الرؤية، ٢٠٠٧.

٣٣. عبد الحي، عمر: الفكر السياسي في العصور القديمة، ط١، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠١.

٣٤. عبد السلام، رفيق: في العلمانية والدين والديمقراطية « والمفاهيم والسياقات»، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٨.

٣٥. العروي، عبد الله: مفهوم الحرية، ط٥، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣.

٣٦. عساف، عبد المعطي محمد: مقدمة إلى علم السياسة، ط٢، عمان، دار مجدلاوي، ١٩٨٧.

٣٧. علي، حيدر إبراهيم [وآخرون]: الديمقراطية في السودان البعد التاريخي والوضع الراهن وآفاق المستقبل، ط١، القاهرة، مركز الدراسات السودانية، ١٩٩٣.

٣٨. عويضة، محمد: الفلسفة السياسية، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

٣٩. غزوي، محمد سليم: نظرات حول الديمقراطية، ط١، عمان، دار وائل للطباعة والنشر، ٢٠٠٠.

٤٠. الفقرة، أحمد حسن: الديمقراطية بين الوهم والحقيقة، ط١، [د.م]، نور للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.

٤١. فلوربابيه، مارك: الرأسمالية أم الديمقراطية خيار القرن الواحد والعشرين، ترجمة عاطف المولى، ط١، الجزائر، الدار العربية العلوم ناشرون، ٢٠٠٧.

٤٢. كالام، بيار: تفتت الديمقراطية من أجل ثورة في الحاكمية، ترجمة شوقي الدويهي، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٤.

٤٣. الكوري، علي خليفة [وآخرون]: المسألة الديمقراطية فالوطن العربي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

٤٤. كوليس، ثيودور جيانا: اليونان .. شعبها وأرضها، ترجمة محمد أمين رستم، ط١، القاهرة _ نيويورك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٣.

٤٥. محمود، زكي نجيب: ديفيد هيوم، ط١، مصر: دار المعارف، [د.ت].

٤٦. مراد، محمود: الحرية في الفلسفة اليونانية، ط١، مصر_ الإسكندرية، دار الوفاء للنشر، ٢٠٠٠.٤٧ .

٤٨. مل، جون ستيورات: عن الحرية، ترجمة عبد الكريم أحمد، ط١، مصر، جمعية الرعاية المتكاملة، ٢٠٠٠.

٤٩. مل، جون ستيورات: أسس الليبرالية السياسية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط١، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٦.

٥٠. مورو، بيار فرنسوا: إسبينوزا والإسبينوزية، ترجمة جورج كتوره، ط١، بيروت، دار الكتاب المتحدة، ٢٠٠٨.

٥١. نصار، ناصيف: باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٣ .

٥٢. هيلد، ديفيد: نماذج الديمقراطية، ترجمة فاضل جتكر، ط١، بغداد_ بيروت، معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦.

٥٣. هيوم، ديفيد: مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهبة، ط١، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٨ .

٥٤. ومبرج، رونالد ستر: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ١٦٠١ – ١٩٧٧م، ترجمة أحمد الشيباني، ط٣، القاهرة، دار القارئ العربي، ١٩٩٤.

ثالثاً_ الأبحاث:

١. عبد الله، اسماعيل صبري: «الديمقراطية داخل الاحزاب الوطنية وفيما بينها»، مجلة المستقبل العربي، عدد ٦٤، ١٩٨٤.

٢. قطامش، احمد: «سؤال الديمقراطية: مقاربة»، مجلة كنعان، العدد ١١٤، ٢٠٠٣.

٣. مرشد، عارف عادل: «الديمقراطية، مفهومها، نشأتها، مقوماتها»، المجلة الثقافية، عدد ٧٠، ٢٠٠٧.

9. References should follow rules as follows:

   (a) If the reference is a book, then it has to include the author name, book title, translator if any, publisher, place of publication, edition, publication year, page number.

   (b) If the reference is a magazine, then it has to include the author, paper title, magazine name, issue number order by last name of the author.

10. References have to be arranged in alphabetical order by last name of the author.

11. The researcher can use the APA style in documenting scientific and applied topics where he points to the author footnotes.

Guidelines for Authors

The Journal of Al-Quds Open University For Research & Studies Publishes Original research documents and scientific studies for faculty members and researchers in Alquds Open University and other local, Arab, and International universities with special focus on topics that deal with open education and distance learning. The Journal accepts papers offered to scientific conferences.

Researchers who wish to publish their papers are required to abide by the following rules:

1. Papers are accepted int both English and Arabic.
2. each paper should not exceed 30 pages or 8000 words including footnotes and references.
3. Each paper has to add new findings or extra knowledge in its field.
4. Papers have to be on a “CD” or “E-mail” accompanied by three hard copies. Nothing is returnable in either case: published or not.
5. An abstract of 100 to 150 words has to be included. The language of the abstract has to be English if the paper is in Arabic and has to be Arabic if the paper is in English.
6. The paper will be published if it is accepted by at least two revisers. The Journal will appoint the revisers who has the same degree or higher than the researcher himself.
7. The researcher should not include anything personal in his paper.
8. The owner of the published paper will receive five copies of the Journal in which his paper is published.

For Correspondence and Sending Research Use the Following Address:

Chief of the Editorial Board of the Journal of Al-Quds Open University for Research & Studies

Al-Quds Open University

P.O. Box ; 51800

Tel: 02-2984491

Fax: 02-2984492

Email: hsilwadi@qou.edu

Design and Artistic Production:

Graphic Design & Production Department
Scientific Research & Graduate Studies Program

Al-Quds Open University

Tel: 02-2952508

Journal of
Al-Quds Open University
for Research & Studies